موريال ميراك - فايسباخ

عبر جدار النار

أرمينيا - العراق - فلسطين

فريق متميزون

E-BOOK

مصالحات أم صفقات تحت الطاولة؟!

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

عبر جدار النار

أرمينيا – العراق – فلسطين

(مصالحات أم صفقات تحت الطاولة)

موريال ميراك - فايسباخ

عن الكتاب..

كيف شاهد الأطفال المذابح؟ ماذا فعلت بهم؟ بأي مشاعر كبروا وواجهوا الحياة؟ ماذا أورثوا أولادهم؟.. وهل جاء وقت النسيان والغفران؟ لأوَّل مرة، يُبحث العامل النفسي ومدى تأثيره على أجيال بكاملها حيث يؤتى على ذكر التفاصيل الحقيقية لثلاث مجازر، بل ثلاث حروب إبادة..

تناول الكاتبة الأرمنية موريال ميراك فايسباخ في كتابها "عبر جدار النار، ارمينيا- العراق- فلسطين"، الصادر عن "شركة المطبوعات للتوزيع والنشر"، مسألة ما اذا كان في امكان الشعوب التي تقاتلت، أو تم تأليبها بعضها على بعض في ما تمت اثارته وتحريكه من نزاع جغراسي، أن تتوصل الى المصالحة الحقيقية والسلام.

انطلقت الكاتبة من هذا السؤال للبحث عن جواب من خلال ثلاثة نماذج شهدت حروبا ومآسي ومذابح، هي المذبحة الارمنية في العام 1915، والتطهير العرقي للشعب الفلسطيني عام 1948، وحربا اميركا وبريطانيا على العراق عامي 1991 و2003. استندت الكاتبة في بحثها الى تجربتها الشخصية من جهة، او من خلال تاريخ عائلتها الارمنية من جهة اخرى، والى عملها الصحافي الذي امتد لسنوات في منطقة الشرق الاوسط.

تشير الكاتبة الى انها لم تدرك حقيقة مذبحة الأرمن الا بعدما باتت كبيرة، الا ان المذبحة حكمت حياتها وصاغت آفاقها وعملها اللاحق. تقول ان قصدها ان تروي "تجربة التطهير العرقي والابادة الجماعية والحرب من وجهة نظر من كانوا اطفالا حينذاك، وان اوصل طبيعة الاصابة التي عانوها. فمن خلال الالمام بالواقع النفسي العميق على الاطفال، يمكن الآخرين فحسب ان يدركوا كيف يمكن تمرير الاجحاف والحقد والعطش الى الانتقام من جيل الى جيل الى ان يبدو ان لا وجود لأي حل في الافق". في المذبحة الارمنية، احتل الايتام الذين نجوا من القتل دور الشاهد على الفظاعات التي ارتكبت في حق اهلهم وبني قومهم.

لقد استغرق الكثير من الوقت لمعالجة اليتامى الارمن من هول ما اصابهم في مجازر 1915 و1916، التي كانت في حقيقتها حملة ابادة للقضاء على شعب بأكمله. كان الاتراك يجمعون السكان من الرجال والنساء والاطفال، يأخذون كل مجموعة على حدة الى مكان بعيد، فيطلقون النار عليها ويقتلونها كلها. تعترف الكاتبة ان الالوف من الاطفال الارمن يدينون ببقائهم على قيد الحياة الى العطف الانساني الذي لاقوه من السكان الاتراك.

في المذبحة الارمنية يُطرح سؤال: هل يتمكن زعماء ارمينيا وتركيا السياسيون من الوصول الى المصالحة في سبيل مصلحة مستقبل شعبيهم؟ و"هل يمكنهم التعالي على المفهوم الخاطئ لـ"الذنب الجماعي" عن اعمال ارتكبتها قوى سياسية محددة منذ قرن مضى، ويسعون الى اعادة احلال روح التعايش التي وجدت على مدى قرون بين الشعبين قبل الحرب العالمية الاولى"؟، على ما تتساءل الكاتبة.

في تناولها للعراق، تقدم تجربتها الخاصة في الاغاثة خلال حرب العام 1991 بعد غزو الكويت، والصعوبات التي واجهتها في ايصال المساعدات الانسانية الى الاطفال العراقيين، خصوصا من "تلك الجهات الملتزمة الاستمرار في حملة الابادة ضد العراق في اي شكل من الاشكال"، وهي جهات من مراتب عسكرية عليا. تروي الكاتبة كيف ان لجنة العقوبات التابعة لمجلس الامن، التي تدقق في شحنات الاغاثة، منعت مرةً وصول الاقلام المخصصة لتلامذة المدارس العراقية لانها تحوي رصاصا قد يستخدم في انتاج اسلحة الدمار الشامل.

في الانتقال الى القضية الفلسطينية، تتساءل الكاتبة عن مدى امكان التفاؤل بتحقيق السلام، بعد تجربة اوسلو مطلع تسعينات القرن الماضي. فعلى رغم توقيع اتفاقات اوسلو ظلت المسائل الاكثر دقة وتعقيدا بدون حلول: القدس، اللاجئون، المستوطنات، الترتيبات الامنية، الحدود، العلاقات والتعاون مع الجيران الاخرين. لكن الاحداث التي تلت توقيع الاتفاقات لم تكن تسمح بالتفاؤل، حيث شنت اسرائيل حروبا متتابعة في غزة والضفة الغربية، لم تكن اقل وحشية وابادة عما عرفته المجازر الارمنية او المجازر التي ارتكبها الاميركيون والبريطانيون في حرب العراق. لم تكتف اسرائيل بالقتل عبر آلتها العسكرية، بل استكملت هذه العملية بتدمير بيوت الفلسطينيين سعيا الى تهجيرهم بشكل نهائي. شكلت سياسة الابادة ضد الشعب الفلسطيني منهجا اعتمدته اسرائيل لتكريس هيمنتها، ثم طرد ما بقي من الشعب الفلسطيني من ارضه، املا في احلال سكان يهود مكان السكان العرب، بما يسهل لاحقا اقامة الدولة اليهودية الصافية، لذلك يُتوقع ان تشهد ارض فلسطين المزيد من المجازر في مراحل لاحقة من خطة تنفيذ مشروع اسرائيل: دولة يهودية.

تطرح المسائل الثلاث التي اثارتها الكاتبة معضلة السلام ووسائل تحققه. الدرس الاساسي الذي برهنت عليه التجربة هو ان السلام مستحيل التحقق مع الارهاب وعدم الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعوب، وفي ظل سياسة هيمنة القوى الغربية على مصادر الثروة العربية، واستغلال الشعوب العربية لتحقيق مآربها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

إهداءٌ خاص

إلى حبيبتي الجميلة، والزهرة اليانعة النضرة التي نَبَتَت في صحراء قلبي، وبين جدرانه، لتملأه ضيًّا وبهجة.. إلى عينيك الساحرتين أُهدي هذا الكتاب، فلولا وجودكِ وحماسكِ ودعمُكِ الدائم، وتحمُّلكِ لعصبيتي ولحظات يأسي وإحباطي، وتقلباتي المزاجيَّة الأعتى من الأعاصير شدةً وقوة، لِما رأى نور العالمِ حرفًا منه.

شكرًا لله وحمدًا له، لأنَّه رزقني حُبَّكِ، وأهداني إياك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المؤلفة..

وُلدت موريال - ميراك - فايسباخ من أبوين أرمنيين مهاجرين إلى الولايات المتحدة، وعندما كبرت عاشت معظم حياتها في إيطاليا وألمانيا. وقد عملت بنشاط، في الأعوام العشرين الأخيرة، في مجال الصحافة السياسية وتنقّلت كثيراً في أنحاء العالمين العربي والإسلامي. وانخرطت منذ عام 1990 في جهد إنساني لمصلحة الفتية العراقيين ضحايا عاصفة الصحراء، وراقبت العلاقات العربية - الإسرائيلية عن كثب. ويتناول كتابها مسألة هل يمكن الشعوب والأمم، التي تم تأليبها بعضها على بعض في ما تم تحريكه من نزاع جغراسي، أن تتوصل إلى المصالحة الحقيقية والسلام. وقد تناولت مثال المذبحة الأرمنية في 1915 والتطهير العرقي للفلسطينيين منذ 1948 وحربيْ أميركا وبريطانيا على العراق لتعرض لنا الأحداث المأسوية من خلال أعين من كانوا حينذاك أطفالاً، ولتوصل إلينا الوقع الانفعالي والنفسي عليهم وعلى ذريتهم. وتستند حكاياتها إلى تجربتها الشخصية، إن من خلال تاريخ عائلتها وإن من خلال عملها الصحافي على امتداد سنوات كثيرة في الشرق الأوسط.

ويمكن استخدام أحد فصول «الكوميديا الإلهية» لدانتي أليغييري كاستعارة للتحديات التي تواجه الأفراد والأمم الذين سبق لهم أن علقوا في مثل هذا النزاع القاتل: إنه «جدار النار» الذي على الحاج دانتي أن يعبره للدخول إلى الجنة. واستلزمه المرور عبر ألسنة اللهب الشاعرية أن يُطهّر نفسه من حالات الانفعال السابقة التي واجهها في الجحيم، وأن يكتشف سمات الكائن البشري الأخلاقي والكوني؛ وينضم، باجتيازه هذا التطهير الانفعالي، إلى شخصيات سياسية أخرى في إنشاء مجتمع يقوم على العدالة. ويتطلب اجتياز «جدار النار»، إذا ما ترجمناه إلى الوقائع السياسية الراهنة، التخلي عن الحقد والتحامل والجهل التي يغذيها النزاع. وهو يعني مواجهة حقيقة الماضي والاعتراف بالسجل التاريخي بكل وحشيته وتحديد القوى السياسية المسؤولة أساسًا عنه. وعندذاك فحسب تمكن «المسامحة والتغاضي» بروحية سلام «وستفاليا»، وتحديد علاقة جديدة بالكامل بين الأعداء السابقين تستند إلى التزام مشترك لتحسين تقدّم «الآخر». وترسم الكاتبة، بالنظر إلى المبادرات الجديدة الشجاعة التي أطلقها متنازعون في مناطق الأزمة الثلاث، رؤية متفائلة للمستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

شُكر

أودّ أن أتقدّم بالشكر إلى الدكتور فاهاكن ن. دادريان من «مؤسسة زوريان» لمساعدتي في تحديد الكثير من المصادر المهمة، وإلى متحف المذبحة الأرمنية والمؤسسة التابعة له في يريفان لسخائه في الإذن لي باستخدام المادة التوثيقية بما فيها الصور الفوتوغرافية. وقام آرا غازاريانس بتصحيحات حرفية للكلمات التي كتبتها بأحرف لغة أخرى واقتراحات لا تُقدّر بثمن تتعلق بالمحتوى. وأنا شاكرة أيضًا لـ أ. ألتاي أنلتاي من اسطنبول الذي ساعدني في ترجمة الكثير من التعابير التركية. وقرأ شقيقي بوب، الذي نشر منذ سنوات كثيرة كتابًا عن الأرمن في أميركا، مخطوطتي مرّات عدة ورحّبتُ بانتقاداته القاسية الكثيرة وباقتراحاته المثمرة. إلا أنني أبقى مسؤولة وحدي عما فعلته بالمادة وبالاقتراحات التي قدّموها جميعهم. وأتوجه في النهاية بالشكر إلى زوجي مايكل لسعة صدره اللامتناهية ودعمه، وكذلك إلى الكثيرين من الأصدقاء الذين شجّعوني على المضي في هذا المشروع.

هذا الكتاب مُكرّس لذكرى والديّ وجميع أبناء جيليهما، في الأمبراطورية العثمانية أو في أوروبا، الذين سقطوا ضحية دسائس القوى العظمى الجغراسية. وأدعو لكي تصوغ إرادتهم في البقاء وقدرتهم على المسامحة مقاربة زعماء اليوم السياسيين في سعيهم إلى العدالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدّمة

عبر جدار النار

أنا ابنة ليتيمين كلاهما من ضحايا مذبحة الأرمن عام 1915. وعلى رغم أنني لم أدرك ملابسات هذا الواقع إلا عند بلوغي السنّ، فإنه أدى إلى صياغة آفاقي وعملي. وتشكّل الصفحات التالية تبصّرًا في بعض ذلك العمل والنهج الذي أدى إليه.

ولا يُقصد من هذا الكتاب أن يشكّل في النهاية رواية أخرى للأهوال، وأن يسعى، باعتزاز بالنفس، إلى حجز الفاعلين في الدائرة المخصصة لهم في جحيم دانتي. فلا شكّ عندي في أن أولئك المتورطين في مثل هذه الجرائم قد لاقوا بالفعل، أو سيلقون في النهاية، مكافأتهم العادلة أو قصاصهم في العالم الآخر الذي ليس لي بالتأكيد أي تأثير مباشر فيه.

وأنا قصدي مختلف: وهو أن أروي تجربة التطهير العرقي والإبادة الجماعية والحرب من وجهة نظر من كانوا أطفالًا حينذاك، وأن أوصل طبيعة الإصابة التي عانوها. فمن خلال الإلمام بالوقع النفسي العميق على الأطفال يمكن للآخرين فحسب أن يدركوا كيف يمكن تمرير الإجحاف والحقد والعطش إلى الانتقام من جيل إلى جيل إلى أن يبدو أن لا وجود لأي حل في الأفق.

وأنا مقتنعة بأن الحلول موجودة بالفعل، ولكن لا يمكن السعي إليها إلا بوجود تبصّر نفسي مناسب لهذا الطابع الذاتي للمشكلة. فالافتراض مثلًا بإمكان حصول سلام فلسطيني - إسرائيلي سريع يستند إلى ترتيبات معاهدة دولية مفروضة ما، هو أمر ساذج في أفضل الحالات. إذ إن المطلوب ثورة جذرية في التفكير، وتحوّل بعيد المدى في الآفاق الأخلاقية، من شأنهما تعبيد الطريق في اتجاه سلام ممكن، وقد يكون للسبل الثقافية، بما في ذلك الموسيقى العظيمة والشعر، دورٌ تؤديه في ذلك.

ولجأتُ هنا إلى طلب التوجيه من شاعري المفضّل دانتي أليغييري. فقد وفّر دانتي في «الكوميديا الإلهية» الضخمة فهمًا ثاقبًا للعملية التي يمكن من خلالها لمثل هذا التحوّل الانفعالي والأخلاقي أن يحدث. فمع انتهائه من المطهر، وهو النشيد الثاني من هذه الملحمة، يبلغ الشاعر الحاج «جدار النار» الذي عليه، على ما قال له مرشده الثقة فيرجيل وأحد الملائكة الحاضرين، أن يعبره إذا أراد الدخول إلى الجنة. فتملّكه خوف يائس ولم يعد في وسعه التحرّك قط. فقد ذكّرته ألسنة اللهب المشتعلة في شكل مبين جدًّا بالأرواح البائسة التي صادفها في الجحيم والتي دينت بالعذاب الأبدي في النار:

حدّقت بالنار مذعورًا، من فوق يدي المشبوكتين،

وأنا أتصور في وضوح

الأجساد البشرية التي رأيتها تشتعل.

ويؤكّد له فيرجيل أنه ليس عرضة لأي خطر شخصي:

يا بنيَّ، قد يكون وجود هنا للعذاب،

ولكن لا وجود للموت.

ويحُث دانتي على التغلّب على مخاوفه:

دع الخوف جانبًا، إلق بكل خوف جانبًا.

إستدر إلى هذه الناحية، تعال، أدخل ولا تخف.

يعرف دانتي تمام المعرفة، على المستوى العقلي، أن عليه اتباع نصيحة فيرجيل، إلا أنه أصيب على رغم ذلك بالشلل. يطلب منه ذهنه التحرّك، لكن أطرافه لا تستجيب.

فوقفت، مرغمًا، جامدًا في مكاني.

ولم يتحرر انفعاليًّا من الخوف ومن هاجسه بنفسه إلا عندما أبلغه فيرجيل أن حبيبته بياتريس موجودة في الجانب الآخر من جدار النار؛ وأصبح في وسعه الآن التفكير بالـ«آخر» ويمكنه بالتالي الاندفاع مسرعًا في ألسنة اللهب. وهي ألسنة تحرق بالفعل!

ما إن دخلت حتى أمكنني أن ألقي

بجسمي في الزجاج المصهور لأبرّده:

إلى درجة ما كانت النار خارجة على أي قياس.

يواصل فيرجيل مدّه بالراحة الأبوية مؤكّدًا له أن بياتريس على مسافة قريبة:

يبدو لي كأن في وسعي رؤية عينيها.

وهو ما يُمكّن دانتي من مواجهة العذاب ومن الانضمام إلى مرشده السماوي الذي سيقوده إلى الجنة.

ويشكّل هذا الفصل نقطة التحوّل في الكوميديا كلّها. وأقدّمه بمثابة استعارة مناسبة للتحدي الانفعالي الرهيب الذي يعالجه هذا الكتاب والذي يواجه أفرقاء النزاع أفي الشرق الأوسط، أم في أرمينيا وتركيّا. فهم مدعوون، على غرار الشاعر، إلى اسقاط المخاوف المرتبطة بالماضي، وإلى التغلّب على

الانفعالات الوحشية مثل الحقد والغيظ والغطرسة والرغبة في الانتقام، وإلى أن يتجاوزوا فوق ذلك كلّه مناطقيتهم التافهة. فدانتي يتحدّى مواطنيه التخلّي عن ذهنية برج الجرس الذي يصنّفهم كفلورنسيين، أو رومانيين، أو بولونيين واعتناق هويتهم، مواطنين في أمّة.

ويعني عبور «جدار النار» الدخول إلى حيّز أرفع نوعية تحكمه قوانين مختلفة تمامًا. فلا وجود في الجنة بعد الآن للحكم اللاعقلاني الذي يميّز الجحيم حيث ينساق الناس إلى العنف من خلال الشقاق والقتل والاحتيال والرياء والغدر. ولا وجود في الجنة بعد الآن للقواعد الأخلاقية الشكلية المجرّدة، كما في المطهر حيث يتبع الناس قواعد سلوك مقرّرة مفروضة عليهم لمنعهم من الأخذ بعضهم بخناق بعض. أما هناك، في الجنة، فيسود نظام أخلاقي متفوّق مبني على مفهوم المحبة، ويُفهم على أنه متابعة لتطوّر «الآخر». وتقود بياتريس دانتي في رحلة عبر الأجرام السماوية التي تتكشّف بصيغة حوارٍ فكري فكريًّا يكتشف فيه القوانين التي تحكم الكون، ويدرك، من خلال قيامه بذلك، قدراته الذهنية الخاصة على إدراكها. ويفهم دانتي، في عملية الاكتشاف العلمية والذاتية هذه ما يعنيه أن يكون المرء إنسانيًّا. ويتعلّم كيف يجب تنظيم المجتمع الإنساني لتحل فيه العدالة بصفة كونها انعكاسًا للتناغم الإلهي. فالجنة هي حيّز الحكّام العادلين، رجال فضيلة يمارسون سلطتهم السياسية سعيًا إلى الخير العام.

ولما أمكن الحاج قط دخول الجنة من دون رحلته عبر الجحيم والمطهر. وينطبق الأمر نفسه على الخصوم السياسيين الذين هم قيد المعالجة هنا. فعليهم أن يسمعوا الحقيقة مباشرة من أولئك الذين عانوا، في روايات غير مزيفة مستقاة من مصادرها الأصلية. عليهم أن يواجهوا الواقع القاسي الذي عاناه أيتام 1915 الأرمن، والحرمان والألم اللذين حلّا بأطفال العراق جراء سنوات من الحصار وحربين، والظلم الشديد الذي لقي الفلسطينيون قسطهم منه في 1948 وما بعدها.

أضف إلى ذلك أن عليهم عندما يواجهون منفعلين وقائع مثل هذه المآسي التاريخية أن يحددوا أولئك المسؤولين عنها ويسموا الأشياء بأسمائها على غرار ما فعله دانتي. فهل «الأتراك»، على ما يريدنا بعض الأدب المتحيّز أن نصدّقه، هم الذين قتلوا 1,5 مليون أرمني في 1915؟ وهل «الأميركيون» هم الذين كادوا يمحون العراق عن الخارطة؟ وهل «اليهود» أو «الإسرائيليون» هم الذين سعوا إلى إبادة الفلسطينيين وجميع العرب الآخرين؟ فجميع الذين يبتلعون هذه التفسيرات السهلة الملائمة أكثر مما يجب، إنما يجهلون السجل التاريخي الأكثر تعقيدًا ومغايرة بكثير. وعلى ما سأعرضه بالتفصيل في الفصل الأول، فإن المجزرة حرمت والديّ الأرمنيين عائلتيهما، إلا أن أتراكًا

أنقذوهما، وهما طفلان - ليسوا مسؤولين حكوميين/أو منظمات مساعدات إنسانية، بل أتراك عاديون وحسب - هم أناس شاهدوا ما يحدث وتدخّلوا على صعيد فردي محض مخاطرين بتلقي العقاب لمساعدتهم أخاهم الإنسان، وفي هذه الحال اليتيمان الأرمنيان. وعلى المنوال نفسه، تحدى أميركيون في حرب 1991 الآثمة على العراق حكومتهم ونظموا مساعدة إنسانية للأطفال ضحايا تلك الحرب وأطلقوا حملات سياسية للتنديد بنظام بوش لارتكابه جرائم حرب. لا بل، حتى في العدوان الإسرائيلي الأخير على غزّة، وُجد إسرائيليون ومجموعات من المفكرين اليهود في الخارج ممن امتلكوا الشجاعة للجهر بالكلام والتنديد بالحكومة الإسرائيلية لاستغلالها المحرقة كتبرير للمجازر ضد الفلسطينيين.

ولا يوجد، في اختصار، أمر اسمه «الذنب الجماعي». فسياسات الإبادة، مثل تلك التي شهدنا عليها في القرن العشرين، قد صممتها ونظمتها وطبّقتها قوى سياسية يمكن تحديدها في وضوح وقد حازت داعميها الماليين والسياسيين الذي يمكن تحديدهم أيضًا بالدرجة نفسها من الوضوح. وقد حاولتُ هنا أن أوثّق من فعل ماذا بمن بعد مراجعتي المصادر المتوافرة لدى جميع الأطراف.

ويصطدم المرء، في سياق هذه البحث، المرة تلو الأخرى، بنقطة التحوّل تلك في التاريخ الحديث وهي الحرب العالمية الأولى التي يطلق عليها أنصارها اسم «الحرب العظمى». وعظمتها الوحيدة، في رأيي، هي أنها عززت العملية السياسية التي تعطي الهيمنة للتفكير الجغراسي والتلاعب الذي رُبط سابقًا بـ «المناورة الكبرى» بين الأمبراطورية البريطانية وروسيا. وفي ما عدا ذلك فإن الأمر «العظيم» الوحيد في شأن الحرب العالمية الأولى هو الحصيلة الكبرى في الأرواح وفي العلاقات بين الناس. فقد شكّلت كارثة مطلقة لم تؤدِّ إلى ذبح شعوب بأكملها وحسب بل أيضًا إلى إقامة دول صنيعة في الشرق الأوسط، كتلك التي أدّت إليها معاهدة سايكس - بيكو الإنكليزية الفرنسية، وإلى إدامة النزاع. وشكّل العراق واحدة من تلك الدول الصنيعة، والأردن واحدة أخرى. وقد أدت الحرب إلى تفكيك الأمبراطورية العثمانية وتم في هذا السياق حبك مذبحة الأرمن. وسيصبح مصير فلسطين جزءًا وقطعة من لعبة البوكر الأمبريالية هذه التي أعدتها لندن وباريس. وكان المرتكبون الفعليون لكوارث الحرب العالمية الأولى، وما ستولّده من جروح متقيحة دائمة، هم مدولبو السيناريوهات الجغراسية الإنكليز أمثال هالفورد ماكيندر، اللورد (ألفرد) ميلنر، برتراند راسل، هـ. ج. ولز، سيسيل رودس وزملاؤهم في «الطاولة المستديرة».

والطرف المذنب هو الذهن الجغراسي، وهو أسلوب تفكير يتصرّف بالشعوب والأمم كأنها مجرّد أشياء. ويبدو لي هذا الواقع ذا صلة قصوى بالسعي إلى

المصالحة والسلام الدائم بين الأمم والشعوب التي تم تأليبها بعضها على بعض في ما تم تأليفه من نزاعات مفتعلة. ولو أمكن أولئك الذين تمت معاملتهم كالدمى رؤية من هم محرّكو الدمى، وقراءة السيناريو المعدّ لهم، لأمكنهم أن يتوصّلوا إلى قطع الخيوط التي تحرّك أطرافهم. ومن المرحب به، في ضوء ذلك، التطورات الأخيرة في تركيا التي تشير إلى رغبة الشعب التركي في مواجهة السجل التاريخي والتحرر من عبء الذنب الجماعي حيال ما قامت به حكومة تركيا الفتاة في 1915. وأنا أعتقد في قوة أن إمكان إيجاد حل سياسي للمشكلة التركية - الأرمنية بما يرضي الطرفين، سيوفّر دافعًا قويًا للتعامل مع نزاعات مشابهة. ويمكن قول الشيء نفسه عن المداخلات الأخيرة التي قام بها مفكّرون إسرائيليون لفرض فتح نقاش في الملابسات الأكثر عمقًا لأحداث 1948. وتؤدي التشهيرات المستمرة بالدسائس الأنكلو - أميركية تحضيرًا لحربين على العراق وظيفة مشابهة. ويتطلّب العمل في السجل التاريخي وإعادة تحديد علاقة الخصومة مثل هذه الخطوة الشجاعة بالذات إلى «جدار النار» وعبره.

ولا بد من كلمة أخيرة تقال عن المحدوديات الكبرى لهذا الكتاب. فأنا لا أدعي التعاطي مع الإبادة والحرب والتطهير العرقي بصفة كونها كذلك، وتعمّدت أن أحصر مجال هذا العمل بحالات العدوان الثلاث هذه. كانت المذبحة الأرمنية هي الأولى في القرن العشرين، غير أنها، ولسوء الحظ، ليست الأخيرة. فبعدها، وأنا لا أسمي سوى القلة، جاء «الحل النهائي» للمسألة اليهودية على أيدي النازيين (وقد طرح هتلر في 1939 سؤال العارف، «من، في النهاية، يتحدّث اليوم عن إبادة الأرمن؟»)، فقضاء السوفيات على شعوب بأكملها في أوروبا الشرقية، ثم الحالات الأكثر حداثة في كمبوديا في ظل بول بوت، وإبادة التوتسي في رواندا. وإذا لم يعالج الكتاب حالات القتل الجماعي المروعة فلا يمكن ردّ الأمر إلى الإهمال أو عدم الاهتمام أو الازدراء، بل لأنني لا أملك وحسب المادة المباشرة أو المعرفة العميقة المطلوبة لتقديم رواية صادقة للأحداث. ولطالما كان هدفي استخدام تجربتي الشخصية مع هذه الأمثلة الأصيلة الثلاثة - أرمينيا والعراق وفلسطين - للمحاججة في قضية المصالحة. وسأكون شاكرة لو أمكنني أن أقنع قارئي بإعادة التفكير في افتراضاته السابقة في شأن هذه المآسي التاريخية. فأنا أريد أن أقود القارئ إلى «جدار النار» ذلك، وآمل في أن يستجمع القوة الوجدانية لدخوله.

وإذا كنت لجأت، في النهاية، إلى الجواز الشعري فإنني فعلت ذلك حصرًا لمتابعة العدالة الشاعرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

القسم الأول: أرمينيا

الخسارة

يؤدي الأيتام دورًا خاصًّا جدًّا في التاريخ الاجتماعي، وبخاصة أولئك الذين حُرموا أهاليهم عبر صدمة الحرب. وهم يشاركون عن غير قصد في أحداث ذات أهمية تاريخية وغير مجهزين على الاطلاق في حينه لإدراكها. وما يختبرونه هو الأفعال الوحشية الصرف ضد أحبائهم، وهي أفعال لا يجدون لها تفسيرًا عقلانيًا. وليس من شأنهم التفسير أو الإدراك، بل أن يكونوا شهودًا ويكافحوا للبقاء وفوق ذلك كلّه أن يتذكّروا. إنهم أشبه بالممثلين الأساسيين في أرجوزة فريدريتش شيللر طيور رهو إبيكوس The Cranes of Ibykus يعاينون جريمة قتل شنيعة ويعيشون لينتابوا القاتل بجريمته.

وربما أن وزير الداخلية التركية محمد طلعت، الذي أصدر في 1915 أوامر القتل المنهجي ضد الأرمن، لم يقرأ شيللر قط، على رغم أن شركاءه كانوا من محبّي الألمان. وقد اعتقد في البدء، بحسب بعض التقارير، أن الأيتام لا يمكنهم أن يشهدوا على جرائمه. وكتب في توجيه مؤرّخ في 12 كانون الأول/ ديسمبر 1915 يتعلّق بما يجب فعله بالأرمن: «أمسكوا بهم واعتنوا فحسب بالأيتام الذين لن يتمكنوا من تذكّر الفظاعات التي أنزلت بأهاليهم. وأرسلوا الباقين مع القوافل [أي إلى حتفهم]». وبدا بعد شهر من ذلك أنه أعاد النظر في المسألة. واشتكى من أن بعض دور الأيتام تأخذ أولاد «بعض الأشخاص» الذين يعدّون خطرين، وقال بالتالي «إذا تم إطعام هؤلاء الأولاد ومُدِّدت حياتهم، كما لو أن من الواجب السماح للمرء بالتعاطف معهم، فسيتعارض ذلك مع رغبات الحكومة..». ثم أنه أصدر، في 7 آذار/مارس 1916، الأمر التالي: «يجب استخدام حجّة اعتناء إدارة الترحيل بأولاد بعض الأشخاص الذين جمعهم جنود المناطق الخلفية واهتموا بهم، بأوامر من وزارة الحرب، لجمعهم في شكل جماعي من دون إثارة الشكوك والقضاء عليهم. ونحن في انتظار الردّ»(1).

أخطأ طلعت تمامًا في تقديره أن الأيتام لن يتذكّروا. وفشل في قتل الحقيقة، حتى بعدما أعاد النظر في المسألة وقرّر إسكات أولاد «بعض الأشخاص». ولم تظهر حقيقة تلك الأحداث المأسوية إلى النور إلا بفضل روايات الناجين من المذبحة، وبخاصة من أضحوا، على غرار أمي وأبي، أولادًا يتامى في ذلك الحين. وتوثّق ذكرياتِهم، في شكل أكثر إقناعًا، واقعتان تاريخيتان: الأولى هي أن ما ارتُكب ضد الأرمن والذي بلغ ذروته في 1915 يُشكّل إبادة، أي أنه حملة مقصودة للقضاء على شعب بأكمله. والثانية أن «الأتراك» ليسوا المسؤولين بل مجموعات محدّدة من القادة السياسيين في حكومة تركيا الفتاة في الأمبراطورية العثمانية في 1915. فقد أنقذت عائلات تركية الكثيرين ممن

نجوا، بمن فيهم أهلي. وتظهر السجلات التاريخية بدورها أن مشروع تركيا الفتاة برمته يشكّل جزءًا من لعبة جغراسية أكبر نسّقتها القوى العظمى.

إستغرق الكثيرون من اليتامى وقتًا لمعالجة ما قد أصابهم. وبلغ ما كابدوه من صدمات درجة كبيرة من الألم تعاملوا معها من خلال ممارسة ما يسميه علماء النفس بـ«الإزالة»؛ فقد «نسوا» وبحسب التجارب الوحشية لما أمكنهم من الوقت. إلى أن أمكن لحدثٍ معاصرٍ، ليس ذا صلة ظاهرية، أن يثير الذكريات، فاتحًا بوابات السدود وسامحًا بانسياب الذكريات التي سُجنت طي النسيان.

تلك كانت الحال مع أمي. فقد نجحت في كظم كل ذكريات سنواتها الأولى إلا تلك غير المؤذية منها إلى أن اهتز عقلها الباطني فجأة، وفي عنف، جرّاء أحداث الهزة الأرضية العنيفة التي ضربت أرمينيا السوفياتية في 1988. أعادت مشاهد المدنيين اليائسين الهاربين من بيوتهم المدمّرة والتي تعاقبت على شاشات التلفزة في الولايات المتحدة وفي العالم بأسره، صدى مآس مشابهة مؤثّرة بمقدار ما هي غير مكتملة. وما اندلع بعد مدة قصيرة من نزاع في شأن منطقة ناغورنو - قره باخ المتنازع عليها، أظهر من جديد الأرمن في حال من الكفاح. وأدّت صور الحروب الشنيعة التي اندلعت في البلقان بعد ذلك بسنوات كثيرة إلى التلاعب أكثر بنفسيتها مستجلبة كوابيس بغيضة. وبغض النظر عن كون الفتيات اللواتي يتعرضن للاغتصاب والقتل، أو الرجال الذين يُجمعون في الحقول تمهيدًا لإعدامهم من البوسنيين أو من الكرواتيين، فلا لبس قط في الرسالة التي تنقلها صور شاشة التلفاز: يتم ذبح مدنيين أبرياء عالقين في الحرب، فيما يبدو العالم ينظر في الاتجاه المعاكس.

ثم أنني، وفي زيارة لي للديار في 1992، عرضتُ على أهلي بعض شرائح الصور التي التقطناها أنا وزوجي مايكل لأطفال عراقيين ضحايا عاصفة الصحراء. فقد انخرطنا في جهد إغاثة وفّر لهم بعض المساعدة الإنسانية. وأدت هذه الصور في شكل مطلق إلى تحطيم الحاجز النفسي. فقد أخبرتُ أمي قصة صابرين، العراقية ابنة السنوات الأربع التي جرحتها الحرب وصدمتها إلى حدّ كادت تخسر معه لغتها الأم. وخضعت لعلاج في أحد المستشفيات الألمانية واستعادت قدرتها على النطق ولكن بمصطلح جديد. أحدثت قصتها والصور انفجارًا صغيرًا في ذهن أمي فشرعت تخبرني قصصًا عن طفولتها لم يسبق لي أن سمعتها.

بدا كما لو أن والدتي عثرت على مفتاح صندوقها الذهني بعدما أضاعته مدة طويلة، وقد خزنت فيه الصور والرسائل والذكريات. وتشكّل روايتها، وقد شجعتها لاحقًا على وضعها كتابة لمصلحة أحفادها وأولاد أحفادها، وثيقة تاريخية ثمينة - ساذجة، غير مدّعية، جديدة وصريحة كلّيًا.

«وُلدت في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1915، في قرية صغيرة اسمها تساك على مقربة من مدينة أرابكير(2). فوالدي الذي كان بعيدًا في الولايات المتحدة على مدى 15 سنة عاد في 1910 إلى بلده الأم ليكون مع عائلته وربما ليقنع والده ووالدته بمغادرة تركيا والذهاب إلى أميركا. وكان متزوجًا من مريام ديديكيان وهي واحدة من أجمل بنات القرية. وكلاهما يتحدّر من عائلة متوسطة الحال. كانوا من ملاكي الأراضي وكان جدي، كريكور يراميان، أمين صندوق القرية يقرض المال للشبان للذهاب إلى أميركا والعمل وجني المال ومساعدة عائلاتهم في الديار. كان يشعر بالأمان الكثير والراحة في أرضه الأم، فلماذا عليه الرحيل إلى أرض غريبة؟ وقد أقنع والدي، قره بيت، ابنه الوحيد، بالبقاء في تركيا وتربية عائلة والعيش معا.

عاشت والدتي، مريام، مع بيت حميها ولبّت كل رغباتهم. تلك كانت العادة: الـ «هارس» الجيدة - العروس - يتم دومًا التعريف عنها أمام الغرباء على أنها الـ «هارس»، عروس العائلة بغض النظر عن عمرها أو عن السنوات التي مضت عليها كزوجة. فهي دوما «هارستنا».

رُزقت أمي بأولاد لم يعش أي منهم. وأقامت جدتي ميجير، لدى ولادتي، تساعية (صلوات تستمر لتسعة أيام)، أو «أوكوث» بالأرمنية. ومضت وجمعت أربعين قطعة مختلفة من الفضة من عند الجواهريين والجيران وصنعت سوارًا تضعه الطفلة. وباركه، بالتأكيد، كاهن الكنيسة وحفرت والدتي عليه اسم «أرتيميس»، وأضيفت إليه، بعد عمادتي، عبارة «أبريس» «فلتعط لك الحياة». وصنعوا أيضًا مئزرًا من أربعين نوعًا من القماش. وقد ارتدت الطفلة الثوب مرارًا وتكرارًا. وسعدت عائلتي جدًا لحصولها على طفلة حيّة على رغم أنني لم أكن صبيًّا. ولطالما كان الصبية مرغوبين أكثر لأنهم يحملون اسم العائلة. وأنا، على أي حال، قد عشت.

أقفلت الحكومة التركية كل أبوابها في 1913. فما من أحد يغادر البلاد [الأرمنية]، وما من اتصال بالعالم الخارجي. ولم تعد الرسائل تصل إلى البلاد أو تخرج منها. شكّلت تلك بداية المخطط، «الإبادة».

كنت مجرّد طفلة عندما بدأ القتل الجماعي في 1915-1916. جُمع سكان قريتنا في باحة الكنيسة؛ وأبقي جميع الرجال والنساء والأطفال هناك أيامًا. ثم شرع الجندرمة، الجنود الأتراك، في أخذ كل مجموعة على حدة إلى مكان يبعد ما بين خمسة أميال وعشرة، فيطلقون عليها النار ويقتلونها. وقد تم جمع أمي وجدتي وغيرهما من النساء والأطفال وأطلقت عليهم النيران وقتلوا. احتضنتني أمي، أنا طفلتها الرضيعة أرتيميس، إلى صدرها بحيث أموت أنا الطفلة معها. لكن الرصاصة أخطأتني.

نجت [السيدة] ديغين باكيريان من المجزرة. شاهدتني وعرفت أنني حيّة، لكن أين يمكنها أن تذهب بطفلة صغيرة؟ فلو انني صرخت لتم الإمساك بها، ولذا تركتني مع جثث الموتى. فرّت إلى أقرب قرية حيث أنقذها جيران أتراك.

بعد ذلك بأيام قليلة، سمع راع تركي يرعى خرافه في مكان مجاور، صراخ طفلة وسط جثث الموتى. التقط الطفلة الصغيرة وحملها وتركها عند عتبة أحد الجوامع التركية. ولا أعرف كم من الأيام تُركت فيها هذه الطفلة خارجًا. ثم جاء في أحد الأيام أحد أفراد الجندرمة من هذه البلدة اسمه عمر. أشفق على الطفلة عند رؤيته إياها وحملها إلى منزله وطلب من زوجته غلناز حضانتها. لم يكن لديهما أولاد. لكنها رفضت القبول بها؛ فهي لن ترعى طفلة جيافور، مسيحي، وقالت إنها على أي حال أكبر سنًّا من أن ترعى طفلة. غير أنها وافقت في النهاية على أن تبقيها الليلة عندها.

أخذتِ الطفلة في الصباح التالي وتركتها عند باب الجامع. وما حدث، عندما جلست هناك تتحادث مع جاراتها، هو أن الصغيرة دبّت نحوها وتمسّكت بتنّورتها. وهناك، وعند ذلك الحدّ، ترقرقت الدموع في عيني غلناز، وتعهّدت بما أن اللّه أرسل إليها هذه الطفلة أنها ستحبّني وتعتني بي ما دامت هي على قيد الحياة. أطلقوا عليّ اسم نوفيريا وأصبحتُ أعرف بذلك الاسم.

أحبّتني حبًّا جمًّا، وترعرت وسمَّيتها «آنا»، أي «أمي» بالتركية. حصلت على أفضل الأشياء: ثياب جميلة - كنت الطفلة الوحيدة التي ترتدي حذاء أحمر ببكلة - وأفضل أنواع الطعام. لم أكن أتحدّث سوى التركية. وأذكر أننا كنا ننتظر، وقت العشاء، أن يتلو المؤذن صلاة المساء من منارة الجامع لنبدأ بتناول طعامنا. كان ذلك بمثابة الشعائر.

لم أكن أعرف أنني طفلة أرمنية، إذ أبقوا الأمر سرًّا عني. وفي حوالى 1917، أو ما شابه، عاد الأرمن الذين نجوا إلى منازلهم التي لم يتبق منها شيء سوى الجدران العارية. وعمل بعض هؤلاء النسوة في تنظيف منازل الأتراك لكسب معيشتهن وحصلن على الطعام في المقابل. وحصل أن واحدة من عمّاتي، مارغريت ديديكيان، جاءت مع امرأة أخرى إلى منزلنا. تعرّفت إليّ على الفور، إلا أن غلناز هانم نفت في البداية أنني طفلة أرمنية. لكنها أبلغت السيدتين، بطريقة من الطرق، كيف عثرت عليّ. أرتهم المئزر الصغير وقد تلطّخ كلّه بالدم وسواري الفضّي. وُجدت صداقة حارة بين تلك السيدات. أنجزت نسيبتاي عملهما البيتي وعادتا إلى منزلهما سعيدتين وقد عرفتا أنني أنا أيضًا حيّة وأحظى بعناية جيدة. عادتا إلى قريتهما وأبلغتا ابنة عمّي جوفار ميليان أن أرتيميس حيّة وتعيش مع عائلة تركية.

سُمح، بعيد 1917، لمن بقي حيًّا من الأرمن بالسفر في حرّية. جاءت ابنة عمّي جوفار لزيارتي، غير أنني لم أعرف من هي. أذكر أنني كنت خجولة جدًّا وغير مرتاحة معها. فقد قيل لي، كما ترون، إنني تركية وإنها «جيافور». قامت بزيارات عدّة، على رغم بعد المسافة. فقد كانت تسير النهار بطوله للقيام بالرحلة. فهي لم تملك حصانًا أو عربة، بل تسير وفق طول النهار، فحسب، لتأتي وتزورني. فوالد جوفار ووالدي شقيقان. مات والدها وعاشت مع أمها وجدتها. لم تُرزق ابنة عمّي جوفار بأطفال، فاعتنت بأختها غير الشقيقة سيرانوش، وببوغوص ابن شقيق زوجها وأقامت في منزل في قرية تساك. كان لها الكثير من الأراضي المزروعة بالكرمة التي تعود ملكيتها إلى عائلتها وعائلتي. كان زوجها في أميركا وانقطع اتصالها به حتى 1918 أو 1920.

كنت ألعب في أحد الأيام مع الأولاد وعدت إلى المنزل لأجد الكثيرين من الناس في منزلنا وأردت معرفة السبب. لقد أصيب والدي، عنصر الجندرمة التركي عمر، بالمرض ومات فجأة. وأنا لا أزال أذكر حتى اليوم مجيء أهل القرية جميعهم وهم يبكون وقد تجمهر العجّز معًا في حزن. وبكيتُ أنا أيضًا. لم يعد لديّ والد يأخذني لركوب الحصان أو يشتري لي ثيابًا جميلة. فماذا سيكون مصيري؟ ولكن كانت لي «آنتي» التي أحبتني أكثر من ذي قبل. وهي شخص عاطفي ومحب، تحتضنني دومًا وتنظر في تلبية حاجاتي. أحببتها حبًّا جمًّا، «آنتي»، أمّي.

بعد ذلك بوقت قصير، ربما سنة أو ما شابه، تزوّجت أمي من جندي تركي شاب، وسيم، وأصغر بكثير من زوجها الأول، عمر. كانت غلناز هانم أرملة ثرية وقد تزوجها هذا الشاب لثروتها. وكانت لديه زوجة أخرى وأولاد. وكان يُسمح في تلك الأيام للرجال الأتراك بالزواج من أكثر من امرأة.

مرّت ربما سنة أو اثنتان. وقد استمرت ابنة عمّي في زيارتي وكانت الزيارات كلّها تتم على أساس الصداقة. فقد سبق لعمر، وهو حيّ، أن حذّر جوفار من عدم التفكير، قط، بأخذي منه؛ وسيقتلها على الفور لو فعلت. لكن تحذيره لم يخفها، واستمرّت في المجيء كلّما أمكنها ذلك. وتغيّرت الأمور بموته. لم يهتم زوج غلناز الجديد لأمري لأن لديه أولاده. وتحدّثا بالأمر مع ابنة عمّي جوفار وأبلغاها أن في وسعها أخذي إذا شاءت.

وكانت الحكومة التركية أصدرت كذلك، في ذلك الوقت، قانونًا جديدًا مفاده أنّ في حال وجود أولاد أرمن يعيشون مع عائلات تركية، يجب إعادتهم إلى أقاربهم الأرمن، أمهاتهم، شقيقاتهم، أشقائهم، أو أنسبائهم، ممن يطالبون بهم عن حق بحسب القانون. وكان ذلك بحسن نيّة؛ فهناك خير يأتي دومًا من كل شرّ.

وهكذا ألبستني «آنتي» ثيابًا جميلة، فستانًا جميلًا من الحرير وحذاء أحمر. وأخذتني وزوجها إلى قرية تساك. ركبنا على الحصان. وصعدت إلى مقدم السرج مع والدتي وقادنا زوجها الجديد. لا أذكر كم استغرقت الرحلة وقد بلغنا القرية عند الغسق. وصودف أنه اليوم السابق لعيد الفصح. جاء جميع سكان القرية لاستقبالنا وهم يحملون الحلويات التي صنعوها في البيوت وخبز «الشيورغ» والأجبان والبيض والـ «خرما» وهو لحم الخروف المطبوخ. حظينا بعشاء عظيم. يا له من احتفال! كان جميع الموجودين من الأرمن وأنا لا أفهم كلمة أرمنية واحدة.

في صباح اليوم التالي، غادرت «آنتي» وزوجها من جديد عائدين إلى بلدتهما آجين. وقد بكيت، وبكيت، عليهما. أردت العودة معهما. لكنني بقيت. اضطررت إلى البقاء. والشخص الوحيد الذي عرفته هنا هو جوفار (أبلة)، ابنة عمي. تمسّكت بها أينما ذهبت. وكان معها سيرانوش، أختها غير الشقيقة وهي تكبرني بنحو سنتين، وبوغوص ابن شقيق زوجها.

لم تحبّني سيرانوش، وتعوّدت أن تسميني «التركية» لأنني لم أكن أتحدث الأرمنية. وشرعت، في غضون نحو ستة أشهر، في تعلّم التحدّث بالأرمنية. وذهبنا إلى مدرسة أرمنية في القرية حيث تصادقت مع الكثيرات فيها. ولم يوجد في تلك القرية سوى نساء وأولاد، وقد خلت من الرجال. ولا أذكر أبدًا مشاهدتي عرسًا أو مولودًا جديدًا. كنّا، نحن الناجين، أيتام المجزرة».

كانت لوالدي قصة مشابهة يخبرها، لكن الظروف التي جعلتها تظهر مختلفة. ففي 1965، في الذكرى الخمسين للمذبحة، اتصل به منتجو محطة تلفزيون في بوسطن متلهفين لإجراء مقابلات مع ناجين من المذبحة من أجل أحد البرامج الوثائقية. تحدّث والدي بالأمر مع أمي واتفق كلاهما بعد عملية بحث تدمي القلب، أن سيكون من المؤلم جدًّا استعادة مشاعر مثل تلك الذكريات الصادمة ورفضا الدعوة في لطف. إلا أن الجدال انفجر في 1988، بعد سنوات على ذلك، في شأن كتاب لأحدهم، جاستن ماكارثي، وهو مؤرخ رجعي ينفي حصول المذبحة(3). وربما أن والدي ردّ هذه المرة بطريقة مختلفة لأن الأمر تزامن مع الهزات الأرضية الرهيبة في أرمينيا. وقرّر، عنما تبلّغ نظرية ماكارثي، أن يكتب رسالة إلى مؤلفها:

«عزيزي السيّد ماكارثي،

إسمي جون ميراك. وُلدت في 1907 في أرابكير في تركيا. وأقامت عائلتي في قرية قريبة من أرابكير. ولوجود عدد كبير من القرى في المنطقة المحيطة، عُلّقت في 1914 لوحة عريضة في وسط المدينة مفادها أن الحكومة التركية ستصبح في حال حرب بعد ذلك بستة أشهر تقريبًا. وقد

طَلب من جميع الأرمن تسليم أسلحتهم كي يعم السلام منطقتنا، فأطاع الأرمن هذا الأمر. مرّ بعض الوقت؛ وحوالى 1915 دخلت مجموعة من الجنود الأتراك القرية على الجياد وجمعوا جميع الرجال القادرين جسديًّا، بمن فيهم والدي، والكهنة والمعلمون وقيّدوهم وساروا بهم إلى خارج القرية إلى مسافة نحو عشرة أميال على مقربة من نهر الفرات. وقتلوا البعض منهم وأغرقوا الآخرين. وقد سميت تلك بالمجزرة الأولى.

وقعت المجزرة الثانية بعد ذلك بنحو ستة أشهر. أخذوا جميع الصبية والفتيات والنساء من سن 12 عامًا وما فوق إلى نحو أربعة أميال خارج المدينة وقتلوهم، ومن بينهم عائلتي وأنسبائي.

وحدثت المجزرة الثالثة حوالى منتصف 1916. وطاولت العجّز والرجال والنساء والأولاد. جمعوهم وحبسوهم طوال أربعة أيام في الكنيسة، وجلبوهم في اليوم الخامس إلى وسط البلدة. عند هذا الحد هربتُ راكضًا إلى المنزل الذي يبعد نحو مئة متر عن المكان. وبدخول المرء المنزل يجد جدتي مستلقية على الأريكة إذ إنها كانت مريضة جدًّا. ركضتُ إلى خلفية الإسطبل للاختباء. ثم سمعت توبال نوري يأتي ويسأل جدتي عن مكاني. قالت له إنها لم ترني، فغادر. وكان توبال نوري كبير جلادي المنطقة كلها في ذلك الجزء من الإقليم التركي. وتعني كلمة «توبال» بالتركية «الأعرج» وبالتالي فلا بد من أنه لقب يُطلق عليه.

ووقعت المجزرة الأخيرة في مكان يبعد أقل من ميل واحد خارج المدينة. وقد قتلوا جميعهم هناك بسبب عدم قدرتهم على المزيد من السير(4)، وبينما كنت، بعد نحو شهر من ذلك، على مقربة من ساحة القرية مع جارتنا التركية، وصل توبال نوري على صهوة جواده وأمسك بي وصاح: «أنت الفتى الذي هرب». غير أن المرأة التركية نظرت إليه وردّت صائحة «ألم تقتل ما يكفي؟ لماذا لا تترك الفتى وشأنه ليعتني بجدته التي تنازع وبشقيقه الطفل؟» فتركني وشأني. وماتت جدتي في غضون أسبوع. وسألتُ زوج السيدة هل في وسعه مساعدتي على دفنها، وكان على درجة كافية من اللطافة ليحفر قبرًا في حديقتنا ويدفنها فيه. وقصدته بعد ذلك بأسبوع لأدفن أخي وكان عمره أقل من سنة ومات من الجوع. وأصبحت الأرمني الوحيد الباقي في القرية. وشعرت امرأة تركية لطيفة أخرى بالأسى عليّ فوفّرت لي المأوى والطعام، وعملت لديها بضعة أشهر.

ثم حلت سنة 1917. عند ذاك الحد كان صدر قانون يمنع احتفاظ أي تركي بطفل أرمني على رغم إرادته. وفي أحد الأيام ظهرت زوجة عمّي على حين غرّة وهي تبحث عن أولادها الثلاثة الذين قتلوا في المذبحة الثالثة. سمعت أنني ما زلت حيًّا فجاءت لأخذي. خشيتُ ترك المرأة التركية، لكنها طلبت مني

الذهاب مع عمتي وعدم الخوف. فسرنا طوال النهار والليل لبلوغ أرابكير. وعثرت، بوصولنا إلى هناك، على امرأتين أرمنيتين أخريين. وكانت وسيلتنا الوحيدة في الحصول على الطعام كل أسبوع وكالة الشرق الأدنى للإغاثة التي يرعاها الأميركيون. وقد تعودتُ أن أذهب وأحصل على حصة من القمح لشخصين تكفينا الأسبوع كله. وكان السيّد ناب هو المسؤول عن وكالة الإغاثة. وقد اعتقدنا جميعنا أنه اللّه.

بقينا في أرابكير سنة تقريبًا. وكان لي أنسباء بعيدون في حلب، في سوريا. راسلناهم وساعدونا في الوصول إلى هناك في إحدى القوافل. أقمنا معهم قرابة السنة ثم اضطررت إلى الذهاب إلى إحدى دور الأيتام وبقيت عمتي معهم، إلا أن زوجها، عمي، كان في أميركا، في بوسطن. كان جاء [إلى أميركا] في 1912، فكتبتْ إليه في النهاية في شأننا وأمكنه أن يأتي بنا إلى أميركا. بلغنا البرّ في إيليس آيلند في نيويورك في 20 كانون الثاني/يناير 1921.

سيكون من دواعي سروري أيها السيد ماكارثي أن أدفع تكاليف سفرك كلها إذا رافقتني في رحلة إلى أرابكير، إلى قريتي، لأُريك مدرستنا وكنيستنا، إذا كانت آثارها لا تزال موجودة، ومنزل المرأة التركية اللطيفة جدًّا التي أنقذت حياتي وأزودك أسماء جيراننا الأتراك. سآخذك إلى منزلنا المجاور وأريك ما بقي منه، وإذا كان تراب حديقتنا الجميل لا يزال على حاله، فسأزيل التراب وأريك عظام جدتي وشقيقي الطفل حتى لا تعدّ الأمر زعمًا».

وأنهى رسالته قائلًا إنه إذا لم يتمكن من اقناع المؤرخ، الذي وصفه بـ«المرائي من الدرجة الأولى»، بأن ما حدث هو مذبحة بالفعل، فسيتبرّع بمليون دولار لمؤسسة خيرية يختارها ماكارثي. وبسبب عمر والدي، وغير ذلك من الاعتبارات، بقيت الرسالة بين أوراقه التي اكتشفتها بعد وفاته. لكن الرسالة كانت واضحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شهود من بعيد

وقد دعمت روايات الأيتام تقارير من مصادر لا تدحض شهدت على طبيعة المجزرة وأبعادها. وهناك، على سبيل المثال، الدكتور جاكوب كوانزلر وهو طبيب سويسري سافر إلى أرمينيا التركية ردًّا على نداء لمساعدة أخيه الإنسان. فقد دعا الدكتور جوهانس لبسيوس، الطبيب والقس الألماني الشهير، كوانزلر إلى أورفا، في شرق الأناضول، للعمل في مستشفى البعثة الألمانية المشرقية الذي أنشأه هناك. وكان كوانزلر، وهو نفسه قد تيتم وهو في الحادية عشرة، تأثر جدًّا بقراءته عن المجازر الحميدية في سنوات 1890 (5).

وكانت أورفا، على غرار المدن الكثيرة في شرق الأناضول، خليطًا من المجموعات الإثنية والدينية المتفرقة. وعند نشوب الحرب العالمية الأولى، كان ثلثا عدد سكانها الستمئة ألف من المسلمين بمن فيهم الأتراك والأكراد والعرب، فيما تألفت الأقلية المسيحية من الأرمن والسوريين من مختلف الطوائف، ومعظمهم من الأرمن البابويين(6)، وشكّلت أورفا أيضًا نقطة ترحيل المبعدين من سيفاس، وارزروم، ومأمورت العزيز والأخيرة هي الأقليم الذي تقع فيه أرابكير بلدة أهلي.

وفيما شاهد والدي مجموعات الرجال والنساء والأولاد تُخرج من المدينة لتُطلق عليها النار، شهد كوانزلر على عمليات الترحيل التي نُظّمت لذبح الأرمن بالآلاف. وقد وصلت قطارات الترحيل الأولى إلى أورفا في آخر حزيران/يونيو وجاءت من هاربوت وأرزروم. وحضر في 10 آب/أغسطس 1915 اثنان من كبار مسؤولي تركيا الفتاة إلى الساحة لتنسيق عملية القضاء على الرجال والصبية الأرمن و«ترحيل» النساء والأطفال. وسيقت مجموعة من ألف أرمني، جمعوا معًا كتيبة عمل، إلى موقع طُلب منهم فيه خلع ثيابهم (في ما عدا القميص) ورُبطوا معًا أزواجًا، ثم اقتيدوا إلى حافة جرف. وقام الذين قادوهم إلى هناك بـ «فك الحبال عن الإثنين اللذين في المقدم. وأجبروا الجميع على القفز، الواحد تلو الآخر، من الجرف، ولكن ليس قبل أن يركضوا بين عنصرين من الجندرمة المسلّحين بسكينين طويلين ليقوم كل منهما بطعن الضحية بدوره»(7).

بلغ اليأس بالكثيرين من الأرمن، وقد عرفوا ما ينتظرهم من عمليات الترحيل، حدًّا سعوا معه إلى الموت بوسائل أسرع. فقد زار كوانزلر معسكرًا كان يتم فيه إعداد بعض النسوة للقضاء عليهن، فتضرّعن إليه ليعطيهن السمّ بدلًا من الخبز لوضع حد لشقائهن. وكتب: «وكانت الأمهات مع أطفالهن وقد جف حليبهن منذ زمن بعيد وما من مصدر آخر للتغذية. وجدت أمهات قليلات

الشجاعة لرمي أطفالهن في الجدول ليخلصوهم سريعًا من شقائهم. وقد تمددن في الفناء، في صف تلو آخر، وبكين حتى لم يعد في إمكانهن البكاء. ولما توقّف البكاء، لهثن بضع مرات إضافية لتنشق الهواء إلى أن حرّرهن الموت. وكان الجدول الذي سبقت الإشارة إليه، يمتلئ في الغالب في الصباح بجثث النساء والفتيات اللواتي حاولن بهذه الطريقة التخلص من الترحيل»(8).

ما سمّي بعمليات الترحيل لم يكن في الواقع سوى مسيرات موت. وقد تم التخطيط لها على هذا المنوال. وعرف كوانزلر ذلك مباشرة من المصادر المسؤولة. فقد أتقن التركية (وكذلك العربية والأرمنية) وكان له، بصفة كونه مساعدًا إنسانيًّا، وصول إلى السلطات التركية. وكُلّف في أحد الأيام مرافقة أميرين فارسيين، يرشدهما ضباط أتراك، في رحلة إلى بغداد، لأن أحد الأميرين أصيب في كاحله ويحتاج إلى طبيب بجواره.

ويفيد كوانزلر: «في إحدى الأمسيات ناقش الرائد نافذ بك، رئيس بعثتنا، المسألة الأرمنية. وهو أحد قادة تركيا الفتاة وقد جعل لنفسه اسمًا... وبالتالي أثارت ملاحظاته اهتمامًا خاصًّا عندي. وشرح: «علينا، نحن الأتراك، القضاء في شكل مطلق وكلّي على الأرمن وإجبارهم على الهجرة. ومن غير الوارد قط أن نعيش معهم في داخل حدود أمبراطوريتنا»(9).

شهادة كوانزلر نادرة وغنية بالمعاني الضمنية بصفة كونه كان محايدًا تمامًا، ليس لأن بلده، سويسرا، لم تكن طرفًا في الحرب وحسب، بل لأنه كان أيضًا إنسانيًّا، طبيبًا ليست لديه من روزنامة أخرى سوى تقديم المساعدة لمن يعانون. ولكن قد يغري المرء أن يعدّ الأمر حالًا معزولة بما أن تجربة كوانزلر كانت محدودة بأورفا. إلا أنها كانت تجربة نموذجية جدًّا لما تكشّف في مختلف أنحاء أرمينيا التركية.

كان جوهانس لبسيوس ألمانيًّا تتحالف بلاده مع تركيا في الحرب. ومن - كثير الغرابة بالتالي أن يصبح هو من سيقرع ناقوس الخطر في دياره في شأن المذابح الجارية في محاولة منه لتعبئة الرأي العام للتدخل. تلقّى لبسيوس، وكان حينذاك في ألمانيا، أخبار المجازر في حزيران/يونيو 1915 عندما أحيط علمًا ببرقية أرسلها فريهر فون فانغنهايم، السفير الألماني في القسطنطينية، إلى وزارة الخارجية في برلين. أفادت البرقية، المؤرخة في 31 أيار/مايو، أن وزير الحرب أنور باشا صمم على استخدام سلطات الطوارئ للتحرّك ضد الأرمن بزعم «كبح التجسس الأرمني والحؤول دون ثورات أرمنية مسلّحة». وسيعمد إلى إقفال المدارس، وقطع الاتصالات، وفرض الرقابة على الصحف، وإلى «ترحيل العائلات التي ليست في منأى مطلق عن الشك». استوعب لبسيوس على الفور أهمية الرسالة، وأبلغ

السلطات أن ليس على المرء ترحيل العائلات للحؤول دون تمرّد مسلّح، وأن «عمليات الترحيل الجماعية ليست إلا مجازر جماعية». وطلب الإذن على هذا الأساس بالذهاب إلى القسطنطينية، ومن ثم إلى الداخل. رفض وزير الداخلية محمّد طلعت طلبه؛ وسمح له بالذهاب إلى القسطنطينية ليس أكثر.

مُنح هناك مقابلة مع وزير الحرب أنور باشا، واجتمع كذلك مع البطريرك الأرمني في القسطنطينية، رئيس الأساقفة زافين. ووصل لبسيوس إلى القسطنيطينية في 24 تموز/يوليو، وهو يوم عيد وطني احتفاء بإعادة العمل بالدستور، في 1908، في ظل تركيا الفتاة. وبما أنه مُنع من السفر إلى الداخل، ركّز على الاجتماع مع أرمن وسواهم ممن بلغوا العاصمة من المناطق الداخلية والذين في وسعهم أن يزودوه تقاريرهم عن الأحداث. وحصل لبسيوس أيضًا على إيجاز بالأحداث من السفير الأميركي هنري مورغنثو الذي سمح له، بطريقة لا تمت بصلة قط إلى البيروقراطية، بالاطلاع على بعض الوثائق السرّية وتدوين ملاحظاته عنها(10).

أمضى لبسيوس ثلاثة أسابيع في العاصمة يجمع مثل هذه الروايات من شهود العيان، وجمع على هذا الأساس «تقريره عن وضع الشعب الأرمني في تركيا»، الذي نُشر في 1916 (11). وحدّد كتابه ثلاث مناطق، نظمت فيها المذبحة المنهجية: كيليكيا وشمال سوريا؛ شرق الأناضول؛ وغرب الأناضول. بدأت العمليات في المنطقة الأولى في آذار/مارس 1915 واستمرت خلال أيار/مايو؛ وبدأت نهاية أيار/مايو في شرق الأناضول واستمرت خلال حزيران/يونيو. واستُهدف غرب الأناضول منذ أوائل آب/أغسطس وحتى أيلول/سبتمبر. وتوثق نظرته العامة الشاملة منهج عمل المذابح، مؤكّدة أن ما رآه شهود عيان مثل كوانزلر في مواقع محدودة يشكّل جزءًا من استراتيجية عامة. وبعد مدة طويلة على الشروع في عمليات القتل الفعلية والترحيل، رُفع «قانون موقت للترحيل» إلى مجلس الوزراء الذي وافق عليه في 30 أيار/مايو 1915، ويقضي بالسماح للجيش بالقضاء على المقاومة المسلّحة وبترحيل من «يشكّون في أنه مذنب بالخيانة أو بالتجسس (المادة الثانية)(12).

كان العمل الأول الذي شرعت فيه السلطات التركية تحضيرًا للمجازر هو القبض على زعماء الطائفة والمفكرين والكهنة والأساتذة وشيوخ القرى، تمامًا كما أفاد عن ذلك والدي. وأجريت في ولايات غرب الأناضول عمليات اعتقال واسعة ما بين 21 نيسان/أبريل و19 أيار/مايو. وفي موازاة عمليات الاعتقال الجماعية في القسطنطينية في 24-25 نيسان/أبريل والتي طاولت نحو 600 زعيم، اقتيد في أمكنة أخرى عشرات، ثم مئات، من القادة المدنيين إلى الاعتقال ورُحِّلوا أو اغتيلوا. وكذك الأمر في أورفا، حيث يروي كوانزلر أن «عضوين أرمنيين معروفين جدًّا في البرلمان، فارتكيس [سيرنكيفليان]

و[كريكور] زهراب، مرّا عبر أورفا بصفة كونهما سجينين. وسُمح لهما بمواصلة الطريق في عربة ذات نوابض. بيد أنهما قتلا بعد ساعة على خروجهما من أورفا، بعدما أطلق الضابط التركي الذي يواكبهما عليهما النار». (أعطي طبيب بلدي أرسل إلى المكان ليصدر شهادة الوفاة أمرًا بالقول إن سبب الموت هو إصابتهما بالتيفوس!)(13).

ولاحظ لبسيوس: «هدفت قاعدة العمليات العامة هنا إلى حرمان الشعب الأرمني زعماءه والمتحدثين باسمه بحيث يمكن الشروع في الترحيل في صمت ومن دون مقاومة»(14). وما إن تم تحييد القادة المحليين أو قتلهم، حتى تحرّك الأتراك ضد المدنيين السيّئي الحظ وأرسلوهم إلى حتفهم. وتشكّل قضية هاربوت صورة رمزية. فبحسب تقرير لمُرسل أميركي هناك، استشهد به لبسيوس، تم تخريب المعهد الأميركي في هاربوت وأوقف أساتذته الذين عُذّبوا وقُتلوا، ورُحّل طلاّبه. وصوّر القنصل الأميركي لسلي أ. ديفس من هاربوت أهوال الترحيل في تقريره المؤرخ في 11 تموز/يوليو.

«لو تعلّق الأمر بمجرّد الانتقال من هنا إلى مكان آخر لأمكن احتمال الأمر؛ غير أن الجميع يعرفون أن أمر الأحداث الراهنة يعني الذهاب إلى الموت. وإذا ما بقيت من شكوك تتعلق بالأمر فقد أزالتها سلسلة عمليات النقل التي دفعت بآلاف عدة من الناس من أرزروم ومن إرزينغجان. وقد زرت مخيماتهم مرات عدّة. ولا يمكن تخيّل منظر أكثر إثارة للشفقة. يكادون جميعهم، من دون استثناء، يكونون رثّي الثياب، قذرين، جائعين، ومرضى. وذلك ليس بمفاجئ نظرًا إلى واقع وجودهم منذ نحو شهرين على الطريق من دون أن يبدّلوا ثيابهم، أو تتوافر لهم الفرصة للاغتسال، أو الملجأ، ولا يحصلون إلا على النزر اليسير من الطعام. كانت الحكومة هنا تعطيهم بعض الحصص الغثّة. راقبتهم مرّة عند إتيانهم بالطعام. ولا يمكن الحيوانات البرّية أن تكون أكثر سوءًا... ويصعب على المرء، بمشاهدتهم، التصديق أن هؤلاء الناس كائنات بشرية»(15).

انتظرَ النساءَ اللّواتي ولدن خلال مسيرات الترحيل واحدٌ من أكثر المصائر هولًا. ويفيد لبسيوس «بالكاد أعطين الوقت للإتيان بأطفالهن إلى العالم. أنجبت امرأة توأمين خلال الليل. واضطرت في الصباح إلى متابعة التقدم سيرًا والطّفلان على ظهرها. وانهارت بعد ساعتين من المسير. اضطرت إلى ترك المولودين الجديدين، وتمديدهما تحت إحدى الشجيرات، بعدما أجبرها الجنود على استئناف السير مع رفاق سفرها الآخرين. وولدت امرأة أخرى وهي على الطريق، وأجبرت على الاستمرار في السير إلى أن أنهارت وماتت». وقاسى المُرحّلون عذابًا عظيمًا تمثّل بعدم السماح لهم بدفن أولادهم الموتى(16).

على رغم أن هذه المجازر نظمت ونفذت في دقّة، لم تحدث من دون مقاومة. لقد صمم المدنيون الأرمن، في حالات كثيرة، على المقاومة. وكان كوانزلر شاهد عيان على مقاومة أرمن أورفا، وهو كفاح بلغ درجة متساوية من البطولة واليأس. ولا يزال أفراد من سكان أروفا الأرمن في سنوات الحرب العالمية الأولى يحتفظون بذكريات حيّة عما حدث في 1895، عندما سيق آلاف المدنيين الأبرياء إلى الكنيسة وأحرقوا بالكاز المشتعل. سوى أن استشهاد فارتكيس وزهراب في 1915 هو الذي أثار مقاومتهم. تنكّر أحد الأرمن المغامرين بلباس ضابط تركي، وألبس أصدقاءه زيًّا مشابهًا واعطاهم أسماء تركية ومضوا إلى حلب لشراء الأسلحة، فيما شرع حدّادو أورفا في تصنيع القنابل اليدوية. وأُطلقت الرصاصات الأولى في 29 أيلول/سبتمبر وتبعت ذلك معركة شرسة امتدت أسابيع إلى أن قصف الأتراك المتفوقون عسكريًّا المباني الأرمنية وأجبروهم على الاستسلام في 16 تشرين الأول/ أكتوبر. وتبعت ذلك مجزرة دُفن ضحاياها في مقابر جماعية. أبرز الدكتور فاهاكن ن. دادريان، مدير مؤسسة زوريان، الدور البطولي للنساء الشابات والفتيات. وأخبر أن «الكثيرين من الفتيان الذين تراوح أعمارهم بين 10 أعوام و14، وبخاصة عشرات الفتيات المراهقات، أثبتوا أنهم مقاتلون بواسل. وقيل إن شجاعتهم التي تحدّت الموت أذهلت الجنرال فخري [فخر الدين توركان]، قائد الفيلق الثالث عشر في الجيش، الذي تولى مهمة القضاء على التمرّد»(17). وهو ما يُذكّر بهريبسيم وغاياني الراهبتين اللتين هربتا من روما إلى أرمينيا في القرن الرابع وعانقتا الشهادة بدلًا من خيانة إيمانهما(18).

شكلت زيتون وفان مثالين آخرين على المقاومة المسلحة. كانت زيتون مدينة رئيسة في كيليكيا أثبت سكانها ولاءهم العثماني في الحرب(19). ومع ذلك تعرّض الأرمن للمضايقات. فعقب عملية التعبئة الشاملة التي أُمر بها في آب/ أغسطس 1915، حدثت حالات متفرّقة قام بها عناصر من الجندرمة التركية باغتصاب نساء. وأطاع الأرمن في كانون الأول/ديسمبر أوامر بتسليم أسلحتهم. وفي الربيع، أشعل المزيد من الإهانات في حق الفتيات الأرمنيات اشتباكات أدت إلى سقوط إصابات من الجانبين. هرب الأرمن إلى أحد الأديرة، فيما شن الأتراك ردًّا غير متناسب. وكتب لبسيوس: «ولذهول الأهالي وهولهم»، وصلت أوائل آذار/مارس 1915 من حلب وحدة عسكرية هائلة تضم ما بين أربعة آلاف جندي وستة آلاف. رفع السكان الرايات البيض، غير أن من في الدير فتحوا النار وقتلوا الكثيرين من الجنود. ورُحّل عندذاك سكان زيتون العشرون ألفًا إلى الصحراء العربية، وأعيد توطين المدينة بما بين عشرين ألف تركي وخمسة وعشرين ألفًا وبُدّل اسمها إلى السلطانية(20).

قضت وجهة النظر التركية في فان بأن الأرمن نظّموا عصيانًا بالتعاون مع الروس، وهو أمر رفضه كل من لبسيوس والمؤرخين اللاحقين. وبحسب

تقرير لمرسل أميركي استشهد به لبسيوس، أعدّ أنور باشا، صهر جودت بك (وكان واليًا على فان)، منتصف شباط/فبراير لاغتيال أربعة قادة سياسيين من حزب طاشناقتسوتيوم (الاتحاد الثوري الأرمني، أو الطاشناق)، بمن فيهم أحد النواب. ونظّم جودت، أواخر نيسان/أبريل، مجازر في مختلف أنحاء الولاية قاتلًا 55 ألف أرمني، 2500 منهم في يوم واحد. لجأ الناجون إلى فان التي حوصرت. وأقام 1500 مسلح أرمني في 20 نيسان/أبريل المتاريس لحماية سكان المدينة الثلاثين ألفًا، وبدأ القتال. أنشأ المقاومون إدارة موقتة لتسيير شؤونهم، ونظموا عملية إنتاج الذخائر والرصاص والبارود بل وحتى مدافع الهاون. أُجبر الأتراك، في 16 أيار/مايو، على الانسحاب وتقدّمت القوات الروسية صوب المدينة(21).

كانت حال المقاومة الأكثر شهرة هي تلك التي قام بها موسى داغ، وهي ملحمة خلّدها فرانز فرفل في روايته أيام موسى داغ الأربعون(22). لم يقبل أفراد جماعته بالترحيل، فلجأوا إلى مرتفعات «جبل موسى»، في مكان لا يبعد عن خليج الإسكندرون، ونجحوا، بقيادة أرمني قاتل في الجيش العثماني، في البقاء أحياء مدة تزيد على الشهر. ونجح الرجال المسلحون، من خلال المناورات العسكرية البارعة على الأجنحة والخديعة في ردّ ثلاث هجمات متلاحقة للقوات التركية. وسمحت لهم طريقة رائعة وفاعلة من التنظيم الإجتماعي بإنتاج الغذاء وبناء الملاجئ وتوفير العناية الطبية والروحية للجميع. وفي وقت أخذت الإمدادات بالنفاد وتم الإعداد لهجمة تركية متجددة، أنقذت البارجة الحربية الفرنسية «غيشن» الناجين الـ4048 ونقلتهم إلى بر الأمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحديث مع الشيطان

استكشف لبسيوس كل سبيل يمكن تخيّله في محاولته وقف الإبادة. بل أنه واجه أحد أعضاء ثلاثي تركيا الفتاة الشرير الذي يدير الحرب. حدث لقاؤه المصيري مع وزير الحرب أنور باشا في العاشر من آب/أغسطس في وزارة الداخلية. وكان بطل الحرب العثماني «شخصية نحيلة متوسطة الحجم ذات كتفين هزيلتين مائلتين» سوى أنه أعطى للبسيوس انطباعًا أنه «أنثوي» بالأحرى. بدأ الألماني بالسؤال هل ما يحدث في الداخل يتم «بمعرفة» من أنور «وبإرادة منه»، وهو ما أجاب عنه الأخير: «أنا أتحمّل مسؤولية كلّ شيء». وكانت حجة لبسيوس مباشرة: إذا صحّت التقارير عن الترحيلات الجماعية والمجازر في حق النساء والأولاد فمن شأن هذا أن ينسف السمعة الأخلاقية التي اكتسبتها جماعة تركيا الفتاة بإسقاطها السلطان وإعادة العمل بالدستور. وقد استمع إليه أنور ثم عارضه بمفهوم أنه اضطر، لأسباب عسكرية، إلى القضاء على «العناصر الثوريين» الذين يهددون الأمبراطورية، واستشهد بمثلي التمرّد في زيتون وفان. وأشار لبسيوس إلى أن السلطان عبد الحميد الثاني ذكر حججًا واهية مشابهة لتبرير مذابحه وجرائمه التي دفعت بجماعة تركيا الفتاة إلى إدانته. وها إنهم يبزّون السلطان الآن. ولما تحدّاه لبسيوس بأن يقدّم الدليل إلى ان المفكّرين الذين أوقفوا في القسطنطينية كانوا يتآمرون على النظام، أجاب وزير الحرب: «لا حاجة إلى الدليل بما أننا نأتي من الثورة ونعرف كيف يتم القيام بأمر كهذا».

رفض القسيس الألماني التشبيه قائلًا إن الأناضول ليست مقدونيا (التي انطلقت منها تركيا الفتاة)، واسترسل في حجته أن القضاء على الأرمن سيؤدي إلى انهيار الاقتصاد العثماني. فالأرمن يسيطرون على التجارة والزراعة والصناعة؛ وحاجج بأنهم «معدة الأمبراطورية. أنت تعتقد أنك إذا اقتطعت المعدة سيتولى العناصر الآخرون، التركمان والأكراد والشركس، وظائفها. وهذا خطأ». وردّ أنور بضحكة أتبعها ببيان فضح الأوهام التتريكية الجامحة التي تتملّك زعامة تركيا الفتاة. وتابع: «قد نحصل على معدة ضعيفة لبضع سنوات بعد الحرب. خذ في الحسبان عدد الشعب التركي البالغ أربعين مليونًا. ما إن يتم في النهاية جمعهم معًا حتى نمتلك في آسيا الأهمية نفسها التي لألمانيا في أوروبا». (وقدّر لبسيوس في نفسه وجود ما بين خمسة ملايين تركي وستة ملايين في ذلك الوقت ربما في الأناضول، ناهيك بأولئك الذين سيخسرون حياتهم في النزاع. وعلى المرء، للحصول على عشرين مليون شخص تركي إضافي، أن يغزو شمال بلاد فارس وعبر القوقاز والقوقاز وتركستان وكاشغار. فأربعون مليونًا رقم جامح. «اعتقد أنور أنه سيحكمهم في يوم من الأيام، ويقف معهم في وجه العالم بأسره»).

ثم ركّز لبسيوس اهتمامه على عمليات الترحيل مشددًا على أن السلطات المحلّية، حتى لو هي رغبت في ذلك، لا تمتلك الوسائل لترحيل جماهير من الشعب بطريقة آمنة، وستصبح النتيجة الحتمية مزيدًا من الموت الجماعي، وبخاصة في صفوف النساء والأطفال. عرض الإنساني الألماني، مستندًا إلى خبرة سنواته العشرين في مساعدة ضحايا المجازر الحميدية، بأن يسافر بنفسه إلى الداخل وينظّم الإمدادات اللازمة ممولًا هذا الجهد بوسائله الخاصة. فردّ أنور «بمسحة باطنية من الازدراء الوحشي»، بأنه لا يمكنه القبول بالعرض؛ فإذا سمح للأجانب بمساعدة الأرمن فسيستمر هؤلاء في الأمل في حدوث تدخّل خارجي. وعليهم في المقابل أن يعدوا الأتراك المحسنين الوحيدين عليهم. وأجاب وزير الحرب بالنفي، إذ يمكن تركيا الفتاة التعامل مع أعدائها الداخليين بأفضل من الألمان. وإذا شاء لبسيوس المساعدة، عليه أن يوفّر أموال المساعدة الإنسانية لأنور(23).

لا تترك رواية لبسيوس للقائه الوجاهي مع الرجل الذي يقود جهود الحرب مجالًا للشك في ماهية نيات نظام تركيا الفتاة. وتؤكّد رواية هنري مورغنثو صيغة القس الألماني وتتوسع فيها. فقد حافظ مورغنثو، عندما كان سفيرًا لأميركا في القسطنطينية ما بين 1913 و1916، على اتصال منتظم بزعماء تركيا الفتاة، وبخاصة مع طلعت الذي أخبره بعبارات أكثر فظاظة عن ماهية السياسة المعادية للأرمن. وعندما حاجج مورغنثو، في أحد اللقاءات في آب/أغسطس 1915، مطالبًا بالمساواة في المعاملة بين جميع المواطنين، أجابه طلعت: «ما من فائدة من محاججتك، فقد سبق أن تخلّصنا من ثلاثة أرباع الأرمن؛ لم يبق أحد منهم على الاطلاق في بيتليس وفان وأرزروم. وقد بلغ الحقد بين الأتراك والأرمن الآن درجة كبرى من الحدّة بحيث أن علينا الانتهاء منهم. وإذا لم نفعل فسيخططون للانتقام». وأضاف طلعت: «طلبت منك الحضور إلى هنا لأعلمك أن سياستنا الأرمنية محدّدة في شكل مطلق ولا يمكن شيئًا أن يغيّرها. لن يكون من وجود لأي أرمني في أي مكان من الأناضول. لا يمكنهم العيش في أي مكان آخر غير الصحراء»(24).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخروج

انتهت أخيرًا الحرب الرهيبة التي سُميت لسبب مريب ما «الحرب الكبرى»، وانتهت معها المجازر. كان لبسيوس في ألمانيا يسوّق لمبيعات كتابه الذي نُشر في 1916 وأعيد نشره في 1919 لجمع الأموال لمساعدة الضحايا. وكان كوانزلر لا يزال في أورفا ويؤدي دورًا رائدًا في استيعاب الناجين.

انحسرت موجات الترحيل بالفعل صيف 1916. وحاولت نساء وفتيات كثيرات من الناجين العودة إلى المدن التي أملن بالعثور فيها على أمان أكبر، لكنهن لم يحظين به دومًا. وقضت مهمة كوانزلر ومعاونيه «بتوفير الحماية للنساء والأطفال الذين يعاودون الظهور». واستقبلت زوجة كوانزلر الفتيات الأرمنيات اللواتي يواجهن خطر الزواج القسري من مسلمين. وبمساعدة في الغالب من نساء تركيات (لم تجذبهن فكرة وجود زوجة أخرى - وبخاصة مسيحية - في المنزل)، تنكّرت الفتيات كعربيات أو كرديات وأُخذن إلى إليزابيث كوانزلر التي نظّمت عبورهن إلى حلب حيث، ومن دون إذن رسمي، استأجرت منزلين للأيتام، «حرصت على إخفائهما عن أعين الشرطة»(25).

في وقت انتهت الحرب في 1918، تم تحرير جميع أولئك الأرمن الذين كانوا يعيشون مع أتراك. وهكذا تمكنت أمي، وكذلك والدي، من جمع الشمل مع أقارب أبعدين. وقد سُلّم كوانزلر، بعد الحرب، مسؤولية مبنى مؤسسة البعثة الأميركية فحوّله سريعًا ميتمًا. واحتل كوانزلر، مع ازدياد عدد الأيتام الذين لا مأوى لهم، الدير الأرمني في آذار/مارس 1919 واستوعبهم فيه.

ويدين الألوف من الأطفال الأرمن ببقائهم للعطف الإنساني الذي لاقوه من أفراد من السكان الأتراك. وقد أواهم أناس أتراك، كما حدث مع أبي وأمي، وبخاصة في المناطق الريفية. والصحيح أن عائلات التبني التركية استخدمت الفتية الأرمن في الحقول وهذه ليست بمعاملة مختلفة عن تلك التي يعاملون بها أولادهم. والصحيح أيضًا أن الكثيرين منهم أجبروا على أن يصبحوا مسلمين، وتم «تتريكهم»، إلا أن ذلك حدث في حالات كثيرة لحماية الأيتام من السلطات التركية. ولم تروَ قصة أولئك الأتراك والأكراد وغيرهم ممن تدخلوا لإنقاذ الأولاد الأرمن سوى من خلال التأريخ الشفوي، ومن خلال ذكريات أولئك الذين نجوا. ولكن يكفي توثيق أن ذلك «العطف والعزاء ظهرا وسط الوحشية والمعاناة، وأن الروح الإنسانية لم تنطفئ كليًّا قط»(26).

بيد أن الكثيرين من الأرمن، وقد صدمهم رعب القتل الجماعي، تاقوا إلى ملاذات أكثر أمنًا. أرادوا مغادرة تركيا. فمن امتلك منهم المال للدفع من أجل الانتقال غير المشروع إلى سوريا فعلوا ذلك، وأخذت أورفا، مثل غيرها من المدن، تخلو من السكان. وكتب كوانزلر: «ومن بقي أخيرًا من الناس هم

أولئك الذي لم يتمكنوا من تحمل نفقات النقل: الأيتام الذين يهتم بهم الأميركيون ومجموعة من الأناس الفقراء». ووجد في ذلك الوقت، في 1919، نحو عشرة آلاف يتيم بين أيدي الأميركيين، وهم أولاد أطلقوا من بيوت العرب والأكراد والأتراك الذين حموهم خلال المذبحة. وأبحر كوانزلر في مهمة ضخمة تتمثل في إخراج الأولاد. وقد تم نقلهم جميعًا، ما بين نيسان/أبريل وتشرين الثاني/نوفمبر، إلى لبنان. وحدث معظم ذلك بفضل جهوده. وكتب، «شكّلت المهمة فرحًا كبيرًا لنا ونحن نعدها أكثر مراحل حياتنا جمالًا»(27).

وفي حين أُنقذ ثمانية آلاف يتيم آل كوانزلر الشرفاء، شق آخرون، مثل أهلي، طريقهم إلى الأمان بمساعدة من أقرباء أبعدين طالبوا بهم بعد الحرب. وسافروا إلى ما أصبح اليوم لبنان وسوريا، والكثيرون منهم إلى فرنسا. إلا أن أميركا شكّلت الوجهة الأكثر جاذبية. وكانت والدتي ووالدي بين أولئك الذين توافر لهم ما يكفي من الحظ لبلوغ «الأرض الموعودة».

في 1922، تسلَّمت جوفار، ابنة عم والدتي التي كانت تسميها أبلة، رسالة من زوجها الذي كان في ووترتاون في ماساتشوستس. كتب أنه تلقّى زيارة من آنا ميراكيان، عمة والدي التي وصلت إلى الولايات المتحدة قبل ذلك بعام وأخبرته أن زوجته في أمان. وأبلغها، في رسالة ثانية، أن عليها السفر إلى الولايات المتحدة لكن عليها أن تترك الأولاد هناك. إلا أن أبلة، التي «تمتلك الكثير من الشجاعة»، كما قالت والدتي، رفضت القبول بأي شيء من ذلك. «فردّت في رسالة وأبلغته: «إما أن تدعني آتي ومعي هؤلاء الأيتام، وإلا لن آتي إليك. فليس لدى سيرانوش شقيقتي، وبوغوص ابن شقيقك، وأرتيميس ابنة عمي أحد هنا سواي». فوافق في النهاية، وطلب منا جميعًا المجيء».

كان الرحيل ضخمًا، كما تروي أمي القصة:

«أخذ من له أقرباء في الولايات المتحدة الأميركية بمغادرة القرية. سنأتي جميعنا إلى أميركا. إنه صيف 1923. وضبنا حاجياتنا وطعامنا وفراشنا. هناك قافلة تغادر إلى حلب في سوريا. كنّا أنا وسيرانوش أصغر من ركوب الحصان، فبنوا لنا صندوقين كبيرين يشبهان السرج، وجلسنا فيهما ونحن جاهزتان للرحلة. ضمت القافلة أربع عائلات، جميعهم من النساء والأولاد، إضافة إلى قادة القافلة وهم من الأكراد وقد شكّل نقل الناس من تركيا إلى حلب مصدر رزقهم.

كنا نركب طوال النهار، ثم نخيّم في نهايته ونشعل النار، ثم نفرش وننام في الحقول. ونواصل المسيرة عند الفجر. ولم أكن أرى، عندما نركب، سوى السماء ورؤوس الأشجار. لم تكن هناك من طرق معبّدة، بل دروب فحسب، غير أن قادة القافلة يعرفون إلى أين يمضون بنا.

لا أعلم كم استغرقنا بلوغ قرية ما من الأيام أو الأسابيع. فقد قطعنا الكثير من الممرات الجبلية الضيقة وعبرنا الكثير من الأنهر. وفيما نحن نعبر، في أحد الأيام، أحد الجبال المخيفة سمعنا طلقات رصاص. يوجد قطاع طرق هناك. خفنا من المضي فاستدرنا بأحصنتنا إلى القرية. خيّمنا من جديد، ثم سُلبنا ليلًا أمتعتنا. وأذكر أن أبلتي امتلكت حقيبة، كيسًا من النقود، رمته إلى اللصوص قائلة «هذا كل ما أملك. فأنا امرأة فقيرة ومعي ثلاثة أيتام». وغادروا في النهاية بعدما أخذوا بعضًا من وساداتنا وفراشنا.

رفض قادة القافلة مواصلة الطريق لأنهم خشوا على حياتهم. أرادوا التخلّي عنّا. فذهبت أبلتي وعمتي البعيدة مارغريت ديديكيان وسيدة أخرى لرؤية مسؤولي البلدة طالبات المساعدة أو قافلة أخرى ما تأخذنا إلى حلب. لم أعرف كم علينا بالضبط أن نقطع بعد من مسافة، غير أن علينا المضي في كل الأحوال. وأرسل مسؤولو البلدة في اليوم التالي ستة من الجندرمة لمواكبتنا مع القافلة. أذكر أنهم وضعوا جميعهم الذخيرة في شكل متقاطع على صدورهم. بدوا رسميين جدًّا وشعرنا بالأمان.

انطلقنا عند الفجر. وببلوغنا الممر الجبلي سمعنا من جديد طلقات الرصاص. لقد خططوا لسلبنا، سوى أن الجندرمة المزعومين كانوا هذه المرة جزءًا من عصابة قطاع الطرق!

وبنعمة من اللَّه، أو نتيجة الإيمان، سمها ما شئت، أصابت الرصاصات الموجهة إلينا أحد الجندرمة، فشرعوا في إطلاق النار بعضهم على بعض. عند هذا الحد أصدرت أبلتي الأمر بالعودة والاستدارة بالقافلة وبالجياد والانطلاق في قوة، وهو ما فعلناه. ولا يزال في إمكاني، حتى اليوم، أن أسمع أزيز الرصاص في أذني.

عدنا إلى حيث انطلقنا. وقمنا، وحدنا، بالتخييم في الحقول وانتظرنا مرور قافلة ثانية يمكننا الإنضمام إليها. شكّل الأمر معجزة: جاءت قافلة ثانية في طريقها إلى حلب وانضممنا إليها. سافرنا على مدى أيام وأيام كثيرة، وربما أسابيع، لا أذكر بالضبط.

وأخيرًا بلغنا عينتاب، صباح أحد الأيام، وبعدها مدينة حلب. ويا له من يوم سعيد! مكان آمن، ولا مزيد من التخييم في العراء، ولا مزيد من قطاع الطرق أو الخوف على حياتنا. كانت حلب، على ما أذكر، مدينة عظيمة كبيرة ذات متاجر رائعة للمعجنات وخانات جميلة نظيفة. نزلنا كلّنا معًا في خان كبير ذي أسرّة ناعمة ونظيفة وفناء نلعب فيه. شكّل الأمر، للمرة الأولى، متعة.

بوصولنا إلى الخان، طلبت أبلتي من بوغوص تفكيك صناديق السرج، وكسر عواميد زوايا كل صندوق، وعددها الإجمالي ثمانٍ. وكانت جعلت بوغوص، في

وقت سابق، يكدّس الليرات الذهبية، الواحدة فوق الأخرى، في كل من الأعمدة. وأنقذت بهذه الطريقة ثروتها كلها، الذهب والمزيد من الذهب، لتحملها معها إلى أميركا. وُجد ما يكفي لملء حقيبة مدرسية. كانت امرأة شجاعة ولديها الكثير من حسن الإدراك. فمن كان ليفكّر أبدًا في تخبئة قطع ذهبية في أعمدة صندوقين يسافر فيهما اثنان من اليتامى؟

بقينا في حلب ثلاثة أشهر أو أربعة في انتظار أوراق الهجرة. وكان علينا نحن اليتامى الثلاثة، أنا وسيرانوش وبوغوص، أرتيميس يراميان، أن نذهب إلى أميركا مع أبلتي. كنّا أولادها وأولاد زوجها جون ميليان بالتبني وقد وفّر لنا كل شيء. كنت في الثامنة وسيرانوش في التاسعة وبوغوص في السادسة عشرة. قصدنا مرات عدّة القنصل الفرنسي. فحلب السورية كانت في ذلك الوقت تحت الحكم الفرنسي. التُقطت صور لنا، وملأنا الأوراق، إلى ان غادرنا حلب أخيرًا ومضينا إلى الشاطئ لركوب سفينة إلى مرسيليا.

كان الأمر رهيبًا. فقد تم تكديسنا كالماشية في قعر السفينة، ولم نتمكن من تناول الطعام الذي قُدّم إلينا. الأمر مروّع؛ أصيب الجميع بدوار البحر وتقيّأوا في كل أنحاء المكان.

من حسن الحظ أنها رحلة قصيرة. أبررنا في مرسيليا، فرنسا. وقصدنا أحد الخانات، وشعرنا مرّة أخرى بالراحة. كانت نسيبتي أبلة تعرف عائلة ما هناك قمنا بزيارتها. أخذونا إلى متجر للملبوسات واشترت لنا عمتي فساتين جميلة وأحذية للذهاب إلى أميركا. شكّلت تلك تجربة رائعة: ثياب جديدة، أصدقاء جدد، طعام فرنسي لذيذ، وشوكولاتة - إنها المرة الأولى التي أتذوق فيها الشوكولاتة - لذيذة جدًّا.

ركبنا القطار من مرسيليا إلى باريس. وهي المرة الأولى أيضًا التي نركب القطار، يا له من شعور رائع! نزلنا في باريس، حيث أمضينا الليل، ثم ذهبنا إلى الهافر حيث صعدنا إلى متن السفينة البخارية الفرنسية، الأس.أس. سافران فرانش لاين S.S. Suffren French Line. حصل ذلك في تشرين الثاني/نوفمبر، ربما في اليوم الأول أو الثاني من الشهر. ورأيت وأنا أنظر من كوَّتي أن الطقس بارد وماطر، إلا أننا سعدنا بالمجيء إلى الولايات المتحدة الأميركية، الأرض الحرّة، بعيدًا من كل البؤس والقمع التركيين. أميركا، أميركا، أرض الحرّية!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

تمزّق بين الدولة القديمة والجديدة(28)

تمكن أهلي من الوصول إلى أميركا التي شكّلت بالنسبة إليهم خطوة واحدة تفصلهم عن الجنة. ذهبت أمي لتعيش مع عائلة نسيبتها وأمها بالتبني أبلة وزوجها جون مليان في ووترتاون في ماساتشوستس التي ضمّت جالية مهاجرة أرمنية آخذة في الازدهار. تعلّمت الإنكليزية سريعًا وكانت تلميذة نموذجية أرادت مواصلة دراستها لولا أنها اضطرت إلى البحث عن وظيفة ما إن بلغت سن العمل. عثرت على عمل في معمل ألبسة يصنع ثيابًا للأطفال وكسبت 49 دولارًا في الأسبوع، وهو مرتب جيد في تلك الأيام. وخلال عملها كخياطة، قاربها منظمون نقابيون من الحزب الشيوعي الأميركي لتجنيدها في الثورة ضد الرأسماليين في واشنطن. وأبلغتهم في بساطة، على رغم عدم امتلاكها ثقافة سياسية، أنها شاكرة لكونها في أميركا وأن لا شكاوى لديها من الحكومة أو النظام.

عاش أبي مع والديه اللذين تبنّياه «بحكم الأمر الواقع»، وهما آنا وقره بت ميراكيان اللذان تربطهما صداقة بآل ميليان. التحق هناك بالمدارس الرسمية المحلّية إلى أن أصبح قادرًا على العمل في سن السادسة عشرة. وجد عملًا في غسل الأطباق في أحد فنادق بوسطن، والتحق بمدرسة ليلية ليتأهل للعمل في مجال السيارات. وما إن حصل على شهادته حتى افتتح، مع ثلاثة شبان آخرين، محلًا لتصليح السيارات. وعند هذا الحد التقى أرتيميس، زوجته المستقبلية. بعد ذلك بسنتين ضرب الكساد الإقتصادي الكبير وقضى، من بين أمور أخرى، على مرأب تصليح السيارات الناهض خاصته. وتمكن وشركاءه، بفضل أحد المحسنين من «يونايتد ستايتس تراست كومباني»، من شراء مرأب في آرلينغتون، أصبح في وقت لاحق، في 1936، وكالة لبيع سيارات شيفروليه.

تزوجت والدتي ووالدي في 30 تموز/يوليو 1932، في عز الكساد الإقتصادي الكبير، ولذا كان عرسهما متواضعًا فترأسه قاضي صلح وشاهدان وتبعه شهر عسل من ليلة واحدة في أحد فنادق بوسطن.

كان والدي مواطنًا أميركيًّا متكرّسًا. وعندما تم مع نشوب الحرب العالمية الثانية وقف انتاج السيارات في الولايات المتحدة في شباط/فبراير 1932، وتم تحويل كل القدرات الإنتاجية نحو الإنتاج العسكري، أصبح فجأة عاطلًا من العمل كبائع للسيارات. إلا أن بطله، فرانكلين ديلانو روزفلت، نظّم مشاريع بديلة لمن يعملون في هذه الصناعة. فقد أخذ والدي أسطوله من الشاحنات إلى مقاطعة يوكون في ألاسكا للعمل على طريق «ألكان» (الاسكا-كندا) السريع، وهو مشروع يربط الولايات المتحدة بألاسكا عبر كندا، وهو جزء من

المجهود الحربي منذ 1942. وأرسل بعد إنجاز الطريق في 1943 للعمل في مشروع تشاينا ليك في صحراء موجافي في كاليفورنيا حيث يتم انتاج الطوربيدات وغيرها من العتاد البحري واختبارها.

وتمكنا، في ظل مثل هذا الكساد، من أن يؤسّسا عائلة. وحافظا، على رغم التزامهما الحلم الأميركي، على هويتهما الأرمنية ومررا هذا الإرث إلى أولادهما. وقد تم تعريفنا، نحن أبناء الجيل الثاني، بالقداديس الطويلة في الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية ببخورها وموسيقاها الكورسية البديعة التي تُنشد بأرمنية كرابار القديمة، إضافة إلى الدروس الأسبوعية بعد المدرسة التي تعطيها امرأة عجوز فقدت أسنانها، حسنة النية، لكنها غير مُدرّبة جدًّا على ذلك.

كنا، في أيام الآحاد العادية، إما نتناول الغداء في المنزل، وإما ينتهي بنا المطاف، بعد «رحلة الأحد بالسيارة»، في منزل أهل والدتي بالتبني، أبلة وعمّي، أو في منزل أهل والدي بالتبني، ناني وبابا. وكنا نطلق عليهما بالتوالي اسم «ناني ووترتاون» أو «ناني مدفورد» بحسب مكان إقامة كل منهما. لم أفهم في الحقيقة قط من هم بالنسبة إليّ. فلم يتحدث أهلي قط عن أهلهما، وصور العائلة الفوتوغرافية الوحيدة التي امتلكناها في منزلنا هي صور صغيرة لوالد كل منهما. وكان كل من «الناني» و«البابا» بمثابة البديل. كانوا حنونين، غير أنهم ليسوا بالجدود الحقيقيين وكان لهم أولاد - ولاحقًا أحفاد - خاصون بهم.

كانت غداوات يوم الأحد، على رغم الاختلافات في المنزل والاسم، متشابهة في كلا المنزلين. وهناك تلقينا نحن الأولاد أول تثقيف غير رسمي لنا عن الإبادة التي كانت تُعرف يومذاك بـ «المذابح».

ما إن نصل إلى منزل هذه الناني أو تلك، حتى تبدأ الشعائر. فيتم تبادل التحيات بين البالغين مع القبلات على الخدين. وكان الاجراء مختلفًا، بالنسبة إلينا نحن الأولاد، وموجعًا بعض الشيء. فقد تعود كل من العم وبابا الإمساك بي من عنقي بالسبابة والإبهام، فيهزّان رأسي إلى الوراء والأمام، كما لو أنهما يهزّان مجموعة من المفاتيح، وهما يرددان، «أرفور أغتشيغ» (طفلة لطيفة). وكانت رائحة التبغ التي تفوح من العم وبابا مَلْمَحًا يضاف إلى طقوس الترحيب. أحب العم تدخين الغليون، فيما بابا يلف سجائره الخاصة وهي مهمة فيها بعض من التحدّي بما أنه فقد الكثير من أسنانه ويكافح لترطيب الورقة بلسانه من دون أن ينفرط عقد التركيبة كاملًا. وكانت «النانتان» تكتفيان بقبلة حضارية.

كانت ناني مدفورد، عمة والدي، امرأة صغيرة الحجم، دقيقة النظافة وأنيقة المظهر. وكانت ترتدي دومًا الرمادي و/أو الأسود، كما لو أنَّها في حداد دائم، وربما تلبس تنورة رمادية من الغبردين تصل إلى منتصف الساق مع قميص سوداء من الساتان وسترة رمادية. وكانت تضع أيضًا بروشًا إما من الفضة مع جوهرة صغيرة أو اثنتين، وإما من الذهب ذي اللمعان التزييني الطفيف. وكانت ترفع شعرها الذي أخذ يضرب فيه الشيب وتعقده في لطف إلى الوراء، وتعطيه من الأمام شكل ثلاث كتل مستديرة عند الأعلى وفي كل من الجهتين؛ وكانت هذه التشكيلة الثلاثية بكاملها تثبت في مكانها بشبكة شعر غير مرئية. وهي تحمل على معصمها اليسرى وشم الصليب الذي يشهد على حجها إلى القدس الذي يفترض بالأرمن القيام به مرّة في حياتهم. (يوجد مقام بديل في اتشميادزين، وهو كرسي الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية وكان يومذاك في جمهورية أرمينيا السوفياتية). وتعطي قامتها القصيرة وحركاتها السريعة والصامتة، الشبيهة بتحركات طائر الطنّان، الانطباع الخادع بالضعف، لكنها كانت قوية. فكلما أخذ بابا يصبح مزعجًا نتيجة تناوله قدحًا أو اثنين أكثر مما يجب من الراكي الذي يخمّره في المنزل، تختفي ابتسامتها الهادئة العذبة، وتصبح عيناها خرزتين سوداوين باردتين كالرصاص، ويتحول حاجباها من هلالين جميلين إلى جانبي علامة «»، ويبلغ صوتها الناعم جهارة لم تُسمع من قبل فيما تقفز نغمة صوتها «أوكتافًا» كاملًا.

وكانت ناني ووترتاون، أبلة أمي الحبيبة، أكبر بضعفين على الأقل من حجم ناني مدفورد، طولًا وعرضًا وعمقًا ووزنًا. وتكسو جسمها الممتلئ فساتين ذات ألوان زاهية مخططة أو منقّطة على ما تكونه درجة اليوم. وكانت حلقات الأذن الكبيرة، الثقيلة والذهبية، وهي بلا شك من المخبأ الذي أخفته عن قطاع الطرق، تشدّ بشحمتي أذنيها نزولًا. وكان وجهها الكبير مستطيلًا أكثر منه مستديرًا مع عينين ثاقبتين متقدتين، وفم ممتلئ تستخدمه كسلاح. وكان وضعها المميز وقوفًا مرتفعة الرأس وقدماها ثابتتان على الأرض وقبضتها اليمنى مثنية عند خصرها؛ أو أنها تشبك ذراعيها، بدلًا من ذلك، حول صدرها الوافر. وصوتها عندما تتكلم أشبه بالموسيقى؛ وعلى رغم أن صوتها الأوبرالي من طبقة «السوبرانو»، كان يمكنها أن تخفضها إلى أدنى نوطات «الألتو» وتطلق نبرة توبيخ تجعلني أهرب بحثًا عن مخبأ. وكان العم، زوجها، وديعًا، ناعم الكلام جدًّا ومرحًا.

ويشكّل الطعام محور اجتماع الأحد. وكانت أبلة وناني، كلتاهما، طباختين ماهرتين وتحضران ما تسميه والدتي «طاولة جميلة». ويعني غداء الأحد تقليديًّا الدجاج المحمّر أو المشوي، والرز مع اللحم والخضر، والنبات (اللوبياء الخضراء أو البامية)، وخليط السلطة. كنا، بعد أن نفرغ صحوننا كما يتوجّب علينا ذلك، ننتقل جميعنا إلى غرفة الجلوس حيث يتم الشروع في نظام

شعائري آخر. يجلس الرجال (باستثناء والدي المعادي العنيد للتدخين) ويشعلون نرجيلاتهم أو السيجار الأميركي الأكثر تقليدية، أو يلفون سجائرهم الخاصة، بينما ترفع النساء الأطباق عن الطاولة ويحضّرن للفصل التالي وهو الحلوى. ويتم في هذا الفصل التوسع أكثر في المواضيع المثيرة للجدل التي سبق أن أثيرت إلى طاولة الغداء فتزيد حماوة الانفعالات. وبما أن كل الكلام يتم بالأرمنية فإنني لم أكوّن فكرة كبيرة عن الأمر. فالجمل المتكررة الوحيدة التي أمكنني التقاطها كانت «الأتراك»، «المجازر»، «الدولة القديمة»، وإلى ما هناك. فقد عاشت المربيتان الصدمة في أرابكير فيما زوجاهما في أميركا. وتوجد صورة كبيرة معلقة على الجدار في منزلي المربيتين تظهر شكل امرأة تجلس واجمة ورأسها مستند إلى يدها اليمنى في ما يبدو أنه مقبرة وسط علامات الدمار والخراب. وهذه الصورة، كرسمة أو كتطريز، معروضة في شكل بارز هنا كما في معظم البيوت الأرمنية. وعلمت لاحقًا أنها تمثّل أرمينيا تنتحب على موتاها. وينتهي الأمر في غداءات الأحد، بالمربيتين اللتين ترتديان الأسود في العادة، وكذلك بأمي، إلى البكاء. وقد بدون في شكل لافت أشبه بصورة أرمينيا الأم وهي تنتحب.

اتضح لي وأنا طفلة، على رغم عدم إعطاء تفاصيل (أقله ليس بالإنكليزية) عن سبب نحيبهن، أن مأساة رهيبة حلّت بأهلي وعائلتيهما، وأنهم قاسوا ألمًا ذا طبيعة وأحجام لا طاقة لي على تخيلها. ولم يكن إلا بعد ذلك بعقود، في سنوات 1990، وبعدما قرأت مسودة مذكرات أمي، أن أدركت ما مروا به مع جيلهم كله. وانتحبتُ لدى قراءتي للمرة الأولى تلك الملاحظات المدونة بخط اليد. وعثرت بعد ذلك بسنوات على رسالة كانت كتبتها للالتحاق بمساق دراسي بالمراسلة لتعليم البالغين، شرحت فيها أنها، وقد عجزت عن إكمال دراستها، تريد تحسين نفسها كرمى لأولادها.

وقد التحقت بالمساق الدراسي وأُرسلت إليها طبعات من أعمال شكسبير إضافة إلى أعمال مؤلفين عظماء آخرين. وقد تعودت إلقاء شكسبير لأولادها، وهي تؤدي بنفسها كل الأدوار. وكانت مسرحيتها المفضلة «تاجر البندقية» التي حاججت من خلالها في حماسة من أجل العدالة بموجب سنة اللّه. ومرة أخرى، انتحبتُ وانتحبتُ لما استذكرت لاحقًا تأديتها دور بورتيا.

ومن النفاق والخطأ أن أقول إنني امتلكت، وأنا طفلة، تفهّمًا عميقًا لما كابده أهلي وأبناء جيلهم. فما تلقّيته من غداءات الأحد هو رسالة تفيد بوقوع ظلم رهيب في حق والديّ كممثلين للأناس المتحضرين، ويجب تصحيح هذا الخطأ بطريقة من الطرق. ولن أحصل، إلا لاحقًا، على بعض الفهم الثاقب لما حدث تاريخيًّا. فقد نشأت على شعور بخسارة عميقة، ولو غير محدّدة، لأمر له

علاقة بصفة كوني أرمنية، ولكن في الوقت نفسه بالتزام القتال لوضع حد لمصدر مثل هذا الجور على رغم أنني لم أمتلك فكرة جيدة عما يكونه ذلك.

نفث أهلي فيّ وفي أشقائي حسًّا بالتفاؤل والتصميم العظيمين. ولا بد من أنهما نَجَوا من الإبادة لسبب من الأسباب. وكان والدي، في صفة خاصة، رجلًا كثير التديّن لم يتوقف قط عن الشكر لنجاته. وأسهم طوال حياته في القضايا الخيرية سواء بالنسبة إلى نادي الفتية في الديار أو إلى يتامى الأراضي المقدسة. وكان بعض القرارات التي يتخذها في قضايا العمل تصوغه في أكثر الحالات خبرته كيتيم أكثر منها أي اعتبار مالي؛ فأجّر بالتالي إحدى ملكياته إلى وزارة الخدمات الإجتماعية بدلًا من تأجيرها إلى شركة نيو إنغلند الهاتفية التي كانت لتدر عليه أرباحًا أكثر، والسبب هو أن الأولى تهتم بالعائلات المحتاجة.

وكان هو ووالدتي، للسبب نفسه، مستعدين لبذل أي تضحية للتأكد من تمكن أولادهما من متابعة التعليم الذي حرمتهما إياه الظروف. وقد تصوّرا بطريقة من الطرق، على رغم عدم حصولها على التعليم العالي، أن على أولادهما الوصول إلى أعمال العقول العظيمة التي أنتجتها الحضارة. ولذا اشترى والدي عددًا من سلاسل الكتب المهمة التي تضمنت مجموعة لا تقل عن 25 جزءًا أصدرتها «والتر بلاك إنك» في نيويورك. وهي راوحت بين أعمال شكسبير وهاوثورن، كوبر وبو، فولتير وبودلير، تولستوي، دوستويفسكي وتشيكوف. وتضمنت سلسلة أخرى سير حياة رجال ونساء مشهورين. وحصلنا كمرجع على دائرة معارف «كولييرز» بتغليفها الثقيل والقاسي وورقها المصقول مما جعل كل جزء منها يبدو كأنه يزن طنًّا. وتلقينا التشجيع على الانضمام إلى مكتبة البلدة، وعلى القراءة والقراءة والقراءة - «أحسنوا استغلال ذهنكم».

لو قُدّر لوالدي لكرّس نفسه لدراسة العلوم، ربما الهندسة أو علم الفلك، لذا نقل إلينا محبّته للتقدم بشرائه آخر الأجهزة التكنولوجية التي تمخّضت عنها حقبة ما بعد الحرب. فقد امتلكنا منذ زمن سحيق جهاز راديو، وجهاز فونوغراف يعبّأ باليد وله بوق هائل الحجم كما يظهر في الصورة الشهيرة للكلب المستمع إلى «صوت سيّده». وهو لا يلعب الأسطوانات وحسب، بل يحفرها. وقد جعل والدي نفسه متضلعًا من التسجيل بحيث أنه خلّد كل الخطابات المهمة التي ألقاها بطله روزفلت - إعلان الحرب بعد بيرل هاربور، على سبيل المثال، إضافة إلى الكثير من خطاباته غير الرسمية إلى الأمة - على اسطوانات سرعتها 78 دورة في الدقيقة. وامتلك آلات تصوير من كل الأجناس والأشكال، إضافة إلى آلة تصوير سينمائية، وقد اشترى مقطعًا ليتمكن من منتجة شرائط أفلامه. ولما تم تطوير التلفاز، اشترى واحدًا من

أول النماذج ووضعه في فخر على طاولة كرة الطاولة في القبو. تجمع أفراد العائلة كلهم حول الآلة الجديدة التي يبلغ حجمها حجم صندوق الكلينكس، وحدّقوا مذهولين بالصورة التي ظهرت على الشاشة بالنقاط البيض والسود: وهي كانت لرزمة من علكة «ريغلاي» يتم الاعلان عنها. وهي صورة لم تتحرك، بل اكتفت بالظهور هناك على خلفية بيضاء فيما المعلن غير الظاهر يقوم بعملية الترويج. وقد صعب علينا الأمر. وجاءت في وقت لاحق عملية البث الحي ذات الأهمية التاريخية إلى غرفة جلوسنا: من تتويج الملكة إليزابيث الثانية (1952)، إلى دفن جوزف ستالين (1953)، إلى جلسات استماع السيناتور ماكارثي (1954).

ولقيت اختراعات مثيرة أخرى وتقدّمات علمية استقبالًا حماسيًا، بخاصة كل ما له علاقة باستشكاف الفضاء. اشترى والدي مرقابًا ليتمكن من التحديق بالنجوم، ولم يفوت قط موضوعًا في الصحافة أو على التلفاز يتعلق بالسفر في الفضاء. وشكّل تعهّد جون ف. كنيدي إنزال رجل على القمر، عقب النجاح السوفياتي في إطلاق السبوتنيك في 1957، خطوة أخرى إلى الأمام في عرف بطله روزفلت، وقد شاركناه، نحن الأولاد، حماسته هذه.

أحدث سبوتنيك والرد الأميركي عليه ثورة، بين ليلة وضحاها، في دراساتنا الثانوية. أصبحت العلوم والحساب فجأة مواضيعنا المفضّلة، وأعطيت دروس خاصة باللغة الروسية من خارج المنهج وبعد ساعات الدراسة. ولما أطلق جون ف. كنيدي برنامجه الفضائي، أدى ربما أكثر من أي عمل سياسي وحيد آخر إلى إشعال جيل أميركي كامل بالحماسة للعلوم. فقد أراد الجميع أن يصبح رائد فضاء، أو أقله فيزيائيًّا أو أي عالم آخر.

كانت الرسالة التي وعظنا بها والدي مرارًا وتكرارًا واضحة: تعلّموا، ادرسوا، واعملوا على تحسين ذهنكم. وتعود أن يقول إن هناك أمرين في الحياة مفروضًا عليكم القيام بهما: الموت ودفع الضرائب. ولذا عليكم بالدراسة والتعلّم وتحقيق أمر ما بذاتكم لتتركوا العالم أفضل(29).

وعندما انقلب العالم رأسًا على عقب في الولايات المتحدة في سنوات الستينات، مع أزمة الصواريخ الكوبية، واغتيال جون ف. كنيدي المحبوب، وحركة الحقوق المدنية واغتيال مقاتليها العظام مارتن لوثر كينغ وروبرت كنيدي ومالكولم إكس، كان الخيار المطروح أمام جيلي واضحًا: هل تستسلمون للثقافة المضادة التي تقول لكم بنسيان أمر العالم الخارجي وباستخدام المخدرات لاكتشاف كائنكم الدفين، أم تبحثون عن الوسائل الآيلة، في العالم الحقيقي، إلى تصحيح الأمور السياسية والإجتماعية الخاطئة في المجتمع؟ وأنا على يقين أن الفضل يعود في جزء كبير منه إلى وقع تجربة أهلي في رفضي مفاتحات الداعين إلى ثقافة المخدرات من أمثال الأستاذين

في هارفرد غوردن أللبورت وتيموثي ليري، وفي التحاقي في البحث عن الالتزام السياسي لبناء عالم أفضل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا لم يكن الأتراك، فمن إذًا؟

تكشف روايات والدتي ووالدي واقعين عاريين: أولهما هو أن إبادة الأرمن حدثت بالفعل، إذ لا يمكن أي طفل أن يخترع مثل هذه القصص. وثانيهما هو أن الأحداث المأسوية لم تشكّل تعبيرًا عن العرقية المعادية للأرمن من جانب «الشعب التركي». فما كنت حيّة اليوم وأكتب، لو لم ينتبه الراعي إلى صراخ تلك الطفلة الأرمنية وسط حقل من جثث الموتى، ويأخذها إلى الجامع؛ أو لو لم تفسّر المرأة التركية، غلناز، توق الطفلة إلى الحماية على أنه إشارة من اللّه. وما كنت هنا لو لم تطلب المرأة التركية الأخرى من عنصر الجندرمة توبال نوري أن يدع والدي وشأنه، أو لو لم تقدّم إليه امرأة تركية أخرى الطعام والمأوى.

وأفاد لبسيوس وكوانزلر وغيرهما عن حالات كثيرة تحدّى فيها أتراك القانون وأووا أيتامًا أرمنًا(30).

وبالتالي، إذا لم يكن «الأتراك» هم المسؤولون عن المذابح، فمن يتحمّل مسؤوليتها إذًا؟

توجد ثلاثة مستويات من المسؤولية. فهناك، على مستوى الأرض، فرق القتلة. وقد تشكّلت في 1914 وتألّفت من مُدانين مُحررين وأفراد عصابات وأكراد، وقد تلقوا تدريبًا خاصًّا. وجمع هؤلاء العناصر في وحدتين أطلق عليهما اسم التشكيلة الخاصة (تشكيلات - أي مخصوصية)، وقيل إنهما تضمّان ما بين 30 ألف عنصر و40 ألفًا أنيط بهم «الأمن الداخلي»، وقضت مهمتهم بتصفية الأرمن. وعرفوا أيضًا بـ «الشيت» وهي كلمة تركية مشتقة من «شيتلير» (العصابة، قطاع الطرق).

وتوجد في المستوى المتوسط «اللجنة التنفيذية الثلاثية»، التي تدير فرق القتلة. وقد أنشأتها قيادة تركيا الفتاة في شباط/فبراير 1914 وتضم الدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور محمد ناظم ومدحت شكري. واعتنت هذه اللجنة «التي أنيطت بها سلطات واسعة جدًّا، بوضع كل تفصيل تقني لترحيل الأرمن وإبادتهم مثل الإطار الزمني بحسب المنطقة والطرق التي سيسلكها المرحّلون ووجهتهم ومواقع الاعتقال والمزيد من الإبادة، إلخ»(31). وتولّى الدكتور شاكر، الذي تلقى تدريبه في باريس، رئاسة القسم السياسي لتركيا الفتاة. وقد تعاطى حصرًا بالنشاطات الداخلية ولم يتولّ قط منصبًا سياسيًّا. واشتهر الدكتور ناظم بأنه الشخص الأكثر نفوذًا من وراء الكواليس ويُعدّ «متعصّبًا مكفهّرًا»(32).

ووُجد على المستوى الأعلى قادة تركيا الفتاة (الذين عُرفوا رسميًّا بجمعية الاتحاد والترقي(: طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا الذين استنبطوا السياسة. ولكن، من هم حقًّا عناصر تركيا الفتاة؟

كانت قاعدة الجمعية في سالونيك، وهي موقع غريب في مقدونيا التي شكّلت مركزًّا للكثير من الجمعيات السرّية. وقد انطلقت جمعية الاتحاد والترقي في 1889 حركة طالبية في كلية الطب العسكرية الأمبراطورية في القسطنطينية تعارض نظام الحكم الملكي للسلطان عبد الحميد الثاني، وتدعو إلى اعتماد النظام البرلماني(33). فشلت محاولتها الأولى للقيام بانقلاب، فنفي أفرادها وأنشأوا وحدات في باريس وجنيف وسالونيك وغيرها. وضمت وحدة باريس «سيلانيكلي» ناظم، وكان يومذاك طالبًا في الطب، وأحمد رضا الذي أنشأ صحيفة «مشورات» على أنها نشرة رسمية تروّج لأهداف المجموعة في الإصلاح وفي تتريك كل أفراد الأمبراطورية. وكان مصطفى كمال، مؤسس تركيا الحديثة الذي عُرف لاحقًا بأتاتورك، نقيبًا في الأركان العامة متمركزًا في دمشق. أنشأ في 1906 جمعيته السرّية الخاصة، واسمها «وطن»، مع عسكريين آخرين مناوئين للسلطان، وقد توسّعت الجمعية إلى يافا (حيث مقره) والقدس. وسافر مصطفى كمال في تلك السنة إلى سالونيك حيث وسّع منظمته بتجنيد عناصر من الجيش الثالث. وكان الكثيرون من أعضاء تركيا الفتاة المنفيين تجمعوا حينذاك في سالونيك. واندمجت مجموعة مصطفى كمال مع جمعية الاتحاد والترقي، لكنه لم يكن قط جزءًا من الحلقة الداخلية(34).

وهناك، عمل محمد طلعت، الشخصية الأهم في جمعية الإتحاد والترقي، مع جمال بك، المتخرج في الكلية الحربية، والرائد اسماعيل أنور الذي تمّ تجنيده من الجيش الثالث. وسيصبح ثلاثتهم لاحقًا «ثلاثي» الحكم. ووجد شخص محوري في عملية سالونيك هو إيمانويل كاراسّو، وهو، كما يوحي بذلك اسمه، ليس تركيًّا على الإطلاق، بل يهودي إيطالي(35). وكان مسؤولاً في «بناي بريث»، ومؤسس المحفل الماسوني الإيطالي المعروف بـ«مقدونيا المبعوثة» (Macedonia Risorta). وكان من كبار الماسونيين ليس محلّيًّا وحسب بل أيضًا من خلال شبكات الأمبراطورية العثمانية، وهو الذي خرج بفكرة توفير المحافل الماسونية لمجموعة طلعت. ونجح عناصر تركيا الفتاة، بنتيجة اجتماعاتهم في المحافل، في تجنيد الكثيرين من الماسونيين. وقدّرت جمعية الاتحاد والترقي حق التقدير الحرص الذي اعتمده الماسونيون في غربلة الأعضاء المحتملين وقدرتهم على العمل السرّي. وكانت طقوس الدخول في حزب تركيا الفتاة مماثلة في صورة لافتة، لتلك التي يمارسها البناؤون(36) الأحرار. ومن الناحية العملية فإن جميع عناصر تركيا الفتاة

تقريبًا كانوا أعضاء في المحفل الماسوني السرّي. وأصبح طلعت في 1907 معلّمًا أكبر لماسونيي المحفل الإسكتلندي في الأمبراطورية العثمانية(37).

لم يكن الرجل الذي أدار صحيفتهم، «التركي الشاب» Le jeune Turc، سوى فلاديمير جابوتينسكي، زعيم الحركة الصهيونية الذي سيشكّل لاحقًا منظمة الإرغون الإرهابية الشهيرة في فلسطين. (وكان أحد المساهمين في النشر ألكسندر هلبلند الذي تورط لاحقًا في تمويل الانتفاضات في روسيا.) وحدد جابوتينسكي سالونيك على أنها «أكثر المدن يهودية في العالم»، وهو تقويم شاركه فيه ديفيد بن غوريون(38). ويمكن بالتالي فهم لماذا ندد أعداء جماعة تركيا الفتاة في الأمبراطورية العثمانية بهم بصفة كونهم ملحدين وماسونيين. فقد شكّلوا جهازًا تآمريًّا جدًّا خاضعًا لسيطرة شديدة.

على أثر سلسلة من المؤتمرات السرّية لمجموعات المعارضة العثمانية، قادت جمعية الإتحاد والترقي الحملة لإجبار السلطان على إعادة العمل بدستور 1876 الذي علّقه في 1877، وإعادة دعوة البرلمان إلى الانعقاد. دعم مختلف طبقات الشعب مطالب جمعية الاتحاد والترقي، بمن فيهم البلغار المسيحيون ومسلمو مقدونيا ومعظم ضباط الجيش الثالث. وقد شرع الجيش الثالث، في 12 حزيران/يونيو 1908، في تحرّكه نحو القصر، فيما انخرط عناصر تركيا الفتاة في حملة إرهابية تولوا فيها اغتيال شخصيات مقربة من القصر(39). وأعلن الدستور في مدن مختلفة في مقدونيا، إلى أن أعلنه السلطان أخيرًا في 25 تموز/يوليو. وكان يفترض به أن يؤمّن حقوقًا متساوية لجميع قوميات الأمبراطورية. وعلى هذا الأساس قام التنظيم الأرمني الأقوى، الطاشناق، وغيره من المجموعات الإثنية في البداية بدعم تركيا الفتاة. وعلى رغم أن جمعية الاتحاد والترقي أعادت التأكيد أنها غير مناهضة للمسيحيين، وأن هدفها الوحيد إعادة العمل بالدستور، فإن هذا الالتزام الأولي حيال أمبراطورية متعددة الإثنيات والأديان، سرعان ما فسح في المجال أمام الانتصار للقومية المتطرفة أو للتتريك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«الأتراك جميعهم جيش واحد»

عُدت القومية التركية، التي أصبحت بعد 1911 الإيديولوجية المسيطرة لجمعية الاتحاد والترقي، الجنسية التركية، المُحددة باللغات التركية وبالشعوب التي تتحدثها، على أنها «العرق» التركي. بل أن مفهومًا أوسع، عُرف بالطورانية، تضمّن جميع الشعوب التي يُعتقد أنها تنحدّر من طوران، تلك المنطقة الشاسعة في وسط آسيا التي تمتد من الحدود مع الصين إلى الهند وبلاد فارس. وكان الرجل الذي نشر مفهوم القومية التركية والأمبراطورية الطورانية أرمينيوس (هرمان) فامبيري، اليهودي المجري ذا العلاقات الوثيقة مع وزارة الخارجية البريطانية بين 1899 و1911.

جال فامبيري، الذي يمكن أن يُعد رائد المدرسة الجغراسية، في أقاصي آسيا الوسطى في 1863، وسجّل انطباعاته في مجلّد نُشر في 1864، طرح فيه، وفي مؤلّف لاحق عن الإسلام في القرن التاسع عشر، مفهومه لـ«الطورانيين» و«الأتراك». وكتب: «في ظل العائلات الثلاث الكبرى للجنس البشري، يعيش العدد الأكبر من الأنفس التي تنتمي إلى إسلام اليوم المستقل في المكان الذي لم يكن للإسلام فيه في الأساس سوى العدد الأقل من الأنصار. وأعني بذلك الطورانيين الذين يشكل مسلموهم، بالحد الأدنى، عددًا أكبر بكثير من عددهم بين الساميين والإيرانيين معًا. فمن سواحل الأدرياتيكي إلى يونان البعيدة وكان - سو، يعانق الشعب الطوراني، تحت الأسماء الأكثر تنوّعًا، الحضر منهم أو البدو، وفي درجة متفاوتة من التفاني، تعاليم النبي»(40).

عَدَّ فامبيري «العثمانيين»... «هؤلاء الطورانيين المزعومين»، «شعبًا هجينًا في امتياز، لأنهم ليسوا أتراكًا خالصين بل يضمّون السلاف والأرمن واليونان والعرب وإلى ما هنالك. فالطورانيون الحقيقيون هم الأتراك، «والإيرانيون الذين يتحدثون التركية من تشوي إلى طهران»، والأتراك الموجودون في إيران بالذات والموجودون عبر القوقاز، والأوزبك، وغيرهم من شعوب آسيا الوسطى، بل وحتى الصينيون المسلمون. وتظهر رؤيته للحيّز الطوراني في خارطة ملحقة بكتاب رحلته، تحت عنوان «تركستان»، وهو يمتد من تركيا وبلاد فارس إلى «تركستان الصينية»(41).

وقد توافر لعناصر تركيا الفتاة في سالونيك الكثير من المنشورات المتعلقة بالقومية التركية والتي تعكس وجهة نظر فامبيري. وكان في إمكانهم قراءة مجلة «طوران» التي نُشرت هناك حتى 1912 ومن ثم في القسطنطينية، إضافة إلى مؤلف ليون كاهون «تمهيد لتاريخ آسيا. الترك والمغول من البدايات وحتى 1405»(42). والأهم هو أن المتمذهب التتريكي الأول كان

واحدًا من صفوفهم: محمد ضيا غوكالب، الكاتب والشاعر الذي يدّعي الفلسفة، والذي كان مقرّبًا جدًّا من طلعت وعضوًا حتى 1918 في اللجنة المركزية لجمعية الإتحاد والترقّي. وقد ساند في وقت لاحق أتاتورك. آمن غوكالب بوجوب تتريك الأمبراطولية العثمانية، وتصوّر إقليمًا وطنيًّا يمتد عبر روسيا وآسيا، ويشكّل تقريبًا كتلة الأرض نفسها المعبّر عنها في خارطة فامبيري السخيّة. وكتب في 1911 قصيدة تحت عنوان «طوران»، جاء فيها «لا تعني أرض الأجداد للأتراك لا تركيا ولا تركستان؛ فأرض الأجداد هي بلاد كبيرة وأبدية - طوران!»(43) وكان أحد الشعارات التي ابتكرها هو: «الأتراك جميعهم جيش واحد»(44). وتشكل تركيا، من وجهة نظره، المرحلة الأولى من ثلاث آخرها «الطورانية» التي تضم سكّانًا يبلغ عددهم مئة مليون(45). وشكّل هذا الصنف من القومية التركية، وبخاصة بحسب تحديدها الإقليمي، خطرًا على القوى الكبرى الأخرى، ولا عجب في أن المفكرين الجغراسيين البريطانيين روجوا له، بعض الوقت، كسلاح ضد روسيا.

وعقب ثورة 1908، نمت وفرة من الاتحادات القومية التركية في القسطنطينية وتكرّست، خصوصًا، للدراسات التاريخية واللغوية والثقافية وغيرها من الدراسات للشعوب الناطقة باللغة التركية؛ وقد أيد بعضها أعضاء تركيا الفتاة. وحظيت «تورك أوساغي» (قلب الأتراك) لدى نشوئها بكثيرين من عناصر تركيا الفتاة كأعضاء، وانضم إليها أنور إضافة إلى ضيا غوكالب. وبحلول 1914 كان الكثير من «القلوب» تأسس في أنحاء مختلفة، وبخاصة في أوساط الطلاب الذين نشروا الدعاية القومية التركية خلال الحرب. ورعى اسماعيل أنور شخصيًّا أحد اتحادات صبية الكشافة الذي خضع أعضاؤه للتدريب العسكري وأعطوا أسماء وألقابًا سابقة للإسلام وصلّوا للآلهة الطورانيين(46).

أدت تلك الإيديولوجية القومية التركية دورًا أساسيًّا في تكوين سياسة جميعة الإتحاد والترقي حيال الأرمن في سياق المؤتمرات التي عقدت خلف أبواب مغلقة في سالونيك. وقد نوقش، في تشرين الثاني/نوفمبر 1910، فرض التركية لغةً وحيدة في المدراس في مختلف أنحاء الأمبراطورية، إضافة إلى حملة لتشجيع الهجرة الوافدة للشعوب التي تتحدث اللغة التركية. ودار الحديث أيضًا على ترحيل جميع غير المسلمين «بقوة السلاح»(47). وواصل أعضاء الجمعية، في مؤتمرهم الذي عقد في 1911، الدفع في اتجاه مواصلة تعليم اللغة التركية وخططوا لوسائل الاتصال بالأتراك المقيمين في البلقان وإيران وروسيا(48). وأشير في الاجتماع نفسه إلى كل الأقليات بصفة كونها «كمية لا يُؤخذ بها»، وتمت الإفادة في سنتي 1912 و1913 عن أعمال تمييز وعنف(49).

استمر الأرمن في مساندة الأمبراطورية العثمانية وقاتلوا في حرب 1912 في البلقان، على رغم أن قادتهم السياسيين الأساسيين تخلوا سريعًا عن أي أوهام في شأن جمعية الاتحاد والترقي. وسعى الطاشناق بدلًا من ذلك إلى الدفع إلى اصلاحات في الأمبراطورية على ما لحظت معاهدة 1878 في برلين، وواصلوا، حتى عشية الحرب، تعهّد ولائهم للأمبراطورية.

غير أن جمعية الاتحاد والترقي أخذت تحكم مكيدتها في اتجاه آخر. وعلى رغم أن بعض زعمائها لم يتبوّأوا مراكز حكومية فور انقلابهم في 1908، فإنهم استمتعوا بالسلطة السياسية في شكل تدريجي: أصبح محمّد كافيت وزيرًا للمال في حزيران/يونيو 1909، وأصبح طلعت، بعد ذلك بشهر، وزيرًا للداخلية. وقاموا في كانون الثاني/يناير 1913 بانقلاب أنشئت على أثره «السلطة - الثلاثية»، أو ديكتاتورية الباشوات الثلاثة: أصبح أنور باشا وزيرًا للحرب وطلعت باشا وزيرًا للداخلية وجمال باشا حاكمًا عسكريًا للقسطنطينية ووزيرًا للبحرية. هذه كانت زعامة الحكومة العثمانية التي قادت المجهود الحربي.

ركّزت جمعية الاتحاد والترقي سلطتها إلى حد أنها كبحت السلطان وقصره. وبقي في إمكان السلطان، من خلال سلسلة الإصلاحات التي أدخلتها، تعيين الوزير الأكبر والشخصية الدينية الأرفع مقامًا (شيخ الإسلام)، غير أن الوزير الأكبر هو الذي يختار أعضاء الحكومة؛ وانتخب النواب نائبي رئيس المجلس اللذين يجب أن يوافق عليهما السلطان وحسب. وهكذا قيل إن السلطان «يسود لكنه لم يعد يحكم». وخضعت نشاطات العائلة المالكة لمراقبة جمعية الاتحاد والترقي. وأنشأ أنور باشا لجنة سرّية، يرأسها إسميًّا ولي العهد وتضم شيخ الإسلام وسعيد حليم باشا (وقد تولى سابقًا منصب الأمين العام لجمعية الاتحاد والترقي، وأيضًا منصب الوزير الأكبر في 1913)، ومهمتها تنظيم سلوك أفراد العائلة المالكة الذين لم يعد مسموحًا لهم بالمشاركة في الحياة السياسية أو أن يكونوا أعضاء في أي حزب؛ وإذا ارتأت جمعية الاتحاد والترقي، أو اللجنة، ذلك ضروريًّا فإنها قد تجبر العامة الذين تزوجوا من أي أميرات على الطلاق إذا عُدوا «أشخاصًا غير مرغوب فيهم». «وفي وقت بدأ وضع أطر هذه التنظيمات، تم تغيير الكثيرين من أعضاء حاشية السلطان وولي العهد وغيره من الأمراء. واستُبدل بهم منتسبون إلى جمعية الاتحاد والترقي فباتت العائلة الأمبراطورية تحت سيطرتها الكاملة». وليس ذلك وحسب: إذ في وقت عاد البرلمان إلى الانعقاد أواسط أيار/مايو، كانت جمعية الاتحاد والترقي احتكرت السلطة. «انتفت الأحزاب المعارضة، وامتلكت الجمعية الغالبية في البرلمان، وبات الجيش تحت سيطرتها، وبدا أن كل مصادر النزاع الداخلي والاحتكاك أزيلت»(50).

وهكذا لا يتبقّى أي شكّ في أن جمعية الاتحاد والترقي كانت، عند بداية 1914، الكيان السياسي الممسك بمقاليد السلطة وقامت معًا بتحديد السياسة وبتطبيقها. وهي التي تتحمل المسؤولية الحصرية عما أعقب ذلك في سنوات الحرب.

وُقّعت في الثاني من آب/أغسطس 1914 معاهدة سرّية مع ألمانيا تنص على التزام المضي إلى الحرب في حال تعرّضت ألمانيا أو النمسا لهجوم من روسيا. وقدّم عناصر تركيا الفتاة في الوقت نفسه سلسلة من الاقتراحات إلى السفير الألماني تتضمن واحدة تلميحًا إلى نياتهم المعادية للأرمن. فقد اقترحوا أن تعدّل ألمانيا حدودها الشرقية مع الأمبراطورية العثمانية من أجل تسهيل الاتصال التركي بالسكان المسلمين داخل روسيا. ويمكن تفسير ذلك أنه يعني وجوب القضاء على الوجود الأرمني. وعلى أثر الدخول الرسمي في الحرب في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1914، أشار أعلان الحكومة العثمانية إلى الحاجة إلى حدود طبيعية تجمع معًا «كل فروع عرقنا»(51).

إستُخدمت الأعمال العدائية ذريعة «لإعادة توطين» الأرمن، وشُرع في 1915 في أعمال الترحيل التي أدت إلى الإبادة. وكان طلعت، بحسب ما تم توثيقه، هو الدماغ الذي يقف وراء ذلك؛ فهو الذي أصدر الأوامر في 24 نيسان/أبريل 1915 باعتقال المفكّرين الأرمن في القسطنطينية، وأصدر في الأول من حزيران/يونيو 1915 قانون التطهير الذي يأمر بعمليات الترحيل. وتحدّث طلعت عن قتل جميع الأرمن(52)، وتباهى أمام شركائه: «أنجزتُ في ثلاثة أشهر على طريق حل المشاكل الأرمنية أكثر مما أنجزه عبد الحميد في 30 سنة»(53). وكان جمال، ومقرّه في دمشق كقائد لسوريا، يسيطر على معسكرات الاعتقال الموجودة في دير الزور وعلى المواقع التي استخدمت لقتل الأرمن.

بعد الهزائم العسكرية المدوية التي لحقت بالعثمانيين في الحرب العالمية الأولى، استجمع السلطان صفوفه وطرد أنور في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر 1918. واستقالت حكومة أنور بعد ذلك بعشرة أيام. ووطّدت هدنة مودروس في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1918 استسلام الأمبراطورية العثمانية، وهرب الثلاثي الحاكم للنجاة بحياتهم. وتمكنوا، في الأيام الثلاثة الأولى من تشرين الثاني/نوفمبر، بطريقة مريحة جدًّا، من الإفلات سالمين من البلاد.

خضعت الأمبراطورية العثمانية في 1919 للضغط البريطاني، ووافقت، أملًا منها في الحصول على معاملة أفضل من مؤتمر السلام المتوقّع، على أن تحاكم تركيا الفتاة بارتكاب جرائم حرب. واتهمت قيادة جمعية الاتحاد والترقي كلها بأن لها أهدافًا ووسائل إجرامية. وبما أن طلعت وأنور هما اللذان أدارا وزارات الدفاع والداخلية والحرب (وبخاصة التنظيم الخاص)، فقد

كانا أيضًا بين الملاحقين. واتهموا باللجوء «إلى عدد من الحيل الحقيرة والوسائل الخادعة»، لجر تركيا إلى الحرب، وباستخدامهم «هذه الأرضية المؤاتية لتنفيذ نياتهم السرّية». وكان الهدف الرئيس للجمعية هو «ذبح الأرمن والقضاء عليهم» وقد تآمروا في سعيهم إلى هذا الهدف «لإطلاق عصابات من المدانين من السجون» أوكلت إليهم من ثم مهمات «المذبحة» في التنظيم الخاص. وعلاوة على ذلك، فإن «مذبحة الأرمن والقضاء عليهم كانا نتيجة قرارات اتخذتها اللجنة المركزية للاتحاد». ورُفضت حجة أن عمليات الترحيل نبعت من الحاجة العسكرية؛ «لم تكن عمليات الترحيل إلّا إجراء أملته الضرورة العسكرية، لا عملًا عقابيًّا تأديبيًّا». بل إنها تعلّقت «بمجازر... بصفة كونها أعمالًا خاضعة لمخطط مركزي موجّه». وإضافة إلى كبار زعماء جمعية الاتحاد والترقي، حوكم أيضًا عضوا اللجنة المركزية ناظم وشاكر بصفة كونهما منظّمين طليعيين لفرق القتل.

دين زعماء الاتحاد والترقي وحكم عليهم، ولكن غيابيًّا لسوء الحظ، لأنهم تمكنوا بأعجوبة من مغادرة البلاد في الوقت المناسب. ومغزى المحاكمة والإدانات هو أنها أثبتت أن أولئك المسؤولين عن الإبادة يشكلون مجموعة قابلة للتحديد من العاملين السياسيين الذين كانوا في ذلك الوقت يديرون الحكومة والمجهود الحربي(54). أما العلميات الخاصة السيئة الذكر فقد حُلّت، لكنها دُمجت سرًّا بجهاز الاستخبارات السرّية التركي «أم. آي. تي». بعد 1923 (55).

وعلى رغم عدم تنفيذ أحكام الإعدام في مواقعها، إلا أنهم لاقوا جميعهم خالقهم في وقت قريب. فقد هرب طلعت إلى السويد، والآخرون إلى ألمانيا. وذُكر أن وكالات القوى العظمى - الاستخبارات البريطانية والاستخبارات السوفياتية - ساعدت في تحديد مكان وجودهم، ووافقت أيضًا على «وجوب» السماح للثوريين الأرمن بالقيام بعمليات الإعدام. وقد اغتيل طلعت في 15 آذار/مارس 1921 في برلين(56). وقتل الأرمن سعيد حليم باشا في السنة نفسها في روما. وقُتل القومي التركي المتعصّب أنور في آب/أغسطس 1922 وهو يقاتل ضد الجيش الأحمر في تركستان الروسية. وصفّى الأرمن محمد سيمال عزمي، وهو برلماني من جمعية الاتحاد والترقي، في 1922 في برلين، وكذلك كان مصير الدكتور بهاء الدين شاكر. ولاقى جمال المصير نفسه في السنة نفسها ولكن في تفليس.

وإلى أولئك الذين أرداهم الأرمن قتلى، أُعدم لاحقًا عدد من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بصفة كونهم مشتبهًا بهم في مؤامرة مزعومة ضد أتاتورك. وبينهم محمد كافيت الذي تولى منصب وزير التربية والمال؛ ومصطفى نايل بك الذي تولى المنصبين نفسيهما؛ والدكتور ناظم الشهير(57).

وبغض النظر عن تورطهم المزعوم أو الحقيقي في المؤامرة فإن اعداماتهم السريعة ضمنت أن يأخذوا معهم إلى القبر كل ما يعرفونه عن خفايا جمعية الاتحاد والترقي وتأثيراتها الخارجية. وفي اختصار: سُمح للمذنبين بالفرار و/أو تم إسكاتهم للقضاء على الدليل.

ولا يعني إبعاد هؤلاء المرتكبين الجوهريين أو الشهود عن الصورة على عجل، أنهم الجهات الوحيدة المسؤولة عن الإبادة الجماعية. فالسرّية القصوى التي تميّزت بها زعامة جمعية الاتحاد والترقي، وقد استمر وجود مقرها بحكم الأمر الواقع في سالونيك وعرضة لتأثير خارجي غير معروف، مما يبقي على الكثير من الأسئلة من دون جواب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بريطانيا «حليفة» تركيا

يبقى التورط البريطاني أحد الأسئلة الملحّة. فبالفعل، ومنذ وقت باكر يعود إلى 1903، كان الدور البريطاني مباشرًا عندما تآمر الليبراليان التركيان الأمير صباح الدين واسماعيل كمال للقيام بانقلاب على السلطان. وذُكر أن كمال طرح خطتهما على السفير البريطاني في باريس السير إدموند مونسون الذي سهّل دخوله إلى وزارة الخارجية في لندن حيث استقبله اللورد ساندرسون، وكيل وزير الخارجية الدائم للشؤون الخارجية، وتعهّد له توفير الحماية البريطانية ضد أي انتقامات روسية ممكنة(58). ولا يقلل واقع فشل الانقلاب أهمية الزاوية البريطانية.

ثم جاء انقلاب تركيا الفتاة في 1908. ولا يسع المرء، بقراءته الروايات عنه، إلا أن يرتاع للسهولة التي تكشّف فيها وللسرعة التي استسلم فيها السلطان. فلم تكن تركيا الفتاة تتمتع بقوة جماهيرية على الإطلاق؛ وكتب لبسيوس، «لم تكن تنظيمًا حزبيًّا بالمعنى الغربي، إذ تألفت وحسب من زعماء ولم تمتلك قاعدة جماهيرية خلفها. فهي ليست إلا مجرّد طبقة رقيقة من المثقفين الأتراك وعدّتهم»(59). والأكيد هو أن جمعية الاتحاد والترقي حازت دعم جزء من الجيش التركي بقيادة الجيش الثالث، وأثبت ذلك أنه حاسم. ومع ذلك يتساءل المرء كيف تدبروا الاستيلاء على السلطة في أمبراطورية قائمة منذ مئات السنين؟

كانت الأمبراطورية العثمانية أشبه بفاكهة مهترئة توجّب أن تسقط عن الغصن قبل ذلك بوقت طويل. وأضحت ألعوبة في أيدي القوى العظمى التي سيطرت على اتصالاتها وجيشها، والأهم على ماليتها. فقد اضطر الباب العالي، في مواجهة حاجته إلى تمويل حرب القرم (1853-1856)، إلى طلب قروض أجنبية من الأسواق المالية في لندن وباريس. وأثبت هذا أنه مميت. «وبعد هذا، أصبحت مسألة الديون الخارجية ممارسة مقبولة لتلبية الحاجات المالية للأمبراطورية. وعجز الباب العالي في 1875 عن دفع 200 مليون جنيه استرليني تشكل خدمة الدين الخارجي. وأجبر بعد ذلك بست سنوات على السماح لمدينيه بتولي بعض المداخيل الأمبراطورية - الملح، التبغ، الحرير، وصيد الاسماك - من أجل استعادة أموالهم»(60). وعُرف الجهاز الذي أُنشئ للقيام بهذه المهمة بـ«إدارة الدين العثماني العام».

افتُرض بهذه الإدارة، ظاهريًّا، أن تشكّل آلية مالية، لكنها أصبحت في الواقع آلية للسيطرة السياسية. «عملت (إدارة) الدين العام، وهي قسم تابع تقنيًّا لوزارة المال، بصفة كونها جهازًا مستقلًا. وقام مالكو الأسهم كل في بلد بانتخاب أعضائها التنفيذيين المسؤولين تجاههم. وفي 1881 كان أكثر من 300

جابي مداخيل في تصرّف إدارة الدين العام؛ وبحلول 1911 أصبح عدد الموظفين العام 8,931 - أكثر من عدد موظفي وزارة المال العثمانية. زد على ذلك أن هذا الجهاز امتلك ما يكفي من القوة لممارسة نفوذ كبير على الحياة السياسية والإجتماعية والاقتصادية في الأمبراطورية. وبلغ هذا النفوذ حدًّا وجد معه الباب العالي صعوبة في الحصول على قرض خارجي من دون ضمان إدارة الدين العام»(61). وقد عارضت حكومة جمعية الإتحاد والترقي هذا النفوذ الخارجي، ولكن سرعان ما وجدت أن ليس لديها بديل آخر منه. وإذا صح، على ما تورده العبارة التاريخية المبتذلة، أن تركيا كانت «رجل أوروبا المريض»، فإن القوى العظمى، بريطانيا وفرنسا وألمانيا، هي التي أبقتها على قيد الحياة. ولو ان أي واحدة أو أخرى من القوى الأوروبية قررت قطع التيار عن الجهاز، ماليًّا وسياسيًّا، لأصبحت الأمبراطورية العثمانية بحكم المقضي عليها.

وهذا إذًا ما حدث. فبريطانيا كانت حليفتها الرئيسة، ليس من باب التعاطف مع أمبراطورية شبيهة بها وحسب، بل أيضًا بفعل قدرتها على إحباط التوسعات التي قد تسعى روسيا إلى القيام بها. ورعت بريطانيا الاتجاهات الإسلامية والقومية التركية مدة، لسبب أساس هو محاولتها تقويض روسيا. وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر، برزت ألمانيا بيسمارك قوة اقتصادية واستراتيجية كبرى، وقد أثار تعاونها المتنامي مع تركيا حفيظة لندن. وكان خط السكة الحديد برلين- بغداد الذي موّله البنك الألماني «دويتشي بنك»، أهم مشروع كبير تطلقه ألمانيا في تلك المرحلة. فالقيصر ويلهلم الثاني، الذي غذّته أحلام قيامه برسالة خاصة في الشرق الغريب وفي أراضيه المقدسة، زار المنطقة مرتين في 1889 و1898. وضمن خط الأناضول السكة الحديد في 1888 الحصول على امتياز لمجال من الأرض يمتد من حيدر باشا، على مقربة من القسطنطينية، إلى أنغورا؛ وبعد ذلك بثماني سنوات أصبح الخط من برلين إلى كونيا عاملًا. ووضعت خطط لتوسيع الخطوط إلى بغداد والكويت. وفي الوقت نفسه، بدأ الألمان بقيادة الجنرال فون در غولتز في 1882 بتدريب الجيش العثماني، واستمر ذلك في 1913 تحت قيادة الجنرال ليمان فون ساندرز.

وبدا، مع كل حركة إلى الأمام قامت بها ألمانيا، أن البريطانيين أخذوا يسحبون دعمهم السابق. وقد أثير نقاش مفاده أن إعادة العمل بالدستور في 1908 أثار مخاوف الأمبراطورية البريطانية من أن يغري ذلك القوى السياسية في ممتلكاتها القيّمة، مثل الهند ومصر، على القيام بالمثل(62). إلا أن الهدف الاستراتيجي المركزي للبريطانيين، في سياق الحرب العالمية الأولى، كان كسر الأمبراطورية العثمانية وإعادة رسم خريطة المنطقة بكاملها. وكانت ألمانيا بيسمارك هي خصم لندن الاستراتيجي، ليس في حدّ الأمر نفسه

وحسب، بل أيضًا كشريك محتمل لفرنسا وروسيا ألكسندر الثاني في إقامة تحالف إقليمي أوروبي - آسيوي يمكنه تحدّي الأمبراطورية البحرية البريطانية. وهكذا رأت لندن في خط السكة الحديد برلين - بغداد تهديدًا لموقع بريطانيا في المنطقة سواء تعلّق الأمر بوجودها في مصر أو حمايتها للطرق إلى الهند(63). وقد سبق للبريطانيين، في التوطئة لنشوب أعمال العداء، أن سعوا إلى تقويض التعاون بين القوى الإقليمية الأوروبية. إذا لم يكن إلى تخريبه، ولم تؤد هزيمتهم للفرنسيين في فاشودا إلى ضمان موقع الإنكليز في مصر - السودان وحسب، بل أيضًا إلى وضع باريس في مكانها بصفة كونها الشريك الصغير في «التفاهم الودّي». (64)

ويجب عدم إساءة فهم «انسحاب» بريطانيا من علاقتها مع الباب العالي على أنه لفتة نبيلة يتنازل فيها رفيق الرقص عن رفيقته الرائعة لطالب يد منافس. ففك الارتباط البريطاني مع تركيا منسجم كلّيًا مع مخطط لندن السابق للحرب الذي يهدف إلى إعادة ترتيب المنطقة بكاملها.

بدّلت بريطانيا العظمى، سريعًا بالأحرى، من حركتها الإيديولوجية خلال الحرب، وتخلّت عن دعمها السابق للتيارات الإسلامية أو القومية التركية، وشرعت في تعبئة القوى «القومية» العربية في الأمبراطورية العثمانية ضد هذه الأمبراطورية. وليس لورنس العرب وجيرترود بل سوى اسمين من بين الكثير من الأسماء في أجهزة استخبارات الأمبراطورية البريطانية ممن مارسوا اللعبة الجديدة(65). وساندت لندن كذلك القضايا الاثنية/الوطنية للألبان والبلغار والصرب وغيرهم - وكلهم ضد الأمبراطورية العثمانية.

وانخرط الإنكليز، على مستوى أكثر سرّية (إلى أن فضح النظام السوفياتي الجديد الصفقة)، في صفقات على درجة عالية من التعقيد مع شركائهم الأمبرياليين الصغار في باريس. وسيُعرف هذا الترتيب بمعاهدة سايكس - بيكو للعام 1916 التي قاموا بموجبها بإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط وما هو أبعد منه.

تعلّقت استراتيجية الحرب البريطانية كلّها بالنفط. فقد شرعت البحرية الملكية، في 1908، في الانتقال من الفحم الحجري إلى النفط كوقود، وتلهّف البريطانيون إلى وضع أيديهم على المصادر المحددة حديثًا. فمنذ بداية القرن والمغامرون الإنكليز يتحرّكون لضمان امتيازات بالتنقيب عن النفط حيث أمكن ذلك. وهكذا، أحكم وليام نوكس دارسي، في 1901، قبضته على امتياز مدته 60 سنة من الشاه مظفر الدين لاستغلال نفط بلاد فارس. وتولت الامتياز في 1908 شركة النفط الأنكلو فارسية Anglo-Persian Oil Co. المقامة حديثًا. وحصلت بريطانيا في 1907 على «تأجير إلى الأبد» من الشيخ مبارك الصباح، مستولية بذلك على ما سيصبح يُعرف بالكويت. وعُرف عن

بلاد ما بين النهرين امتلاكها مخزونًا غير محدد من النفط وقد شكّل هذا الحافز لرسم حدود العراق في معاهدة سايكس - بيكو(66).

ناور الإنكليز، في غضون ذلك، في لعبة معقّدة جدًّا من الشطرنج الجغراسي. ادعوا تقديم الدعم إلى بعض المجموعات الوطنية الأرمنية ووعدوهم بمكاسب إقليمية على حساب تركيا وروسيا وإيران، فيما عرضوا على الأكراد أمرًا مشابهًا. قُدّمت وعود إلى الأكراد والأرمن بأراض متداخلة بالمعنى الحرفي للكلمة.

وخلقت عملية التلاعب المستخف<ة بالإثنيات السكانية هذه ظروف وقوع الإبادة. وعندما لاح الخطر بإمكان اجتياح الجيوش الروسية تركيا عبر القوقاز، عابرة المناطق التي يسكنها الأرمن، استغلّت الحكومة التركية الفرصة لتعلن أن الأرمن يشكلون قوة معادية، «طابورًا خامسًا» فعليًّا للروس. واتبعت هذه الذريعة الزائفة بإصدار الأمر بالترحيل(67). وتلهّف الأتراك أيضًا، بعدما أصيبوا بنكسات باكرة في الحرب، إلى حشد الدعم في صفوف السكان المدنيين الذين فقدوا المعنويات.

عرف حلفاء الأتراك الألمان تمام المعرفة حقيقة الأمر. فقد علموا أن فكرة «الطابور الخامس» زيف، وذريعة استخدمت لتبرير سياسة الإبادة. وكتب السفير الألماني فون فانغنهايم في حزيران/يونيو 1915 إلى برلين أن طلعت اعترف بأن الترحيلات الجماعية لا «تتم فحسب لاعتبارات عسكرية». وأفاد الدبلوماسي نفسه في تموز/يوليو أن ما من شك في أن الباب العالي يحاول «القضاء على العرق الأرمني في الأمبراطورية التركية»(68). وخاطر عسكري ألماني أرمين ت. فغنر، العضو في فيلق الخدمات الصحية في الحرب، بحياته لالتقاط مئات الصور للإبادة في معسكرات الاعتقال، وهرّب الصور لدق ناقوس الخطر في الخارج. وحاول لبسيوس التدخّل ولكن عبثًا: فألمانيا كانت ولا تزال حليفًا للأمبراطورية العثمانية.

فمن المسؤول، إذًا، في النهاية؟ هل العمليات الخاصة؟ هل هي جمعية الاتحاد والترقي؟ القوى الأوروبية؟ بريطانيا العظمى التي أنشأت التنظيمات الماسونية التي سهّلت الأمور لتركيا الفتاة وسيطرت عليها؟

لقد أدوا جميعهم الأدوار الموكلة إليهم في ظل التوجيه العام من الجغراسيين البريطانيين.

ويُختصر غدر القوى الأوروبية، في شكل أكثر ملاءمة، من خلال ما نُقل عنها من ردّ على اقتراح سرّي من جمال باشا الذي حاول أن ينأى بنفسه عن المجازر بعدما وجد أن الوضع ميؤوس منه بالنسبة إلى تركيا. واقترح جمال، الذي كان منذ 1915 يعمل انطلاقًا من دمشق، على الحلفاء دعمه في

محاولته السير إلى القسطنطينية والاستيلاء على السلطة. واستخدم جمال ممثلًا للطاشناق على أنه صلة الاتصال الخاصة به. وأبلغ ضابط الاتصال، الدكتور زافرييف، الروس بخططه لقلب الحكومة العثمانية. وتوقعت الخطة، بحسب وزير الخارجية الروسية سازانوف، «تركيا حرة وآسيوية (وتضم سوريا وبلاد ما بين النهرين وأرمينيا المسيحية وكيليكيا وكردستان على أنها مقاطعات ذات حكم ذاتي)، يكون جمال زعيمها الأكبر بصفة كونه سلطانًا». وستُعطى القسطنطينية والدردنيل لروسيا. وذُكر أن روسيا حبّذت الخطة وتوقعت من الحلفاء الاستجابة. غير أن فرنسا رفضتها في آذار/مارس 1916 لأنها أرادت السيطرة على كيليكيا وسوريا الكبرى. كذلك رفضها الإنكليز. فقد بقيت لندن وباريس وفيّتين للصفقة التي أنجزتها سايكس - بيكو. وكتب المؤرخ ديفيد فرومكين، الذي أفاد عن الاقتراح، أن «عرض جمال أتاح للحلفاء فرصة واحدة كبرى لتخريب الأمبراطورية العثمانية من داخل؛ وتركوا الفرصة تمر»(69).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التحدّي الذي تفرضه المصالحة

سيسجّل العام 2015 على الروزنامة مرور مئة عام على الإبادة. فكيف يجب إحياء هذه الذكرى؟ هل يرفع الأرمن في العالم أصواتهم معًا ويطالبون، بدعم من «المجتمع الدولي»، بأن يعترف الأتراك أخيرًا بالإبادة؟ وهل يستمر الأتراك في رفض هذه المزاعم مؤكّدين أن ما حدث في 1915 يدعو إلى الأسف، لكنه حصيلة ثانوية حتمية ومأسوية للحرب العالمية التي لا يتحمّلون مسؤولية مباشرة عنها؟

لا حاجة إلى الاعتقاد أن هذين هما الخياران الوحيدان. بل هناك سبب وجيه للأمل في إمكان حصول مصالحة تاريخية بين الإثنين قبل كثير على قرع أجراس تايمز سكوير إعلانًا بحلول رأس سنة 2015. وكما أن أحداث 1915 المروعة شكّلت جزءًا من عملية سياسية - استراتيجية - عسكرية، يمكن كذلك احتمالات المصالحة أن تكون بدأت بأخذ شكلها في سياق أزمة إقليمية دبّرتها القوى الحديثة الكبرى.

هذه هي الأزمة التي نشبت مع تحرّك جورجيا العسكري، في 7 آب/أغسطس 2008، ضد أوسيتيا الجنوبية وما أعقب ذلك من ردّ روسي. وقد أثرت الحرب الروسية - الجورجية في التبديل المتقلّب في العلاقات الجغراسية بين دول المنطقة والذي اكتسبت فيه أرمينيا الصغيرة نسبيًّا، فجأة، أهمّية جديدة. وفجأة، لم تعد إمدادات النفط التي تُنقل عبر خط الأنابيب من أذربيجان إلى تركيا عبر جورجيا مأمونة نظرًا إلى النزاع الروسي - الجورجي. وظهرت أرمينيا فجأة بديلًا محتملًا للتجارة عبر هذه الطريق. ولكن ليست لأي من أذربيجان أو تركيا حدود مفتوحة مع أرمينيا، وليست لديهما أيضًا علاقات دبلوماسية طبيعية معها.

أعلنت حكومة رجب طيب أردوغان في تركيا، عقب حرب القوقاز هذه، مبادرة جديدة تبعث على الفضول تُعرف بـ«منتدى الاستقرار والتعاون في القوقاز» وتهدف إلى الجمع ما بين أرمينيا وأذربيجان وجورجيا وتركيا وروسيا. وتحدّث أردوغان إلى الصحافة خلال استقبال أقامته قيادة الأركان العامة في أنقرة في 30 آب/أغسطس 2008 احتفاء بيوم النصر، وأدلى بالملاحظات التالية: «لماذا سميناه منتدى الاستقرار والتعاون في القوقاز؟ ولماذا أُدخلت أرمينيا فيه، ولماذا أدخلت جورجيا فيه؟ لأننا اخترنا إدخالهما [في المنتدى] على أساس جغرافي. وعلينا النجاح في هذا لتصبح المنطقة منطقة بحبوحة ويسر». وأضاف: «علينا صياغة مستقبل القوقاز معًا. إنه زمن يتوجب علينا فيه اتخاذ خطوات شجاعة لمنع التوترات الإقليمية من التحوّل اضطرابًا عالميًّا. يجب الإبقاء على قنوات الحوار مفتوحة».

ووُضع منتدى الاستقرار والتعاون في القوقاز على روزنامة المزيد من اللقاءات الحكومية الثنائية على هامش الجمعية العمومية للأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر 2008، وما بعدها. وأجريت أيضًا محادثات ثنائية بين الحكومات في كل من تيفليس وموسكو وسوتشي وأنقرة. وأيًّا تكن احتمالات التطبيق الفعلي لمثل هذا الاقتراح، فإن واقع صدوره عن الحكومة التركية يضفي عليه أهمية قصوى لأنه يشير في شكل صحيح إلى رغبة أنقرة في أن تتجاوز أخيرًا النزاع بين الدولتين المتجاورتين.

وأجريت، في الوقت نفسه، الاتصالات الرسمية بين الحكومتين بطريقة لا سابقة لها. فقد قام الرئيس التركي عبداللّه غول، في 6 أيلول/سبتمبر 2008، بزيارة تاريخية ليريفان بدعوة من الرئيس الأرمني سيرج سركيسيان لحضور مباراة التأهل لكأس العالم 2010 في كرة القدم التي أُقيمت بين فريقي البلدين. وحطّم غول، بـ «ديبلوماسية كرة القدم» هذه، محظورًا ومهّد الطريق أمام البدء بالمصالحة.

وفي زيارة لاسطنبول للمشاركة في مؤتمر منظمة التعاون الإقتصادي لدول البحر الأسود في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر، قال وزير الخارجية الأرمنية إدوارد نالبنديان للصحافة إن بلاده مستعدة «لإقامة علاقات ثنائية من دون شروط مسبقة». وأكد أن الرئيس سركيسيان قبل دعوة غول إلى حضور مباراة الإياب في كرة القدم بين الفريقين في تركيا في تشرين الأول/أكتوبر 2009. وأُعلن كذلك أن الخطوط الجوية التركية تخطط للقيام برحلات منتظمة إلى يريفان.

ولا يشكل الاعتراف بالإبادة محور النزاع الوحيد بين أرمينيا وتركيا، بل هناك أيضًا أذربيجان. فقد قاتلت أرمينيا، قبل ان تعلن استقلالها في 1991، وانتصرت في حرب لتحرير إقليم ناغورنو قره باخ الأرمني من السيطرة الأذرية، واحتلت إضافة إلى ذلك أراضي أذرية محاذية. وربما كانت تركيا بين أوائل المعترفين باستقلال أرمينيا في 1991، لكنها بقيت حليفة لأذربيجان التي تتحدث التركية، وقامت، في 1993، على أثر حرب ناغورنو قره باخ بقطع كل العلاقات مع يريفان. ويعني هذا إقفال الحدود مع أرمينيا كما سبق لأذربيجان أن فعلت. وهكذا يبقى من الضروري حسم وضع ناغورنو قره باخ دبلوماسيًّا بعدما حُسم عسكريًّا. وبعد الحرب الجورجية - الروسية باتت مسألة إعادة فتح الحدود أكثر إلحاحًا. وأُجريت، خلال اجتماع الجمعية العمومية في أيلول/سبتمبر 2008، محادثات ثلاثية بين وزير الخارجية الأذرية إلمار محمدياروف ونظيريه التركي والأرمني باباخان ونالبنديان.

واتُخذت في نيسان/ابريل 2009 خطوة إضافية مهمة إذ وزّع وزيرا خارجية أرمينيا وتركيا بيانين أعلنا فيهما أن الحكومتين اتفقتا على «خريطة طريق»

ستؤدي إلى تجاوز النزاع وتطبيع العلاقات لما فيه مصلحة السلام والاستقرار في المنطقة. وتضمنت الاتفاقات، التي توسطت فيها الحكومة السويسرية، إنشاء لجان مشتركة للنظر في أحداث 1915، وفي مسألة الحدود، والعلاقات التجارية والإقتصادية.

ويأخذ التحدي (والفرصة) الذي يطرحه الوضع الفريد من نوعه الذي نشأ في 2008 على حكومتي تركيا وأرمينيا وشعبيهما أبعادًا تاريخية ويمكنه، إذا تمت مواجهته بالشكل المناسب، أن يؤدي إلى اختراقات جوهرية. لكن ذلك يتطلب من الطرفين عبور جدار النار. وعلى الطرفين أن يكافحا للتغلب على المرارة والمخاوف وبالطبع على الحقد المتأصل جدًّا الذي ولّدته أحداث 1915. ويمكنني، نظرًا إلى خلفية عائلتي، أن أتعاطف كلّيًّا مع الأرمن الموجودين في الديار أو في الشتات الذين يطالبون بإحلال العدالة من خلال الاعتراف بالوقائع التاريخية.

حظينا أنا وزوجي وشقيقي خلال زيارة لنا ليريفان في تموز/يوليو 2008 بفرصة أن يستقبلنا كاثوليكوس جميع الأرمن غبطة البطريرك كراكين الثاني في إتشميادزين التي هي مركز الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية منذ العام 301 ب.م. وعندما سأله أحد أفراد مجموعتنا عن تقويمه لأهمية الاعتراف بالإبادة، أجاب كراكين الثاني أنه يعدُّ الأمر مهمًّا لتحقيق العدالة للضحايا، وليس فحسب ضحايا 1915 بل أيضًا ضحايا كل عمليات القتل الجماعي الأخرى. وشدد، في ما هو أهم من ذلك، على «أننا لا نبشّر بالحقد أو بالمرارة، بل بالعدالة وحسب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن كيف يمكن تجاوز ألم الماضي؟

توجد سابقة تاريخية حاسمة واحدة للتعاطي مع النزاع التركي - الأرمني، وهي المقاربة التي اعتمدت للمرة الأولى في سلام وستفاليا في 1648. فعقب الحروب الدينية في أوروبا، التي بلغت ذروتها في حرب الثلاثين عامًا، وطّد الأعداء السابقون فيها السلام على أساس مبدأين جوهريين: «أن يسعى كل طرف إلى تقديم فائدة الآخر وشرفه ومنفعته»، ويجب أن يتوافَر لدى كل الأطراف «النسيان الدائم والعفو عن كل ما ارتُكب أو مسامحته»، أي يجب إيداع الماضي كل ما ارتُكب من فظاعات. وأنهت معاهدة السلام تلك كل أعمال العداء وأدت إلى إنشاء الدولة القومية الحديثة، وإلى ما نعرفه اليوم بالقانون الدولي.

وسيتطلّب اليوم تطبيق مثل هذه المبادئ النبيلة للتغلّب على النزاع الأرمني - التركي الاعتراف بالوقائع التاريخية والسعي إلى المصالحة من خلال المسامحة. وهو سيعني، على المستوى الإقتصادي الملموس، إعادة فتح الحدود مع أرمينيا للسماح بتدفق البضائع والأشخاص بما يعود بالمنفعة الاقتصادية والاجتماعية على جميع الأفرقاء. وستنتفع تركيا من وصولها إلى أسواق دول الاتحاد السوفياتي السابق، وستزيد أرمينيا في شكل كبير من تجارتها ومن ناتجها المحلي الاجمالي. أضف إلى ذلك وجوب إحياء سبل المواصلات، الطرق منها والسكة الحديد، التي تعود إلى الحقبة السوفياتية وتحديثها وربطها بطرق تركيا وأذربيجان وإيران وآسيا الوسطى وهكذا دواليك. ويجب تبنّي مقاربة مشابهة في ما يتعلق بخطوط أنابيب الغاز والنفط الموجودة منها أو المستحدثة.

أما كسر العقدة أو عدمه فمسألة إرادة سياسية وشجاعة. فهل يتمكن زعماء أرمينيا وتركيا السياسيون من بلوغ منزلة كونراد أديناور وشارل ديغول ويسعون إلى المصالحة في سبيل مصلحة مستقبل شعبيهم؟ هل يمكنهم التعالي على المفهوم الخاطئ لـ«الذنب الجماعي» عن أعمال ارتكبتها قوى سياسية محددة منذ نحو قرن مضى، ويسعون إلى إعادة إحلال روح التعايش التي وُجدت على مدى قرون بين الشعبين قبل الحرب العالمية الأولى؟ وإذا كان لمثل هذا الاختراق أن يحدث، عقب دبلوماسية كرة القدم التي مارسها غول في يريفان، فإنه لن يكتفي بإضفاء شرف رفيع على رجال الدولة في الجانبين، بل سيصبح اليوم تحدّيًا صحّيًا للكثير من النزاعات المشابهة الأخرى في عالمنا المضطرب.

وهناك سؤال إضافي كثيرًا ما يُطرح في هذا الشأن وهو مزاج الشعب التركي وإرادته. فالكثيرون من الأرمن يعتقدون أن الأتراك لن يعترفوا أبدًا بالإبادة

على رغم واقع إدانة محكمة تركية في 1919 زعماء جمعية الاتحاد والترقي. ولكن توجد، مرة أخرى، مؤشّرات واضحة إلى أن المزاج يمكن أن يتغيّر حتى في أوساط القوميين المعاندين. فقد قُتل هرانت دينك، رئيس تحرير المجلة التركية - الأرمنية «أغوس» التي تصدر مرة كل أسبوعين، بعدما أطلق عليه مسلّح النار في 19 كانون الثاني/يناير 2007 خارج مكتبه. والقاتل متطرف يميني من مجموعة «إرغينيكون» التخريبية، وهي منظمة تعود أصولها إلى فرق القتل التابعة لتركيا الفتاة(70). ومن باب المصادفة المحض ان دينك قتل في الذكرى الرابعة لوفاة أمي، وآسف أشد الأسف لعدم وجودها معنا لتشهد على ما أعقب ذلك. فقد دهش العالم لتدفق مئات الألوف من المواطنين الأتراك إلى الشوارع في تظاهرات عفوية تضامنًا مع الأرمني المقتول ومع روح المصالحة التي كان يمثّلها. رفعوا لافتات بأيديهم تقول، «كلّنا هرانت»، و«جميعنا أرمن». وشكّل دفنه ظاهرة جماهيرية. ولما زرنا، أنا وزوجي اسطنبول بعد ذلك بسنة، شهدنا على ترداد للأمر نفسه إذ عبّر المواطنون الأتراك مرة أخرى، جماهيريًّا، عن تضامنهم. وقالت راكيل دينك، زوجة هرانت، لصحيفة «تركيش ديلي نيوز» في يوم ذكراه ذلك، إنها متفائلة: «كانت طريقه تسير في اتجاه الصداقة والسلام. ومن سوء الحظ أنه لم يعد بيننا». وختمت قائلة «غير أنني أعتقد أن الظلمة ستعود في يوم من الأيام إلى الاتحاد مع النور».

وشاركنا، في 24 نيسان/أبريل 2008، وهو اليوم الذي يتذكّره الأرمن على أنه يوم الإبادة، في احتفال مهيب بالذكرى في كنيسة بولسكيرتش في فرانكفورت في ألمانيا. وأبرز الخطيب تلو الخطيب، الألماني منهم والأرمني، تلك الأحداث التي أعقبت اغتيال هرانت دينك. أوَلا يشكّل رد جماهير الأتراك بهذه الطريقة إشارة أمل إلى أن المصالحة ممكنة؟

وفيما اقتربت سنة 2008 العظيمة الأهمية من نهايتها، أطلق الجانب التركي مبادرة أخرى لا سابقة لها حملت في طياتها الأمل بالمصالحة. أصدرت مجموعة من المفكرين الأتراك عريضة جاء فيها: «لا يتحمّل ضميري اللامبالاة والنكران اللذين يتم إظهارهما حيال الفاجعة الكبرى التي تعرّض لها الأرمن العثمانيون في 1915». وخلص البيان إلى القول: «أنا أرفض هذا الظلم، وأتعاطف مع مشاعر إخواني الأرمن وألمهم. وأنا أعتذر منهم»(71). وقد ندد بعض الأتراك بالخطوة على أنها غادرة، وتساءلوا هل مبادرات غول السياسية التصالحية تحرّكها أصوله الإثنية الأرمنية المزعومة! واشتكى بعض الأرمن من أن العريضة لم تستخدم الكلمة التي تبدأ بحرف «أ»، أي الإبادة. وعلى رغم ذلك، فإن خروج مثل هذا المعروض إلى النور وحصوله على دعم واسع يشهد على أن إرث هرانت دينك جلب شعاعًا من الأمل إلى الظلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

القسم الثاني: العراق

مولودون في بلاد ما بين النهرين

يوم السابع عشر من كانون الثاني/يناير 1991، وبدءًا من الأولى فجرًا بتوقيت وسط أوروبا، خرجت الطائرات الحربية للتحالف الذي تقوده الولايات المتحدة في ألف طلعة فوق العراق وأطلقت 100 صاروخ كروز من نوع توماهوك. وبأوامر من الرئيس حينذاك جورج هربرت ووكر بوش، انطلقت في اليوم التالي قاذفات بي-52 الطويلة المدى بحمولاتها القاتلة المخصصة لتدمير البنى التحتية للعراق. وبحلول 28 شباط/فبراير كان 83 جسرًا و18 من أصل 20 معملًا لتوليد الكهرباء والكثير من معامل معالجة المياه وكل وسائل الاتصال الهاتفية نُسفت وتحطّمت كليًّا. وقفت ابتسام، ابنة الثانية عشرة، خارج باب منزلها في الناصرية، المدينة التي استُهدفت أوّلًا في حرب عاصفة الصحراء الجوية في 23 كانون الثاني/يناير. سبق لها أن ذهبت إلى الفرات لجلب بعض الماء وعادت لتوّها إلى المنزل. وأخبرت لاحقًا: «لم أسمع أي صوت. وفجأة تحولت السماء إلى الأخضر والأحمر». وما إن استعادت وعيها حتى وجدت ساقها اليسرى وقد سُحقت، ومنزلها تحوّل ركامًا، وشقيقتها جُرحت في محاولتها حمايتها. كانت ابتسام بين قلّة توافر لهم أوّلًا الحظ في النجاة ومن ثم في تلقي العلاج في الخارج، وهو علاج ما أمكن أن تتلقاه في العراق بسبب نظام العقوبات الذي استمر حتى بعد 28 يومًا مع الدمار. فابتسام واحدة من أولادنا «المتبنّين» في جمعية «أنقذوا الأولاد» Save the Children في العراق.

صاحب الفكرة هو الباحث الروسي البروفسور غريغوري لفوفيتش بوندارفسكي(72). وُلد في أوديسا من والدين يهوديين، وهو خبير في شؤون آسيا الوسطى والخليج الفارسي ليس بصفة كونه أكاديميًّا وحسب بل أيضًا كمنظّم نشط لمؤتمر القوى المعادية للنازية في 1943 في طهران. كرّس قدراته الفكرية الهائلة لدراسة مكثفة لآسيا مع محبة خاصة للهند ولبلدان الخليج الفارسي. تعلّقت دراساته الجدّية الأولى بخط السكة الحديد برلين - بغداد الذي أصبح موضع أطروحته. وقضى التزامه على مدى حياته بصياغة علاقات سلمية بين البلدان من خلال التعاون الإقليمي في مشاريع نقل مشتركة على غرار خطوط السكة الحديد الأوروبية - الآسيوية. عمل مع المعهد الشرقي في أكاديمية العلوم السوفياتية وترأس المعهد الشرقي في جامعة آسيا الوسطى في طشقند وكان عضوًا في الأكاديمية الروسية للعلوم الاجتماعية. وضمت كتبه السبعة والعشرون وكرّاساته التي نشرها دراسات معمّقة لتاريخ أوروبا الآسيوية (أوراسيا) وسياستها وعمل، عند اندلاع عاصفة الصحراء، مستشارًا للحكومة السوفياتية.

أمضى البروفسور بوندارفسكي حياته كلها يبحث في تاريخ المنطقة المعروفة بالشرق الأوسط وفي تطوراتها الاقتصادية - السياسية، واحتلّ بالتالي مركزًا جيّدًا يؤهله لإدراك المغزى الأعمق للدمار الذي أنزلته عاصفة الصحراء بدولة العراق الأبية. ولا يتعلّق الأمر وحسب بالدمار المادي للبلاد ولبنيتها التحتية وقدرتها الصناعية والزراعية، - تنفيذا للتهديد الذي وجهه وزير الخارجية الأميركية جايمس بايكر الثالث إلى نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز في كانون الثاني/يناير 1991 في جنيف، بأن المعتدين «سيقصفون العراق ويعيدونها إلى العصر الحجري»، - بل تعلّق أيضًا بمحاولة القضاء على هوية أمة وشعب تعود جذورهما إلى الألفية الرابعة قبل المسيح. أدرك البروفسور، وكان تجاوز السبعين، أن ضمان رفاهية الجيل الأكثر شبابًا حيوي للحفاظ على تلك الهوية. فقد تم، حتى ذلك الحد، الحرص على إخفاء الضرر الذي أُلحق بهذا الجيل، الأكثر شبابًا وعرضة بين السكان العراقيين، عن التغطية الإعلامية للحرب؛ وقضت فكرة بوندارفسكي بإطلاق مبادرة إنسانية لتوفير المساعدة الطبية الطارئة والمؤن الغذائية لضحايا الحرب الصغار وللعقوبات التي تحمل طابع الإبادة الجماعية، ولتوعية العالم على الأبعاد الإنسانية للمذبحة.

عرض بوندارفسكي اقتراحه، في آذار/مارس، أمام أحد الاتحادات الثقافية في ألمانيا وكنت أعمل فيه حينذاك، «موحيًا بتواضع» بوجوب مقاربة الأمم المتحدة(73). وطُلب مني تولي مهمة تنظيم المبادرة التي ستُعرف باسم «لجنة انقاذ أطفال العراق». وقع الخيار عليَّ لسببين: امتلاكي قدرًا معيّنًا من الخبرة اللوجستية في تنظيم المشاريع، بما في ذلك المؤتمرات الدولية؛ ولكن، والأهم، انخراطي سياسيًّا على مدى سنوات عدة في الجهود من أجل السلام في الشرق الأوسط وامتلاكي قدرًا من المعرفة بالعراق والمنطقة. ويمكن لقصتي الخاصة أن تفسّر في سهولة، تلهّفي للقبول بالمهمة: فأنا أعرف، من خلال تجربة أهلي، ما تعنيه ويلات الحرب للأطفال.

قررت، بما أنني لم أمتلك أي فكرة من أين أبدأ، أن أتبع نصيحة البروفسور بوندارفسكي وأتصل بالأمم المتحدة. لكن الاتصال بمن؟ فليس الأمين العام بالشخص الذي يردّ على هاتفه، ولو فعل فهو بالتأكيد ليس الشخص الذي سيتعامل مع مثل هذا الطلب. ولم أمتلك أي فكرة في ذلك الوقت أن الأمر سينتهي بي بالعمل مع أمين عام سابق للأمم المتحدة أثبت أنه مفتاح نجاح هذا الجهد.

دار نقاشٌ حامٍ في داخلي في تلك اللحظة الحرجة. وسألت نفسي هل أبذل جهدًا رمزيًّا فيً تنظيم مثل تلك اللجنة وأكتفي ما إن أفشل، كما هو متوقّع، بأنني بذلت الجهد على الأقل؛ أو إذا كان عليّ أن أرمي بكلّيتي في المشروع

ملتزمة إنجاحه أيًّا يكن الأمر. ولمعرفتي، أقله في شكل عام، بما هو على المحك في العراق اخترت الحل الأخير وشرعت في المهمة. عملت انطلاقًا من مكتب يحتوي هاتفًا وآلة فاكس، وبدأت بالاتصال بكل الوكالات المحتملة التابعة للأمم المتحدة. وكانت اليونيسيف في كوبنهاغن هي الأولى. وجاء جوابهم، على ما يمكن توقّعه، بالشكر الرافض إذ لديهم في الواقع عمليتهم الخاصة بهم وهي ليست ذات أبعاد متواضعة. وأبلغتني السيدة على الطرف الآخر من الخط أنني سأكون موضع حفاوة إذا أردت تقديم الدعم إليهم. واستدرّ المزيد من الإتصالات أجوبة مماثلة.

بدا الوضع كالحًا بعض الشيء بعد أسبوع الاتصالات إلى أن وقعت عرضًا على بروفسور هو من فيينا هذه المرة وليس من روسيا. إنه البروفسور الدكتور هانز كوشلر رئيس «منظمة التقدّم الدولية» ومركزها فيينا. وتتألف المنظمة في شكل كبير من محامين وحقوقيين وغيرهم من نشطاء حقوق الإنسان المنخرطين في قضايا نبيلة، وبخاصة في البحث عن السلام في الشرق الأوسط. حصلت على اسمه من صديقة انخرطت في محاربة انتهاكات حقوق الإنسان. وهي تعتقد أن قد يكون في وسع منظمته، المعتمَدة لدى الأمم المتحدة، المساعدة.

درس كوشلر، وهو ابن مزارع من التيرول، في مدرسة داخلية يديرها القسترسيّون (Cistercians) قبل أن يحصل على الدكتوراه من جامعة إينسبروك إضافة إلى شهادات فخرية عدة. وبرزت منظمة التقدم الدولية، التي أنشأها في 1972 طلاب من الهند ومصر والنمسا، بصفة كونها منتدى للطلاب من كل أنحاء العالم، وبخاصة من البلدان التي ليست لديها علاقات دبلوماسية طبيعية وتضم البلدان الشيوعية وبلدانًا كثيرة في الشرق الأوسط. وتمكن كوشلر من زيارة الكثير من هذه البلدان، مثل كوريا الشمالية. وشكّلت النمسا، بتقليدها المحايد، الموقع المثالي لمثل هذه المؤسسة خصوصًا أن فيينا باتت خلال الحرب الباردة مكان التقاء للاتصالات غير الرسمية. وفي سنوات 1970، نقل كوشلر مكتبه إلى الـ «كوهلماركت» ذي المكانة على بعد رمية حجر من كاتدرائية مار اسطفانوس. وقد أحب كوشلر منذ البداية فكرة اللجنة. وأدرك على الفور ما يمكن أن يتوافر لمثل هذه اللجنة في تحريك الرأي العام بما في ذلك مؤسسات الأمم المتحدة. ووعد بأن منظمته ستقدم الدعم إلى مبادرتنا، وأبلغني، بعد مناقشات مطوّلة، أن زوجين مقيمين في ألمانيا سيمثلان منظمة التقدم الدولية في مؤتمر صحافي خططنا لعقده في بون (وكانت يومذاك لا تزال عاصمة ألمانيا الغربية) لإطلاق اللجنة رسميا. والزوجان هما كمال، الأردني المولد والمتدرّج في المحاماة، وزوجته مارغيت الطبيبة الألمانية. وقد أقام آل فاخوري على مدى عشرة أعوام في بغداد حيث عملت الزوجة في مستشفى صدام للأطفال. وهي

تتحدث العربية، في طلاقة، وتشعر تمامًا كزوجها بالإلفة مع العالم العربي وثقافته وتاريخه وشعبه. لم يرزقا بأولاد وربما هذا هو السبب الذي يجعلهما يشعران بمحبة خاصة حيالهم. غادرا العراق في 1982 وعاشا في إسّن حيث واصلت عملها كطبيبة في مستشفى إليزابيث. سافرا في آذار/مارس إلى عمان في الأردن حيث قام زوجها بزيارة خاصة من ثم لبغداد حاملين بعض المساعدة الإنسانية.

وسيصبح المكوّن الثالث للجنة بطريرك كنيسة الكلدان البابلية، وهي الكنيسة الكاثوليكية التي تتبع الطقس الشرقي(74). وسبق لغبطة البطريرك روفائيل الأول بيداويد، المناضل المسيحي والوطني المتحمس، أن تدخّل في روما لحث البابا على التحرك في مواجهة الكارثة العراقية. ونظّم، بصفة كونه رئيسًا لمجلس الكنائس المسيحية في العراق، بعثة مسكونية تضم أسقف الكنيسة الأرمنية والمتروبوليت الأشوري للتوجه إلى روما أواسط كانون الثاني/يناير 1991 للقاء البابا يوحنا بولس الثاني. وقال البطريرك بيداويد ساخطًا وهو يتحدث إلى الصحافة في 16 كانون الثاني/يناير: «هذه الحرب جريمة ضد اللّه والإنسان. لم أتوقع أن يذهب السيّد بوش بعيدًا إلى هذا الحد». وقابل يوحنا بولس الثاني بعد ذلك بثلاثة أيام، تمامًا قبل حصول الطلعات الجوية الأولى، وطلب منه التدخل لرفع الحصار الذي يستمر في قتل المواطنين العراقيين، وهو أمر وعد البابا بمتابعته. وكشف بيداويد أيضًا للصحافة أنه سبق له أن دعا البابا إلى السفر إلى بغداد أملًا منه في منع الحرب. وقال: «هذا هو الأمر الوحيد الذي أبقيته سرًّا حتى الآن. وقال لي البابا إنه على استعداد للمجيء في حال اتُخذت الخطوات الدبلوماسية تجاه الفاتيكان - بعبارات أخرى، إذا [ترافقت دعوة الكنائس] بدعوة من الحكومة». وأبلغ الصحافيين في العاصمة الإيطالية بمعرفته أن تفادي الحرب كان ممكنًا لو أُعطي صدّام حسين مزيدًا من الوقت للتفاوض. وكان كل من مبادرة السلام البابوية وأخرى حضرتها فرنسا استصدر ردًّا إيجابيًا من بغداد، إلا أن واشنطن رفضت. ومضى البطريرك بيداويد إلى فرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة للتشجيع على المساعدة الإنسانية. وبقيت رسالته إلى الرئيس بوش التي يطلب فيها اجتماعًا من دون جواب.

كان البطريرك بيداويد شخصًا نادرًا، رجلًا علاَّمة تمكّن من دزينة من اللغات وجَمَع المخطوطات الكلدانية القديمة. درس في جامعات «بروباغاندا فيدي» و«أوربانا» و«لاتيرانا» في روما، وحصل على شهادات في الحقوق واللاهوت والفلسفة. لكنه لم يكن من أكاديميي الأبراج العاجية، وإنما كان خادمًا للرب لا يتردّد في دخول المعترك السياسي في محاولة منه لإنقاذ بلاده وشعبه. بقي البطريرك مع رعيّته بخلاف الكثيرين ممن هربوا من البلاد ما إن بدأت القنابل بالسقوط، ولم يجازِف بمغادرة البلاد إلا لشن الحملات السياسية،

مثل تلك التي قام بها في أوروبا، والهادفة إلى تعبئة الحكومات وغيرها من المؤسسات لاستجابة الضرورة الأخلاقية بوقف الحظر الدولي الذي وصفه بـ «الإبادة». وقال، في آذار/مارس، في توقفه الثاني في روما وهو في طريق عودته إلى الديار: «سأحاول أن أبذل ما في وسعي وأنا هنا في أوروبا لأنني إذا عدت إلى العراق لن أتمكن من المغادرة من جديد».

ولما تمت مقاربة البطريرك بفكرة اللجنة تجاوب معها من دون تردّد وأوفد الأب فيليب، الكاهن العراقي الشاب، ممثلًا رسميًّا له.

وفي العاشر من أيار/مايو، أصدرت منظمة التقدّم الدولية بيانًا صحافيًّا للبروفسور كوشلر يعلن فيه أن منظمته ستنضم إلى غيرها من المجموعات غير الحكومية الوطنية والدولية في «لجنة لإنقاذ أطفال العراق». ودانت منظمة التقدم الدولية استمرار الحصار على أنه لا مبرّر له بعد انسحاب العراق من الكويت، واتهمت الولايات المتحدة بمواصلة «سياسة الإبادة» و«بارتكابها جرائم حرب خطرة ضد السلام». واختص كوشلر الأمين العام للأمم المتحدة، يومذاك، بيريز دي كويّار بالنقد «لافتقاره إلى الشجاعة والتصميم في التصدّي لسوء استخدام ميثاق الأمم المتحدة لغرض سياسات القوة المكيافيلية». وبعث إليّ بعد ذلك بأربعة أيام الفاكس الذي يؤكد فيه أن الدكتورة مارغيت فاخوري ستشارك في المؤتمر الصحافي المقرر في اليوم التالي.

وعقب المؤتمر الصحافي الذي شهد حضورًا جيدًا في بون، تم توزيع خطة عمل اللجنة في كل الأنحاء. وقد نصّت على أن اللجنة أُسست بصفة كونها ائتلافًا غير حزبي يضم دكاترة ومثقفين وزعماء دينيين ونشطين في مجال الحق في الحياة وغيرهم ممن «يتعلّقون بقدسية الحياة الإنسانية»، لاتخاذ الخطوات الضرورية لتفادي تكشّف «مأساة ذات أبعاد مروعة» في العراق. ودعت الخطة إلى التدخل على ثلاثة مستويات: «1) الإغاثة الفورية من خلال شحن الطعام والأدوية وغيرها من المواد الطارئة وبخاصة تلك التي يحتاج إليها الأطفال؛ 2) تأمين التجهيزات مثل مولدات الكهرباء وتجهيزات المستشفيات للشروع في العمل لإنقاذ الأرواح؛ 3) إعادة تعمير البنى التحتية الأساسية». وتبع ذلك عرض مفصّل للحاجات الملحّة. وضمت لائحة المساندين، وهي لائحة سرعان ما ستكبر لتضم المئات دوليًّا، البروفسور فرانسيس بويل من جامعة إيلينويز، كلود شيسون وكان يومذاك عضوًا في البرلمان الأوروبي وهو وزير سابق للخارجية الفرنسية، والأب بيار الذي لا يُنتسى (من مؤسسة عمّاوس للإحسان في فرنسا)، وسواهم.

وما أمكنني إلا أن أشعر بالرضى للسرعة التي جمعت بها المبادرة مثل هؤلاء الأشخاص المشهورين والملتزمين والمنظمات. وشعرت في الوقت نفسه

مقدارًا كبيرًا من التوتّر في شأن المتابعة. أصبح لدينا الآن عدد من واهبي الطعام والتجهيزات الطبية والأدوية للعراق. وأخذت حمولات شاحنات تصل يوميًّا من كل الأنحاء إلى مطار فرانكفورت، تحت رعاية اللجنة، وبدأ ترتيبها في بالات في المستودع. وقد سبق لي أن عالجت لوجيستيات مؤتمرات دولية، حتى تلك التي ضمّت عددًا كبيرًا من الناس، لكن ذلك بعيد أشد البعد عن تنظيم حمولات طائرات من مواد الإغاثة إلى بلد لا يزال في حال حرب وفي ظل حصار دولي متشدّد فرضه مجلس الأمن الدولي لا غير. وقضت الطريقة المُعتمدة من معظم المجموعات الإنسانية الأخرى بإرسال الشحنات عبر الخطوط الجوية الملكية الأردنية إلى عمّان على أن تُشحن من هناك برًّا إلى بغداد. وهذا ليس معقّدًا على الصعيد اللوجستي وحسب بل هو أيضًا مكلف إذ يجب استئجار الرحلات الجوية. وامتلكت لجنتنا الأطنان من البضائع لكنها لم تمتلك المال.

قضت إحدى الأفكار التي خطرت في بالي حينذاك بأن في إمكان العراقيين المساعدة من خلال توفير أسطولهم المدني، الخطوط الجوية العراقية، للغايات الإنسانية. سبرتُ أغوار أحد معارفي في سفارة بون فردّ في اهتمام. وأثار أيضًا زملاء لي في ستوكهولم وفيينا الفكرة مع دبلوماسيين عراقيين ولم يجب أي منهم بالرفض. لكن مثل هذه العملية تتطلب وقتًا أكثر بكثير مما لدينا. وسنعمل على إعادة إحياء هذا الخيار في موعد لاحق.

توجّهت إلى البروفسور كوشلر طلبًا للمساعدة. فمنظمة التقدم الدولية مُعتمدة كمنظمة استشارية في المجلس الإقتصادي الإجتماعي في الأمم المتحدة، ولديه بالتالي شبكة واسعة من الاتصالات ويعرف طريقة تحريك الأمور من تحت أقدام البيروقراطية السيئة السمعة في الأمم المتحدة. وما إن أبلغته أن لدينا أطنانًا من المواد الإنسانية جاهزة للشحن لكن ما من أحد لينقلها، حتى شرع في التحرّك. أظهر كوشلر حنكته المعهودة واتصل بكورت فالدهايم الأمين العام السابق للأمم المتحدة الذي شنّعت به عملية مطاردة دولية زعمت أنه تغاضى عن الفظاعات التي ارتكبها النازيون. وكوشلر على معرفة وثيقة بفالدهايم ويتشارك معه التزام الدفاع عن القضية العربية وبخاصة عن كفاح الفلسطينيين من أجل سلام عادل مع إسرائيل.

عمل فالدهايم، الذي لم تسنح لي الفرصة قط للقائه شخصيًّا، على الفكرة فورًا. وأخذت الفاكس تلو الآخر يطير إلى الآلة للاعلان أن منظمة التقدم الدولية ستتدبر عملية الشحن الإنسانية وعندذاك سيتدخل فالدهايم. وقد تدخّل. واتصل بالجهاز المسؤول عن مثل هذه العمليات في فيينا. وحمل هذا الجهاز اللقب الكبير الذي هو «مكتب المندوب التنفيذي للأمين العام، برنامج وكالات الأمم المتحدة الإنساني للعراق والكويت ولمناطق الحدود العراقية/

التركية والعراقية/الإيرانية». وترأس المكتب، كما يُفترض باسمه الطنّان، شخصية مهمة ومهمة جدًّا، ليست أقل من أمير. وقد سبق للأمير صدر الدين آغا خان، المندوب التنفيذي الجديد، أن عمل مفوضًا ساميًا لشؤون اللاجئين في الأمم المتحدة من 1966 إلى 1978. وسبق أن عُيّن في 1977 مستشارًا خاصًّا ومُكلّفًا مهمات من فالدهايم عندما كان الأخير لا يزال أمينًا عامًا. وعُيّن في أيلول/سبتمبر 1990 ممثلًا خاصًّا للأمين العام للمساعدة الإنسانية المتعلقة بالأزمة العراقية - الكويتية، وأصبح أوائل 1991 البمعوث التنفيذي. ويعكس لقبه الأرستقراطي بصفة كونه ابن السلطان محمد شاه آغا خان الثالث والأميرة أندريه أغا خان. ووالده هو الإمام الثامن والاربعون في الخلافة الإسماعيلية، وهي طائفة إسلامية يرأسها الآن ابن شقيق صدر الدين. وقد تحدّرت جدته من الأمبراطور الفارسي فتح علي شاه من سلالة القاجار.

لم يسبق لي أن التقيت أميرًا، ولم أتوقع من هذا الأمير أن يجيب على رقم الهاتف في مكتب جنيف الذي أعطانيه كوشلر للاتصال به، غير أنني مضيت من دون توجسات وطلبت الرقم. وكان الرجل الذي رفع السماعة غرهارد ج.و. بوتمان - كرامر، كبير مستشاري صدر الدين. وبعكس كل افتراضاتي الإرتيابية، ردّ هذا الشخص (الذي يتحدث ذلك الصنف الخاص من الإنكليزية الذي يُعرف بـ «الأمم المتحدي» - بحيث لا يمكن المرء أن يتصوّر أبدًا من أين يأتي) أيضًا بطريقة غير رسمية مريحة. إستمع إلى عرضي للمشكلة وقال إن علي التقدّم باقتراح مكتوب أحدد فيه ما أريد من مكتب الأمير القيام به.

ولما يمض وقت طويل على إرسال طلبي بالفاكس حتى جاء الجواب أن الأمير سيتولى مسؤولية شحنة من المواد الإنسانية (أدوية وتجهيزات) يتم نقلها جوًّا من فرانكفورت إلى الحبانية، وهي مطار عسكري على بعد 80 كيلومترًا من بغداد. وسيستأجر مكتب جنيف الطائرة ويتكفّل كل المصاريف. وكل ما عليّ القيام به هو المضي في الإجراءات الرسمية مع مجلس الأمن الدولي للحصول على التصريح الرسمي الذي يسمح بإرسال الشحنة. وهو ما قمت به، حيث واجهت القليل نسبيًّا من الروتين الإداري. واعتقدت أنني بما أنني حصلت على بركة مكتب صدر الدين سيصعب على أي كان في نيويورك الرفض. (ما إن تم تأكيد هذا الخيار حتى وضعت الفكرة الأخيرة القاضية باستخدام طائرات الخطوط الجوية العراقية على الرف وأنا أفكّر بأن علينا الطيران أولًا مع الأمم المتحدة ثم نأخذ الأمور من هناك).

أُنجزت المعاملات من دون تعقيدات. لكن المشاكل برزت من جهات أخرى، من تلك الجهات الملتزمة الاستمرار في حملة الإبادة ضد العراق في أي شكل من الأشكال. فما أخذت في تنسيقه بصفة كونه «إنسانيًّا» مبينًا (على رغم أنه يتضح عدم خلوّه من السياسة)، شكل - وأصابني ذلك كضربة مطرقة

- مشروعًا ذا طبيعة سياسية متفجّرة شمل المراتب العليا لعدد من القوى العظمى.

لم يكن علينا، من الناحية الشكلية، أن نواجه صعوبات. فلجنة مجلس الأمن الدولي للعقوبات سمحت بالشحنة. ولجنة العقوبات هي ذلك الجهاز الذي يتفحّص، في دقة شديدة، كل طلب بشحنات إنسانية للتأكد من عدم إرسال أي شيء ذي «استخدام مزدوج» إلى العراق. وعلمت، على سبيل المثال، أن الاقلام المخصصة لتلامذة المدارس العراقية من الأولاد مُنعت لأنها تحتوي رصاصًا قد يُستخدم في انتاج أسلحة الدمار الشامل. وقد استُغلّت منظومة الاستخدام المزدوج هذه إلى حد منع تصدير دمى دببة الأطفال إلى العراق. عرفت هذا من والدة أميركية شابة أفقدها السرطان أحد أولادها ونظّمت في وقت لاحق مبادرة لتوفير دمى الدببة للأطفال العراقيين المرضى (لمعرفتها بمدى أهمية هذه الدمى كرفيق للأطفال المرضى). أما كيف يمكن لدمى الدببة أن تحتمل استخدامًا مزدوجًا فأمر لا يزال لغزًا إلى اليوم.

ولم يمكن أن يُحكم على أي مواد جمعناها أنها عرضة للاستخدام المزدوج. فقد تلقينا أطنانًا من الأدوية وطعام الأطفال وتجهيزات المستشفى كتبرعات، وهذه البضائع هي ما احتاج إليه العراقيون بالضبط. وسبق لآل فاخوري أن طلبوا من وزارة الصحة العراقية إرسال لائحة بالأدوية التي تحتاج إليها في شكل طارئ، وحصلوا عليها(75). وامتلكنا من الحمولة أكثر مما يمكن طائرة نقله في رحلة واحدة، ولا يمكن لجنة العقوبات التشكيك في أي من بضائعها. وبالتالي لم يكن محتوى الشحنة هو المشكلة، بل المشكلة في مكان آخر.

وكان مكتب الأمير، المعروف بأحرفه الأول «أو. إي. دي»، (مكتب المندوب التنفيذي)، شرع بالفعل في استئجار طائرة لنقل بضائعنا من فرانكفورت إلى الحبانية. وتعرقل فجأة، في 26 حزيران/يونيو، الخيار الذي كان لهم مع الخطوط الجوية الأرجنتينية لأسباب لم تُشرح، فتم السعي بعد ذلك وراء الخطوط الجوية الروسية «إيروفلوت». وكان موعد طيراننا المقرر هو الثاني من تموز/يوليو. غير أن الرائد بول تومسون، من قسم العمليات الميدانية في نيويورك، أبلغني أن الإيروفلوت لم تحصل بعد على الإذن بالهبوط في بغداد. ومع ذلك أرسل مكتب الأمم المتحدة في نيويورك إليَّ فاكسًا مفاده أن إيرفلوت سلّمت مطار فرانكفورت برنامج الرحلة؛ فسيصلون بالطائرة إلى فرانكفورت في الثاني من تموز/يوليو ويصبحون مستعدين للمغادرة في اليوم التالي في رحلة تحت اسم UN9255.

وفيما انشغلت في تنسيق هذه التفاصيل التقنية، انفجر زوج من القنابل السياسية. فأوّلًا، أطلقت مجموعة سياسية اسمها «بوندنيس 90»، وهي من ألمانيا الشرقية الشيوعية السابقة، تشهيرًا باللجنة. لم نعط الأمر الكثير من

الأهمية وقد نسبناه إلى نوع من أنواع الدسائس البيزنطية الداخلية لمجموعة هامشية. غير أن برنامج الأخبار الوطني الألماني الرئيس، «إي. آر. دي. تاغستمان»، أذاع في الأول من تموز/يوليو تشهيرًا آخر. كنت وزوجي ميشال جالسين، بالحرف الواحد، على حقائبنا، متوقعين المغادرة في غضون يومين، عندما شاهدنا الأخبار المسائية. وارتدى البث، تلك الليلة، أهمية خاصة لأنه شكل بداية أورليخ فيكرت الرجل الذي استُخدم لاستضافة البرنامج الإخباري الرئيس الذي يتمتع بالكثير من الشعبية. وفجأة شن فيكرت هجومًا لاذعًا على لجنة إنقاذ الأطفال في العراق زاعمًا أن ليست لها أي علاقة بالعراق أو بالأطفال، وما هي إلا عملية احتيال رخيصة لجمع الأموال من أجل عملية سياسية غامضة. حدّقنا أنا وزوجي بشاشة التلفاز وقد أعيانا الكلام ونحن نرى الكاميرات تقرّب الصورة من استمارة طلب العضوية في اللجنة وقد بدا فيها اسمي وعنواني بارزين في شكل لافت.

وكان السياق السياسي لهذا التشهير المُستفظع هو النقاش الواسع في الولايات المتحدة وأوروبا في التحضيرات الممكنة لـ «عاصفة الصحراء 2». وقد أخذت وسائل الاعلام تبث فكرة أن الرئيس بوش لن يتمكن من الدفاع عن استمرار الدعم لسياسة العقوبات في حال استمرت الصحافة في فضح معاناة الأطفال العراقيين. وأخذ يتم تبرير الحصار بقصص جامحة عما يُزعم عن امتلاك صدام حسين برنامجًا للأسلحة النووية. وقال متحدث باسم المؤسسة الملكية للشؤون الدولية لـ«واشنطن بوست» إن مثل هذه القضية الخلافية والمثيرة أساسية لإعطاء الأميركيين والبريطانيين الذخيرة التي يحتاجون إليها للإبقاء على نظام العقوبات القاتل، وإن آخر ما تريده واشنطن ولندن، في مثل هذا الإطار، هو مبادرة كبرى مثل مبادرتنا، هي الأولى منذ الحرب ترسل عن طريق الجو، ومباشرة إلى العراق، كمساعدة طبية إلى الأطفال.

وفي الثالث من تموز/يوليو، وهو التاريخ المحدد لمغادرتنا، أبلغتني السيدة شوخوف، من إيروفلوت في فرانكفورت، وجوب الحصول على رخص بتصدير الشحنة وعلى تصاريح بذلك. وتمكنت، بقدر هائل من الحظ، من أن أنهي في ست ساعات الإجراءات التي تتطلب في العادة ثلاثة أيام، وأكدت لإيروفلوت ولوزارة التصدير الألمانية أن كل شيء منتظم.

وفي غضون ذلك، أفاد مكتب الأمم المتحدة في نيويورك أنه، وبسبب مشاكل في الإجازة، راجع خطة السفر الذي تقرر أن يتم في الرابع من تموز/يوليو. وظهر خلل إضافي عندما أبلغتني وزارة الخارجية الألمانية، من أجل السماح بدخول معدات المستشفى، وجوب عدم الاكتفاء وحسب بإطلاع لجنة العقوبات بل وأيضًا الحصول على موافقتها الصريحة. وقال مندوب ألمانيا في

نيويورك أنه سيهتم بالأمر. وقدّر أننا قد نستطيع السفر في الخامس من تموز/يوليو. وقال مكتب الأمم المتحدة في نيويورك إن ممثله في بغداد تدخّل شخصيًّا للحصول على التصريح وإبلاغ السفارة الروسية في بغداد والتأكد من أنها ستبلغ إيرفلوت في موسكو.

في غضون ذلك، هدد بوش صراحة باستخدام القوة العسكرية إذا وجد أن العراق يكذب في شأن قدراته النووية، ونصح كنيث أدلمان، الخبير في شؤون نزع السلاح، الصحافة بأخذ التهديد على محمل الجد. وسبق لبعثة من الأمم المتحدة أن أجرت محادثات في الأول من تموز/يوليو مع نائب رئيس الحكومة طارق عزيز تتعلق بالسماح بدخول مفتشي الأسلحة. وسيصل بعد ذلك بأيام 36 مفتشًا إضافيًّا لزيارة المواقع.

شرع ممثلو ألمانيا في كل من الأمم المتحدة في نيويورك ووزارة الخارجية في العمل، في اهتمام، للحصول على الموافقة المطلوبة ولتسريع التحضيرات للرحلة. وأبلغتني السيدة شوخوف، من إيروفلوت، أنها تعتقد شخصيًّا أن لجنة العقوبات قد يراودها الشك في أن الجيش العراقي قد يصادر تجهيزات المستشفى التي في حوزتنا (والتي تتضمن أسرّة ميدان). وأضافت، بما ليس للنشر، «لم يسبق لي، في كل سنواتي في إيروفلوت، أن شاهدت أمرًا مماثلًا. فنحن نطير من كولونيا إلى إيران مرة كل يومين بمعدات الإغاثة ولا نواجه مشاكل». واتصلت بي إيروفلوت في وقت لاحق من النهار لتبلغني، خلافًا لمعلومات سابقة، أن شحنتنا تفوق حدود قدرتهم على الحمل لذا يتوجب علينا ترك بعضها في المطار.

يا له من يوم استقلال، ذاك الرابع من تموز/يوليو 1991، بالنسبة إلى أميركية مثلي. قالت إيروفلوت في البداية إنها سترسل الطائرة إلى فرانكفورت في ذلك اليوم وأن علينا الاستعداد للسفر في اليوم التالي. وأعلنت السيدة شوخوف أن وزارة النقل الألمانية أعطتها أخيرًا موافقتها على الرحلة، ثم أنها عاودت الاتصال، بعد ذلك بساعة، لتعلن أن تركيا رفضت السماح للطائرة بعبور أجوائها. وأرادت أن تعرف هل «أمكنني الضغط على تركيا من خلال الأمم المتحدة». لم أمتلك شخصيًّا مثل هذا التأثير، فاتصلت بجنيف واقترحوا علي أن تحلق الطائرة فوق سوريا، وهو اقتراح مرّرتُه إلى السيدة شوخوف التي قالت لي أيضًا إن العراقيين لم يعطوا بعد الإذن بالهبوط، وأرادت أن تعرف هل لي علاقات في بغداد. وما تبع هو كناية عن اتصالات متداخلة شملت الوزارات في بغداد وبون وإيروفلوت.

ثم أرسل إلي مكتب الأمم المتحدة في نيويورك فاكسًا مفاده أن إيروفلوت تريد طرح برنامج الرحلة وتخطط للعاشر من تموز/يوليو تاريخًا جديدًا. وطلب مكتب الأمم المتحدة من ممثله في بغداد الذهاب شخصيًّا إلى السفارة

الروسية هناك لمحاولة تحريك الأمور. وفيما قالت السيدة شوخوف إن «على الأمم المتحدة الضغط على موسكو»، أبلغني مكتب الأمم المتحدة في نيويورك أن إيروفلوت في نيويورك أعلمت موسكو أن عليها أن تزوّد ممثلها في بغداد أي معلومات يطلبها في شأن الرحلة. ولاحظ مكتب الأمم المتحدة في نيويورك أنه «لم يسبق له أن اختبر قط أي شيء من هذا القبيل».

فيما كاد كل من هو مشترك في العملية (في ما عداي) يعتقد أننا نتعامل مع روتين بيروقراطي عادي، تلقيت رسالة غريبة من معارفي في الأمم المتحدة تفيد أن ممثلهم في بغداد، وهو على اتصال بالسفارة الروسية، علم أن إيروفلوت لم تقدّم أي معلومة حتى للحصول على الإذن بالهبوط. لماذا؟ ليست لديهم أي فكرة.

ارتفعت في الوقت نفسه حدة الدعاية في شأن المنشآت النووية العراقية المزعومة مع تقارير صحافية بريطانية جديدة عن موقع قرب الموصل. وشوهدت طائرات «سي 130» و«سي 140» تقلع في أعداد كبيرة من منطقة راين - ماين كما خلال عملية الحشد لعاصفة الصحراء.

واستمرّت ملحمة التصريح في التحليق في الأجواء والهبوط بلا هوادة. وحصلت السيدة شوخوف أخيرًا، في 5 تموز/يوليو، على الإذن بعبور الأجواء التركية وحثّتني على الاتصال بالمسؤول عنها، السيد ماركوفيتش، في موسكو لأعطيه «الأوامر» بإرسال الطائرة من موسكو إلى فرانكفورت (كما لو أنني في موقع إصدار «الأمر» لأي كان بتحريك طائرة سوفياتية). وأراد السيّد ماركوفيتش معرفة هل لدي «طريق داخلية» إلى بغداد، وعندما أبلغته أن ليست لدي واحدة، اقترح مراجعة برنامج الطيران للمرة المليون. وعندما سألت شخصًا اسمه السيّد ميرونوف من إيروفلوت في فرانكفورت عن برنامج الرحلة أجابني بضحكة طويلة من القلب. كان الخبر السار هو أن الأمم المتحدة في بغداد حصلت على الإذن وأبلغت السفارة الروسية بذلك. وأبلغ مكتب الأمم المتحدة في نيويورك إيروفلوت في كل من نيويورك وموسكو.

بدا أن لم يعد هناك المزيد من العراقيل، فوضّبنا، أنا وزوجي، حقائبنا مرة أخرى. ووثقنا هذه المرة بأننا سنطير من فرانكفورت في الصباح التالي. بلغنا المطار في السادس من تموز/يوليو ولكن لنكتشف أن لا وجود لموظفي إيروفلوت. ثم عندما جاء السيد ميرونوف وسئل عن الرحلة إلى بغداد أجاب مرة أخرى بضحكته النابعة من القلب: «ما من رحلة. إيروفلوت تطير تالي - فرانكفورت وليس بغداد»، وضحك وقال: «أبدًا». أبلغنا موظفو لوفتهانزا أنهم لم يجدوا أثرًا لمثل هذه الرحلة على حواسيبهم. ثم قالت جماعة إيروفلوت إن الإذن وصل أخيرًا إلى موسكو لكنه وصل متأخرًا جدًّا على إرسال الطائرة، لذا علينا الرجوع إلى منازلنا والعودة غدًا. عند هذا الحد بلغ بي السخط حدًّا

أنني ذكّرت السيد ميرونوف أن ومع كل يوم يمرّ يموت أطفال في العراق وقد يحتاجون في شكل ملح إلى ما لدينا في الطائرة. واقترحت عليه التفكير مليًّا في قيمة كل حياة إنسانية.

بعد يوم على ذلك، في السابع من تموز/يوليو، اتبعنا ما أصبح الآن إجراء روتينيًّا وذهبنا من جديد إلى المطار بحقائبنا الموضّبة وتوقعاتنا الكبيرة. وظهرت بضع عراقيل جديدة. أبلغتني إيروفلوت، بداية، أن حمولتنا لا تزال زائدة وأن في وسعها فقط تحميل سبعة من البالات الـ 13 التي لنا. ثم أبلغني السيد بيتروف، الذي كان يدخّن في كثافة، أن سلطات مطار فرانكفورت رفضت إعطاء الاذن بالانطلاق. ولما اتصلت بهم هاتفيًّا قالوا لي: «ليست لدينا وسيلة لمعرفة هل الأمم المتحدة هي التي استأجرت هذه الرحلة»، وأنهم «لا يعتقدون أن هذه طائرة استأجرتها الأمم المتحدة». من حسن الحظ أنني جلبت معي رزمة هائلة من المراسلات عبر الفاكس بين مختلف الكيانات المعنية وأمكنني أن أرسل إليهم بالفاكس رسائل من مكتب الأمم المتحدة في نيويورك وجنيف تشير إلى الرحلة التي استأجرتها الأمم المتحدة. وطلب مَن على الخط أسماء موظفي الأمم المتحدة وأرقامهم، وهو ما حصل عليه. وأخيرًا أصدرت وزارة النقل الألمانية الاذن بالانطلاق. ثم أصدروا لنا بطاقات السفر. وخرج السيد بيتروف، الذي فاحت منه رائحة الفودكا القوية، عن طوره ليتمنى للدكتورة فاخوري «الحظ الطيب في مهمتك الصعبة». عند هذا الحد، أخذتني السيدة شوخوف جانبًا وهنأتني لتمكني من «تحريك أمر ما». وادعت أن الروس لا يتجاوبون مع المشاكل الحقيقية بل مع الضغط المباشر، واعتقدت أن كثافة الفاكسات والاتصالات الواردة منا ومن جنيف أجبرت السيد ماركوفيتش على التحرّك. وقالت «تذكّري أرمينيا في 1988 عندما جاءتها المساعدات جوًّا وصادرت السلطات الأرمنية البضائع لأنها أرادت التحقق من كل شيء. وكان الناس في ذلك الوقت يموتون». وتابعت أنها تعتقد أن ما قلته ليمرونوف في شأن قيمة الحياة الإنسانية كان ذا صلة.

وعند هذا الحد تمامًا، وصل أفراد الطاقم من الفندق، الأمر الذي أضفى إشارة أخرى من الأمل على الوضع. وجميعهم من الروس، أحدهم أشقر، والآخر ذو كرش بارز ناتج عن شرب الجعة، والثالث من النوع الذي فيه شيء من الخشونة لكنه يفي بالغرض. ورحبوا بنا جميعهم، وهم على درجة كبيرة من الانشراح، وقالوا إنهم مسرورون بوجود ركاب لطفاء مثلنا في طائرة شحن. وظهرت مشكلة أخيرة دفعت بيتروف إلى أن يرفع يديه يائسًا ويزمجر، NUR PROBLEME، وتبين أن واحدًا من الفتية نسي ساعة يده في الفندق، لكن تم إيجاد حلّ مقبول وتوجهنا إلى الباب الرقم 50 ومن هناك في باص صغير إلى الطائرة التي تنتظرنا عند المدرج.

وهكذا، وبعد أسبوع كامل على الوقت الذي كان مقررًا لمغادرتنا، صعدنا إلى الطائرة وربطنا أحزمة الأمان راجين الأحسن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى بغداد

اختلفت الرحلة بالتأكيد عن أي رحلة أخرى اختبرها أي منّا. فكل اللطافات التي هي من الأمور المسلم بها في الطائرة، مثل إعلانات القبطان وشرح الإجراءات الأمنية والمضيفات اللواتي يأتين بالشراب والطعام وسماعات الأذن للموسيقى والأفلام وعروض البضاعة الخالصة من الضريبة - كانت هذه كلها بارزة في غيابها. فالقبطان والطاقم كانوا، على غرار الطائرة، من الاتحاد السوفياتي، ولا يتحدثون سوى الروسية، وهي لغة غريبة علينا جميعنا. وطائرة الشحن من طراز «إليوشن 761د» جُهّزت لنقل بالات البضائع ولكن تغيب عنها التجهيزات مثل مقاعد الركاب العادية. وقد جلسنا على مقاعد قابلة للطي مثل تلك الموجودة في بعض قطارات ألمانيا وباصاتها. وكل ما أمكنهم تقديمه إلينا هو البرتقال والشاي. وأمكننا، بعد الانطلاق وبلوغ ارتفاع الطيران، أن نجول في المكان بعض الشيء ورؤية ماهية الآلة الطائرة التي نركبها.

ذهبنا، أنا وزوجي مايكل، إلى المنطقة التي يوجد فيها القبطان ومساعده والملاحان. جلسوا على مستويين. وفيما الأوّلان مأخوذان كليًّا بعملهما ولا تمكن مقاطعتهما، جلس الملاح المساعد القرفصاء فوق خرائط هائلة الحجم منشورة تحته على أرض المستوى الأعلى. كانت واجهة الطائرة شفافة فتمكنَّا من رؤية المنطقة التي نطير فوقها ونقارن الأنهر المتعرّجة والطرق على الأرض مع تلك المؤشّر عليها في الخريطة. وبدا أن الطائرة مجهّزة أيضًا لالتقاط الصور الجوية. وعلى رغم أننا حصلنا في النهاية على إذن بعبور المجال الجوي التركي، سلكت الطائرة الطريق الجنوبية فوق جزء من تركيا، ثم فوق قبرص، ومن ثم فوق المتوسط إلى سوريا. حاولت السؤال عن سبب تغيير الطريق وأشرت إلى الخارطة التي يبدو أنها تنتهي عند الحدود السورية. بحث في المكان عن خريطة أخرى ووجد واحدة، غير أنه تمتم شيئًا عن الهبوط في دمشق. وأوصل إلينا بطريقة من الطرق أن الملاّح الآخر يمتلك التجهيزات الإلكترونية اللازمة. نزلنا للقائه، ووجدنا بالفعل أنه مجهّز جيّدًا بخارطة للطريق تتناسب في شكل لطيف مع ما يمكن رؤيته من خلال حوض الأسماك الكروي. مرر أصبعه على الطريق التي تمتد من سوريا إلى السعودية ومن ثم إلى الحبانية. وما إن أخذنا بالطيران على طول الحدود السعودية - العراقية حتى بدا أن الملاحين منشغلان فوق العادة بملاحظاتهما وصورهما.

هبطنا في الحبانية منتصف بعد الظهر في الوقت الأكثر حرًّا من النهار. وبدت الحبانية، وهي مطار عسكري، مهجورة تمامًا. ما إن فتحت أبواب الطائرة حتى اصطدمنا بما شعرنا كأنه جدار اسمنتي من الحر المحض. بلغت الحرارة في ذلك اليوم 50 درجة مئوية، أو 122 فهرنهايت. نظرنا، عبثًا، من حولنا

لرؤية من يأتي لاستقبالنا. فبما أنني أخذت، يومًا بعد يوم، أرسل خطة سفرنا إلى مختلف السلطات ثم أغيّرها مع مرور كل يوم، استنتج نظراؤنا العراقيون بعد مدة أننا كنا نصرخ وحسب بوجود الذئب، ويئسوا. لم يكن لا الأب فيليب من الكنيسة الكلدانية، ولا الهلال الأحمر العراقي، ولا الأمم المتحدة، ولا أي من السلطات العراقية (الذين تم ابلاغهم عبر سفارة بون) في متناول اليد. وخشينا أكثر ما يكون أن تُفسد الحرارة القصوى الأدوية الثمينة والأغذية في الطائرة. ومن حسن حظنا، أن المطار عسكري ويوجد فيه الكثيرون من الجنود الذين انتشروا على الفور وشرعوا في إنزال كل ما يمكن ان يتلف ووضعه في مستودع مبرد في المكان. والحمد للّه.

والحمد للّه أيضًا، قلنا أنا ومايكل، أن آل فاخوري معنا. فلولا مارغت وكمال لما أمكننا قط وضع الأدوية في مكان أمين أو تدبّر أمر انتقالنا إلى بغداد. وواكبنا إلى غرفة في واحد من المباني المنخفضة وقدمت إلينا المشروبات الباردة والبطيخ. وجلس رجل بالبزة الرسمية إلى مكتبه الذي زُيّن بعلم عراقي، فيما أخذت صورة كبيرة لصدام حسين تحدّق بنا على الجدار الذي خلفه. انشغل في إجراء الاتصالات الهاتفية محاولًا على ما يبدو بلوغ أحد في الوزارة، فيما اعتقد كمال أن علينا محاولة الاتصال بالأب فيليب. لم يجب أحدٌ على أي من الرقمين. وأصرّ الرجل على أن سيارتين في طريقهما لتقلّنا. وظهرت في النهاية سيارتا جيب صعدنا إليهما.

حلّ الليل فجأة كما لو ان أحدًا أطفأ مفتاح النور. مررنا، في طريقنا إلى العاصمة، بالفلوجة، ودهشنا للتعتيم الشامل فيها. شاهدنا شبانًا يجلسون على الطريق العام والكتب مفتوحة في أحضانهم تحت أنوار الشوارع فسألنا مرافقينا عن السبب. وشرحوا أن الانارة غائبة عن المنازل بسبب تدمير البنى التحتية فيغامر الطلاب الذين يستعدون للامتحانات بالخروج إلى الطرق العامة وهي المكان الوحيد الذي يعلمون أنهم يمكنهم أن يجدوا فيه بعض الضوء.

وصلنا في النهاية متأخرين إلى فندق الرشيد في بغداد، غير أننا تمكنا من بلوغ الأب فيليب الذي جاء على الفور لاستقبالنا. وشرح مشكلة «الصراخ بوجود الذئب» واعتذر لعدم استقباله لنا في الحبانية. وتبيّن أنه كان يحضر منذ الثاني من تموز/يوليو كل يوم إلى المطار. ولم يكن وحده بل أن وزارة الصحة إضافة إلى الهلال الأحمر والأمم المتحدة أرسلت مرات عدة سيارات وشاحنات، ثم استسلمت.

توجهنا في الصباح التالي مع الأب فيليب إلى وزارة الصحة حيث استقبلنا الدكتور شوقي توما وهو يشكرنا. وحثّنا، ونحن نوزع مساعداتنا، على استغلال زياراتنا لمختلف المستشفيات للحصول على روايات من المصدر عن الوضع

الصحي العام الكارثي. وسعدنا جدًّا لمعرفتنا أن حمولتنا الثمينة كلها نقلت إلى بغداد بآليات وفّرتها الوزارة، وهي في أمان وتنتظرنا مخزونة لدى الهلال الأحمر.

شرعنا عندذاك في جولتنا لتوزيع المساعدات. وكان المعيار الذي اعتمدناه بسيطًا: حصل كل مستشفى على ما هو في حاجة إليه أكثر ما يكون. شكل الأمر مهمة عادية بما أن سبق للدكتورة فاخوري أن وضعت لوائح بالسلع التي يحتاج إليها مختلف المستشفيات. وهكذا حصل مستشفى اليرموك الجامعي في المنتصرية على مواد تضميد وأدوية وحقن وشرائح زجاج للميكروسكوبات، فيما حصل مستشفى صدام للأطفال على حليب الأطفال والمضادات الحيوية والأدوية المضادة للسعال والإبر والحقن وأنابيب الإطعام وأنابيب الامتصاص ومواد التضميد. وحصل مستشفى الكرامة على مواد تضميد وأدوية، فيما نال المركز الصحي في الشيخ عمر، وهو واحد من أشد أحياء بغداد فقرًا، الحليب المجفف والأدوية.

واستمر توزيع المساعدات في أحياء أخرى من بغداد، من الشعلة ومدينة صدام (الآن مدينة الصدر) إلى مستشفى صدام العام ومستشفى القادسية العام. رسم لنا الدكتور قاسم اسماعيل مدير المستشفى في مدينة صدام صورة تقشعر لها الأبدان عن الكارثة الصحية حيث المستشفيات، المجهزة في الأساس بطريقة احترافية للتعامل مع كل المشاكل، أضحت كسيحة بفعل نقصان المواد أساسية جدًّا. فأنسولين مرض السكّري مفقود، ولا أدوية لعلاج التيفوس (الذي أخذ في الازدياد) أو ضغط الدم المرتفع أو حالات الغدة الدرقية. وتوقفت الفحوصات المخبرية الروتينية بسبب فقدان التجهيزات الأساسية مثل الأنابيب والحقن ألخ... وقد توقف اثنان من مولدات المستشفى الكهربائية الثلاثة عن العمل والحصار يمنع دخول إمدادات قطع الغيار.

التقينا، بعد يوم من ذلك، غبطة البطريرك روفائيل الأول بيداويد في الكنيسة الكلدانية في بغداد، ويا له من لقاء. فقد أدهشني حضوره على رغم أنني قدّرت من النقاشات مع الأب فيليب ومن أخبار الصحافة أنه شخص مميّز. فبالطريرك بيداويد شخصية تفرض نفسها، قوي البنية وينتصب كالعمود في الصحراء. وذكّرني بتماثيل النساء في الإركثيوم في الأكروبوليس في اثينا، تلك التماثيل المهيبة التي تحمل المدماك العلوي للمعبد الرخام الضخم.

رحّب بنا بحفاوة كبرى متحدثًا الإيطالية بطلاقة وشكر لنا جهودنا. ثم، لما سألته عن الوضع في البلاد، شرع في مضبطة اتهام لاذعة لما فعلته الحكومة الأميركية لتدمير العراق. ويمكن عدُّه (على غرار شخصيات قيادية أخرى سنلتقيها) أي شيء إلا معاديًا لأميركا، وهو على نزاع مع واقع أن القضاء على

أمته وشعبها مصدره أميركا «المحبة للحرية». وأخبر عن سفره إلى الولايات المتحدة، وأعرب عن صدمته للانحلال الأخلاقي والسياسي للمجتمع الأميركي. وذُهل في اللقاءات التي عقدها مع رؤساء مؤتمرات الأساقفة والمجلس الوطني إضافة إلى المجلس العالمي للكنائس والكاثوليك لإيجاده أن أيًّا من الأساقفة لا يملك أي فكرة عما هو عليه الوضع في العراق. وقد سأله أحد رؤساء الأساقفة ألم يكن يخشى التحدّث بهذا القدر من الصراحة؟ وأجابه البطريرك «ولماذا عليّ أن أخاف؟ هل أقول أمرًا خاطئًا؟ إنني أقول الحقيقة كما هي». وقال رئيس الأساقفة إنه لو تمتّع بهذا القدر من الصراحة لخاف أن يغادر منزله. فهنأه بيداويد على شجاعته.

ومضى البطريرك في هذا، كما في نقاشات لاحقة، ليتوسع في فهمه المأساة الآخذة في التكشف في الولايات المتحدة. ورأى أن الرئيس بوش «رجل وحشي ومحب للانتقام». وقال: المأساة أن ليس هناك على الاطلاق أي مبرّر للاستمرار في الحظر بعدما «حصلوا على كل ما يريدونه». وأضاف أن الشعب العراقي «عانى إلى أبعد حدود المعاناة، وهو يتوق إلى جعل المؤسسات ديمقراطية». وأفاد عن مؤتمر عقد في بغداد لوضع مسودة تشريع لإدخال الأحزاب السياسية ولإنشاء لجنة لوضع دستور جديد يحدّد حقوق الأحزاب والمواطنين. وقد محت الحرب ذلك عن الروزنامة.

وفي وقت ركّز حنقه على بوش بصفة كونه العامل الأول للحظر، فجّر غضبه على الأوروبيين لأنهم «عاجزون» لا يجرؤون على مواجهة الرئيس الأميركي. ففرنسا «عبدة» بوش، أما بالنسبة إلى إيطاليا فقد قال جيوليو أندريوتي «إنه يتمنّى لو أنه قادر على فعل» شيء ما، «لكنه لا يستطيع». واستخلص البطريرك أن «عدم القدرة يعني أنه لا يريد القيام بشيء». وانهى المحادثة وهو أيضًا يتحسّر على «أن ما من أحد يملك الشجاعة لمواجهة بوش». أما بالنسبة إلى جهود البابا النبيلة، فلم يمكنه سوى التعليق أن بوش تجاهل كل بادرة من الكرسي الرسولي.

عاش البطريرك بيداويد في منزل متواضع، ولكن مريح، في حي المنصور المسيحي في بغداد، على مقربة من الأبرشية. وكان ذلك اليوم، الأربعاء، اليوم الذي تجمّع فيه متطوعون من كنيسته لتوزيع المواد الغذائية على محتاجي الحي. وكنّا سلّمنا بضاعتنا وذهب بنا الأب فيليب إلى أحد مواقع التوزيع حيث أمكننا أن نرى كيف تسلم هذه المواد، إلى جانب أكياس من الحليب المجفف والطحين والرز، إلى المسيحيين والمسلمين على السواء.

وفيما نحن نسير عبر صفوف النساء العراقيات الملتفات بالتشادور الأسود، أخبرنا الأب فيليب عن جهود البطريرك لدرء الحرب. فقد اجتمع في كانون الأول/ديسمبر الماضي مع أعضاء في الكنائس الأميركية إضافة إلى الكنائس

الشرقية، وأنه في اجتماع لاحق مع صدّام حسين ناشدته البعثة اعتماد سياسة تفادي الحرب. وكان المفهوم الذي تمت مناقشته هو أن المرء لا يمكنه الفصل بين الوطنية والإيمان. واستذكر الأب فيليب أيضًا قرار البطريرك الانضمام إلى مجموعة من الأساقفة في الانطلاق في مهمة سلام في الخارج. وكانت تلك الرحلة إلى روما التي عرفنا في شأنها. وما لم نكن نعرفه، وأخبرنا إياه الأب فيليب، هو أن بيداويد اجتمع، قبل مغادرة العاصمة العراقية، مع طارق عزيز في 12 كانون الثاني/يناير وأنه أبلغ نائب رئيس الوزراء أنه ورفاقه لن يغادروا البلاد إذا كان للهجوم أن يقع. وأبلغه طارق عزيز أن عليه المضي في مهمته وأكد لهم أن لن تكون هناك حرب.

وأخبرني البطريرك القصة نفسها في اجتماع لاحق، وقد تلاءمت مع ما سمعته من كبير الدبلوماسيين العراقيين في بون قبل ان تبدأ الطائرات بطلعاتها. وجاء في روايته أن السفيرين الفرنسي والروسي في بون أكدا له شخصيًّا أن لن تقع أي حرب ضد العراق. وسأسمع، في وقت لاحق أكثر، في 2003، تقريرًا مشابهًا عن «الضمانات» من آخر دبلوماسي عراقي قبل الحرب في ألمانيا.

على رغم أن حصة كبرى من الحاجات الإنسانية من ألمانيا ذهبت إلى مستشفيات في بغداد، احتل مكانان مهمان آخران لائحة المستلمين. توجهنا في 11 تموز/يوليو في سيارات الجيب والشاحنات التابعة للهلال الأحمر إلى كربلاء والنجف، وهما مدينتان شيعيتان مقدستان في الجنوب. فعندما انتهت الحرب الجوية الأميركية اغتنمت مجموعات شيعية في كربلاء الفرصة للقيام بتمرد على سلطة صدام حسين المركزية. صدّقوا في سذاجة أنهم سيتلقون الدعم العسكري من الأميركيين الذين حثوهم على الثورة، فانخرطوا في مواجهات دموية هي بمثابة حرب أهلية. ودمّر القتال المدينة بكاملها - المباني العامة، المدارس، والمنازل - وشكل مستشفى الحسين المثال الأكثر مأسوية. ولم تبق إلا طبقة واحدة تعمل في المبنى المؤلف من خمس طبقات وقد امتلأ بآثار الرصاص وبالفجوات المفتوحة التي أحدثتها مدافع الهاون. واستُخدم موقعًا للعمليات الجراحية الطارئة.

روى لنا المدير تجربته الرهيبة. فمع انتهاء الحملة الحربية الأميركية «الرسمية» واندلاع الحرب الأهلية، غرق المستشفى تحت فيض من الإصابات. وانتقل بنا إلى الطبقة الأرضية حيث أرانا الغرفة الهائلة التي جيء إليها بأجسام الجرحى (وبعضهم مات لسوء الحظ) على النقالات، أو اكتفى أفراد بحملها ورميها على الأرض. وفيما أخذت الأجسام تتكوّم، نقل وزملاءه الجريح تلو الآخر إلى الغرف لتلقي العلاج أو الخضوع للعمليات الجراحية الطارئة. وسألته مارغت كيف تدبّر يا ترى وزملاءه التعامل نفسيًّا مع مثل هذا

الكابوس الجهنمي عاملين ليل نهار في الظروف الأكثر بدائية، وكيف يمكنه الاستمرار في الابتسام. فشرح: «إذا كنت أضحك من بعد هذه المأساة، فليس في سبيل التقليل منها بل لأن ليس من أمر آخر يسعني فعله. فما الذي يريدونه بعد؟» سأل وهو يشير إلى الحظر. أما بالنسبة إلى ردّ فعله، فأجاب بابتسامة «فعلنا ما أمكن إذ لم يتوافر لنا خيار آخر». ولكن وُجد خيار آخر لم يُشر إليه وهو البحث عن ملجأ في الخارج، لكن ذلك لم يشكّل خيارًا له ولزملائه وقد عرفوا أن مكانهم هناك ومهمتهم تقضي بمساعدة شعبهم.

وكشفت زيارتنا للأجنحة في كربلاء صورًا سنشاهدها من جديد المرة تلو المرة: امرأة بالتشادور الأسود تجلس في سأم على أحد الأسرة مع طفلها ابن الـ45 يومًا الآخذ في الذبول الكلّي وهو يبدو أشبه بدودة منه بكائن بشري. والتقطت لها صورة وهي تتضرّع إلى اللّه، وكاد القيام بالأمر يقتلني. وفكّرت بوجوب الكشف عن هذا الواقع.

أنزلنا مساعداتنا في الحرّ اللافح، وقد استُقبِلت مع الشكر. وتم القبول بأسرّة الميدان المئتين بالكثير من التقدير وكذلك بالضمادات والحقن والمباضع والأنابيب الضرورية للعمليات الجراحية.

وكانت محطتنا التالية في النجف على بعد نحو ثمانين كيلومترًا، وهي المدينة التي كانت أيضًا مسرحًا للحرب الأهلية وقد استهدفها هي أيضًا قصف الحلفاء في الحرب «الرسمية؛» إلا أن المستشفى لم يتعرّض للدمار التام كذلك الذي تعرض له مستشفى كربلاء. وهو مستشفى ممتاز، روعة في النظافة وحديث مع مصاعد وغرف مجهزة تجهيزًا جيدًا. وكان لأحد الأطباء الذين رحبوا بنا قصة يرويها عن فظاعات الحرب الأهلية: امتلأت غرفة الطوارئ بالدماء والجثث فيما بتر أحد أعضاء إحدى الفتيات في الشارع وسط القتال كإجراء لإنقاذ حياتها. وقال لنا في واقعية أن مستشفاه ممّون نسبيًّا كفاية بالأدوية وعلينا بالتالي أخذ الكمية المخصصة له إلى المستشفيات الأخرى ذات الحاجات الكبيرة.

واجهنا في جولتنا في الأجنحة حالات قوية من سوء التغذية والإسهلال والتيفوئيد وغيرها. وقد كسرت إحدى الفتيات الصغيرات ساقها خلال النزاع والتهبت. وتساءلت والدتها، التي سمعت على غرار الكثيرات غيرها بالمساعدين الآتين من ألمانيا، هل في الإمكان إنقاذ ابنتها صابرين. ووجدنا، في كل مكان قصدناه، أن الخبر عن بعثتنا انتشر مثل النار في الهشيم وولّد إحساسًا بالتفاؤل. نُظر إلينا بصفة كوننا الناس الذين جاءوا ليس فحسب بالدواء والحليب المجفف وتجهيزات المستشفيات، بل أيضًا ببريق أمل بأن في الإمكان، من خلال التضامن الإنساني، التغلّب على الصدمة التي لا توصف والتي مرّت بها البلاد وشعبها.

وقضى أحد الخيارات بإرسال الأطفال إلى ألمانيا للحصول على العلاج الذي لا يمكنهم تلقيه في الديار. ووُجد حينذاك في العراق طبيب ألماني، هو الدكتور كلاوس هلينغ، الذي جاء بمبادرة خاصة منه وأخذ يدرس هذا الخيار. إتصل بمارغيت التي تعرّف إليها في زيارة سابقة وسألها هل في وسع لجنتنا توفير النقل لثمانية أطفال سبق أن تدبّر لهم العناية الاستشفائية. وما إن تم أبلاغ مكتب المندوب التنفيذي (للأمين العام للأم المتحدة) حتى ردّ بالإيجاب. وانتقى الأطفال الثمانية الأول في بغداد ونقلوا بطائرة للخطوط الجوية الرومانية TAROM BAC 1-11، فوصلوا إلى فرانكفورت في التاسع من تموز/ يوليو. وقد استقبلهم زملاء هلينغ في «منتدى هامّر» ونقلوهم إلى عيادات ومستشفيات في وستفاليا في الراين الشمالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كسر التعتيم

نقلت الصحافة الألمانية خبر وصول الأطفال العراقيين الثمانية من بغداد إلى فرانكفورت على أنه الحدث الأول من نوعه، وكان لذلك وقع كبير في الرأي العام. فللمرة الأولى يتذوّق المواطنون الألمان، حتى أولئك الذين يشاهدون أورليخ فيكرت، كل ليلة على الأخبار، طعم الواقع من العراق. وقد لاقت الرحلة الجوية أيضًا ترحيبًا واسعًا في الصحافة العراقية وغيرها من الصحافة الناطقة بالعربية. وأخذت مارغيت، التي باتت تُعرف في بغداد بـ «الدَتّورة مارغيت»، تتلقى في مكتب الهلال الاحمر زيارات من الأهالي الذين يجلبون معهم أولادهم المرضى أملًا منهم بإرسالهم إلى الخارج للمساعدة. وراجعت مارغيت، بالتعاون الوثيق مع الفريق الطبي في بغداد، الملفات الطبية الشخصية، وشاركت في التشخيص، وحضّرت الأعمال المكتبية لأولئك الأطفال الذين عُدُّوا أنهم قد يستفيدون من العلاج في الخارج. وتلقى الدكتور هللينغ، وقد عاد إلى هام، تقاريرها وباشر البحث عن أمكنة للمرضى الجدد في العيادات الألمانية. وبلغتنا في 22 تموز/يوليو الأخبار السارة بتأكيد أمكنة لاثنين وعشرين طفلًا إضافيًّا، وهذا يعني أن هذه العيادات الألمانية ستأخذ المرضى وتعالجهم بالمجان إلى أن يمكن اطلاقهم وإعادتهم إلى ديارهم.

في غضون ذلك، عدنا، أنا ومايكل، إلى ألمانيا في 13 تموز/يوليو في رحلة جوية للأمم المتحدة مرّت بجنيف ومعنا الأمير الذي كان في بغداد في مهمة لتقصّي الحقائق. وسنحت لي الفرصة، في تلك المناسبة، لأحدثه عن خيار الخطوط الجوية العراقية، وهو ما سأفصله لاحقًا(76).

طرت بعد ذلك بأسبوع عائدة إلى بغداد مسلّحة هذه المرّة بترسانة ثمينة من المعدات المنقذة للحياة، وهي كناية عن مئة مصباح «نيون» تستخدم في العلاج الضوئي للأطفال المولودين قبل أوانهم. وقد طلبها الأطباء في مستشفى القادسية بصفة مستعجلة واستحصل عليها زملاء مارغت في إسن على الفور. شكّلت رحلتي إلى بغداد مغامرة جامحة لكنني وصلت قطعة واحدة وكذلك مصابيح النيون المئة(77).

شرعنا نعمل في شكل محموم في بغداد لتسريع الإجراءات المطلوبة لتأشيرات خروج المجموعة التالية من الأطفال، وكذلك الأوراق التي يحتاجون إليها لدخول ألمانيا. وأخيرًا، صعدنا في 30 تموز/يوليو إلى طائرة «تاروم بي.إي.سي. 1-11» من الحبانية إلى فرانكفورت. كانت رحلة جامحة. فمعنا عليها، أوّلًا، أطفال إصاباتهم خطيرة حقًّا وهم، في تفكير إلى الوراء، ما كانوا ربما لينجوا من الرحلة. وأصعد اثنان من الأطفال في حمالتين وهو ما لم تكن الطائرة مجهّزة له. ولمساعدة حالتي الحمالتين اللذين ما كان في وسعهما

استخدام المراحيض البدائية في الطائرة، استنبطت مارغت وسائل غير تقليدية، صانعة نونيات سرير من أي مواد بلاستيكية متوافرة على الطائرة. ولم يعانِ أي من مريضي الحمالتين.

وحدث، ثانيًا، توقّف في أثينا جيء خلاله بثلاثين جنديًّا يونانيًّا تابعين للأمم المتحدة إلى الطائرة. وفيما هم يصعدون اندفع معهم أيضًا عدد كبير من الصحافيين اليونانيين، الذين أحيطوا علما بهدف الرحلة، وشرعوا في التصوير. وفكّرت أنه ليس بالأمر السيّئ أن يُبث تقرير عن الرحلة في وسائل الإعلام، إلا أن عنصرًا دانماركيًّا من قوة الأمم المتحدة، وقد اعتراه القلق على حمولتنا الخاصة، هاجم رجال الصحافة في قوة قائلًا لهم «يوجد أناس على درجة كبيرة من المرض هنا في الداخل»، وطلب منهم أن يوضبوا كاميراتهم ومسجلاتهم ويرحلوا. استغللت الفرصة، بعد رحيل الصحافة، لأعرّف عن نفسي للدانماركي المسؤول صاحب الشعر الأحمر، وأطلعه على ما تتضمنه الرحلة. وأشرت إلى أن بين مرضانا صغارًا جُرحوا في القصف الأميركي على ملجأ العامرية. فتراجع خطوة إلى الوراء كما لو انه يبتعد عن الهوة، وقال إنه «لم يفهم». فقدّم إليه كمال تقريرًا واقعيًّا قصيرًا عن ماهية العامرية، فشحب لونه.

بهبوطنا في مطار فرانكفورت استقبلنا أسطول من سيارات الإسعاف التابعة لفرسان مالطا أرسل لنقل الأطفال إلى وجهاتهم في مستشفيات إسّن وبون وفرانكفورت ومونستر وهام وبرلين. وغطّت الصحافة الألمانية، لمفخرتها، الحدث في المطار بمراسلين من «دي.بي.إي». ورويترز، والصحف الرئيسة اليومية.

جاء وصول الأولاد العراقيين إلى ألمانيا تمامًا قبل ذكرى اجتياح الكويت في الثاني من آب/أغسطس، وما أعقب ذلك من قرار أميركي بالمضي إلى الحرب. إنه اتفاق مصادفة ظهرت فيه على شاشات التلفزة وصفحات الصحف صور أطفال عراقيين بعضهم فقدوا سيقانهم والآخرون ملفوفون بالضمادات أشبه بالمومياءات السابقة لأوانها، الأمر الذي أدخل الواقع الوحشي للحرب عنوة إلى منازل المواطنين الألمان وقلوبهم.

حظي الحدث بوابل من التغطية، فعرضت الـ»فرانكفورتر نيو برس» في صفحتها الأولى تقريرًا عنه مع عدد من الصور، فيما نشرت صحيفة «فرانكفورتر ألجماينه زيتونغ» في 31 تموز/يوليو صورة في صفحة المناطق تظهر فتاة صغيرة على حمّالة وهي تُنقل إلى سيارة الإسعاف المنتظرة. وشدد كلام الصورة على أن الأطفال الإثنين والعشرين يتلقون العناية في عيادات ألمانيا ومستشفياتها لأن «العلاج المناسب غير ممكن في بلادهم الآن بسبب الأضرار التي تسببت بها الحرب». ونشرت صحيفة «التابلويد» اليومية

الواسعة الإنتشار «بيلد زيتونغ» صورتين لولدين لدى وصولهما إلى مطار فرانكفورت، ونشرت وكالة الأنباء الألمانية الوطنية «دي.بي.إي» خبرًا في الثاني من آب/أغسطس تنقل فيه عن مارغت قولها إن العناية الطبية في العراق «غير ملائمة كليًّا» وإن وضع الإمداد بالغذاء «بائس». وكانت التغطية الإقليمية في منطقة الروهر واسعة واستشهدت بمارغت في ما يتعلّق بوضع النظام الصحي الكارثي في العراق. ونقلت صحف عدة صور آلاء وصابرين، وهما فتاتان من النجف صاحبتا وجه ملائكي. حتى أن الديلي تلغراف اللندنية نشرت خبر وصول الأولاد إلى ألمانيا. وتحدّثت روايات الصحافة عن «ضحايا حرب الخليج»، و«الضحايا البريئة»، و«أطفال الحرب الجرحى من العراق الذين يأملون بالشفاء في ألمانيا» وإلى ما هنالك. أما الصحف الإقليمية في المناطق التي يخضع فيها الأولاد للعلاج الإستشفائي فنشرت روايات مفصّلة للحالات الشخصية.

راودتني وأنا أقرأ تقارير مرسلة إلى صدر الدين والدكتور فالدهايم الفكرة الآتية: صحيح أن الإحصاءات عن عدد الأطفال الذين قتلتهم الحرب أو شوهتهم تصيب بصدمة، غير أن صورة ولد واحد هي التي توصل الرسالة إلى عنوانها، ومفادها أن كل واحد من هذه الاحصاءات يتطابق مع كائن إنساني واحد، فريد، لا يمكن استبداله. وقد أجبر الرأي العام على التفاعل مع وصول الأولاد العراقيين الجرحى إلى فرانكفورت.

شكل الأولاد دليلًا لا يمكن دحضه إلى أن الحرب التي فرضتها مارغريت ثاتشر وجورج بوش على العراق هي حرب غير عادلة استهدفت ومن دون تمييز المدنيين بمن فيهم الأصغر سنًّا. ووفّروا أيضًا توثيقًا حيًّا لواقع أن نظام الحظر لا يزال، بعد سنة كاملة على اجتياح الكويت، يقتل العراقيين الأبرياء. وشكّلت قصة كل طفل إدانة جرمية ضد الحرب ونظام العقوبات.

كانت آلاء في الثامنة من العمر عندما أصيبت من جراء انفجار قنبلة في باص صغير. هلكت أمها في الإنفجار، وجاء بها والدها إلينا طالبًا المساعدة بما أن الأدوية التي تحتاج إليها نفدت من مستشفيات بغداد. وصُخت فيها المضادات الحيوية في ألمانيا لقتل الالتهاب في ساقها المجروحة وأجريت لها جراحات عدة لإزالة العظمة الميتة. ولكن وعلى رغم هذه العمليات التي أجراها كبار اختصاصيي المستشفيات الألمانية عادت آلاء إلى العراق بساق يابسة ستحول الجروح دون نموها الطبيعي. إلا أنها بقيت حيّة.

لم يملك أياد هذا القدر من الحظ. فقد كان مختبئًا في أحد الملاجئ في بغداد عندما أصابته قنبلة أطاحت إحدى ساقيه وبترت الأخرى تحت الركبة مباشرة. ولم يتمكن أي مستشفى عراقي من توفير أكثر من الإسعاف الأولي، وأعيد إلى منزله إلى أن تمكنت اللجنة من إرساله إلى ألمانيا. وهو بلغ التاسعة

عشرة وتخطى الحدّ الرسمي لمثل هذه الحالات وهو 18 عامًا، لكننا تمكنّا من تمريره. وتحرّر بعد جولات جراحية عدة من الالتهابات المتملكة فيه والتي تهدد حياته وبات في وضع يسمح بأن تُركّب له أطراف اصطناعية. وتمكن من تحقيق حلمه بالعودة إلى دياره وهو يمشي.

واحتمى ثلاثة فتية آخرين، في وضع مشابه، في ملجأ العامرية الذي حولته غارة القصف الأميركي في 13 شباط/فبراير جحيمًا قُتل فيه 500 مدني معظمهم من النساء والأطفال. أصيب الملجأ الرحب الذي يقع تحت الأرض بقنابل أو بصواريخ توجه عن بعد الرابعة بعد الظهر، في سياق 12 ساعة متواصلة من القصف الجوي على بغداد. وكان جمال وخالد اثنين من بين القلّة الذين نجوا. عانى جمال إصابات في الجمجمة وفقد عينه اليمنى وتكسّحت ذراعه اليسرى وساقه، واصيب بحروق. وكان خالد مع شقيقته وأهله الذين تحوّلوا حرفيًّا نثرًا صغيرة. وبقي حيًّا بأعجوبة، وامتلك، على رغم صدمته، حضور الذهن لمساعدة ثلاثة آخرين في الخروج من الحصن المشتعل. ولما خرج إلى الضوء لم يتعرّف إليه أحد لأن حروقه الشديدة سوّدت وجهه وجسمه.

ثم هناك علي ابن السابعة عشرة الذي كان في مطبخه في كربلاء عندما سقطت القنبلة، فقُتلت شقيقته وولداها إضافة إلى شقيقه. نجا لكن ساقه تعرّضت لإصابة بالغة فتوجّب بترها بعدما تفشت فيها الغرغرينا. وأصيب بالتهاب في عظم ذراعه اليمنى المكسورة إضافة إلى إنتان الدم وكان في حال شديدة من سوء التغذية عندما التقيناه. وشفي بعد إقامة طويلة في المانيا، ليس بدنيًّا وحسب بل تمكن أيضًا من استعادة بعض التوازن النفسي.

وعولج خمسة أولاد في وقت لاحق في ريتشموند، فرجينيا، بينهم ابتسام الفتاة التي نُسف منزلها وهي تعود من جرّ الماء. والأخرى هي هبة، ابنة الثانية عشرة، التي فقدت أصابع يدها اليمنى خلال غارة قصف على بغداد. وجاءت فرح من مدينة كربلاء الشيعية المقدسة، وقد شُلت ذراعها اليمنى من جراء انفجار في المدينة. أما الفتى حيدر ابن السنوات العشر فاخترقت الرصاصات عينيه عندما علق وسط تقاطع للنيران. وهناك أخيرًا لؤي، وهو كردي تشوّه وجهه من جراء حروق شديدة خلال النزاع بين القوات العراقية والأكراد في كركوك.

كانت التقارير الصحافية عن الأطفال التي بلغت الأرض الأميركية هي في الأساس مواضيع ذات طابع انساني أحدثت وقعًا عظيمًا. وأحد الجوانب التي برزت هي الفارق الذي نظر فيه الأطفال من ثقافتين مختلفتين إلى مثل هذه الإصابات. ففيما يتجه الأطفال الأميركيون إلى الانشغال بالمظهر وتجنّب أي تشويهٍ، لم يشعر الأولاد العراقيون بالخجل من مظهرم الرهيب وكانوا أكثر

انشغالًا بإيجاد الراحة. وكان العراقيون ناضجين في شكل مدهش في ما يتعلق بطبيعة النزاع الذي ألحق بهم الضرر، كما قال حيدر عندما سئل كيف أصيب: «كنت في الباحة خارجًا ألعب وقصفتني واحدة من طائرات جورج بوش».

وفتح الأمر أعين أطفال ريتشموند. وظهرت الصدمة في وضوح على فتاة في الثالثة عشرة في مدرسة محلّية زارها الأولاد العراقيون عندما عرفت بخبر وجوب بتر ساق ابتسام. وقالت: «مضينا إلى الحرب للنيل من صدّام وانتهى بنا الأمر نقتل الأطفال». ورسمت أخرى صورة لما اختبرته ابتسام بصفة كونه أمرًا يتجاوز فهمها. قالت: «لم تكن إلا متفرّجة بريئة. تخرج إلى باحتك و - كابوم! - تختفي ساقك! لا يمكنني تخيّل الأمر. فهي لم تخرج لتحارب، بل كانت وحسب في باحتها الأمامية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العودة على الطريقة العراقية

أُطلق الأولاد، الواحد تلو الآخر مع انتهاء مدة علاجهم التي تضمنت الجراحة في ألمانيا والولايات المتحدة، وأرسلوا عائدين إلى ديارهم. وقضت مهمتنا بتدبير سفرهم ومرافقتهم في طريق العودة إلى عائلاتهم.

يعتقد الكثيرون من الناس أن في بلدان مثل العراق، حيث توجد عائلات كبيرة - عشائر في الواقع - تضيع هوية الفرد داخل العدد الكبير من الأولاد. بل أن بعض الناس سألونا هل تتذكر العائلات الأولاد الذين ذهبوا إلى الخارج للعلاج؟ وقد وفّرت عودتهم إجابة لا لبس فيها.

تلقّى حيدر العلاج في فرجينيا؛ كان فات الأوان كثيرًا على إنقاذ نظره على رغم تمكن الجراحة من إزالة الرصاصة. وأعربنا، لدى عودتنا، عن الأسف لعدم تمكننا من القيام بما هو أكثر له. وقال والده إنه يأسف على ابنه، لكنه شاكر لنا.

ووصلت آلاء، التي سُحقت ساقُها، إلى بغداد ونزلت معنا في فندق الرشيد وهي تتزيا بفستان جميل أعطي لها في ألمانيا، وهو من قماش القطن الأبيض، وذو قبّة بنفسجية عريضة تنثني على كتفيها. ووضعت ربطة شعر متناسقة معه لتحصر شعرها الأسود الكثيف المجعّد. استقبلها والدها بدموع العرفان بالجميل فيما انضم من نجا من عائلتها إلى الاستقبال. وحضرت إحدى شقيقاتها، وقد تزوجّت، مع طفلتها إلى جانب الأشقاء والشقيقات وعيّنة كبرى من أولاد الحي من كل الأعمار.

ووفى أياد، المزود طرفين اصطناعيين، بوعده بالعودة سيرًا إلى الديار. وبدخوله حيّه تجمع السكان جميعهم لاستقباله بالهتافات والاحتفالات الكبرى، أقله بما يسمح به وضع ما بعد الحرب.

ثم هناك صابرين، التي وجدناها في البداية ممدّدة على أحد أسرة مستشفى النجف وساقها في قالب الجفصين. وقد بلغت بالكاد الرابعة من العمر، عيناها سوداوان براقتان ولها كتلة من الشعر الأسود المجعّد. جثمت والدتها، على غرار معظم الأمهات اللواتي التقيناهن في المستشفيات، فوق السرير تجالسها وشرحت لنا أن الفتاة وقعت عن ارتفاع بضعة أمتار وكسرت ساقها. حدث ذلك إبان الحرب. وبما أن النجف، على غرار كربلاء، ابتليت بما سمّي الحرب الأهلية عقب 28 شباط/فبراير 1991، لم يتمكن المستشفى من توفير العناية اللازمة لها.

أصبح ذلك المستشفى ساحة قتال بين المجموعات الشيعية المتنافسة التي أرادت احتلاله كقاعدة للسيطرة على المدينة التي أمَلوا في احتلالها. وبفعلهم

هذا، رموا بالمرضى خارجًا وتركوهم لمصيرهم. وهكذا لم تعالج ساق صابرين إلا بعد انحسار العنف، وجاء ذلك متأخرًا وفي شكل غير ملائم. وتملّك بها التهاب العظم والنِّقي ولم يمكن وقفه بسبب الافتقار إلى المضادات الحيوية. واعتقد الأطباء أنها في حاجة إلى غرس العظم أو إلى زرع العظم الاصطناعي، ولا يمكن التفكير في كليهما في العراق. أخبرتنا أمها القصة بكاملها وهي مستسلمة نوعًا ما لاحتمال أنها قد تفقد أحد أولادها. وكانت وهي تتحدّث تهدهد طفلة أخرى هي شقيقة صابرين ابنة الأشهر السبعة التي بدا أنها لا يسعها أي شيء سوى الابتسام والضحك. وما إن اقترحنا أخذ صابرين إلى ألمانيا حتى تبدّلت والدتها وبدأت برفع الشكر إلى اللّه.

وهكذا سافرت صابرين معنا إلى ألمانيا، ترافقها آلاء، في رحلة 30 تموز/يوليو وعولجت كلتاهما في المستشفى نفسه. وأصبحتا على الفور محط الانتباه. ففيما استفادتا من العناية الممتازة، بما في ذلك الجراحة والمداواة المكثّفة بالمضادات الحيوية والعلاج، انهمرت عليهما الهدايا والزيارات. أخذ كبيرا الأطباء في المستشفى يزورانهما يوميًّا، ليس فحسب بسبب ما تتطلبه الاعتبارات الطبية بل لأنهما أغرما أيضًا بالطفلتين. واستجابت الطفلتان كلتاهما جيّدا للعلاج، وسرعان ما اتضح أنهما ستتمكنان من متابعة حياة طبيعية.

وخيّم الشك على حال صابرين، ليس بسبب إصابتها التي لم تشكل معضلات لا يمكن تجاوزها بالعناية الطبية المناسبة، بل بسبب العوامل النفسية. فهي لم تنطق بكلمة واحدة منذ الوقت الذي وجدناها فيه في المستشفى وحتى وصولها إلى ألمانيا. وأبلغتنا والدتها أن الفتاة الصغيرة تعجز عن النطق لكنها لا تعرف السبب. وهي لم تعتقد أن الفتاة صماء - خرساء إذ اتضح أنها كان في وسعها، قبل السقطة، السماع وإحداث أنواع الضجيج التي يحدثها الأطفال. غير أنها لم تنطق بكلمة واحدة بعد الحادث. واعتقدت مارغت أن هذا رد فعل على صدمة القصف في النجف خلال تلك المرحلة.

أخذت صابرين فجأة، بعد مضي بضعة أسابيع على وجودها في المستشفى الألماني، في التفوّه ببعض الكلمات - ولكن بالألمانية - أخذت تُخرج نتفًا وكسرًا من جملٍ ردًّا على العناية والرعاية اللتين أحاطتها بهما الممرضات المهتمّات. وشعرت مارغت أن هذا يؤكد نظريتها أن البكم ناتج عن صدمة وساعدت، في فرح شديد، في تعليم الطفلة التواصل.

ولما حان موعد مغادرة صابرين ألمانيا للعودة إلى الديار، أقام لها فريق المستشفى حفلة وداع ضخمة. واضطررنا إلى شراء حقائب إضافية لتوضيب ما حصلت عليه من هدايا وثياب. وسافرنا جميعنا معًا، أنا وصابرين وكمال وزوجي. وبعد وصولنا إلى عمّان في الأردن صعدنا إلى طائرة أنطونوف تابعة

للأمم المتحدة نقلتنا إلى بغداد حيث نزلنا في فندق الرشيد. وهناك تناهى لنا للمرة الأولى أن صابرين، وفيما أخذت الخادمات وكل موظفي الفندق الآخرين (الذين باتوا يعرفوننا) بالترحيب بها بالعربية وهم يتعجّبون لصحتها الجيدة وابتهاجها ويطرحون عليها الأسئلة عن مغامرتها في الخارج، اكتفت بالإجابة بنظرة محتارة. وفي المرات التي أجابت فيها جاءت إجابتها بالألمانية.

أدرك كمال، وهو رجل مُرهف في شكل استثنائي ولديه نظرة ثاقبة إلى نفسية الأولاد، أن لديه مهمة عاجلة يقوم بها في تلك الأمسية قبل توجّهنا في اليوم التالي إلى النجف. سحب بعضًا من صور عائلة صابرين وأخذ يراجعها معها وهو يدلّ إليها بالعربية والألمانية، «هذه أمّك، هذا والدك»، وهكذا دواليك. لم يبد الاهتمام على صابرين في البداية، ثم ما إن أدركت ما يحدث حتى ألحّت في عناد على أن نذهب إلى أهلها على الفور. وصاحت «يتزت!»، «الآن!» ولما قيل لها «مورغن» («غدا»)، لم يمكنها سوى الترداد «ناين، ناين، جتزا!» (كلا، كلا، الآن). نجح زوجي في تهدئتها بعض الشيء بأن أنشد معها بعض أغاني الأطفال الألمانية إلى أن غفت.

أمرتنا صابرين في اليوم التالي بمرافقتها على رغم أننا لم نخطط لذلك فعلًا، واكتفت بالقول «دومت» («عليك أن تأتي معي») لزوجي و«دو ميت» لي. وهكذا ذهبنا معها بالطبع. وُضعت في تصرفنا سيارة جيب تابعة للهلال الأحمر مع سيارة أخرى للقيام بالرحلة إلى النجف. ومن هناك انتقلنا إلى «هبا»، القرية النائية التي قيل لنا إن العائلة تقيم فيها. ولم يعرف أحد منّا أين يقع منزلها بالضبط بما أننا لم نتصل بصابرين وأمها إلا من خلال مستشفى النجف. فما من عنوان لشارع، وأهلها لا يملكون الهاتف، لذا اضطررنا إلى السير عرضًا ونحن نسأل الناس طول الطريق. وبوصولنا إلى هبا وسؤالنا عثرنا على رجل تعرّف إلى الطفلة فورًا. أصبحت قصتها أسطورة في البلدة. عرف الجميع بذهاب صابرين إلى ألمانيا؛ ولكن لم يعرف أحد متى ستعود.

ارتجف الرجل من الإثارة وقفز إلى الجيب ليدلنا إلى الطريق وشرعنا في القيادة خارجين من هبا إلى طريق ريفية ومن هناك إلى مسلك للبقر فعبر حقول جرداء كانت لتشبه صحراء من الصلصال لولا أشجار النخيل التي تظلل الرؤوس. ولم يكن هناك ما يوحي أن المكان مسكون. ولاحظنا في النهاية، ونحن نتدحرج من إحدى الهضاب، مبنى مربعًا وإلى جانبه أكوام من القش، وسطحي زوجين من الأكواخ مغطّيين بالقش. وما إن أوقفنا آليتينا وخرج كمال حاملًا صابرين، حتى اتجه صوبنا من أعلى التلة المواجهة، من وراء المنزل المربع، ما بدا أنه حشد من مقاتلي الظلام. بدا الأمر أشبه بموجات من الهنود في أفلام رعاة البقر في الخمسينات الذين يظهرون من وراء إحدى التلال ينزلونها بالآلاف.

وتصاعدت صرخة حادة: «صابرين!» أطلقتها امرأة تعرّفت إليها على أنها والدتها صابرين التي تسير في مقدّم حشد من النساء والصبايا والفتيات المهرعات صوبنا. إنهن نساء عائلة صابرين اللواتي تُراوح أعمارهن ربما بين شهر واحد ومئة سنة والعائدات إلى المنزل بعد يوم من العمل في الحقول. وقد فقدن جميعهن زمام السيطرة على أنفسهن لرؤية الطفلة تعود.

غير أن صابرين وقفت في مكانها كالصنم. فقد أمضت أشهرًا تعيش في مستشفى ألماني دافئ، مريح، هادئ وحديث يعج بممرضات شقراوات، زرقاوات العيون ويرتدين الأبيض، وها هي تجد نفسها فجأة مدفوعة إلى محيط نسيته كليًّا تندفع إليها فيه نساء يلتحفن بالأثواب الداكنة، وهي في الغالب سود، وأيديهن مرفوعة للصلاة. عانقتها أمها مقبلة جبينها كعلامة على البركة، وبكت من الفرح الممزوج بالهول من خوف ابنتها الظاهر.

وفي غضون ذلك، نزلت كتيبة أخرى من ورائنا، مؤلفة هذه المرة من رجال العائلة الواسعة وصبيتها يقودهم رئيس العشيرة والد صابرين. أدرك، وقد شاهد آلية الهلال الأحمر، ما يحدث وهرع، كما فعلت زوجته من قبله، صوب الطفلة ليعانقها. ومرّة أخرى تراجعت صابرين خوفًا وأخذت ترتجف. وصمت الجميع ذهولًا.

التصقت صابرين بكمال كما لو للنجاة بحياتها، فيما أخذ يشرح لهم في هدوء ما تختبره الطفلة. وصمتوا جميعهم فجأة وساروا في المقدَّم إلى المبنى المربع المنخفض. دخلنا أوّلًا وجلسنا على السجادة التي شكّلت الأثاث الوحيد في المنزل. جلس كمال القرفصاء في وسط السجادة ومعه الطفلة التي حملها إلى الداخل وجلس أهلها قبالتهما فيما اتخذ من تبقى من العائلة مواقعهم إلى أن امتلأت الغرفة بهم. خرجت إحدى الفتيات لصنع الشاي، وحشر من لم يتمكنوا من دخول الغرفة المكتظة وجوههم غير المدخل، حتى أن الأطفال جلسوا القرفصاء على مستوى الأرض فيما وقف الرجال الأكبر سنًّا عند أعلى المدخل، وهكذا أصبحت المساحة التي يفترض أن يقفلها الباب ممتلئة بالوجوه التي لا تُصدّق وقد غلب عليها المشهد الذي يدور أمام أعينها.

وشرعت دراما استغرقت ساعات في التكشّف. أخذ كمال صور أهل صابرين من جيبه، يدلّ أولًا إلى الصورة ومن ثم إلى الشخص، قائلًا: «هير إيست دين موتي، أوند هير إيست دين فاتي» («هذه هي أمك، وهذا هو والدك»)؛ كرّر الأمر في بطء وصبر وهو يشير، كما لو في لعبة، من صور أهلها إلى الناس الحقيقيين إلى أن شرعت في إقامة الرابط. ولما همّت والدتها، اعتقادًا منها بتجاوز الأزمة، لتقبيل الطفلة، تراجعت صابرين من جديد قائلة، «ناين! ناين!» (لا! لا!).

كيف ترددت هذه الكلمة في أنحاء الغرفة! إنها المرة الأولى تسمع العائلة كلمة تخرج من فم طفلة اقتنعوا بأنها لا يمكنها النطق. وها هي تتكلّم، ولكن بالألمانية، وابتدأ كمال من جديد، ماضيًا من شخص إلى آخر يسألهم عن صلة قرباهم بصابرين، ومن ثم يردد لها: «داس إست داينه شفستر، أوند داس إست داين برودر، أوند داس ميدخن إست دي توختر فون داينر شفستر»، مشيرًا إلى كل شخص بمفرده وهم شقيقتها وشقيقها أو ابنة شقيقتها، إلى أن عرّفها إلى معظم الوجود في الغرفة. وأخذت تكرّر في بطء، «داز إيست ماين شفستر؟» واتضح لنا نحن الجالسين بقربها نرتشف شاينا في قلق أنها على طريق المصالحة.

ما إن هدأت بعض الشيء، حتى أحضرنا الحقائب الهائلة الحجم التي جلبناها معنا والفائضة بهدايا كدّستها في الأشهر التي أمضتها في المانيا. حدّق الأقارب بعيون واسعة من الدهشة فيما أخذتْ مع «عمها» العربي من ألمانيا في سحب قطعة الثياب تلو الأخرى وغيرها من القطع. وشرع في توزيع بعض القطع. واعتُني بنوع خاص في إطلاع الأهل على أن على صابرين أن ترتدي الأحذية لتتمكن ساقها من الشفاء كما يجب. وبين الأشياء الملونة التي بقيت تخرج من الحقائب، من دون نهاية ظاهرة، فأن تلك التي أثارت أكثر ما يكون الاهتمام الفرشاة ومعجون الأسنان وقد أشارت واحدة من شقيقات صابرين إلى أنها تودّ الحصول عليها. ووُزّعت الدمى على كل الصغار.

ثم فتح كمال مظروفًا قال لوالدها إنه يحتوي نحو 200 مارك ألماني لصابرين. وكاد المسكين يصاب بنوبة قلبية عندما تم تحويل المبلغ إلى الدينار العراقي إذا إنه كان بلا شك مبلغًا من المال يفوق بكثير ما أمكنه رؤيته في مرة واحدة في حياته. وقال كمال بوجوب صرف مبلغ معيّن منه لتشتري العائلة سريرًا مناسبًا للطفلة على أن يودع ما تبقى في حساب مصرفي لمستقبل صابرين.

بهتوا جميعًا. غير أن المال لم يكن الأكثر أهمية بالنسبة إليهم، بل صابرين. هل تعانق أهلها؟ ذلك هو السؤال الذي بقي عالقًا في أذهان جميع الحاضرين ووجوههم. وأخذت صابرين رويدًا رويدًا، بعد ساعات من الوساطة التي قام بها كمال الدائم الصبر، في التربيت بيدها اليمنى على يد والدتها اليسرى كما لو انها تلعب، للقيام بالاتصال الحسي. وحدث الاختراق عندما سحبت صابرين قارورة صغيرة من جيبها وفتحتها. إنها قارورة عطر بلاستيكية أعطتها إياها إحدى الممرضات. فتحتها، مع بعض المساعدة، ومسحت بعضًا من العطر على وجه والدتها. وجاءت من ثم القبلات والعناقات وسط الكثير من الضحك.

ولكن بقي أمر واحد مهم جدًّا يجب التأكد منه. لم يجرؤ أحد على طرح السؤال، ولكن سبق لكمال أن خمّن منذ وقت طويل ما يدور في خاطرهم. فهو حمل الفتاة وأجلسها. إلا أنهم أرادوا جميعهم أن يعرفوا، ولم يغامروا

بالسؤال: هل يمكنها السير؟ اختلق ذريعة وطلب من صابرين بطريقة بديهية أن تذهب صوب الباب، فوقفت في بساطة، من دون أي فكرة عن الوقع الذي سيكون لأفعالها، وركضت صوب الباب. فملأ كورس من «اللّه أكبر» الغرفة.

وأردنا التخفيف من وقع رحيلنا فانسللنا الواحد تلو الآخر من المنزل فيما الشقيقات والأشقاء والأنسباء يتجمهرون حول «وندر كند» (الطفلة المعجزة) صابرين، متعجّبين منها ومن كل ممتلكاتها.

التقط زوجي، بطلب ملحّ من كمال، فيضًا من الصور لاجتماع العائلة بأكملها، لكنها صور سرعان ما ستذهب أدراج الرياح. إذ بينما كنا في اليوم التالي نسير وسط المدينة بلغنا أحد الجسور التي نجت من الحرب الجوية، ووقفنا متعجبين أمام جماله المهيب وهو يمتد فوق نهر دجلة المتلألئ تحت أشعة الشمس الساطعة. لم يكد مايكل يضغط على زر كاميرته حتى ظهر عسكريان من العدم ومزّعا الفيلم. ولم تشفع توسلاتنا وشروحاتنا وقُضي على الفيلم ومعه التوثيق المصوّر لعودة صابرين الظافرة إلى هبا. وما همّ، لأن الدراما بقيت محفورة في ذاكرتنا.

توقعنا جميعنا أن تشكّل الأيام القليلة الأولى تحدّيًا لتأقلم صابرين، ووددنا لو اننا مشاهدون غير مرئيين بعض الوقت. وبعد نحو ستة أسابيع، سافر كمال إلى العراق من جديد ولم يستطع مقاومة تجربة المضي بالسيارة إلى هبا. وما وجده هو أن صابرين عاودت الاندماج في شكل كامل وهي تركض في الجوار مع شقيقاتها وأشقائها (الحفاة طبعًا) وهم يثرثرون بالعربية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبرياء ووطنيون

يستلزم عمل المساعدة الإنسانية أكثر من مجرّد تنظيم اللوجستيات وتوزيع الغذاء والدواء والتجهيز الاستشفائي للسكان المُستهدَفين. فهو يتضمن أيضًا الاتصال الشخصي بين طرفين من ثقافتين مختلفتين. وقد شكّل اللقاء بأطفال العراق، بالنسبة إلى من استقبلوهم في ألمانيا والولايات المتحدة، تجربة مفتّحة للعيون شكّكت في الكثير من أحكامهم الاعتباطية على العراق، أو على العالم العربي ككل، وبخاصة تلك الأحكام المرتبطة بصورة العدو صدّام حسين، البعبع المطلق، التي تمت تغذيتها في عمليات التحضير للحرب.

وتبيّن أن الأطفال كانوا السفراء الأكثر فاعلية لبلدهم من دون أن يحوزوا أيًّا من بهارج المراكز الدبلوماسية الرسمية، أو تشريفاتها. فما أوصلوه إلينا وإلى أولئك الذين التقوهم في الخارج هو الافتخار العميق ببلدهم الذي أظهروه تلقائيًّا من خلال تمتمة الهتافات الحبورية كل مرّة يتم التلفّظ باسم «صدام حسين». فهو بالنسبة إليهم زعيم البلاد ويستحق الاحترام بغض النظر عن مدى صغر سنهم أو كبره أو اطلاعهم. وبثّوا في الوقت نفسه إحساسًا بالتواضع وبعرفان الجميل لما تم القيام به لمساعدتهم في بلواهم. وهم لا يضمرون الضغينة أو الحقد ولا إدانات يدّعون فيها صلاح النفس، بل تواضع فحسب وعرفان بالجميل.

عندما التقينا آلاء ووالدها للمرة الأولى وجدناهما يكافحان للتغلب على صدمة الانفجار الذي أدى إلى فقدان أفراد العائلة المباشرة، غير أنهما لم يكونا لا مريرين ولا يائسين. وبوضعية من الأمل والثقة وبقدر لا يُعقل من الصبر (وهي فضيلة مطلقة في الإسلام)، تمسّكا بالفرصة المتاحة لتحسين وضع الطفلة ووافقا، من دون أن يطرحا تقريبًا أسئلة، على نقل آلاء إلى ألمانيا.

وللؤي، الفتى ابن كركوك الذي شوّهته الحروق في شكل سيّئ، شقيق تلقّى إصابات مماثلة وأراد أيضًا الذهاب إلى الولايات المتحدة. ولكن لم يكن في وسعنا إلا أخذ واحد منهما بما أن عدد الأمكنة التي وجدناها للأولاد في رتشموند محدود. وبكى شقيقه في صمت لدى مغادرتنا لكن أمه واسته قائلة إن إصابة لؤي أشد سوءًا ويتمتّع بالتالي بالأفضلية. ولم تكن ابتسامتها لنا إكراهية أو تجمّلية بل كانت تعبّر عن عرفان كبير بالجميل لأن شخصًا ما من مكان ما جاء لتقديم العون.

وأقسم لؤي أنه سيعود إلى المنزل وهو يسير. وقد فعل...

احتمل الأولاد إصابات مريعة وألمًا نفسيًّا لا يوصف، لكنهم لم يكفّوا عن صفة كونهم أولادًا إذ أظهروا حماسة لا حدود لها مع كل مظهر من مظاهر المغامرة

التي عاشوها. فالرحلة الجوية من بغداد إلى عمّان التي دبّرتها الأمم المتحدة للخمسة المتوجهين إلى رتشموند، على سبيل المثال، تمت على طائرة «تاروم بي.إي.سي. 1-11». ولم يمتلك الأولاد أساسًا للمقارنة بما أنهم لم يسبق لأي منهم أن طار من قبل. بلغ ضجيج صوت المحرك حدًّا كبيرًا عمد معه فريق الأمم المتحدة إلى تسليم الأولاد سمّاعات أذن - ليست من نوع السماعات المستخدمة للاستماع إلى الموسيقى، بل سماعات متينة من النوع الذي يستخدمه عمّال البناء - للتخفيف من الصوت الذي يصيب بالصمم. وافتتن الأولاد عندما ارتفعت الطائرة وهي تميل إلى هذا الجانب وذاك بطريقة متعرّجة إلى أن بلغت ارتفاع طيرانها. فكل حركة قامت بها الطائرة شكّلت سببًا لزعيق من الفرح.

بعد ذلك شكلت الرحلة إلى فرانكفورت، في طائرة تجارية أردنية، رحلة ترف للخمسة، إذ أمكنهم الجلوس على مقاعد مريحة ووضع السماعات ولكن هذه المرة ليس لوقف الضجيج بل للسماح للموسيقى بالانسياب من خلالها. وهم تصوّروا على الفور طريقة عمل لوحة المفاتيح حتى مع أصابع هبة المبتورة وذراع فرح المشلولة. وطرنا، بعد توقفنا القصير في فرانكفورت، إلى مطار دالاس الدولي في العاصمة الأميركية، وهذه المرة في اللوفتهانزا التي شكّلت درجة أرفع من الخطوط الملكية الأردنية. كانت الرحلة التي استغرقت ثماني ساعات مجهدة، وبخاصة لابتسام التي كانت جروح ساقها المفتوحة مؤلمة في شكل مبرح، لكنها لم تشتك كما لم يشتك الآخرون. وبعد الهبوط وعقد مؤتمر صحافي وجيز في المطار، سافرنا برًّا إلى رتشموند. وما استثار الأولاد أكثر ما يكون هو الأضواء الساطعة التي استقبلتهم في كل مكان: مصابيح الشوارع التي تضيء الطريق العام الطويل، لافتات النيون في المطاعم ومحطات الوقود، أضواء إشارات المرور. بدا كما لو ان النجوم فوق الصحراء العراقية هبطت لتضفي بريقها على الحياة على سطح الأرض. وشكّلت الخضرة المعلم الآخر للمناظر الطبيعية التي أسرت مخيلتهم: الأشجار ذات الأوراق الخضر، العشب الأخضر، الشجيرات الخضر على امتداد الشوارع، والشجيرات والأزهار التي تزيّن المنازل السكنية على طول الطريق. فهنا يرتدي كل شيء لونًا جديدًا بالكامل: الأخضر، والأخضر، والمزيد من الأخضر في تناقض صارخ مع الصحراء بظلال ألوانها المتنوعة البنية والصفر والسود والفضية.

أصبح الأولاد السفراء غير الرسميين للعراق، وقد أدوا دورهم جيّدًا بطريقة استثنائية من دون أن يخامرهم أدنى شك أن تصرّفهم في الخارج قد يؤثر في الطريقة التي ينظر فيها الأوروبيون والأميركيون إلى بلدهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الجميع رجال صدّام

وهناك من ثمّ الممثلون الأكثر رسمية الذين أجرينا معهم الاتصال. فإضافة إلى عناصر بعض المؤسسات المنخرطة في شكل مباشر في المساعدة الإنسانية في العراق، مثل وزارة الصحة والهلال الأحمر، سنحت لنا الفرصة أيضًا للقاء عدد من الشخصيات المهمة في النخبة العراقية. وتبيّن أن كمال ناشط سياسي بارز (على رغم أنه مواطن أردنيّ) انشغل على مدى عقود بالإشراف على الفرص التعليمية للطلاب العرب، مساعدًا، على سبيل المثال، في تدبير المنح التعليمية فيتمكّن العرب البارعون من الدراسة في الخارج في أوروبا وفي الولايات المتحدة. وأصبح كمال، نتيجة لذلك، معروفًا لدى كل من يحتاج إلى لقائه في بغداد. لاحظنا بالفعل، لدى وصولنا في المرة الأولى إلى بغداد، أن الجميع يعرفونه. فلم يسعنا دخول الفندق أو أي وزارة، أو أي مؤسسة أخرى مثل الهلال الأحمر، من دون أن يهرع عدد كبير من العراقيين للترحيب به مصافحةً أو تقبيلًا. وحظي كشخص وكمفكّر بالاحترام الكبير. كذلك زوجته التي حظيت بشهرة جيدة وبالتوقير بصفة كونها طبيبة متكرّسة.

عرّفنا كمال إلى أشخاص كثيرين في بغداد شاركونا خيباتهم وآمالهم، بينهم الدكتور الياس فرح المسؤول في حزب البعث عن العلاقات الخارجية والقضايا الثقافية. استقبلنا في منزله في المنصور، وهو الحي نفسه الذي يقيم فيه البطريرك. والدكتور فرح رجل متواضع جدًّا، معسول اللسان ولطيف وقد وضع مؤلفات عدة عن تاريخ حزب البعث. وشدّد في نقاشنا على نقطتين: أن النظام ملتزم إحلال الديمقراطية، ويجب أن يُفهم ذلك على أنه «ليس صيغًا مُكتسبة عبر الممارسات الغربية» بل على أنه «منهج». وتشكّل حقوق النساء وحقوق الأطفال والتعليم نقاطًا جوهرية في هذا المنهج. وركّز، ثانيًا، على أن بوش وإن بدا في الوقت الراهن «حاصلًا على كل السعادة»، «سيحصل على الحزن» في المستقبل. وهو يرى أن بوش «سار باللعبة الكبرى إلى النهاية، ولكن على حساب المشاركين، وعلى حساب العلاقات بين الولايات المتحدة والعرب». ورفض ما سماه «الموقف الرجعي»، وأشار إلى الوضع في داخل الولايات المتحدة، وقال: «نعرف تمام المعرفة أن الشعب الأميركي لا يوافق» على استراتيجية بوش الحربية.

وسعينا أنا ومايكل، في شكل مستقل، إلى الاتصال بممثلين عن الحكومة للاطلاع على خلفيات الأمور وإجراء المقابلات. وأعرب وزير الاسكان والإعمار محمود دياب الأحمد عن وجهات نظر مماثلة لوجهات نظر الدكتور فرح. وقال إن الرئيس الأميركي على رغم أنه هدف إلى تدمير العراق «انتهى الأمر به إلى تدمير الشعب الأميركي». وهو، علاوة على ذلك، «عادى الشعوب العربية

كلها بسبب تدميره العراق». وقال الوزير: «نجد الكثيرين من الناس الصادقين في أميركا، والكثيرون منه يقفون ضد» سياسة الحرب هذه.

وكرّر وزراء آخرون قابلناهم ممن يتولون شؤون النفط والطاقة والصحة - الكثيرون منهم درسوا في الولايات المتحدة في جامعة تكساس إي أند أم، وغيرها من الجامعات - ترداد المفهوم نفسه أن إدارة بوش على رغم شنها حربًا ظالمة، فهذا لا يرمز في أي شكل من الأشكال إلى أميركا وتاريخها، خصوصًا إن الكثيرين من الأميركيين يرفضون هذه الحرب.

وكان طارق عزيز الأكثر بلاغة ووضوحًا في هذه المسألة. فهذا المسيحي الكلداني المعيّن رسميًّا نائبًا لرئيس الوزراء أخذ يعمل بصفة كونه وزيرَ خارجيةِ الأمر الواقع لصدام حسين. فهو الشخص الذي التقى جايمس بيكر الثالث في كانون الثاني/يناير في جنيف وسمع منه أن بلاده ستُعاد إلى ما قبل عصر الصناعة. وهو تلقى في الوقت نفسه «ضمانات» أن الحرب ليست وشيكة، وهي الرسالة التي مررها إلى البطريرك بيداويد. وأبلغنا الدكتور في نقاشه معنا تعجبه من إمكان أن تسقط أميركا، البلد الذي عرفه واحترمه، إلى مثل هذا الدرك البربري. ووجه القدر نفسه من الانتقاد إلى العالم العربي الذي لم يتمكن، أو لم يرد أن يستجمع، قوته لكسر الحصار القاتل. وعلى هذا الأساس فإن احترامه الأميركيين المنخرطين في الجهود المناهضة لنظام العقوبات لا حدود له وصادق(78).

على رغم تولّي طارق عزيز مهمة بصفة كونه الموفد الرئيس الخارجي للحكومة، فإن وزير الخارجية الرسمي، من 1992 إلى 2001، كان محمد الصحاف الذي التقيناه أيضًا. شخصيته على تناقض صارخ مع شخصية الدكتور عزيز. فالصحاف الطويل القامة، المكتّل الجسم، كان متبسّطًا، ثرثارًا وفيه مسحة من الخيلاء. وبدا أن ذلك الشيب في القليل من الشعر الذي يتوقّع المرء أن يشاهده عند رجل في مثل هذه السن اعتنى بصبغه بالأسود. وهو، على رغم أنه ليس مناهضًا للأميركيين، مجاهد عراقي وطني لا يمكنه أن يتقبّل ولو أدنى تلميح من الانتقاد لصدام حسين. وهذه ميزة ستصبح أكثر وضوحًا مع الوقت إلى أن بات وزيرًا للإعلام خلال حرب 2003، فاشتهر في العالم كـ «علي الكوميدي» بسبب موجزاته الصحافية اليومية التي سيعلن فيها، في ثقة، بخلاف كل دليل حسّي، أن العراق ينتصر في «أم المعارك» ويرسل بالعدو إلى طي النسيان والهوان(79).

والتقينا مرارًا ناجي صبري أحمد الحديثي الذي تولّى منصب نائب وزير الإعلام خلال حرب 1991، وتولّى من ثمّ مهمات ديبلوماسية عدة في الخارج إلى أن حلّ في 2001 وزيرًا للخارجية محل الصحاف. وهو، على غرار سلفه، درس الأدب الإنكليزي وخطط لمهنة أدبية إلى أن حدد له الوضع السياسي مهمات

جديدة. وناجي، وهو ابن عائلة بارزة في العراق، ليس متغطرسًا ولا متصلّفًا. وهو إنسان يتمتع بالكثير من الذكاء والأخلاق، ويتقن الإنكليزية في شكل يُحسد عليه، وقد ظهر لنا إنسانًا اكتسب تبصّره ومعرفته بالعملية السياسية نتيجة لاستقصاء جدّي حفّزه عليه فضول صحفي. وكان دومًا، في نقاشاته معنا، أكثر اهتمامًا بسماع ما يمكننا أن نخبره عن النقاش السياسي الدائر في ألمانيا والولايات المتحدة من اهتمامه بإعادة تلاوة خط الحزب.

وسيصبح ناجي صبري واحدًا من أكثر الديبلوماسيين نشاطًا الذين انصرفوا إلى تفادي نشوب حرب جديدة في 2003. فهو لم يكتفِ بلقاء الممثلين السياسيين لروسيا والصين وغيرهما من القوى، بل أجرى اتصالات غير مباشرة وسرّية مع مبعوثين أميركيين بهدف وحيد هو إبلاغهم أن العراق لا يمتلك أسلحة الدمار الشامل التي زعم مفتش الأسلحة التابع للأمم المتحدة باتلر وأعوانه أنه يمتلكها. وتعرّض ناجي صبري لهجمات وحشية من بعض الدوائر العربية على «تعاونه» المزعوم مع العدو. وعلى رغم أنني لا أمتلك أي معرفة وثيقة بهذا الجزء من الموضوع، يمكنني القول من دون تحفّظ، بما أعرفه عن الرجل، إنه إذا كان أوصل أي معلومة، من خلال أطراف ثالثين، إلى الأنكلو - أميركيين تظهر أن العراق لا يمتلك أسلحة دمار شامل، فلا بد من أنه قام ذلك بدافع من وطنيته لدرء أي هجوم على بلاده. ومن الناحية العملية فإن معظم الشخصيات القيادية العراقية أوصل الرسالة نفسها ولكن على شاكلة تصريحات علنية. وإذا وقعت جريمة مؤكدة، فإنها جريمة ارتكبتها واشنطن؛ فلو أن الولايات المتحدة عرفت من مثل هذا المصدر الرفيع المستوى أن لا وجود لأسلحة الدمار الشامل، لما عادت حجتها التي تبرر الحرب إلاّ أكاذيب مقصودة(80).

وحظينا، من خلال مارغيت وكمال، بشرف لقاء سيّد العود منير بشير الذي يقيم مع زوجته المجرية الودّية والمضيافة في عمّان. ومنير رجل ضخم الجثة، أصلع ويرتدي نظارتين بإطار قرني يبدو أن لهما وظيفة واقية. ولا يشي وجهه المستطيل بسني عمره (كان يومذاك تجاوز الستين)، لكن تعبيره يفصح عن إمارات الحزن العميق المرتبط بما تم فعله ببلده. وهو شخص حسّاس جدًّا، وقد غادر العراق بعد اندلاع الحرب ويقيم في الأردن، غير أنه يذهب من وقت إلى آخر إلى بغداد لإقامة الحفلات. وتكوّن لدينا انطباع أن الحياة وسط خرائب العاصمة العراقية كانت كثيرة الوطأة عليه. وبخلاف مزاجه الحزين بعض الشيء، فهو في الحديث الشخصي معه يزخر بحس الفكاهة ويضحك في شغف.

وقد أصدر للتو تسجيلًا جديدًا يصوّر التطور الموسيقى من أول الأنغام في العراق القديم إلى الفلامنكو في إسبانيا. وشرح أن المقام وُجد في 34 شكلًا

مختلفًا وظهر في الموسيقى البدوية وكذلك الفارسية واليونانية والتركية والعربية والأرمنية. وسألته: «الأرمنية؟» أجاب، «نعم. فوالدتي كانت أرمنية. لقد قتلوا عائلتها كلّها في تركيا». هززت رأسي موافقة وأشرت إلى خلفيتي. فأخذ آلته، وانحنى عليها كما تحنو أم على طفلها، وشرع في العزف وحملنا عبر أجيال، لا بل عصور، من التطور الموسيقي في الأرض الواقعة ما بين دجلة والفرات.

ثم نهض وأحضر صورة عن الرفّ ليرينا إياها. وها هو وقد التقطت صورته وهو في السادسة يلعب على عود بحجمه. أخبرنا أنه تعلّم العزف من والده الذي تعلّم من والده وهكذا دواليك على مدى سبعة أجيال. وسيتابع ابنه أيضًا هذا التقليد.

حملت الحفلات منير إلى مختلف أنحاء العالم، إلى إينسيناخ في المانيا حيث عزف في منزل باخ، وإلى أنحاء أوروبا الشرقية والغربية، والأميركتين. ومن المقرر أن يقيم حفلة في روما تنظمها «كوميتاتو غولفو» وهي مجموعة مساعدة إنسانية يعمل معها ويعود ريعها إلى أطفال العراق. وتشوّق الفاتيكان أيضًا لدعوته بعدما شاهد الكاردينال راتزينغر والبابا يوحنا بولس الثاني فيديو عن حفلة موسيقية له في بودابست قبل ذلك ببضعة أشهر. وقد خطط لحفلة موسيقية أخرى في بغداد حيث يعمل مع الكثيرين من الأولاد وهو يعلّم الموسيقى في المدارس. وقال «التربية الموسيقية هي الطريق لبناء إنسان جديد. إنها أمر حيوي»(81).

كان منير فنانًا موسيقيًّا مشهورًا، إضافة إلى صفة كونه باحثًا ومبعوثًا ثقافيًّا. وهو الذي أنشأ الأكاديمية الموسيقية في بغداد لضمان عدم ضياع إرث بلاده القديم. وعمل بصفة كونه مستشارًا فنيًّا في وزارة الثقافة في العراق، وأعار مواهبه للمجلس الدولي للموسيقى التابع لليونسكو ولأكاديمية الموسيقى التابعة للجامعة العربية. وتتطلب تفاصيل التكريمات الأكاديمية الكثيرة وغيرها من الأوسمة التي حصل عليها صفحات كثيرة وتبقى لا تفي الرجل حقه. فأوسمته الفخرية وألقابه هي، بمعنى من المعاني، غير ذات صلة، فمنير فنان وعبقري موسيقى، عدَّ أن التاريخ الموسيقي للعراق شريان حياة البلاد. ورأى أن رسالته هي في أن يبحث ويوثق ويوصل من خلال التأديات الموسيقية الحية تاريخ ثقافته العظيمة كوسيلة لتمتين هوية الشعب الذي تعرّض لمثل هذا الهوان وكبريائه.

كان هؤلاء العراقيون الذين قابلناهم متكرّسين كليًّا للدفاع عن بلدهم من العدوان الخارجي. لم يكن أي منهم معاديًا لأميركا؛ لكننا، على العكس، التقينا المرة تلو المرة مسؤولين حكوميين درسوا في الولايات المتحدة وأعربوا صراحة عن إعجابهم بمختلف جوانب الحياة الأميركية. وكثيرًا ما أعربوا، في

نقاشاتهم معنا، عن تعجّبهم من خيانة الولايات المتحدة جذورها التاريخية كأمة متكرّسة لمفهوم السيادة الوطنية لمصلحة المقاربة الأمبريالية الأكثر ارتباطًا تاريخيًّا بالبريطانيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صوت الانتقام

الاستثناء الوحيد الذي واجهته في كل زياراتي للعراق على مدى أكثر من عقد من الزمن هو في لقائي في 1994 بعض العراقيين في الموصل حيث دعيت إلى التحدّث إلى مجموعة من الطلاب. وقبل دخولي الجامعة أخذني مضيفي لزيارة جامع النبي يونس الرائع. وهناك قاربتني أم عراقية شابة عرفت أنني أميركية. وصاحت «يمكنكم الإبقاء على حظركم شهرًا آخر، وسنة أخرى، وعشر سنوات أخرى، لكننا لن نموت؛ نحن كشعب لن نموت». وأوصل أستاذ التقيته في الجامعة بعد ذلك بمدة وجيزة رسالة مشابهة. وقال لي إنه يعلّم تلاميذه «ألا ينسوا أبدًا أو يسامحوا»، وحذّرني: «عندما سيصبح هؤلاء الأولاد، الذين ترعرعوا وسط العدوان والحصار، قادة للبلاد بعد عشرين سنة، سيقابلونكم بالمثل».

وكررت في ذهني «عدم النسيان أبدًا وعدم المسامحة»، وأنا أعمل الفكر في الدروس المستخلصة من وستفاليا: لو أن هذه هي الحال، سيكون أي أمل بالسلام خرافة. لكن مثل هذا المنظور غير مقبول. بل يجب العثور على الوسائل الكفيلة بتغيير ذهنية مثل هؤلاء الأشخاص تغييرًا جذريًّا. فالرجل الذي تفوّه بهذه المشاعر ليس شريرًا ولا مختلًّا ذهنيًّا؛ وهو ليس إلا مجرّد ضحية للسوء الذي ارتكبته قوة غريبة معادية في حقه وفي حق عائلته ومدينته وشعبه وبلده. وعلى رغم أن الزمان والظرف مختلفين، غير أن عذابه لا يختلف في الجوهر عن عذاب أهلي وجيلهم كلّه. والسؤال هو: كيف التعامل مع مثل تلك المعاناة، وكيف يمكن التغلب عليها، وكيف يمكن إقامة نظام عدالة هناك حيث تم ارتكاب هذا الكم الكبير من الظلم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طيروا على الخطوط الجوية العراقية!

أنجزنا مهمّة اللجنة الرئيسة الأولى في صيف 1991 بالطيران المباشر إلى الحبانية، وبترتيب ما أعقب ذلك من رحلات بالطائرة إلى ألمانيا للأولاد المحتاجين إلى العلاج. وذلك كله جيّد، لكنه يشكّل، على ما يقوله الألمان، «نقطة ماء على صخرة حامية». وبالحكم على عدد الأمهات اللواتي اصطففن خارج مكتب مارغت البديل في بغداد ومعهن أطفالهن المرضى، لا يشكّل عشرات الأولاد الذين أخذنا نتدّبر أمر إرسالهم إلى ألمانيا إلا نسبة ضئيلة جدًّا من أولئك الذين يتطلبون العناية الجراحية والطبية التي لم يمكنهم تلقيها في العراق. وفي الوقت نفسه كانت كميّة المساعدة الإنسانية التي تتسرب إلى البلاد التي مزقتها الحرب تافهة، على ما وثّقه عدد من التقارير الصادرة عن مؤسسات ذات سمعة حسنة بما فيها الفرقة المُنتدبة التابعة للأمير صدر الدين.

لم يوجد نقص في العروض بالمساعدة الإنسانية الصادرة من مختلف أنحاء العالم، بمن في ذلك مناصرو لجنتنا؛ وتلقينا في الواقع، ونحن في بغداد، تقارير من زملاء لنا في ألمانيا عن كميات كبرى من الأدوية والتجهيزات الطبية يتم إرسالها من مختلف أنحاء أوروبا. ونحن لا يزال لدينا أطنان من المواد المتبقية من الرحلة الأولى تنتظر في البالات في مطار فرانكفورت وقد أخذت فواتير تخزينها تتراكم لتصل إلى حدود عشرة آلاف مارك. واستنبط أحد المتعاونين مع اللجنة في فيلادلفيا فكرة لامعة تقضي بتنظيم المزارعين الأميركيين الذين يعارضون الحرب ليتبرّعوا بالحليب لأطفال العراق. وكانت تنظم تظاهرات ضد النقص في دعم الحكومة الأميركية لمزارعي الألبان الذين تهددهم أسعار الحليب المتدنية بالإفلاس. وقرروا، بدلًا من رمي حليبهم على الأرض احتجاجًا، أن يهبوا الحليب المجفف لأطفال العراق. وانطلق عشرون مزارع ألبان من ثماني ولايات بالمشروع وتدبّرت اللجنة، بالتعاون مع الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية في الولايات المتحدة، عمليات التسليم. وسرعان ما ارتفع عدد المزارعين إلى مئة في 15 ولاية.

وما إن انتشرت أخبار اللجنة، وبخاصة من خلال التغطية الصحافية الموضوعية للأطفال الذين استُقبلوا في المستشفيات الألمانية، حتى تقدمت المجموعة تلو الأخرى، في ألمانيا والسويد وإيطاليا بل وحتى في الولايات المتحدة، بعروض لتدبير علاجات مجانية مشابهة في مستشفيات بلدانها. وبقي النقل يشكّل مع ذلك العائق الوحيد: كيف نتدبّر وصول المساعدة الإنسانية إلى من يحتاجون إليها في شكل منتظم، وكيف نُرسل المزيد من الضحايا من الصغار إلى المستشفيات في الخارج للعلاج؟ أمكن نقل الحليب بواسطة طائرات الشحن التابعة للوفتهانزا التي طارت مجانًا بأطنان منه من

الولايات المتحدة إلى كولونيا حيث نقلتها الـ «بوندسفهر» (سلاح الجو الألماني) من هناك إلى العراق. غير أن ذلك تم على أساس طوعي محض.

لفتتنا خطورة المشكلة خلال تلك الزيارة الأولى لبغداد. وعلمنا أن الأمير صدر الدين يكافح لمواجهة المشكلة نفسها، ولكن بأحجام أكبر بكثير. فهو وقّع في 18 نيسان/أبريل مذكّرة تفاهم مع الحكومة العراقية، أعقبها ملحق في 25 أيار/مايو 1991، لنشر قوة من حرس الأمم المتحدة (لحماية عمليات الأمم المتحدة الإنسانية) وكان عليه تدبير عملية تناوبهم المنتظمة من البلاد وإلى خارجها. وكانت تلك مهمة بوتمان - كرامر، وكنت كل مرّة أتحدّث إليه فيها أسمعه يردد، في شكل شبه دائم، الصعوبات التي يواجهها في العثور على طائرات يتم استئجارها بأسعار معقولة. ودعا صدر الدين إلى مؤتمر صحافي في بغداد في 12 تموز/يوليو ليكشف بالحقيقة العارية عن الأزمة المأسوية التي يواجهها مكتبه المُنتَدب من الأمم المتحدة. وهو، في اختصار، لا يمتلك الوسائل الكافية لتزويد العراق المساعدة الإنسانية المناسبة ولإجراء التناوب بين حراسه. وهو يعرف أن الوضع رهيب.

لم نجر، ونحن في زيارتنا الأولى تلك لبغداد، إلا اتصالًا محدودًا بالأمير صدر الدين شخصيًّا، بسبب ضيق الجدول الزمني، لكننا تمكنا من حضور مؤتمره الصحافي. وصدر الدين رجل حسن المظهر، ولولا انحسار خط شعره لما ظهر عليه أنه يقارب الستين. ولا يمكن من يلتقيه عرضًا أن يتكهن أبدًا بأن يحمل لقبًا أميريًّا. مظهره غير رسمي بالكامل ويرتدي إما قميصًا بسيطًا من دون ربطة عنق، وإما بزّة متواضعة بحسب ما تقتضيه المناسبة. وظهر في المؤتمر الصحافي بلباس غير رسمي وتعامل مع الحدث بصفة كونه مسؤولًا رفيع المستوى في الأمم المتحدة لا «أميرًا».

كلّفَ فريقه القيام بدراسة في العمق للوضع الإنساني في العراق ووضع مسوّدة بالاستنتاجات الأولى للتقرير الذي سيُرفع إلى الأمين العام للأمم المتحدة(82). وميّز فحوى التقرير الذي قوَّم وصول المساعدات وتوزيع الغذاء والصحة والماء والصرف الصحي ووضع اللاجئين العائدين، بين الحاجات الفورية ومتطلبات الأمد البعيد لإعادة التأهيل والتعمير. وهكذا يتوجّب مثلًا في ما يتعلّق بالطاقة، اتخاذ تدابير فورية لتنقية المياه لمنع انتشار الأمراض، ولكن يجب في الوقت نفسه الشروع في العمل لإعادة بناء محطات الطاقة التي دُمّرت ويتطلب بناؤها خمس سنوات في بعض الحالات. وأفاد تقرير الفرقة المنتدبة أن «الضرر اللاحق بمحطات تنقية المياه، وعدم القدرة على الحصول على قطع الغيار، فصل ما يُقدّر بمليونين ونصف المليون من العراقيين عن المنظومة الحكومية التي اعتمدوا عليها قبل الحرب». ومن يحصلون على الماء «يتلقّون اليوم ما معدّله ربع الكمية التي كانوا يتلقونها

يوميًّا في السابق»، ومعظمها «من نوعية مشكوك في أمرها». من هنا تفشي الإسهال والتيفوئيد والكوليرا. شُلت المنظومة الصحية العراقية (وقد شهدنا ذلك بأم العين) لأن الحظر منع البلاد من استيراد ما قيمته 750 مليون دولار في السنة من الأدوية واللوازم الطبية التي كانت تستوردها قبل الحرب. وتطرّق التقرير أيضًا إلى الأزمة الغذائية قائلًا: «يُتوقّع لإنتاج هذه السنة الإجمالي من الحبوب أن يصل إلى ثلث إنتاج العام الفائت»، وهو ما سيزيد الاتكال على الاستيراد؛ وقد سبق للعراق بالفعل، قبل عاصفة الصحراء، أن استورد 70 في المئة من غذائه.

والحجة الأساسية التي قدمها تقرير الفرقة المنتدبة وأبرزها صدر الدين للصحافيين في ذلك اليوم هي أن نظام العقوبات هو الذي يُميت العراق. فقد مُنع العراق، بموجب الحظر المستمر، من بيع نفطه لتمويل وارداته التي تبقيه على قيد الحياة. وقال إن على المرء، لدرء الكارثة الوشيكة، السعي إلى طريقة لقطع هذه العقدة المستعصية. وتعهّد أن يأتي فريقه بتوصيات «تكون صيغتها مقبولة» لكل من العراقيين ولجنة العقوبات ويمكن العراق بموجبها أن يبيع النفط لتمويل وارداته من الغذاء والدواء. وعندما سئل كم يحتاج العراق لتفادي الجوع في الأشهر الإثني عشرة المقبلة، أجاب أن بغداد طلبت مليار دولار من عائدات النفط إضافة إلى تحريك موجوداتها المجمدة والمودعة خصوصًا في المصارف البريطانية (وهو ما رُفض). وأضاف: إذا سبق للعراق أن دفع مليار دولار لاستيراد 70 في المئة من غذائه فإن هذا الرقم سيتضاعف اليوم. وذكرت تقديرات أخرى أن العراق يحتاج إلى 4,5 مليار دولار. وسبق له، قبل يوم واحد بالتمام، أن قدّم مثل هذا الطلب لبيع النفط، وكرر ذلك في 24 تموز/يوليو(83). كانت الصورة رهيبة.

لم يتأثر الجميع في المؤتمر الصحافي كما يجب. وكان كنيث تيمرمان، وهو أحد الصحافيين المتشككين في نوع خاص، صمم رأيه على بث اقتناعاته الإيديولوجية أن ذلك كلّه يشكّل مجموعة من الأكاذيب(84). استهزأ تيمرمان بالعرض كله، ولكن ليس علنًا، وهو الذي سيصبح واحدًا من أكثر المتحدثين المعتزين بالنفس باسم مؤسسة المحافظين الجدد تأييدًا لمحو العراق ومن ثم الاتجاه صوب إيران. وأقيم في اليوم الذي أعقب المؤتمر الصحافي استقبال قدّمت فيه الكوكتيلات مجاملةً إلي مثل هؤلاء الضيوف الأجانب. وحضر تيمرمان وبرفقته امرأة سوداء الشعر بفستان أحمر ملتصق بجسمها وأحد مسؤولي الأمم المتحدة. وصودف وجودنا في الزاوية نفسها من الغرفة فعرّفنا عن أنفسنا بطريقة عرضية. حمل تيمرمان كأسًا في يده احتوت كمية سخية من الويسكي الإسكتلندي، وهزها كي تسمع طقطقة مكعبات الثلج. سألته عن تقويمه للوضع الإنساني في البلاد وقال، بعدما أخذ رشفة من الجوني ووكر: «ماذا تعنين بكلمة معاناة؟ هذا كله خداع. فالعراقيون في صدد

إقامة عرض للعلاقات العامة». لاحظ تقطيبة حاجبي، فتابع الشرح بالنبرة المتعالية لأكاديمي يعرف كل شيء: «ذهبت إلى الجنوب وشاهدت حقول الرز. لا يوجد نقص في الغذاء في العراق، والمجاعة لا تصيب أحدًا». وأعلن «أن هذه كلها دعاية تشنها الحكومة. وإذا شعر الشعب الجوع فلأن الحكومة تمتنع عن تسليم المؤن». لا يوجد، بالنسبة إلى تيمرمان، عراقيون لا يحصلون على الغذاء أو أطفال مرضى في حاجة إلى العناية. بل هناك «النظام» الذي يتحمّل المسؤولية. فالحظر والعقوبات وآثار الحرب المُدمِّرة، لا صلة لها كلّها بالموضوع. ارتأى هذا وهو يمتص مكعبات الثلج المنقوعة بالسكوتش. وكنت في مزاج سيدفعني فيه هذا النقاش إلى الصدام لولا أن أولوية أهم طرأت على تيمرمان والسيدة ذات الفستان الأحمر الزاهي ومسؤول الأمم المتحدة: لم يعد هناك ويسكي. وقال أحدهم إن لديه زجاجة في السيارة وعرض أن يأتي بها، وهو ما وافق عليه الآخران فورًا. غادروا ونقلوا حفلتهم إلى مكان آخر.

ومن حسن الحظ أن تيمرمان شكل الشواذ لا القاعدة. فنحن أيضًا صُدمنا للصورة التي رسمها الأمير صدر الدين عن الوضع وعرفنا، من تجربتنا في زيارة المستشفيات والأحياء، أن تقريره لا يتضمن أي مبالغة. إلا أن الذي شكّل التحدي الأخلاقي الأكبر هو الاستنتاج أن المدنيين الأبرياء، إذا لم تعالج ما يبدو أنه عقبات لوجستية ونقص في التمويل لأسباب سياسية، سيموتون بأعداد كبيرة.

خطرت على بالنا في شكل ملحّ جديد، والأمور في هذه الحال، فكرة سبق أن بحثنا فيها ونحن في ألمانيا. لماذا لا يتم استخدام الخطوط الجوية المدنية العراقية لنقل البضائع الإنسانية وموظفي الأمم المتحدة في مناوباتهم؟ وربما أمكن التعامل مع الأزمة إذا تم تحريك الأسطول الجوي العراقي الكبير مع ملاحيه وطواقمه إلخ...

هل يقبل العراقيون بمثل هذا التدبير؟ إعتقادي هو أنهم سيفعلون، وقد سبق لي أن طرحت الفكرة مع مصدري في السفارة العراقية في بون، وأفاد بالتالي أن بغداد ستؤيد الأمر. وتوصّلت استقصاءات أخرى أجراها ممثلو اللجنة في ستوكهولم وفيينا إلى أجوبة مماثلة أطلعْنا البروفسور كوشلر عليها وهو بدوره أوجزها للدكتور فالدهايم.

أصبح واضحًا، ونحن الآن في بغداد في زيارتنا الأولى، أن علينا مناقشة المسألة مع وزارة الخارجية مباشرة. وأكد مسؤول التقيناه وجهة نظر الحكومة الإيجابية عمومًا حيال الاقتراح، لكنه شرح أن ليست لدى العراقيين، لسوء الحظ، طائرات متوافرة في داخل البلاد(85). واقترح علينا مفاتحة لجنة العقوبات التابعة للأمم المتحدة والطلب منها توفير طائرات الخطوط الجوية

العراقية المدنية الموجودة خارج البلاد. وسبق لمنظمة التقدّم الدولية أن شرعت في استكشاف إمكان الحصول على حقوق الهبوط في النمسا، وحثّتنا على متابعة الأمر نفسه في ستوكهولم. وقد علمنا أن صدر الدين زار العاصمة السويدية منتصف حزيران/يونيو لعقد اجتماعات مع مسؤولي الحكومة ومنظمات المساعدة والصحافة، وقد حظي باستقبال ودّي. واعتقدنا أن السويديين، إذا طلبت الأمم المتحدة منهم منح الحق في الهبوط، سيقومون بذلك على الأرجح.

تلهّفتُ لرؤية الأمور تتحرك سريعًا، فسعيت إلى اتصال مباشر مع الأمير صدر الدين. وبما أن القرار اتخذ بأن نقفل عائدين إلى جنيف في 13 تموز/يوليو على الطائرة نفسها التي تقله وفريقه، ستشكل تلك مناسبة مثالية لإثارة الفكرة معه.

وما إن صعدنا إلى الطائرة حتى بدأنا جميعنا ننفعل بسدّ أنوفنا وبتكشيرات الامتعاض من رائحة هي بالأحرى حادة، حتى لا نقول نتنة، داخلها. بدا أن هناك مشكلة في المراحيض. ولكن سرعان ما ستتوافر الإغاثة. ظهرت امرأة فجأة مسلحة بقارورة من العطر رفعتها عاليًا بيدها اليمنى كما لو أنها بيرق جان دارك. وسارت عبر الممر، على أنغام موسيقى عسكرية غير منظورة، شاهرة سلاحها المُرتجل وشرعت في الرش في كل الاتجاهات، يمنة ويسرة، إلى أن ملأت الجو فوق كل مقعد بمادة ذات رائحة طيبة.

تبيّن أن المرأة زوجة الأمير، وهي على طريقته نفسها من عدم التكلّف ووسع الحيلة الذي حظي بالكثير من التقدير. وذكّرني الأمر بالقصص عن العائلة المالكة الفرنسية والأرستقراطيين الذين اشتهروا بالانحطاط، والذين وقد تحاشوا النظافة التقليدية (الصابون والماء)، - ربما لأنها بورجوازية - عوّضوا عن رائحة اجسامهم بجرعات هائلة من العطر. وتناسب مع الأمر أن روح العطر الذي ملأ الطائرة كان فرنسيًّا. وعرفنا لاحقًا أن تنظيف الطائرة لم يكن ممكنًا لأن مطار الحبانية العسكري غير مجهّز لتقديم هذا النوع من الخدمة. ما همّ، فقد تجاوزنا الأمر.

ما إن بلغنا ارتفاع الرحلة حتى سعيتُ إلى مقاربة الأمير صدر الدين. وكان برنت برناندر، الممثل الخاص ومنسق مكتب المندوب التنفيذي في العراق، هو الشخص المناسب لمفاتحته بالمسألة، وقد عرّفني من دون تردّد إلى صدر الدين. وعندما أوجزت له الخطوط العريضة لاقتراحي تحريك أسطول العراق الجوي المدني، أضاء الاهتمام وجهه. وبحسب معلوماته فإن كل طائرات الخطوط الجوية العراقية موجودة خارج البلاد، في موريتانيا والأردن وإيران وغيرها. وهو يعتقد أن الطائرات الموجودة في إيران ليس حربية حصرًا بل

أيضًا مدنية من طراز 727. وأراد معرفة كيف ينظر العراقيون إلى الفكرة، فأبلغته الأجوبة التي حصلنا عليها في أوروبا وكذلك في وزارة الخارجية.

عكس سؤاله التالي انشغاله الرئيس وهو: من سيدفع بدل الرحلات الجوية؟ وقضى مفهومي بأن في حال وافقت لجنة العقوبات على توصياته القاضية بأن يتمكن العراق من بيع نفطه في مقابل الأدوية والغذاء، يمكن الأمر أن ينجح. وأشار إلى إمكان وجود تعقيدات قانونية عدة متعلقة بما يجب تحميله في الطائرات وطريقة توزيعه وإلى ما هنالك. وأجبته أن لطالما كانت تلك هي الحال، أقله بحسب تجربتي. وأعرب عن اعتقاده أن الفكرة قابلة للحياة ويجب تقديمها كسلّة واحدة. وهو سيجعل فريقه يعمل عليها في حال قدّمتُ إليه اقتراحًا خطيًّا في هذا الشأن. ثم استدعى أحد الهولنديين وهو مسؤول عن القضايا القانونية المتعلقة بلجنة العقوبات، ويسافر معنا في الرحلة نفسها.

وقال له صدر الدين: «هذه هي السيدة فايسباخ، ولديها فكرة مثيرة للاهتمام في شأن تولي الطائرات المدنية العراقية توزيع المساعدة الإنسانية على أن يُدفع بدل النقل من عائدات النفط العراقية. ناقشْ الموضوع معها وانظر إلى ما يمكنك تحقيقه». وقال الهولندي، الأشبه بالصبي، الواسع العينين، الأشقر وذو اللكنة السميكة، أنه شخصيًّا يعتقد أن لجنة العقوبات سترفض السماح للطائرات العراقية في الأردن وإيران أو موريتانيا بالتحليق لأن حكومات هذه الدول تلقت الأوامر بإبقاء الطائرات محجوزة كوسيلة من وسائل الضغط على العراق لاحترام قرارات الأمم المتحدة وبخاصة تلك المتعلقة بدفع التعويضات للكويت. وقضت فكرته بأن علينا العمل بالطائرات الموجودة داخل العراق (إذا كانت هناك من طائرات). وعلى هذا كله أن يمرّ بالتأكيد عبر لجنة العقوبات، وقراءته هي في أن المزاج في نيويورك غير مؤات نظرًا إلى الهستيريا المستمرّة في شأن مواقع الأسلحة النووية العراقية المزعومة. فرددت أن مجلس الأمن، في حال قُبلت السلّة التي يطرحها صدر الدين، سيكون عليه أن يسمح في شكل ما من أشكال النقل لهذه الشحنات الإنسانية. وأطلعته أيضًا على محاولتنا حمل بعض الدول الأوروبية على منح الحقوق في الهبوط، والدفع في اتجاه رحلة واحدة «رمزية» للخطوط الجوية العراقية لتشكّل سابقة. وبدا له الأمر في النهاية معقولًا فاتفقنا على ما يأتي: سأتابع الموضوع مع الجانب العراقي للعثور على «صيغة» (العبارة التي يستخدمها أناس الأمم المتحدة دومًا) تناسبهم، بمعنى توضيح ما هم على استعداد للقيام به بما في ذلك تمويل الرحلات الجوية. وسأضع ذلك كتابةً وأرسله إليه.

وقبل وقت قليل على هبوطنا في جنيف نهض صدر الدين وتوجه بالكلام إلى فريقه وإلى الضيوف الآخرين على الطائرة. وقال: «هذا قائد فريقكم يتكلّم. وأنا أثني على الأمر على أنه جهد فريق وسأسميه أم كل المهمات». واقترح من ثمّ، في إشارة إلى المشكلة التي واجهناها على الطائرة والتي حاولت زوجته التخفيف منها، أن «يُطلب من فريق التطهير والتصريف البقاء فيها لنرى هل في الامكان تنظيف المراحيض».

شكل دفع صدر الدين إلى التقدّم باقتراح إلى الأمم المتحدة لاستخدام الأسطول الجوي المدني العراقي، بلا شك، المقاربة الواعدة أكثر ما يكون بما أنها ستحمل الوزن المؤسساتي لمكتبه. غير أننا سنستمر، نحن في اللجنة، نواصل في موازاة ذلك جهدنا لحمل حكومة أوروبية واحدة، السويد في هذه الحال، على منح حق الهبوط لرحلة واحدة للخطوط الجوية العراقية، والطلب من ثمّ من لجنة العقوبات السماح للطائرة بالانطلاق من ستوكهولم بحمولتها الإنسانية. بقيت على اتصال بالهولندي، لكن ما من شيء يتحرّك، فقررت أن أطرق باب صدر الدين من جديد. فهو في النهاية الرئيس. وكتبت له في 14 آب/أغسطس أسأله الاجتماع معه، وطُلب مني الحضور إلى جنيف في 30 آب/أغسطس لإضفاء مزيد من الدرس على إمكانات الفكرة.

اتُّخذتْ، عند هذا الحد، خطوة إضافية مهمة في الأمم المتحدة شكّلت ردًّا مباشرًا على مبادرة صدر الدين. فقد طرح مجلس الأمن القرار الرقم 706 المؤرخ في 15 آب/أغسطس 1991. وتبدأ هذه الوثيقة بالقول إن مجلس الأمن «إذ يحيط علمًا» بالتقرير الذي نشرته فرقة صدر الدين المنتدبة، «وإذ يساوره القلق للحال الغذائية الصحية الخطيرة للسكان المدنيين العراقيين»، و«إذ يحيط علمًا» باقتراح التقرير «المتعلق بمبيعات العراق من النفط لتمويل شراء المواد الغذائية والأدوية والمواد والامدادات لتلبية الحاجات المدنية الأساسية بغرض توفير الإغاثة الإنسانية»، فإنه بالتالي يأذن لكل الدول بالسماح باستيراد النفط والمشتقات النفطية العراقية. وعلى مبيعات النفط، المحددة بستة أشهر، ألا تتجاوز 1,6 مليار دولار توضع في حساب ائتماني تفتحه الأمم المتحدة ويديره الأمين العالم لتحقيق أغراض القرار. ويعود قسم من هذا المبلغ إلى صندوق الأمم المتحدة للتعويضات ولتغطية تكاليف تسهيل عودة الممتلكات الكويتية التي تم الاستيلاء عليها في الحرب، وعلى المبالغ من ثم أن تغطي تمويل أنشطة الأمم المتحدة الإنسانية، وأخيرًا، وبما يكاد يشكّل استدراكًا، ستخصص الأموال لشراء الغذاء والدواء.

وفي اختصار، رأى مجلس الأمن الدولي نفسه مجبرًا على الاعتراف بطبيعة المشكلة الإنسانية التي حددها تقرير الفرقة المنتدبة في مكتب المندوب

التنفيذي ووافق على الإجراءات المقترحة في ما سيُعرف ببرنامج النفط في مقابل الغذاء، طبعًا بشرط أن توافق بغداد.

بوصولي إلى الأمم المتحدة في جنيف، قادني بوتمان - كرامر عبر حواجز التدقيق الأمني صعودًا إلى مكتب المدير التنفيذي وأبلغني على الطريق أن الوقت المخصص لي مع رئيسه هو 15 دقيقة. وسألته عن البروتوكول المعتمد في التوجّه إلى الأمير، وقال بوتمان - كرامر إنه إما «أيها الأمير» وإما «سيدي». واخترت الأخيرة.

رحب صدر الدين بي بطريقته غير الرسمية المعهودة بمصافحة من القلب والقليل من الثرثرة فيما نحن نأخذ مكانينا إلى الطاولة المستديرة إلى جانب النافذة الفسيحة التي تفتح على يوم منعش، مشمس. «كيف حالك منذ عودتنا بالطائرة من بغداد؟ أنت تسافرين كثيرًا؛ في أي مكان تعملين؟» ولاحظ، عندما أجبته أنني أعمل من منطقة فرانكفورت، أن في إمكان المرء من هناك السفر إلى أي مكان في العالم. وقلت: «حتى إلى بغداد»، مضيفة أن الكثيرين من الناس شكّكوا في أننا طرنا مباشرة إلى الحبانية حتى بعد الواقعة. بدا أنه نسي دوره الخاص في تلك المغامرة وسأل هل استأجرنا الرحلة، وإذا استأجرناها فممن، الخ... إلى أن اطلعه مساعده على التفاصيل وذكّره بالاتفاق الذي أجراه مكتبه مع إيروفلوت.

لكنه، لحسن الحظ، لم ينس محادثتنا في الطائرة العائدة بنا إلى جنيف والاقتراح الذي تقدّمتُ به. وقال إنه وجده «مثيرًا للاهتمام، لأننا كما تعرفين نحتاج أيضًا إلى الطائرات لتقلّنا، ولتقلّ حرس الأمم المتحدة لنتمكن من أن نرفع عددهم إلى 500». فهذا هو العدد الذي أراد للحرس أن يبلغوه. ثم أطلق سلسلة من الأسئلة: ما عدد الطائرات العراقية الموجودة في إيران؟ هل تطلقها إيران؟ ماذا يعني ان نأتي بالطائرات العراقية إلى هنا؟ هل يشغّلها أفراد الطاقم العراقيون؟ وإذا شغّلوها، فهل يمكنهم دخول ألمانيا أو سويسرا؟ وماذا عن تأشيرات الدخول؟ ثم هناك مسألة التناوب بين الطواقم وإنزال الطواقم في الفنادق، ثم هناك كلفة الفيول. فمن سيدفع؟ وكل ما أمكنني قوله هو ما قاله لي العراقيون: سيغطون كلفة الطيران بأكملها ولكن لن يغطوا تكاليف التشغيل والمعاملات (وهو ما ستتولاه اللجنة). فقال إن لا بأس بالأمر بالنسبة إلى اللجنة، ولكن ماذا بالنسبة إلى مكتب المندوب التنفيذي؟ فأمره سيكون مختلفًا. وأكّدت له أن العراقيين وافقوا على وضع الطائرات في تصرّف مكتبه أيضًا، وتم تقديم الطلب الذي أرادوه خطيًّا. وافترضت أن مكتب المندوب التنفيذي سيكون عليه تغطية تكاليف التشغيل والمعاملات التي ستكون مبالغها غير مهمة.

وحدث أخذ وردّ نشط بين بوتمان - كرامر ورئيسه، حيال ما قد يعنيه أساسًا هذا الترتيب مقارنة مع الترتيب الذي يستخدمونه حتى الآن والذي يتضمن استئجار طائرات «تاروم بي.إي.سي. 1-11» المخصصة لهذا الغرض في مقابل مبلغ كبير. وقال الأمير إن الطائرات العراقية سيكون عليها طبعًا أن تطير تحت علم الأمم المتحدة وأن «تُطلى»، حرفيًّا، «باللون الأزرق». وسأل مساعده هل يعتقد أن بغداد ستتجاوب مع هذا، أجاب الأخير أنه يعتقد أن الطائرات، بخلاف ذلك، ستبقى محتجزة، وأن توفيرها الغايات الإنسانية سيشكل حملة علاقات عامة للعراقيين. وسأله: «أنت توصي بذلك يا جيري؟» أجاب بوتمان - كرامر: «نعم، بالتأكيد»، وتم الأمر عند هذا الحد. وطلب مني أن أضع اقتراحًا خطيًّا رسميًّا يعرض الأمر بصفة كونه مشروعًا واحدًا يحصل مكتب المندوب التنفيذي بموجبه على خطط سفر لمناوبة الجنود ونحصل نحن على شحناتنا الإنسانية بما في ذلك نقل الأولاد.

ولاحظ صدر الدين، وهو ينهض عن كرسيه، في إشارة واضحة إلى القرار 706، «يا لها من لعبة سياسية قاسية يلعبونها مع صدام حسين: يقولون: سندعك تبيع نفطك ولكن عليك أن تضع عائداته في حساب ائتماني. ويعارض العراق على أساس السيادة الوطنية، فيقول مجلس الأمن: «أنت مسؤول، في الحقيقة، يا صدام عن إطعام شعبك لا نحن». وعندما أوحيتُ أن الأخلاق قد تصبح، في يوم من الأيام، هي التي تصنع السياسة، ردّ بالقول: «سيكون ذلك اليوم في الحقيقة هو يوم الدينونة». لم أوافقه الرأي قائلة إن التاريخ سيكون الحكم النهائي. وردّ على ذلك بتنديدٍ قاسٍ بتلك الحكومات، ليست الولايات المتحدة وحدها بل أيضًا بريطانيا وفرنسا، التي «نسيت التاريخ». ووضع جزءًا من اللوم على «ثقافة السي.أن.أن. هذه». وقال إن المسألة العراقية «هزلت» ولم يعد أحد يفكّر فيها، ناهيك بأثيوبيا وغيرها من مناطق الكوارث. يمتلكون ذاكرة قصيرة. وأضاف: «لكننا نحارب من أجل العدالة، أليس كذلك؟» ومدّ يده من جديد قائلًا إنه يأمل في أن المرة المقبلة التي سنلتقي فيها ستكون على طائرة للخطوط الجوية العراقية في الطريق إلى بغداد، وهذه المرة سنحصل على الشامبانيا التي سيتولّى «جيري» التموّن بها.

وما إن عدت إلى ألمانيا حتى وضعت مسودة اقتراح وأرسلتها إلى جنيف. كانت موجزة وفي صميم القضية: ستتولى لجنتنا مركزة الحملات الإنسانية في مختلف مطارات أوروبا، وتغطي مصاريف التشغيل والمعاملات وتوفر العناصر لمواكبة الرحلات وتنظيم التوزيع. وستؤمّن الخبراء الطبيين لإجراء المقابلات مع الأولاد وتدبير العناية الطبية الاستشفائية في الخارج، وتأمين تأشيرات السفر ومرافقتهم في الرحلات. وعلى الحكومة العراقية توفير الطائرات لمثل هذه الرحلات وتغطية كلفة الطيران. وعلى العراقيين أيضًا أن

يوفّروا طائراتهم لمكتب المندوب التنفيذي التابع للأمم المتحدة لنقل مواد الإغاثة والموظفين على أن يتم التفاوض على الكلفة. وستُعطى للرحلات أرقام الأمم المتحدة، ويتم إعلام لجنة العقوبات وتوفير حقوق الهبوط. وسينسّق العراق مع الأمم المتحدة في ما يتعلق بفتح المجالات الجوية أمام تحليق طائراته.

ثمّ وضع بوتمان - كرامر (وقد أصبحت أناديه عند هذا الحد غيرهارد) بحلول 10 أيلول/سبتمبر مسودة اقتراحه الخاص، باسم مكتب المندوب التنفيذي، بالشكل الرسمي وبلغة الأمم المتحدة(86). كانت الفحوى الأساس شبيهة باقتراحي، غير أن ورقته ركّزت على حاجات مكتب المندوب التنفيذي وتضمّنت أمورًا محددة تتعلق بالموظفين الذين يجب نقلهم، وعدد الرحلات في الشهر، وخفض التكلفة المقدرة على مكتب المندوب التنفيذي. وحاجج الاقتراح بأن غياب رحلات الطيران المنتظمة يعوّق التسليم السريع للمعدات إضافة إلى نقل عناصر فريق الأمم المتحدة وعددهم 650. وعلى العراقيين توفير الطائرات المدنية على أن يغطي مكتب المندوب التنفيذي تكاليف التشغيل. وستقسم الموازنة بالتساوي بين الطرفين، فيؤمّن العراقيون مساهمتهم العينية ومكتب المندوب التنفيذي المدفوعات النقدية. ويمتد الإطار الزمني الذي حدّده لإنجاز المفاوضات من أيلول/سبتمبر لتبدأ في تشرين الأول/أكتوبر وتستمر خلال كانون الأول/ديسمبر 1991.

كان النص الذي تلقيّته «للاطلاع فحسب في هذه المرحلة»، بما أن نسخة أرسلت أيضًا إلى ممثل مكتب المندوب التنفيذي في بغداد، برناندر، لعرضها على العراقيين في شكل غير رسمي. فإذا ردّوا بالإيجاب، تُرسل إلى لجنة العقوبات في مجلس الأمن.

سبق للاقتراح أن حرّك بالفعل الأمور في جنيف. إذ اعتقد البعض في الأمم المتحدة، على رغم رضى صدر الدين عن النسخة النهائية من الوثيقة، أن استخدام الطائرات العراقية يشكّل انتهاكًا لوقف النار لأنه سيتضمن طائرات ذات أجنحة ثابتة. ولهذا السبب حثّتني جنيف على عدم مقاربة لجنة العقوبات للحصول على إذن بالطيران المستقل من ستوكهولم إذ «من شأن ذلك أن يعرض للخطر» اقتراح مكتب المندوب التنفيذي. فالمسألة «حساسة جدًّا» ولا يريدون اتخاذ أي مجازفة.

ثم أن الأمير صدر الدين نفسه خرج بالفكرة على الملأ في مقالة في صفحة الرأي نشرتها الهيرالد تريبيون في 14 أيلول/سبتمبر تحت عنوان «ساعدوا العراق، ساعدوا شعبه». وأسف فيها لتهديد الحكومة العراقية برفض القرار 706 على أساس أنه ينتهك السيادة (من خلال الحساب الاتئماني) وحذّر من أن في حال لم يبع العراق نفطه «لن تتمكن الأمم المتحدة من تفادي

الكارثة»، لأن التمويل سيجف. وحاجج صدر الدين في الوقت نفسه مع عدم إعطاء العراق أي ذريعة لرفض الاتفاق فيشلّ بالتالي الجهد الإنساني. وكتب: «يجب بدلًا من ذلك، ومن خلال ترتيبات صارمة للتحكّم والمراقبة، السماح للعراق بالقيام بالمشتريات المطلوبة وتوزيع المواد المستوردة». ثم فجّر قنبلته: «ننوي في ظل البرنامج الراهن أن نرفع إلى لجنة العقوبات التابعة للمجلس اقتراحات باستخدام طائرات العراق المدنية لنقل مواد الإغاثة والعناصر». وختم بالدعوة إلى رفع سقف مبيعات النفط من 1,6 مليار دولار إلى 2,5 مليار، «لتغطية الحاجات الأساسية للسكان المدنيين».

لقد أشعل، طباعةً، فتيل الألعاب النارية وانتظرنا جميعنا التداعيات. كنت لا أزال، حتى نهاية أيلول/سبتمبر، من دون معلومات من جنيف عن رد نيويورك على اقتراح مكتب المندوب التنفيذي لأنهم كانوا جميعهم ينتظرون الرد العراقي على القرار 706. وسبق لمجلس الأمن الدولي أن صوّت في 19 أيلول/سبتمبر على الإفراج عن ثلث الأموال في الحساب الائتماني المخصص للغذاء والدواء. وجاءني الخبر من بغداد، بعد ذلك بأسبوعين، أن الاجتماعات بين مكتب المندوب التنفيذي والعراقيين في مسألة الطائرات عقدت في شكل «جيد جدًّا» وأن الطرفين سيعزّزان اتفاقهما في وثيقة مسودة مشروع تُرسل إلى نيويورك. وقد حضر اجتماعاتهم ثلاثة أشخاص من الخطوط الجوية العراقية. وكانت بغداد، عند هذا الحد، لا تزال حرنة حيال القرار 706، والخطر هو: إذا لم يتم الوصول إلى اتفاق فسينتهي أمد مذكّرة التفاهم مع نهاية السنة مما يترك برنامج الأمم المتحدة معلّقًا.

أخذتْ، في غضون ذلك، فكرة استخدام الأسطول المدني العراقي في الانتشار، ردًّا بلا شك على خروج صدر الدين على الملأ في شأنها. وصدر عن مؤتمر القوى الشعبية العربية في بغداد في 11-12 تشرين الأول/أكتوبر قرار يطالب إيران وكل الدول العربية بإعادة الطائرات إلى العراق والاستعداد لاستئناف الرحلات الجوية العادية.

ولكن ليس من شأن القوى الشعبية العربية أن تقرّر. بل أن مجلس الأمن الدولي هو صاحب القرار ولم يصدر عن تلك الهيئة إلا الصمت. واستمر الوضع خلال تشرين الأول/أكتوبر من دون معلومات أو مؤشّر واضح من جنيف إلى ما قد حدث. وتكهّنتُ بأن اقتراح مكتب المندوب التنفيذي لن يصل إلى مكان. وقد تمّ بالفعل إطلاق النار عليه في صمت واسقاطه على يد قناصة في مجلس الأمن لم يتم حينذاك تحديد هويتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الخطوط الجوية العراقية تطير عن طريق السويد

ومع ذلك، حلّقت الخطوط الجوية العراقية وهو ما حزّ في نفس القناصة. استغرق الأمر بعض الوقت لتنظيمه، غير أننا طرنا في النهاية من ستوكهولم إلى عمّان على الرحلة الجوية الأولى للخطوط العراقية منذ الحرب. استغرق الأمر وقتًا بالفعل. فعلى رغم أننا وضعنا خيارنا المنفصل في الثلاجة في انتظار ما سيحدث مع عملية مكتب المندوب التنفيذي، واصلنا فتح خطوط اتصالنا مع العراقيين والسويديين. وتحدّثنا، في نهاية آب/أغسطس، مع وزارة الخارجية السويدية في شأن الإجراءات، وقيل لنا إن علينا أن نتقدّم بطلب رسمي لهبوط طائرة تابعة للخطوط الجوية العراقية في ستوكهولم، أوّلًا عبر الوزارة ومن ثم عبر لجنة العقوبات ثم عودة إلى الوزارة. وسيتولى عراقيو السفارة كل اللوجستيات المتعلقة بالطائرة والطاقم.

والسويد مكان مميّز، كما سبق لي أن تبصّرت في الأمر في مناسبات مختلفة ليست لها علاقة بالمسألة التي بين أيدينا. وهي بلاد متقدمة، صناعية وذات مستوى معيشي مرتفع جدًّا نسبة إلى عدد سكانها الصغير جدًّا. تعد نفسها أوروبية لكنها ليست في الحقيقة جزءًا من أوروبا، وليست بالتأكيد جزءًا من حلف شمال الاطلسي. ويشهد لها بتراثها الطويل من الحياد. وسبق للكونت برنادوت، وسيط الأمم المتحدة في فلسطين 1948، أن تجاهل الانحيازات السائدة إلى إسرائيل وسعى إلى إحلال العدالة للفلسطينيين. وكوفئ باغتياله على أيدي متطرفين صهاينة. ومن كان رئيس الوزراء يومذاك، أولوف بالمه، الذي حاول أن يفاوض من وراء الستار على اتفاق سلام بين إيران والعراق يضع حدًّا لحرب الإبادة 1980-1988، استحق ميتة الشهداء عندما أُطلقت عليه النار خارج إحدى دور السينما في 28 آذار/مارس 1986.

وليست حال بالمه إلا مثالًا واحدًا وحسب عن المزايا الاستقلالية التي يمتلكها بعض السويديين. وهناك سلسلة من مسؤولي الأمم المتحدة السويديين الذين سعوا إلى الحياد والإنصاف؛ وتجسّد أسماء، مثل هانز بليكس، هذه الحال. وقد وجدنا عندما قدمنا اقتراحاتنا في الأساس من أجل خيار الخطوط الجوية العراقية نوعًا من الانفتاح السياسي المنعش. وتبيّن أن خليفة بالمه، إيغفار كارلسون، يتعرّض لضغط عام للقيام بأمر ما في شأن الكارثة الإنسانية في العراق، لكنه ردّ أنه يضع ثقته في الأمم المتحدة وأنه لن يتصرّف أبدًا في شكل منفرد. ولكن وُجد في وزارة الخارجية من يخالفه الرأي ويحثّ السويد على التدخّل. فاتصلوا بلجنتنا، واتضح أنهم يخططون للقيام بهجوم معاكس.

التقاهم ممثلونا واستعرضوا تفاصيل رحلة جوية ممكنة انطلاقًا من ستوكهولم. وأعلنت «نجمة الأمل»، منظمة المساعدة الإنسانية التي شكّلت جزءًا من لجنتنا وأمدّتنا بالمواد في المهمّة الأول، عن استعدادها لجمع شحنة كبيرة. وسيغطي العراقيون، بحسب الاتفاق، تكاليف الطائرة، ونتحمّل نحن رسوم الهبوط والتشغيل في المطار. وسيتولّى قسم المساعدة الخارجية للكوارث في الحكومة السويدية الرسوم الأخرى.

وتبع ذلك تبادل كثيف للفاكسات والاتصالات الهاتفية بين لجنتنا ومختلف الشركاء في العملية، أي لجنة العقوبات الدولية في نيويورك السلطات السويدية والعراقيين. كانت عملية طويلة وشاقة لكنها نجحت. وفي النهاية صعدنا أنا وزوجي، في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1991، إلى طائرة الخطوط الجوية العراقية (طائرة الشحن 707، الرحلة 118) في ستكوهولم، ومعنا المصوّر/الصحافي السويدي، لارس كلينغسبو، متوجّهين إلى عمّان. كان الطقس سيئًا، ضبابيًّا وماطرًا، لكننا كنا في حال من الحبور: فها نحن على أول رحلة رسمية بعد الحرب للخطوط الجوية العراقية، تنقل حمولة تزن 16.5 طنًا بما فيها 48 سرير مستشفى، و10 طاولات عمليات، و67 كرسيًّا نقّالًا، و8 آلاف حقنة، ومواد أخرى أكثر(87). طرنا هذه المرّة إلى عمّان لأن الحصول على إذن من الأمم المتحدة للطيران إلى بغداد كان صعبًا جدًّا لأنها ليست رحلة تابعة لمكتب المندوب التنفيذي. ما همّ: فاهتمامنا الأساسي كان في تشكيل سابقة تقضي بوضع طائرة تابعة للخطوط العراقية في الجو محملة ببضائع للعراق.

كانت ذكريات تجربتنا على طائرة إيروفلوت في تموز/يوليو لا تزال ماثلة في ذهننا، فلم نواجه مشكلة في التأقلم مع الرحلة على طائرة الشحن المزودة مقاعد منثنية ولا شيء سواها. وإذ سبق أن واجهنا في رحلة إيروفلوت مشاكل في التواصل لأن ما من أحد فينا يتكلّم الروسية، فإن المشكلة كانت هذه المرة أن ما من أحد منّا يتكلّم العربية. فمن سوء الحظ أن كمال لم يأت معنا لأنه لم يتمكن من الحصول على تأشيرة الدخول إلى السويد في الوقت المناسب. وانطلقت الرحلة من دون مشاكل ووصلنا إلى مطار عمان في الوقت المحدّد. ارتعنا، ونحن نغادر الطائرة، لعدم وجود أي صحافي أو مصوّر في استقبالنا، على رغم أننا أرسلنا بيانات صحافية نعلن فيها عن الرحلة الجوية التي لا سابق لها. وأهم من ذلك بكثير هو عدم وجود أي من موظفي الأرض في المطار للمساعدة في إنزال أطنان الحمولة التي في الطائرة.

فما الذي يحدث؟ أهي الحال الألف من حالات محاولات التخريب على عملنا؟ قد تكون هي الحال. ولكن تبيّن وجود شرح أكثر صدقية بكثير وهو أننا هبطنا في العاصمة الأردنية تمامًا وسط ثلاثة أيام من العطلة الرسمية تقررت

احتفالًا بذكرى مولد الملك حسين الذي أبصر النور في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر. وخلال هذا الاحتفال السنوي لا يحدث، حرفيًّا، في الأردن أي شيء لا علاقة له بالمناسبة. وظننت أن موعد وصولنا هو أيضًا ذكرى ميلاد والدتي. والعلاقة الوحيدة بين الاثنين غير مباشرة إلى حد كبير: فعبداللّه جدّ الملك حسين والشريف الحسين جده الأعلى انخرطا في مفاوضات مع البريطانيين أدت إلى الثورة العربية الكبرى على الأمبراطورية العثمانية. وهي لم تلتق الملك حسين قط، وهو لا يعرف عنها شيئًا، لكن قدريهما مرتبطان تاريخيًّا في شكل من الأشكال.

تدبّرنا وضع البضائع في المستودع إلى أن يسمح لنا الوقت، بعد العطلة، بتنظيم تسليمها عبر الطريق البرية إلى بغداد. وكانت المغبّة خيرًا في النهاية. واحتفل الملك حسين بميلاده السادس والخمسين مع شعبه.

وما إن سمحت الاحتفالات بذلك حتى نظّمنا رحلتنا الطويلة الشاقة إلى بغداد، وقطعنا هذه المرة مسافة الألف كيلومتر عبر الصحراء بالشاحنات وسيارات الجيب. وحظينا في العاصمة العراقية باستقبال احتفالي كبير، ليس بذكرى مولد أي شخصية مهمّة، بل بمهمتنا مع الخطوط الجوية العراقية. وجاءت الصحافة بأعداد كبيرة للحصول على تفاصيل العملية إذ لم يغب عن الذهن مغزاها الذي يتحدى نظام الحظر.

كان رئيس الخطوط الجوية العراقية هو الشخص الأول الذي سعينا إلى رؤيته في بغداد، لأننا أردنا استكشاف الخيارات لرحلات أخرى. كان المكتب في وسط بغداد حديثًا ومفروشًا في شكل جميل، غير أن له مظهر المبيت المسكون. فبما أن كل طائرات الخطوط العراقية توقفت عن الطيران ما إن بدأت الحرب، وتوقفت الرحلات التجارية العادية، وربضت الطائرات عالقة في المطارات التي صودف وجودها فيها عند اندلاع أعمال العداء، لم يوجد أحد هناك، أو تقريبًا لا أحد. الاستثناء هو الجنرال م. أ. صافي المدير العام للخطوط الجوية العراقية الذي واصل المجيء إلى مكتبه كل صباح بالضبط، يمضي نهارًا كاملًا من العمل على رغم عدم وجود شيء يقوم به. وصافي طويل القامة، متين البنية، يفرض فورًا الاحترام ليس فحسب بسبب بزّته الجميلة ولكن المتواضعة بل أيضًا بما يعكسه من مظهر سلطة شبه عسكرية. وعلى رغم أنه جلس عمليًّا وحده تمامًا في المكتب الكبير، فإن تصرّفه أوحى أنه منكب كلّيًّا على عمله كأنه محاط بدزينة أو ما يقاربها من الزملاء المنشغلين في حجز الرحلات وبيع بطاقات السفر والذين، لسبب لا نعرفه، لا نستطيع رؤيتهم في هذه اللحظة. رحّب بنا السيّد صافي في مودّة وهنأنا على الرحلة واستمع في انتباه إلى تقريرنا ومخططاتنا المستقبلية. وردّ من دون تردد بالإيجاب. فإذا كانت القوى الموجودة في مجلس الأمن تقطع الطريق

على مبادرة مكتب المندوب التنفيذي، فسيقوم بما في وسعه لجعل مبادرتنا تنجح. سيأخذ العراق على عاتقه تكاليف الرحلات. وحرص على القول إن الطائرات أشبه بالكائنات الحيّة، إذ تحتاج إلى التحرّك للبقاء حيّة، وإذا ربضت جامدة على الزفت فإنها تنحل وتموت.

وعلى رغم أن عملنا الأساس متعلّق بمسألة الطيران، فقد خرج السيد صافي عن طوره ليكون مضيافًا لنا، نحن ضيوفه من أوروبا. دعانا إلى استقبال في نادي اليخوت وهو ما لم يمكننا، لسوء الحظ، قبوله نظرًا إلى ضيق جدولنا الزمني. وقال لنا، بعدما عرف أن زوجي ألماني، أن أوركسترا بغداد السمفونية، التي ترعاها شركة طيرانه، ستؤدي قريبًا السمفونية الخامسة لبيتهوفن ودعانا إلى الحضور. ولما أشار زوجي إلى أنه عازف كمان هاو وأدى مرّة هذه المقطوعة، طلب منه صافي على الفور الانضمام إلى الأوركسترا. ولا هم إذا لم يأت مايكل بكمانه معه في هذه الرحلة فسيجد له السيد صافي آلة بديلة. واضطررنا أيضًا، ويا للأسف الشديد، إلى تفويت هذه الدعوة الرائعة بسبب جدولنا الزمني الضيق جدًّا.

وشرعنا، بعودتنا إلى ألمانيا، في تنظيم رحلة أخرى للخطوط الجوية العراقية، مستقلة عن مكتب المندوب التنفيذي، وهذه المرة من فرانكفورت. وقضت الخطة بإرسال طائرة من عمّان إلى فرانكفورت على أن تطير هذه المرة مباشرة إلى بغداد، أي إلى الحبانية، بشحنة من الحليب المجفف وغيره من المساعدات إضافة إلى عدد من الأولاد العراقيين الذين أنهوا علاجهم في ألمانيا. وكان هناك عدد من الأطفال يعانون عللًا خطيرة في القلب عثرنا لهم على فرص للعلاج في الولايات المتحدة. وإذا أمكننا، لدى عودتنا، أن نطير بهم مباشرة إلى ألمانيا فسيمكنهم مواصلة رحلتهم من هناك إلى أميركا في طائرة تجارية. وكان التاريخان اللذان حددناهما 12 و19 كانون الثاني/يناير 1992. ولأن لا علاقة لمكتب المندوب التنفيذي بالأمر توجب علينا أيضًا أن نتدبّر الدعم المالي لدفع ثمن الرحلة المُستأجرة وهو 35 ألف دولار، ولكن وجد الكثير من المنظمات المستعدة لدفع الفاتورة. واضطرتنا المشاكل التي واجهناها في الاستحصال على تأشيرات الدخول للأولاد الذين خططنا لأخذهم معنا، إلى تأخير الرحلة وأعدنا جدولة تاريخ الرحلتين في 20 و24 كانون الثاني/يناير. وكتبت في 20 كانون الأول/ديسمبر إلى سفير العراق لدى الأمم المتحدة في نيويورك، عبد الأمير الأنباري، أبلغه أن وزارة الخارجية الألمانية وافقت على منح الإذن بالهبوط مشترطة، طبعًا، موافقة لجنة العقوبات على الرحلة. وستطلب لجنتنا مثل هذه الموافقة، وعليه بعد ذلك القيام بالمثل.

ثم سقطت المقصلة. وتلقيّت في 14 كانون الثاني/يناير فاكسًا من الدكتورة سوزان فاسوم - رينر من وزارة الخارجية الألمانية، يعلن أن «المشاورات مع

لجنة العقوبات كشفت أننا لا يمكننا أن نعتمد الموافقة على رحلة مع العراقية [شركة الطيران]». وقالت إنهم يوصون بأن نسعى إلى إيجاد بديل. وتبيّن أن هذه كانت مشاورات «غير رسمية»، وإن الألمان قرروا، استنادًا إلى نتيجتها السلبية، عدم التقدم بطلب رسمي. وقد حرّك الوفد الأميركي عملية الرفض بالقول إن الخطوط الجوية العراقية ستبقى على الأرض في كل مكان وأي مكان إلى أن يوافق العراق رسميًّا على القرار 706.

إبادة؟

لا يراود ذهني أي شك في أن مجلس الأمن لو كان مستعدًا سياسيًّا وانفعاليًّا لإدراك الرسالة الأعمق الراسخة في اقتراحات صدر الدين الرسمية، وعمل بموجبها، لأمكن على الأقل التلطيف من الكارثة التي حلّت بالعراق في السنوات التالية. قضى مجلس الأمن الدولي، وقد حرّكته أصابع فئات الحرب في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، على مشروعنا لاستخدام الخطوط الجوية العراقية في الجهود الإنسانية. وكافأوا الأمير صدر الدين على نياته الطيبة بأنه عارضوا سعيه إلى الوصول إلى المنصب الأرفع في الأمم المتحدة. فقد رُشّح في 1991 لتولي منصب الأمين العام، لكن الولايات المتحدة والمملكة المتحدة أسقطتا ترشيحه بعدما أسقطتا جهوده الإنسانية على أنها «موالية أكثر مما يجب للعراق».

استمرت لجنتنا، بمواردها الخاصة الضئيلة، في تنظيم رحلاتها الجوية الإنسانية إلى العراق، في قسم كبير منه على أساس ما توافر، لتسليم أطنان من الأدوية والمعدات الطبية والغذاء، وبخاصة الحليب المجفف الذي استمر في التدفق علينا من المانحين(88).

ولكن شتان ما بين هذا والحاجة. ولو أن الأمم المتحدة أعطت موافقتها لقامت الخطوط الجوية العراقية بجهد إغاثة شبيه بعملية النقل الجوي التاريخية التي قامت بها الولايات المتحدة في 1948 لإبقاء سكان برلين الغربية أحياء. وكان الوضع في العراق، بكل جوانبه وأشكاله، شبيهًا بوضع برلين الغربية تحت الحصار. وكان يمكن الخطوط الجوية الوطنية أن تنقل المساعدات الإنسانية من كل أنحاء العالم. ولأمكن الهلال الاحمر تنظيم التوزيع على مستوى البلاد لتزويد المستشفيات والعيادات التجهيزات المنقذة للحياة.

وحصل العراق بدلًا من ذلك على برنامج النفط في مقابل الغذاء الباعث على الشفقة. ورفضت بغداد في البداية القرار 706 على أساس أنه يشكل انتهاكًا للسيادة، وهو ما يشكّله. والمشكلة هي الحساب الاستئماني لعائدات النفط الذي يشرف عليه الأمين العام والموجّه في الأساس لدفع التعويضات

للكويت ومن ثم لتمويل عمليات الأمم المتحدة الخاصة، والموافقة، بعد ذلك فحسب، على أن يشتري العراق المواد المسموح بها. ولم يوافق العراق في النهاية إلا في أيار/مايو 1996 وتحت أقصى درجات الإكراه فبدأ العمل ببرنامج النفط في مقابل الغذاء في كانون الأول/ديسمبر الذي تلا. ووصلت أول شحنة غذائية بموجب هذا البرنامج في آذار/مارس 1997، أي بعد ستة سنين على النهاية الرسمية للحرب. واستمر العمل بهذا البرنامج إلى أن قام كوفي أنان، وقد رأى الحرب على الأبواب، بتعليقه وبسحب موظفي الأمم المتحدة في 18 آذار/مارس 2003، وبينهم مفتشو الأسلحة الذين عادوا إلى العراق في تشرين الثاني/نوفمبر 2002، وجميع عمال المساعدة الإنسانية وفريق الدعم.

لم يكن من شأن برنامج الأمم المتحدة إلا مجرّد التخفيف من الأزمة حتى لو تم الشروع فيه على الفور. فقد كانت الحاجة تدعو إلى الرفع الفوري والكامل للحظر بما يسمح للعراق بالعودة إلى عهده السابق من الإنتاج والتجارة، وإطعام شعبه والعناية به. لكن ذلك ليس مدرجًا على الروزنامة. ووفرّ برنامج النفط في مقابل الغذاء، بدلًا من ذلك، شبكة أمان هشّة فاستمر الأكثر عرضة للخطر - المتقدمون في السن، المرضى والصغار جدًّا - في التساقط أمواتًا كالذباب. وأدت القيود المشددة المفروضة على ما يمكن العراق استيراده بموجب حيلة «الاستخدام المزدوج»، إلى منعه من شراء المواد الحيوية لتعمير بنيته التحتية الضرورية للبقاء.

وقد أصدرت وفرة من الوكالات المستقلة، منذ 1991، تقارير تتوقع أعدادًا كبيرة جدًّا من الوفيات في ظل استمرار العقوبات. وأعيدت، مع مرور الوقت، صياغة التوقعات المريعة لتصبح إدانات سياسية مفادها أن من غير الممكن تسجيل ما يحدث على أنه من ويلات الحرب، بل إبادة جماعية مُثبَتة. وصدرت واحدة من أولى الدراسات الجدّية في شباط/فبراير 1991 عن البعثة الخاصة لمنظمة الصحة العالمية/اليونيسيف في العراق ونتائجها تصيب باليأس: فهناك نقص في الكهرباء الضرورية لتشغيل معامل تكرير المياه، بسبب تدمير البنى التحتية للطاقة في الحرب، وتم بالتالي خفض تزويد الماء إلى خمسة في المئة من الكميات العادية. وأخذ المواطنون يقصدون النهر بمشقة لملء الزجاجات البلاستيكية بالماء الملوّثة جدًّا بسبب انسياب مياه المجارير فيه. وتم توقّع انتشار الأوبئة الناتجة عن المياه، وقد انتشرت. وأصيب النظام الاستشفائي والعيادي كلّه بالشلل من جراء النقص في الكهرباء والماء وفقدان الأدوية الأساسية. وتوقّف برنامج التلقيح الوطني، الذي كان نموذجًا - للقطاع الصحي المتطوّر، عندما لم يعد في الإمكان حماية اللقاحات بسبب النقص في الكهرباء ناهيك بندرة الحقن(89). وفي نيسان/أبريل 1991، وثّقت «بعثة الفريق الخاص بالسلام في الخليج»، برئاسة الدكتور إريك هوسكنس، صورة مماثلة.

وصدر تقرير «مجموعة الدراسات في هارفرد» بعد ذلك بشهر واخترق التعتيم الإعلامي. وتوقّع، بعد مسح الوضع الصحي في كل المدن الرئيسة والكثير من المناطق المجاورة لها، «من دون أي تدخّل حكومي»، أن تتضاعف وفيات الأطفال منذ بداية الأزمة، مما يعني أن 170 ألف طفلٍ إضافي، ممن أعمارهم تحت الخامسة، سيموتون. وتوقّع تقديرهم «المتحفّظ» أن حالات الموت المرتقبة ستنتج أساسًا عن الأمراض الناتجة عن المياه، والكوليرا، والتهاب المعدة والأمعاء (الذي احتُسب أنه سيتسبب بـ150 ألفًا من الوفيات)، والتيفوئيد، وسوء التغذية (المجاعة)، وغير ذلك من الحالات التي تمكن معالجتها والتي لن يتم التعامل معها بسبب انهيار المنظومة الصحية(90).

كسر الرقم الـ 170 ألف حالة من الوفيات غير اللازمة في تقرير مجموعة الدراسات في هارفرد جدار الاستخفاف وعدم التصديق الذي بنته دعاية الحرب الرسمية. ولكن تبيّن أن الارقام أقل من الحد بكثير. إذ هلك 500 ألف طفل - نصف مليون - حين تم التوقيع مع العراق على مذكرة التفاهم على برنامج النفط في مقابل الغذاء. ثم سئلت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، لدى ظهورها على برنامج «60 دقيقة» في 12 أيار/مايو 1996، عن تقويمها «ثمن» سياسة العقوبات. وقالت الصحافية التي تجري المقابلة، لسلي ستال، «تناهى إلينا أن نصف مليون طفل ماتوا. وأعني بهذا أن عدد الأطفال الذين ماتوا يفوق عدد الأطفال الموتى في هيروشيما. فهل تعتقدين ان الأمر يستحق هذا الثمن؟» أجابت أولبرايت: «أعتقد أن هذا خيار صعب جدًّا، ولكن بالنسبة إلى الثمن، نحن نعتقد أن الأمر يستحق هذا الثمن».

بات العراق وشعبه كله عرضة للإبادة. فقد تعرّضت المنشآت العسكرية أيضًا للهجوم في الحرب، إلا أن الاستراتيجية الأساسية قضت باستهداف البنى التحتية بهدف وقف النهجين، الاقتصادي والاجتماعي، الطبيعيين. فهذه هي الرسالة التي أوصلها جايمس بيكر الثالث إلى طارق عزيز في كانون الثاني/ يناير في جنيف وما أعاد العراقيون صياغته بلغتهم المحلّية على أنه «القصف الآن، والموت لاحقًا». ونجحت الاستراتيجية أكثر مما يجب بالنسبة إلى الأنكلو - أميركيين.

وكنّا بين الأول في الاعلان عن هذا وفي إثارة الاستنكار العام. وشنّ البروفسور فرانسيس بويل من جامعة شيكاغو، والذي انضم إلى لجنتنا منذ البداية، هجومًا شجاعًا مباشرًا على الأمم المتحدة لسماحها لمؤسساتها بالتغاضي عن الإبادة. واستشهد البروفسور في شكوى رفعها في 22 تموز/ يوليو 1991 بتقرير هارفرد الذي «يثير مباشرة مسألة هل رسميّو إدارة بوش مسؤولون عن ارتكاب جريمة الإبادة في حق أطفال العراق بسبب تعنّتهم في

الإصرار على الإبقاء على العقوبات الاقتصادية وصولًا إلى إطاحة صدام حسين على رغم واقع أنها فُرضت في الأساس لتحقيق ما يُسمّى تحرير الكويت». واستشهد بويل بـ «قانون تنفيذ الاتفاق المتعلّق بالإبادة الجماعية» الذي تبنّاه الكونغرس في 1988. وجاء فيه:

الفقرة 1901 الإبادة الجماعية

(أ) الجريمة الأساسية - كلّ مَن، سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب، في الظرف الذي تم شرحه في القسم الفرعي (د) ولديه نيّة محددة بالقضاء، كليًّا أو في جزء كبير منه، على مجموعة وطنية، إثنية، عرقية أو دينية بصفة كونه كذلك

(1) يقتل أفرادًا من تلك المجموعة؛

(2) يتسبب بإصابات جسدية خطيرة لعناصر في تلك المجموعة؛

(3) يتسبب بعطلٍ دائمٍ في القوى الذهنية لعناصر تلك المجموعة سواء بالعقاقير أو بالتعذيب أو بتقنيات مشابهة؛

(4) يُعرّض المجموعات لظروف حياة تهدف إلى إيقاع الدمار المادي بالمجموعة كلها أو بجزء منها؛

(5) يفرض إجراءات تهدف إلى منع الولادات في داخل المجموعات؛

(6) ينقل بالقوة أطفال المجموعة إلى مجموعة أخرى؛

أو كل من يحاول القيام بذلك، يجب أن يُعاقب بما نص عليه القسم الفرعي (ب)».

والجزاء المتوقع له هو تغريمه بمليون دولار وسجنه ما بين عشرين سنة ومدى الحياة. ويوجد المزيد: حدّد الاتفاق أن الأشخاص الذين يرتكبون الإبادة «يجب أن يُعاقبوا، سواء كانوا حكّامًا نُصّبوا بالطريقة الدستورية، أو مسؤولين عامين، أو أشخاصًا عاديين»، ويجب عدم البرهان إلا على «النيّة المحددة» لارتكاب الإبادة. وهذا يجب ألا يخلق مشكلة، من وجهة نظر بويل، نظرًا إلى إدراك مسؤولي إدارة بوش نتائج مجموعة الدراسة في هارفرد. واستشهدت شكوى الخبير القانوني، ابن شيكاغو، بالمادة الأولى من الاتفاق التي ينص على أن جميع أطراف الاتفاق ملزمون «منع» الإبادة، ويحق لأي منهم «دعوة أي من الأجهزة المختصة في الأمم المتحدة إلى القيام بمثل هذا العمل كما يرونه مناسبًا بموجب ميثاق الأمم المتحدة لمنع أعمال الإبادة وقمعها...».

ولكن هنا تقع السخرية المأساوية: فهذه الأجهزة بالذات المنوطة بها سلطة منع الإبادة، مثل مجلس الأمن الدولي ولجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان

الخ...، لا تزال خاضعة للقبضة المحكمة لفئة الحرب في المملكة المتحدة والولايات المتحدة بحيث لا يمكنها التفكير في أي تحرّك. بل على العكس فإن هذه الأدوات بالذات تتغاضى عن الإجراءات التي تشجّع على الإبادة. وهو ما أثار حنق البروفسور كوشلر.

وقد ردّت منظمة التقدّم الدولية بتحدّ مباشر. وقدّم واحد من ممثليها، في 30 آب/أغسطس، شهادة رسمية أمام اللجنة الفرعية لمنع التمييز في لجنة حقوق الإنسان التابعة المجلس الاقتصادي الاجتماعي في الأمم المتحدة في جنيف، في مداخلة دبّرها كوشلر. إستشهد المتحدث باسم منظمة التقدم الدولية بتقرير مجموعة الدراسات في هارفرد ليطلق اتهامه «أن الحق الأكثر أساسية، وهو الحق في الحياة، يُحرم إياه في الواقع 18 مليون شخص من جراء الاستمرار في سياسة العقوبات». وشدد أيضًا على واقع أن «يتم تنفيذ مثل هذه السياسة على أساس قرارات اتخذها أحد أجهزة الأمم المتحدة أمر لا سابق له في تاريخ الأمم المتحدة».

ثم دُعينا، أنا ومارغيت، بتدخّل أيضًا من البروفسور كوشلر، لتقديم شهادة رسمية إلى السيد ماكس فان در شتول المقرّر الخاص لـ «وضع حقوق الإنسان» في العراق. قدّمت مارغيت تقريرًا تضمن الوقائع وحسب عن حال أولاد العراق في ظل الحظر، مفصّلة الحالات التي شخّصتها شخصيًّا وأرفقت دراستها السريرية بصور تدمي القلب. وأعقبتُها بملاحظات وجيزة تبرهن انتهاكات الشرعة الدولية بالنسبة إلى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تضمن لكل شعب الحق في استخدام مصادره الطبيعية وفي الحماية من حرمانه وسائل البقاء.

حدّدت الجلسة في الثانية بعد الظهر بتوقيت جنيف وهو توقيت غير ملائم للسيد فان در شتول. بدا واضحًا أنه تمكن من ابتلاع وجبة سريعة، في معظمها من السوائل، وجلس هناك ورأسه بين يديه في محاولة بطولية لمنع نفسه من النوم. وقد نافس أنفه الأحمر أنف الرنّة التي تساعد بابا نويل، لكنه لم يكن في حال تسمح له بجرّ العربة - والأقل منه استيعاب أهمية ما يطرح أمامه.

تعامل فان در شتول مع شهادتنا من دون اهتمام وعدَّها بحكم المعروضة في مكان ما في مراسلة داخلية، وأحالها بالتالي على سلة المهملات البيروقراطية. لكن المسألة لم تتلاش مع الآثار البغيضة لوقت غدائه. فقد تعاظم الاستياء العام مع اختراق صورة الواقع في العراق لوسائل الإعلام.

وشهدنا، في زيارتنا اللاحقة للعراق، على المأساة. وعلى رغم أننا لم نجر أي دراسات احصائية فقد شاهدنا، يومًا بعد يوم، البرهان على الإبادة في سلسلة

من المشاهد التي لا تُنسى. ففي إحدى زياراتنا أحد مستشفيات بغداد، صرف الطبيب الذي يرافقنا في الجناح انتباهه فجأة إلى تحركات وأصوات صادرة من إحدى الحاضنات في الطرف البعيد من الغرفة قرب النافذة. توجهنا إلى هناك ورأينا الطفل في داخلها وهو يلفظ آخر أنفاسه ليموت من ثم وشفتاه مزمومتان تضخّان مثل فم سمكة خارج الماء. كانت حاضنة الطفل مجهّزة بواحد من مصابيح النيون المئة من ألمانيا، لكن ذلك لم يكف. وتلك هي المرة الأولى في حياتي أشاهد ندًّا لي في الإنسانية، وهو بالكاد طفل، يغادر هذه الحياة إلى الآخرة. ورافقنا الطبيب بعد ذلك إلى القبو حيث رأينا عددًا من النعوش الصغيرة المرصوفة، وهي بحجم علب الأحذية، تأوي الأطفال الموتى.

وفي زيارة أخرى لأحد مستشفيات بغداد، في سياق مؤتمر دولي ضد العقوبات، جيل بنا نحن مجموعة الضيوف الأجانب في أقسام المستشفى. جلست إحدى الأمهات على السرير، ملتفّة بتشادورها الأسود، وهي تحمل ابنها الصغير الذي قيل لنا إنه مصاب بسرطان قاتل. وانقسمت تعابير وجهها بين التحدي الفخور في مواجهة هذا الانقضاض البربري على شعبها والاستسلام الشخصي للمصير الذي تعرف أنه ينتظر ابنها. لم تستطع امرأة فرنسية في بعثتنا تحمّل الضغط النفسي فانفجرت بالبكاء الهستيري إلى أن ووكبت إلى خارج الغرفة. والتقينا في جناح مجاور مراهقًا يعاني مرضًا في الكلي يهدد حياته. وشكّلت الجراحة أحد الخيارات لكنها غير متوافرة هنا في العراق؛ أما الخيار الآخر، وهو جرعات الدواء القوية اليومية، فقابل للتطبيق، ولكن من يمكنه أن يتدبر له الحصول على الدواء بالكميات التي يحتاجها إليها؟ وأبلغتني مارغت ونحن نغادر الجناح أن أيامه معدودة.

انهمرت علينا طلبات الدواء في كل الأجنحة. وأخذ مكتب المندوب التنفيذي يرسل إلي في انتظام فاكسات من عراقيين يناشدونه شخصيًّا المساعدة بعدما قرأوا بطريقة من الطرق عن مبادرة الأمير(91). وكان كل فاكس مرفقًا بتقرير من طبيب حسن النية مع وصفة بالأدوية. وأخذت هذه الفاكسات تصل يوميًّا وبأعداد كبيرة. وحوّلنا الطلبات إلى مساعدينا في المستشفيات الألمانية وإلى أطباء المنظمات الذين قاموا بما يمكنهم القيام به. ولم تغب المعاناة حتى عن الناس الذين في الدوائر الحكومية على رغم أن الدعاية الغربية الرسمية نفت ذلك. وقال لنا مسؤول رسمي كبير إن شقيقته مصابة بمرض في الكلي وهي قد لا تنجو من دون جراحة. واضطررنا إلى تخييب أمله بما أن سنها تفوق السن التي حددتها لجنتنا.

في إحدى زياراتي في 1994، أسرّ إلي الرجل المرافق الذي كرّسته لي الحكومة أن زوجته تخلّت عن أي علاقة حميمة معه خوفًا من أن تسقط، لو

حملت، ضحية المنظومة الصحية المتداعية. فالحصار منع دخول حبوب منع الحمل ثم أن البنج غير متوافر للمرأة التي يجب أن تخضع للعملية القيصرية. وكان الرجل يعاني حاجات أساسية أكبر. فعندما قلت له في أحد الأيام في المطعم إنني لا أحتاج إلى تناول الغداء، أصرّ في شكل قاطع على أن أوافق على مرافقته. حينذاك فحسب فهمت أنها ربما وجبته الوحيدة في ذلك اليوم.

وفي زيارة أخرى لحضور مؤتمر آخر، دُعي الضيوف الدوليون إلى وجبة غداء في اختتام المناقشات. جلست دزينتان أو ما شابه منّا إلى طاولة مستطيلة وغَرَفنا من الأطباق الوافرة من الدجاج والرزّ والسلطة. عاد الآخرون إلى الباص بعد الوجبة، فيما توجّهتُ في زيارة سريعة لحمّام السيدات. وأدركت أنني نسيت سجائري فتوجهت عائدة إلى غرفة الطعام. وهناك واجهت مشهدًا من اليأس الإنساني أشبه بمشهد الأرمن الجائعين في هاربوت: زحف الخدم وغيرهم من موظفي الفندق، بالحرف الواحد، فوق الطاولة. أخذ بعضهم يحشو فمه بملء يديه بالرز والدجاج، بينما شرع آخرون ممن جهزوا أنفسهم بأكياس البلاستيك يملأونها بكل ما تقع عليه أيديهم ومن ثم يعقدونها لتسكيرها. ويكاد المرء يعتقد أنهم مجرّد وحوش وليسوا كائنات بشرية. وتساءلت كم مضى عليهم وعلى عائلاتهم من دون وجبة محترمة، وشعرت بالخجل لتطفلي عليهم عن غير قصد.

شكل ملجأ العامرية مشهد المعاناة المطلقة الذي تسببت به الحرب. وقد تم تنظيفه بعد انتهاء الحرب بأشهر وفُتح أمام الجمهور. وعلى المرء لدخول الملجأ الموجود تحت الأرض النزول عبر درج طويل أشبه، نوعًا ما، بذلك الذي يأخذك نزولًا في أهرامات مصر. تستقبل امرأة متشحة بالسواد الزائرين. سواد أشبه بشارون الذي نقل دانتي وفرجيل في نزولهما إلى الجحيم. فكل شيء أسود في ما عدا وجه المرأة الشاحب الهزيل وبياض عينيها اللتين تحدّقان برعب جامح. وتسمح فجوة تفتح فغرها بدخول بعض من ضوء النهار. وكان من خلال هذه الفجوة الأولى أن دخل صاروخ ثان وأحرق الملجأ. وهي تشرح بجمل مضطربة قصيرة أنها الوحيدة في عائلتها التي نجت، وباتت تنشغل، منذ إعادة فتح الملجأ، بإقامة هذه الجولات اليومية في هذا الأثر المروّع. مدّت إحدى ذراعيها ويدها مرفوعة كما لو أن سبابتها تشير بإصبع الاتهام إلى مجرم تتخيّله، واستندت بيدها الأخرى إلى الجدار وهي ترشدنا إلى داخل جزء مستدير مما بدا كأنه مغارة ضخمة. وأخذت في كل متر أو ما شابه تتوقف وتشير إلى صورة أو صور فوتوغرافية عدة وكل منها تضيئها شمعة يظهر فيها أولئك الذين ماتوا في ذلك الموقع. أخبرتنا عن كل واحد وعن عمره. لقد نجت، لكن حياتها تحوّلت كابوسًا لا ينتهي ولا وسيلة لها للتعامل معه إلا أن تعيش من جديد صدمة تلك الليلة التي لا توصف إلى الأبد.

فكّرتُ في جمال، وخالد، وإياد. فقصف العامرية حدث وما من شيء يمكنه محو المجزرة أو يخفف من الرعب. ولكن كان في الإمكان تفادي استمرار معاناة الناجين من الحرب والمرضى وكبار السن والشبان والجائعين من خلال سلسلة من الإجراءات تبدأ برفع الحظر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التحضير لـ «حرّية العراق»

أبقي على العقوبات على رغم استمرار تحديد المواقع المتعلّقة بأسلحة الدمار الشامل وتدميرها، وعلى رغم الأفعال الدراماتيكية التي قام بها مفتشون عن الأسلحة، من أمثال دنيس هالدياي وهانز فون سبونك اللذين استقالا احتجاجًا. فما قدمه برنامج النفط في مقابل الغذاء إلى العراقيين كان «القليل الذي يقتاتون منه والكثير الذي يموتون به» كما يقول الألمان. واستمرت وفيات الأطفال في الارتفاع. وتركت العقوبات الشعب في حال من الاتكال والضعف أملًا منه في تأليبه على النظام. واستمر في الوقت نفسه تقطيع الأوصال المنهجي لوسائط الدفاع الجوية العراقية من خلال ما يُسمى «مناطق حظر الطيران» التي فرضها الأنكلو - أميركيون في 1992 من دون موافقة من الأمم المتحدة(92). وهي قد فُرضت بزعم حماية منطقة الشمال ذات الغالبية السكانية الكردية ومنطقة الجنوب ذات الغالبية الشيعية، لكنها شكّلت تمويهًا لعملية المراقبة والاستفزاز؛ فلو ان العراقيين أحكموا راداراتهم على تحليق طائرات العدو لعُدّ الأمر عملًا عدائيًّا وتم على الفور قصف منشآت الدفاع الجوي الذي يوقع إصابات كبيرة في صفوف المدنيين. والهدف العسكري من ذلك هو ضمان أن موجات الطلعات التالية في الحرب المقبلة ستتمكن من مقاربة أهدافها من دون إزعاج.

وتضمنت الشروط المسبقة الإضافية لاستئناف العدوان فبركة «معلومات استخبارية» لخداع الرأي العام. ومن هنا الملفات البريطانية والوثائق الأميركية التي تزعم وجود روابط بين أجهزة الاستخبارات العراقية والقاعدة (وهي قوة سياسية تتوافق مع صدام كما يتوافق الزيت والماء)؛ أو «معجزة» صدام التي يمكنها إطلاق الصواريخ في غضون 45 دقيقة. وبغض النظر عن شهادة مفتش الأسلحة سكوت ريتر القائلة بنجاح تدمير 90 في المئة من أسلحة العراق، أو إعلان هانز بليكس في آذار/مارس 2003 أن لا أرضية لنزاع مسلح، كان قرار المضي إلى الحرب اتخذ(93).

شكّل ذلك تكرارًا هزليًّا لنسق الأحداث التي أدت إلى عاصفة الصحراء. ففي تموز/يوليو 1990 أبلغت السفيرة الأميركية في العراق يومذاك، إبريل غلاسبي، صدام حسين في لقاء خاص أن واشنطن ترى نزاعه مع الكويت، المُتهمة بسرقة نفط العراق، مسألة عربية داخلية. وأعطي صدام حسين تفويضًا مطلقًا للقيام بأي عمل يراه مناسبًا في التعاطي مع الأمر. ولأن العراقيين حظوا بدعم الأنكلو - أميركيين في حربهم الدامية التي استمرّت ثماني سنوات مع إيران، كان الزعيم العراقي على درجة كبرى من السذاجة ليعتقد ان لديه انتدابًا بشن الحرب على الكويت، وسقط في الفخ. وسرعان

ما تم استدعاء غلاسبي إلى واشنطن حيث اختفت سريعًا وفي شكل مناسب عن الأنظار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوهام الهيمنة العالمية

شكلت الحربان الأنكلو - أميركيتان على العراق تطبيقًا لاستراجية شاملة طويلة الأمد للحرب الدائمة بهدف ضمان الهيمنة العالمية. فمنذ سقوط جدار برلين في 1989 إلى انهيار الاتحاد السوفياتي في 1991، شكّل وزير الدفاع السابق نائب الرئيس اللاحق ديك تشيني أول قوة من قوى عدة منتدبة لرسم المقاربة الاستراتيجية الجديدة. وشكّلت مقاربتهم مشروعًا جغراسيًّا كلاسيكيًّا كما نقّحه البريطانيون في القرنين التاسع عشر والعشرين(94). وحاججت المقاربة، التي ستعرف بـ«مبدأ ولفوفيتز» تيمنًا بأحد واضعيها، أن على الأمن القومي للولايات المتحدة أن يرتكز على قدرتها على حرمان أي دولة أو مجموعة دول قدرتها على تحدي التفوّق العسكري الأميركي.

بقي المشروع طي الكتمان إلى أن تسرّبت تفاصيله في 8 آذار/مارس 1992 إلى النيويورك تايمز التي حصلت عليها من «مسؤول يعتقد أن على نقاش استراتيجية ما بعد الحرب الباردة أن يتم في المجال العام». ومن أبرز نقاطه أن «الولايات المتحدة هي في النهاية التي تدعم النظام العالمي» وأن عليها، بالتالي، «أن تكون في موقع العمل المستقل عندما يتعذّر تنسيق العمل الجماعي». وعلى القوة المسيطرة الوحيدة «الاحتفاظ بآليات ردع المنافسين المحتملين من التوق حتّى إلى دور إقليمي أو عالمي أكبر». وعالجت الوثيقة أيضًا «مسألة إمكان اتخاذ خطوات عسكرية لمنع تطوير أسلحة الدمار الشامل»، مضيفة أن الولايات المتحدة قد تشن هجومًا وقائيًّا مستخدمة أسلحة الدمار الشامل الخاصة بها.

وقد جُسّد هذا المفهوم في مخطط التوجيه الدفاعي للعام 1992 فتم تحديد الأعداء المحتملين على أنهم خلفاء الاتحاد السوفياتي، وبخاصة الاتحاد الروسي. وستبقى أوجه حيوية من القدرات العسكرية للاتحاد السوفياتي السابق مستهدفة على رغم «التطورات المُرحّب بها» في الاتحاد السوفياتي، أي زواله. فروسيا تبقى في النهاية قوة نووية، وهي قوة في مقدورها إزالة أميركا من الوجود. وأصدرت الورقة توجيهات واضحة إلى أوروبا بالتخلي عن أي خطط لترتيبات أمنية مستقلة من شأنها تقويض حلف شمال الأطلسي.

كانت لمسوّدة الهيمنة العالمية هذه تطبيقاتها المحدّدة في الشرق الأوسط. وأصدرت فِرَقُ تشيني في 1996 «بداية جديدة: استراتيجية جديدة لضمان أمن الدولة»، وضعته «مجموعة الدراسات لاستراتيجية إسرائيلية جديدة في اتجاه العام 2000» التابعة لمؤسسة الدراسات الإستراتيجية والسياسية المتقدمة(95). ويشير العنوان، في حال تأليف حكومة إسرائيلية جديدة برئاسة بنيامين نتنياهو، إلى الفرصة والحاجة إلى الوصول إلى قطيعة تامة مع

اتفاقات 1993 في أوسلو التي وعدت بتحقيق تقدّم في اتجاه السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. وعلى إسرائيل، بدلًا من ذلك، العمل عن كثب مع جارتيها، تركيا والأردن، لاحتواء بعض من التهديدات الأكثر خطورة عليها وزعزعتها وتحجيمها. وعلى إسرائيل، بدلًا من السعي إلى سلام شامل، أن تلجأ إلى مفهوم استراتيجي تقليدي يرتكز على ميزان القوة. وعلى إسرائيل، في التعامل مع ما تتصوره من تهديدات إقليمية، «الاشتباك» مع سوريا وإيران وحزب اللّه (الذي يُعدُّ «عميلًا» لهما في لبنان)، وعدم استبعاد عمليات التوغل العسكرية إلى داخل لبنان. وعلى إسرائيل «احتواء» سوريا ورفض أي اتفاقات على الأرض في مقابل السلام في ما يتعلق بمرتفعات الجولان. وعلى إسرائيل «أن تركّز على اطاحة صدام حسين من السلطة في العراق»، وأن تخطب ودّ النظام الهاشمي في الأردن لضمان مساندته. وأيدت الورقة «تغييرًا في طبيعة علاقتها مع الفلسطينيين، بما في ذلك دعم الحق في الملاحقة الحامية دفاعًا عن النفس في كل المناطق الفلسطينية وفي رعاية بدائل من سيطرة عرفات الحصرية على المجتمع الفلسطيني». وقضت الفكرة الأساسية في الوثيقة بإعادة صياغة الشرق الأوسط كلّه من خلال تغيير الأنظمة في العراق وإيران وسوريا ولبنان (سواء بالحرب أو بوسائل أخرى)، والتعزيز الموازي لإسرائيل ذات التسليح النووي بصفة كونها قوة إقليمية مهيمنة. سُلّمت ورقة «البداية الجديدة» إلى بنيامين نتنياهو الذي قدّم، بعد ذلك بأيام، فحوى السياسة الشاملة لجلسة مشتركة للكونغرس على أنها سياسة حكومته(96).

شن الرئيس كلينتون غارات جوية على العراق في حرب غير معلنة ما بين 1996 و1998، لكنه امتنع عن شن العدوان الشامل الذي سعت إليه مجموعة تشيني. ولم يصبح ذلك ممكنًا إلا عندما أوصلت انتخابات سنة 2000 المشكوك فيها بوش وتشيني إلى السلطة. ووفرت لهما أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001 الذريعة للانتقال إلى السرعة القصوى. وما تبع ذلك تاريخ يعرفه كل تلميذ مدرسة. فبعد أفغانستان جاءت الحرب الأنكلو - أميركية على العراق. وأطيحت حكومتا كل من كابول وبغداد بالوسائل العسكرية وبدأت عملية الاحتلال الطويلة والمأسوية. وتمت زعزعة استقرار سوريا بعدما ألقي اللوم على دمشق في اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري في شباط/فبراير 2005 وأُجبرت القوات السورية على مغادرة البلاد. وخضع لبنان لنسخته الخاصة من التغيير في النظام. ثم أصبحت إيران المستهدفة. وذلك كله بالتزامن مع «البداية الجديدة».

شكل النفط عاملًا في استراتيجية المحافظين الجدد الشاملة، لكنه لم يكن العامل في حد ذاته. فقد نُظر إلى الإمساك بالسيطرة الكاملة على مصادر

المواد الأولية في الشرق الأوسط والخليج الفارسي كوسيلة لتقويض دور روسيا كمصدّر، ولخنق الإمدادات الحيوية بالطاقة للصين.

ولا يمكن أبدًا تقديم أي من الأعداء المباشرين الذين تمت مهاجمتهم في الشرق الأوسط، بصدقية، على أنهم يشكلون تهديدًا للمصالح الإستراتيجية الأميركية، أو «لهيمنتها» كما يصفونها. فما هم إلا مجرّد نقاط انطلاق في اتجاه المواجهة، التي خُطط لها للمستقبل، مع ما يتم تصوّره من أخطار فعلية: روسيا والصين والهند التي يتم تحديدها في شكل أوسع على أنها الكوكبة الإقتصادية والسياسية والعسكرية الآخذة في البروز في أوراسيا والتي ينوي المحافظون الجدد تدميرها. وظهرت هذه النية في وضوح في المساحة الزمنية المؤدية إلى حرب العراق في 2003 عندما ظهر أكثر مبادئ مجموعات تشيني شهرة إلى العلن، وهو ورقة «استراتيجية الأمن القومي» الصادرة في أيلول/سبتمبر 2002 والتي تدعو إلى الحرب الوقائية، بما في ذلك استخدام الأسلحة الذرية، كما تم إلحاقه في نص لاحق(97).

وكان شعب العراق، وأطفاله على وجه الخصوص، هم أول من تمت التضحية بهم على مذبح استراتيجية «النظام العالمي الجديد» هذه. وقد هلك القسم الأعظم من البلاد وسكانها جراء العقوبات وحربين وحشيتين. أهملت قوى الاحتلال نشر أعداد الإصابات العراقية، غير أن التقديرات المستقلة المستندة إلى تقارير المشارح والمستشفيات تحدد العدد في ما بين 600 ألف و1,2 مليون(98). وانهارت المنظومة الصحية بفعل النقص في الموظفين المؤهلين. ويعيش نحو 25 في المئة من السكان ما دون خط الفقر. وهناك إضافة إلى ذلك ما لا يقل عن مليوني عراقي، بين المهجّرين الـ4,5 ملايين، هربوا من البلاد ومعظمهم من المسيحيين الذين استُهدفوا في النزاع الاثني/ الطائفي الذي اشعلته الحرب. وقد قُضي على النخبة العلمية العراقية التي تتمتع بدرجة عالية من الكفاية(99). وتعرّض، أخيرًا، الإرث الثقافي للبلاد للسرقة والنهب والتدمير الفاسق. فعندما سقطت بغداد في التاسع من نيسان/أبريل 2003، كان جيش الإحتلال في حال اشتباك فيما اجتاحت العصابات المنظمة المتحف الوطني وفرّت بكنوز لا تُقدّر بثمن. وعندما أقامت الدبابات الأميركية قواعد لها في المواقع الأثرية عبرت، حرفيًّا، على كنوز من العصور القديمة في بابل وغيرها من المواقع(100). غير أنه بُذل في الوقت نفسه جهد خاص لتأمين المرور الآمن للحيوانات الأليفة إلى الولايات المتحدة(101).

وتجب فهرسة ما تم خلقه من ظروف أدّت بالفعل إلى طرد الجماعة المسيحية على أنه نقطة إدانة إضافية وهذه المرة بجريمة الإبادة الثقافية. فالعراق موطن أوائل المسيحيين، بل ان المسيحيين تمتعوا بالأمن في ظل

نظام صدام حسين. وقد جنّبت وفاة البطريك بيداويد في 2003 عليه ألم الشهادة على هذا العار(102).

ماضي العراق ينبئ بالمستقبل

هل تنجح الفئة الاستعمارية الأنكلو - أميركية في إركاع العراق؟ أعلن الرئيس بوش في الأول من أيار/مايو 2003 «انجاز المهمة» عن سطح حاملة الطائرات ابراهام لينكولن. لكن بوش سلم السلطة بعد ست سنوات من ذلك إلى باراك أوباما ولا يزال النزاع محتدمًا في أرض ما بين دجلة والفرات، فيما فتح الإسرائيليون جبهة جديدة في حربهم على الفلسطينيين في قطاع غزة. وأيًّا يكن مصير قصاصات الورق الموقعة بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والعراق، مثل الاتفاق على وضع القوات الموقّع في 2008، فهناك عوامل أخرى هي التي ستحدد في النهاية شكل الأمور الآتية على البلاد والمنطقة.

وتشكل الثقافة قوة حاسمة في أي كفاح وطني. فهي الهوية التي يحددها الشعب لنفسه كما صاغها تقليده الثقافي وهو ما يمدّه بالقوة للقتال ضد ما يشعر أنه عدوان أجنبي أو أي تهديد آخر لسيادته الوطنية. وقد حذّر الكثيرون قبل اجتياح 2003 من هذا الاجتياح سيؤدي إلى نتائج عكسية. وحاول بيتر شول-لاتور، وهو صحافي كبير وخبير إقليمي في ألمانيا، إلى جانب الكثيرين من العسكريين المحترفين، تحذير الرامبو الأميركي المتعطش إلى الحرب على الرغم من أن الحرب والعقوبات شلّت اقتصاد العراق وبناه التحتية وهددت استمرار وجود شعبه، من أن أي محاولة للغزو والاحتلال الفعلي للبلاد ستواجه بأشرس مقاومة.

وكانوا على حق. وبعكس «مسيرة عارضي الأزياء» التي توقعها كنيث أدلمان، واجه الجنود الأميركيون مقاومة مسلحة عنيدة. فما إن بلغوا العاصمة في التاسع من نيسان/أبريل، وأعلنوا في شكل احتفالي سقوط نظام صدام حسين، حتى تكشفت دينامية جديدة بالكامل: فالعراقيون المسلحون والجنود النظاميون الذين، حتى هذا الحد، قاتلوا كجزء من الجيش الوطني، اختفوا في أماكن إقامتهم الخاصة، واعتنوا بالتخلّص من بزاتهم الرسمية، وعاودوا التجمع كقوة حرب عصابات مستعدة لشن حرب تحرير وطنية. ولم يؤد قرار الحاكم الأميركي بول بريمر المتهوّر تطهير الجيش والموظفين الحكوميين من عناصر حزب البعث إلا إلى التعجيل في تحوّل الجنود النظاميين والشرطة والمؤسسات السياسية قوة حربية غير نظامية هائلة. أما القرار الكارثي الثاني الذي اتخذته قوى الاحتلال بتوفير الدعم العسكري والسياسي لقوى معادية لصدام تصطفّ على خطوط دينية ومذهبية أو إثنية - الأكراد والشيعة في صفة خاصة - فضمن اندلاع عملية أشبه بالحرب الأهلية.

وكانت النتيجة المُنتظرة الوحيدة هي أن الحرب لم تبدأ إلا عند ذلك فحسب. فارتفع عدد الإصابات في صفوف الأميركيين والقوات الحليفة ارتفاعًا كبيرًا ليفوق الأربعة آلاف. وفي وقت تصاعد الكفاح ضد قوى الإحتلال اتساعًا وحدّة وقتلًا، أوقعت النزاعات الداخلية الطائفية والإثنية أصابات دموية كبيرة في صفوف الأهالي المدنيين. وأصبحت الجوامع والأسواق ومراكز تجنيد الشرطة أهدافًا يومية للمهاجمين الانتحاريين. وعلى رغم أن واشنطن كالت المديح لنجاح مقاتلي الحرية العراقيين في «مجالس الصحوة» الذين جُندوا من رجال القبائل السنة للقتال إلى جانب الحلفاء ضد عناصر عُرّف عنهم أنهم من القاعدة، لا توجد وسيلة لتحديد الوجهة السياسية التي ستسلكها مثل هذه القوى بعد رحيل المحتلّين.

شكل إنهاء الاحتلال المسألة المركزية لكل تشكيلات المقاومة الوطنية العراقية الحق. وكان المحرّك الأكبر بينها هو آية اللّه العظمى علي حسين السيستاني، السلطة الأعظم لجميع الشيعة (ليس في العراق وحسب) المقيم في مدينة النجف المقدسة. فهو الذي أجبر سلطات الاحتلال على السماح بإجراء الانتخابات البرلمانية في 2005 اقتناعًا منه بأن وحدها الحكومة المنتخبة ديمقراطيًّا تستطيع المطالبة بإنهاء الاحتلال. ومن قبيل ذلك، فإن مصادقة السيستاني غير المباشرة على «اتفاق وضع القوات» أواخر 2008 هي التي دفعت بالحكومة إلى تبنّيه. ولكن وبما أن الدعم الواسع الذي طلبه السيستاني من كل الفئات في البرلمان لم يتحقق فقد وُضع الاستفتاء على الروزنامة. والعامل المحوري في تفكير آية اللّه العظمى هو أن على الأمة كلّها، بجميع أقسامها الدينية والاثنية، أن تتوحد لطرد المحتل وتمهيد الطريق لاستعادة السيادة الوطنية والاستقلال.

كان في وسع أي متآلف مع الروايات التاريخية للمقاومة الوطنية العراقية ضد الإنكليز في الحرب العالمية الأولى أن يتوقع هذا كلّه. فقد عبأ الإنكليز الجيوش العربية، بمساعدة من العميل ت.إ. لورنس، لتحارب معها ضد الأمبراطورية العثمانية بعدما وعدوا العرب بالاستقلال، إلا أن ما أنتجوه كان خداعًا مَلَكيًّا مزدوجًا تجسّد في اتفاق سايكس - بيكو في 1916. واختير العراق ليكون تحت السيطرة الإنكليزية المباشرة، إلى جانب فلسطين والأردن، بل دار الحديث على «ضم» العراق إلى الهند البريطانية.

وليس من قبيل المصادفة أن «النهضة»، وهو أول حزب سياسي يعارض الاحتلال البريطاني، أنشئ في النجف في 1917. وعلى رغم سحق ثورة النجف على البريطانيين، برزت هذه المدينة، ومعها المدينة المقدسة الأخرى كربلاء، مركزي المقاومة السياسية المنظّمة، وقد جمعتا الزعامة الشيعية وقادة القبائل والعشائر(103). وتمتع الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي،

وهو السطلة الدينية العليا في كربلاء، بالنفوذ الأكبر. وعارض الشيرازي الاقتراح البريطاني وضع الأمير فيصل، ابن الشريف الحسين المتعاون مع البريطانيين، على العرش. وقضت رؤيته، بدلًا من ذلك، بوجوب منح جميع العراقيين الحق الذي وعدت به النقاط الأربع عشرة للرئيس الأميركي وودرو ويلسون في إقامة دولة عربية إسلامية مع ملك مسلم وجمعية وطنية.

نسّق الشيرازي المقاومة السلبية التي اجتاحت البلاد صيف 1919 وأحبط بالتالي الجهود البريطانية لحكم العراق. وعندما اعتقل البريطانيون ستة من زعماء الحركة، هدد الشيرازي بإعلان الجهاد على البريطانيين، وهذه المرة من بلاد فارس أيضًا، تمامًا في الوقت الذي أخذت المعارضة للمعاهدة الأنكلو - فارسية تتصاعد. وأمكن الإنكليز في وقت لاحق أن أحلوا محل حكام بلاد فارس صنيعتهم رضا خان، لكنهم استمروا يواجهون معارضة من العراق بقيادة الشيرازي. وفي نيسان/أبريل 1920 منح مؤتمر سان ريمو الإنكليز السيطرة على العراق وفلسطين ومصر وغيرها من الأراضي العربية، لكن الشيرازي أصدر فتوى يحظر بموجبها العمل مع الاحتلال الإنكليزي. وعندذاك تعاونت القوى الشيعية والسنية في كربلاء وبغداد في مقاومة الإنكليز. وردّ الإنكليز على محاولتهم الأولى التفاوض معهم باعتقالات جماعية في أوساط العراقيين. وبدأت المقاومة المسلحة في 30 حزيران/يونيو 1920 وتضمنت حرب عصابات وتدمير خطوط المواصلات البريطانية واغتيال مسؤولين. واستخدم الإنكليز القوة القاتلة، بما في ذلك الهجمات الجوية، وقتلوا عشرة آلاف عراقي بحلول تشرين الأول/أكتوبر. واستمرت بريطانيا في حكم العراق بيد دامية حتى ثورة 1958 عندما استولى القومي العراقي عبد الكريم قاسم على السلطة.

هذه الخلفية التاريخية حاسمة لفهم قوة المقاومة التي ظهرت بعد سقوط بغداد في 2003. وحتى بعد وقت طويل على فرض سلطات الإحتلال ترتيبًا ما، يجب عدم استبعاد إمكان أن تطل ثورة وطنية برأسها من جديد في العراق. فالسنة، الذين أدوا دورًا حاكمًا على مدى قرون، لن يبقوا محرومين. فإما أن يتم الاعتراف بدورهم سياسيًّا من خلال مصالحة وطنية، وإما أن يتم تأكيده بالقوة وستكون النتيجة غير مؤكدة.

وإذا قُدّر للعراق استعادة سيادته وبسط الاستقرار وضمان الأمن الوطني، فسيتطلّب الأمر التحرر التام من القوى الأجنبية على أن تتبع ذلك مصالحة وطنية حقيقية بين كل المجموعات الإثنية والطائفية. والوقت وحده سيقول هل الإدارة الأميركية الجديدة جدّية في التزامها الانسحاب. وإذا صح ذلك فستصبح الكرة في ملعب اللاعبين السياسيين الوطنيين في العراق وفي المنطقة. ولن تكون المصالحة بين الشيعة والسنة والتركمان والأكراد في

داخل العراق ممكنة إلا إذا أزال زعماء هذه المجموعات الغمامات عن أعينهم واعترفوا بأن التهديدات لبلدهم عبر العقود - إذا لم يكن عبر القرون - إنما جاءت من القوى الإمبريالية الأجنبية الضالعة في التلاعب بالنزاعات الإثنية/ الطائفية.

ولا يمكن التفكير بالمصالحة الداخلية العراقية، بدورها، إلا كجزء من عملية يتخلّى بموجبها اللاعبون الإقليميون وجارات العراق - إيران الشيعية، وتركيا والأردن السنيتان، بالإضافة إلى السعودية والكويت وسوريا - عن الاعتبارات الحزبية والرعاة الدوليين وأحلامهم الخاصة بالهيمنة والمساهمة في الجهد الجبار لإعادة بناء المنطقة بأسرها وإنشاء القاعدة الاقتصادية لكل دولة بما يكفل استعادتها سيادتها الوطنية واستقلالها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسم الثالث: فلسطين

خيانة أوسلو

لم أزر غزّة إلا في 1993، بعد بضعة أشهر على اتفاقات أوسلو، وكنت آمل في إجراء مقابلات مع شخصيات سياسية منخرطة في البحث عن السلام في الشرق الأوسط. وبينما كنت أفتّش عن فندقي، أحاط بي سرب من الصبية الفلسطينيين الضاحكين وجميعهم يرفعون أيديهم وأصابعهم ممتدة ترسم إشارة النصر. وعندما سألتهم بلغتي العربية البدائية هل في وسعي أن ألتقط صورتهم، أخذوا يقفزون في مكانهم وهم يصرخون «صورة! صورة!» ورنّت موافقتهم الحماسية كالدعوة إلى السلاح لعشرات من الأولاد الآخرين الذي ظهروا فورًا من العدم في كل مكان متلهّفين للظهور في الصورة وجميعهم يرفعون أيديهم بعلامة النصر المألوفة.

هل توجد أرضية للتفاؤل؟ اتفق الفلسطينيون والإسرائيليون، بعد أشهر من الاجتماعات الثنائية السرّية بتسهيل من الحكومة النروجية، على صيغة للسعي إلى السلام تم الاحتفال بها بالمصافحة التاريخية بين رئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين وزعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات في 13 أيلول/سبتمبر في حديقة البيت الأبيض في عهد بيل كلينتون. وعلى الرغم من أنها ليست معاهدة سلام بل مجرّد «إعلان مبادئ في شأن ترتيبات الحكم الذاتي الموقت»، تم الاحتفاء بأوسلو بصفة كونها اختراقًا، وكُرّم أطرافُها بمنحهم جائزة نوبل للسلام.

لم يهلل الجميع للأمر. فعندما اتصلت بصديقتي الصحافية الفلسطينية - الألمانية وسألتها عن تقويمها، أجابتني بجملة جافة: «لن يجلب ذلك أي خير». فالذين انخرطوا في الكفاح الطويل والشاق من أجل الدولة الفلسطينية نظروا إلى الأمر على أنه خيانة حقيرة وحسب. وقالت لي صديقة في عمّان تتحدر من أسرة فلسطينية مرموقة أن عمّها تضايق جدًّا لمشاهدته تلك المصافحة على التلفزيون فأصيب بنوبة قلبية ومات. وعرفتُ أن واحدًا آخر من عائلتها، وهو مقاتل فلسطيني بارز من أجل الحرية، قتله عملاء إسرائيليون في باريس قبل ذلك ببضع بسنوات.

شكلت أوسلو بالفعل عملة ذات وجهين مختلفين. نعم، يوجد بالفعل التزام خطّي لانسحاب إسرائيلي في النهاية من غزة والضفة الغربية بدءًا بأريحا، إضافة إلى إقامة سلطة حكم ذاتي فلسطيني موقت مع مجلس منتخب سيحكم الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية على مدى خمس سنوات. وتوجد بنود لمفاوضات على الوضع النهائي تبدأ بعد ثلاث سنوات ويجب أن «تؤدي إلى تطبيق قراري مجلس الأمن الرقمين 242 و338». لكن هذا يعني أن المسائل الأكثر تعقيدًا والأكثر دقة سياسيًّا، وهي «القدس، واللاجئون،

والمستوطنات، والترتيبات الأمنية، والحدود، والعلاقات، والتعاون مع الجيران الآخرين»، مؤجّلة إلى محادثات الوضع النهائي. وتم كليًّا تجاهل المسألة الأساسية المتعلقة بلاجئي 1948. وفي غضون ذلك، سُمح فحسب للسلطة الفلسطينية بتنظيم «التربية والثقافة والصحة والتأمين الإجتماعي والضريبة المباشرة والسياحة»، وبإنشاء شرطة قوية تفرض النظام والقانون، فيما تمارس سلطة الإحتلال، إسرائيل، السيطرة على «الأمن الخارجي والمستوطنات والإسرائيليين والعلاقات الخارجية» وإلى ما هنالك(104). وكان هذا، على ما سيسارع منتقدوه إلى الإشارة إليه، بعيدًا كل البعد عن إقامة الدولة الفلسطينية والتي تم تأجيل الأمل بها إلى مستقبل غير منظور.

ثم هناك الوجه الآخر للعملة. فقد احتوى الاتفاق بعض الأفكار المثيرة للاهتمام في «الملحقات الاقتصادية» عن كيف يمكن الطرفين بناء سلام دائم من خلال جهود مشتركة للتنمية. ودعا البروتوكول إلى التعاون في مجالات المياه والكهرباء والطاقة والمال والنقل والاتصالات والتجارة والصناعة. ويجب ترسيخ ذلك من خلال منظور تنموي إقليمي بمشاركة مؤسساتية من مجموعة الدول السبع ومنظمة التعاون والتنمية والعرب؛ وتم توقّع إنجاز مشاريع طموحة للإسكان والبنى التحتية. وبين المشاريع الملموسة التي تم تحديدها، القناة التي تربط بين البحر المتوسط والبحر الميت، ومعامل إقليمية لتحلية المياه، وشبكة كهرباء إقليمية، وما شابه(105). وبدا، في اختصار، كما لو ان الطرفين اتفقا على أن على التسوية السياسية أن ترتكز على أساس اقتصادي متين.

أذكر أنني كنت أشاهد التلفاز فيما الأفرقاء الأساسيون يلقون خطابات منمّقة. وقف وزير الخارجية شمعون بيريز على عشب البيت الأبيض بلسانه البليغ واعدًا بأن إسرائيل «ستدعم الاتفاق ببنى اقتصادية» و«تحول المثلث المرّ المؤلف من الأردنيين والفلسطينيين والإسرائيليين مثلّثًا من الظفر السياسي والبحبوحة الاقتصادية». وأمل بيريز في أن يودّع الطرفان «الحروب والتهديدات والبؤس الإنساني... والعداء». بعد ذلك بأيام أبلغ رابين تجمّعًا في تل أبيب أن تحقيق التقدم الاقتصادي أمر ملحّ. «إذا لم نحقق، إلى جانب تولّي السيطرة على الأمن والنظام العام، حلولًا اقتصادية تسمح للغزّاويين برؤية نهاية للنفق، فلن نكون وجدنا حلاًّ للمشكلة». وأضاف بإيجازٍ في القول أن «العالم لم يقدّم حتى الآن إلا دعمًا كلاميًّا للمسألة الفلسطينية». وأدرك عرفات أن بقاءه السياسي على المحكّ وأعلن: «لا أريد أن أكون مثل غورباتشيف»، الذي «أطلق سياسة البيريسترويكا لكنه افتقر إلى الموارد المالية واضطر إلى ترك المسرح». وقد عرف أن ما لم تموّل الولايات المتحدة وشريكاتها مشاريع البنى التحتية في الأراضي المحتلة وغزة فلن ينتج عن الاتفاق شيء.

احتلت المعضلة الاقتصادية رأس القائمة في ذهن الشخص الذي حثّني على الذهاب إلى غزّة، وهو الدكتور محمد ز. النشاشيبي المسؤول الفلسطيني الضالع في تطبيق الإتفاق. فالدكتور النشاشيبي كان حينذاك عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيسًا لقطاع الشؤون الإقتصادية والتخطيط، وأصبح لاحقًا وزيرًا للمال. ويتحدّر النشاشيبي، الذي التقيته في إحدى المناسبات الدولية في ألمانيا، من عائلة فلسطينية مرموقة. وهو سيّد متقدّم في السن يمتلك مظهرًا أبويًّا، أو بالأحرى جدّيًا، ساحرًا عايش السنوات التي كانت فيها منظمة التحرير الفلسطينية منظمة سرية. وهو يعرف من أين يأتي. تعلّم الهندسة، لكنه يفقه بعض الشيء في الاقتصاد ويدعم فرضية أوسلو القاضية بأن صياغة السلام غير ممكنة إلا إذا تعاون الطرفان سريعًا وفي شكل منظور في تحسين ظروف حياة الفلسطينيين. وعندذاك فحسب ستصبح لدى العدد الأكبر من السكان، الذين أبقوا على مدى ثلاثة أجيال في مخيمات بائسة للاجئين، الثقة بأن التغلّب على العلاقة العدائية سيجلب فوائد ملموسة، الآن وفي المستقبل.

أجرينا نقاشات واسعة في غزة في هذه المسائل. ووّد لو أن في إمكانه التجوال بي حول المدينة، واعتذر لعدم تمكنه من ذلك لأنه لا يمكنه أن يُشاهد في سيارة مع امرأة ليست زوجته. وشرح: «غزة مدينة محافظة جدًّا». فقلت له وأنا أضحك: «لا مشكلة في ذلك»، وأنا أتساءل بيني وبين نفسي ما الذي يمكنه أن يريني إياه في هذا المكان البائس. وشكرته وأنا أذكّره بأن هدفي الأساس الحصول على بعض الفهم العميق للمسائل السياسية والصراع السياسي عليها والبعد الذاتي للمشكلة. فكل ما يمكنه فعله لمساعدتي في هذا الشأن ستكون له قيمة أكبر بكثير من الجولة الكبيرة حول المدينة.

لم تراود النشاشيبي أوهام في أن السلام يمكن أن يأتي بالشكل السهل. فرفع مستويات المعيشة يتطلب إنفاقات ضخمة على البنى التحتية الأساسية والتكنولوجيا المتقدمة. جلس قبالتي وهو ينحني إلى الأمام على كرسي من الخيزران في بهو فندقي المتواضع، ويؤشر على أصابع إحدى يديه إلى أسس مثل تلك المقاربة: الماء، الطاقة، النقل، التربية، والصحة. وورد الكثير من هذه العوامل في الملاحق الاقتصادية لأوسلو، وقد دعمتها لوائح من المشاريع المحددة الكبرى على المستويين الثنائي والاقليمي. وشكّلت المياه، وهي الشرط الذي لا بد منه للحياة الإنسانية، الأولوية الأولى في الصناعة والزراعة والمنازل. ولم يمكنني إلا أن أهزّ رأسي موافقة عندما استذكر أن النقص في المياه المناسبة هو الذي فاقم النزاع في النهاية. أليست الحال أن مصادر المياه التي استجرّتها إسرائيل لشبكتها الوطنية جاءت من المياه التي تم الوصول إليها بعد حرب 1948 العربية - الإسرائيلية؟ ألم يفتح احتلال 1967 لغزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان (بحيرة طبريا) منابع جديدة أمام

إسرائيل؟ ألم يكن نهر الليطاني ذا علاقة بحرب لبنان في 1982؟ فللمياه، تقريبًا، علاقة بكل الحروب التي خاضتها إسرائيل ضد العرب وليس الأرض وحسب. ولكن وبحلول أوائل التسعينيات، أخذت منابع المياه هذه، وبخاصة الآبار الجوفية، في الاجتفاف. ويتضح، بالتالي، أن الخطوات التي وُضعت خطوطها العريضة في ملحقات أوسلو الاقتصادية كانت حيوية وبخاصة عمليات تحلية المياه في المنطقة وغير ذلك من مشاريع المياه التي لُحظت في الملحق الرابع(106). والسؤال الذي طرح نفسه هو: كيف تترجم هذه المقاطع الواردة في صفحة واقعًا في غزة والضفة الغربية؟

وقضت إحدى الأفكار الرائجة في ذلك الوقت باستخدام الطاقة الذرية لتشغيل معامل التحلية. وهي ليست بالفكرة الجديدة. فقد ناصر الرئيس الأميركي آيك أيزنهاور استخدام الطاقة النووية للتحلية في مخطط أطلقه (ليس بالمصادفة) بعد أيام فقط على انتهاء حرب 1967. ففي «اقتراح لعصرنا»، توسع أيزنهاور في سياسة «الذرة من أجل السلام» التي أطلقها في خطاب رائد في الأمم المتحدة في 1953 (107). وقضت فكرة آيك، بصفة كونها آلية لصنع السلام، ببناء مصانع نووية في كل من ميناء العقبة على البحر الأحمر وفي موانئ أخرى في البحر المتوسط لتشغيل معامل التحلية وكذلك لتوليد الكهرباء. والآن، وبما أن أوسلو يفترض به وضع السلام في الروزنامة، أعيد إحياء الفكرة بصفة كونها خيارًا واقعيًّا. وتحمّس النشاشيبي لهذا الإمكان الذي قال لي لاحقًا إنه شرع في درسه مع اللجنة العربية للطاقة الذرية. وهو سيصبح من أشد المروّجين للفكرة يناقشها في أسفاره إلى الصين وجنوب أفريقيا اللتين اشتهرتا بتكنولوجيا المفاعلات المتطورة Pebble Bed Reactor التي طورها الألمان. وكانت بكين وبريتوريا مؤيدتين للسلام العربي - الإسرائيلي وتمتلكان السبل للإسهام في نقل مثل هذه التكنولوجيا.

فهل توافق إسرائيل؟ ظهرت مقالة لشمعون بيريز في منشورة «إكوي إي تيري» الإيطالية يقدّم فيها دعمًا كلاميًّا لمفهوم التحلية الذرية في المنطقة. لكن تحذيره كان بوجوب وضع مثل هذه المفاعلات الذرية في «جزر دولية» لضمان السلامة، أو بعبارات أخرى لضمان عدم وصول الفلسطينيين أو غيرهم من العرب إلى تكنولوجيا ذات تطبيقات عسكرية. وقد أصبح سرًّا شائعًا أن إسرائيل تمتلك بالفعل قوة نووية مع مفاعل في ديمونا وترسانة غير رسمية من مئات عدة من الرؤوس الحربية النووية. وبيريز هو والد الجهد النووي الذي يعود إلى 1948. ولو ان إسرائيل منفتحة حقًّا على مفهوم الاستخدام السلمي للطاقة الذرية للتنمية، لأصبح الأمر ممكنًا، لكن ما من أحد يستطيع قراءة ذهن بيريز.

اهتم الأردنيون أيضًا بالمسألة. وسنحت لي الفرصة أوائل 1994 بأن أجري مقابلة مع سمو الأمير الحسن بن طلال، وكان يومذاك وليًّا للعهد، والأهم أنه تولّى مسؤولية المسائل المتعلقة بالتكنولوجيا والتطوير. والحسن، وهو مهندس، دعم في ما هو للنشر خيار التحلية النووي. وهذه أمر مثير للاهتمام لأن سموَّه منخرط في تنظيم المؤتمرات في شأن المعالم الاقتصادية للسلام في الشرق الأوسط(108).

انفتح أردنيون آخرون على الفكرة. وقد جلست في الوقت نفسه تقريبًا في ندوة خاصة مع اقتصاديين فلسطينيين وأردنيين ركّزت على هذا وغيره من المشاريع المتعلّقة بالمياه - ليس على الأوجه الاقتصادية وحسب، بل أيضًا على الأبعاد الثقافية/الأخلاقية للرؤية التنموية الحقيقية. وقضت إحدى الأفكار المدرجة في الروزنامة بإنشاء مركز للأبحاث الذرية في غزة من شأنه أن يحفّز أذهان الشبان الفلسطينيين ويحثّهم على أن يصبحوا علماء لتطوير بلادهم. وذكّرني ذلك بما فعله كنيدي في الولايات المتحدة بتعهّده إنزال رجل على القمر، وأعرف ما يعنيه ذلك بالتعبير الأخلاقي للجيل الأكثر شبابًا. ولم يكن النشاشيبي وحده بين الحاضرين في الندوة الذي تأثر بمثل هذه الفكرة السامية.

وعلاوة على تلك الاقتراحات المحدّدة، لم تكن هناك ندرة في الأفكار الاقتصادية. بل على العكس، انصب عمل مؤسسات متعددة، على مر السنين، على سبل معالجة التحدي الذي يفرضه بناء الاقتصاد الفلسطيني ومواجهة أزمة المياه خصوصًا(109).

وماذا حدث عندذاك؟ لماذا لم تتحقق رؤية الدولة الفلسطينية هذه؟ لأنها، وفي بساطة، لم تناسب أذواق أصحاب المصالح المالية والسياسية القوية الموجودين في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وإسرائيل الذين عارضوا بقوة عدائية ولادة دولة فلسطينية ذات اقتصاد صناعي مزدهر ومتقدّم. فقراءتهم لأوسلو هي أن على الفلسطينيين أن يوافقوا على العمل كعبيد على طراز بانتوستانات افريقيا من أجل منفعة السيد الإسرائيلي الاقتصادية والأمنية.

وشكّل البنك الدولي المؤسسة الرئيسة التي قامت بحملة من أجل سياق اقتصادي مضاد كلّيًّا. فعلى الأثر الفوري لتوقيع اتفاق أوسلو في أيلول/سبتمبر 1993، أقحم اقتصاديو البنك الدولي أنفسهم من دون تكليف في وضع سياسة السلام الاقتصادية الخاصة «بهم». بدا الأمر كما لو ان الضيوف غير المدعوّين إلى الحفلة هم الذين يتولّون تحضير قائمة الطعام وبرنامج الترفيه. وأملوا، في تقرير أنجزوه في كانون الأول/ديسمبر من تلك السنة، بأن على مؤسستهم الجديرة بالتمجيد أن تدير الأموال التي يخصصها «المجتمع

الدولي»، وبأن توضع الاستثمارات في أماكن مختلفة تمامًا عن تلك التي لحظتها الملحقات الاقتصادية. وعلى سبيل الفكاهة، أعلن تقرير البنك الدولي أن المشاريع الكبرى ستتمتع «بأولوية منخفضة»، وأن وحدها المشاريع الصغيرة الحجم التي تعتمد العمالة الكثيفة هي التي ستحظى بالتمويل(110).

لم ينبت للنشاشيبي، على رأي الإيطاليين، شَعرٌ على لسانه عندما تعلّق الأمر بانتقاد سياسات البنك الدولي أو البعثات التي لم يكف عن إيفادها إلى غزة. وسمعته، في زيارة لاحقة، يشكو ليس فحسب من أن الموظفين الذين يتقاطرون إلى غزة مرتين في الشهر وينعمون بحساب مصروف بقيمة ألف دولار في اليوم - مبلغ يستحيل فعلًا صرفه في المدينة الفقيرة - بل أيضًا من أنهم يمضون أيامهم مستغرقين في دراسة السجلات المالية للسلطة الفلسطينية، وهم يقارنون أرومات الشيكات بالفواتير، بزعم منع «الفساد» بدلًا من التعامل مع مهمة التنمية.

والأكثر تدميرًا كان رفض البنك الدولي الشديد تمويل بناء المساكن، وهو الشرط المسبق لتحسين مستويات المعيشة. وعرفتُ من النشاشيبي بوقوع صدام صريح بين المقاربات في اجتماع البنك الدولي في 20 أيلول/سبتمبر 1993. فقد شدد الفلسطينيون على الحاجة إلى تطبيق خطة عشرية بأبعاد أكبر من تلك التي يريد البنك الدولي تخصيصها. ورد البنك الدولي بزيادة التزامه من 350 مليون دولار إلى 550 مليونًا في السنة. لكنه تجاهل كلّيًّا المتطلبات التي تفرضها عودة لاجئي حرب 1967 من حيث الإسكان والبنى التحتية والتربية. أما بالنسبة إلى لاجئي 1948، فلا وجود لهم. امتلكت السلطة الفلسطينية خطة تنمية من سبع سنوات تُقدّر بـ 11,7 مليار دولار، خصصت منها ستة مليارات - نحو مليار في السنة - للإسكان. لم يأخذ البنك الدولي ذلك في الحسبان، مع أن هناك حاجة ملحة إلى مئتي ألف وحدة سكنية للفلسطينيين الذين ليس فوق رأسهم سقف.

كان النزاع السياسي بين البنك الدولي والفلسطينيين مبدئيًّا وباطلًا ويدور على حجم الاستثمار ومصدره والغاية منه. واشتكى النشاشيبي من أن البنك الدولي «مهتم أساسًا بالقطاع العام»، ويرتئي بأن «على القطاع الخاص أن يموّل السياحة والزراعة والصناعة - بل وحتى الكهرباء والطاقة». وأضاف، في حزن، أن عملاق التمويل الدولي «لم يشر حتى إلى ميناء غزة أو إلى المطارات، ولا إلى معمل الإسمنت على مقربة من الخليل الذي يمكنه إنتاج ستمئة ألف طن في السنة»(111). بل أن المبالغ الزهيدة التي قد يوفّرها البنك الدولي نفسه ستُعدُّ قروضًا وقد ركّز اهتمامه الأول على ضمان سدادها سريعًا. أخذ في الواقع يفرض الشروط نفسها التي فُرضت على دول ما بعد الاتحاد السوفياتي، وهي المعاملة التي - تلقاها غورباتشوف والتي حذّر منها

عرفات. أما بالنسبة إلى السياسة العمالية فقد حبّذ البنك الدولي مخططات لاستخدام عدد كبير من العمال بزعم توفير فرص العمل. لكنه أحجم في الوقت نفسه عن تنظيم مشاريع بناء كتل سكنية من شأنها أن تستوعب اليد العاملة الماهرة في وقت الذي تمنح العائلات منازل محترمة.

ودار نزاع كبير من وراء الكواليس في شأن هذا الصدام السياسي. تشوّق الفلسطينيون للتشمير عن سواعدهم والشروع في العمل على بناء البنى التحتية، فيما أصر البنك الدولي على أن الأموال يجب أن تحوّل لتأهيل «البنى التحتية الموجودة». وبحسب ما شاهدت خلال زياراتي لغزة فإن البنى التحتية لم تكن موجودة ليتم إصلاحها. وأذكر أن طريقًا رئيسة واحدة وثلاث طرق فرعية أخرى كانت معبّدة فيما الطرق الباقية كلها ترابية، ولا أرصفة، ولا شيء. ويوجد فندقان صغيران بسيطان إذا لم نقل متقشّفين. كان الفندق الذي نزلت فيه مريحًا ونظيفًا، لكنه خال من التدفئة حتى في الشتاء، ويفتقر إلى الهاتف. ولا توجد في المدينة مبان سكنية؛ بل أقام الناس في الأكواخ المنحدرة الأسطح المعدنية المصنوعة من الخردة. وهم المحظوظون لأنهم، على الأقل، ليسوا محصورين في مخيم اللاجئين. ويشكل الحمار وسيلة النقل الأساسية. وكان الأطفال يبيعون الخضر متجولين أو يقومون بالتسليم بعربات يجرها الحمار. ويلعب الآخرون، العاطلون من العمل، وسط الركام في المساحات المقصوفة التي انتصبت فيها المباني في ما مضى(112).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مسخرة الإنماء الشرق الأوسطي

أخذ الفلسطينيون يطالبون بتلبية الحاجات الأساسية، لكنهم تحدّثوا بلغة ادعى البنك الدولي أنه لا يفهمها. وتصاعد النقاش خلال 1994 أن على السياسة الإقتصادية أن تشكل محرّكًا للسلام. وعقد الأردن، تحت ضغط دولي عظيم، صلحًا منفردًا مع إسرائيل افتُرض بالتقدّم الإقتصادي أن يشكّل سندًا له(113).

اجتمع، أواخر 1994، أول استعراض من استعراضات الاجتماعات الدولية لدراسة أسس السلام في الشرق الأوسط. وشبهتُها، في إدراك متأخر، بعروض الأزياء المتنقّلة التي يعرض فيها مصممو «الهوت كوتور» عارضاتهم الفاتنات وهم يبحثون عن الكسب المادي وعن التغطية الصحافية المبالغ بها أكثر من سعيهم إلى أي شيء آخر. وعُقد أول من هذه اللقاءات في الدار البيضاء، في المغرب، في تشرين الأول/أكتوبر وجمع ممثلين من ستين دولة. وبين منظمي مؤتمر الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هذا هناك المنتدى الاقتصادي الدولي، والذي يُعرف أيضًا بمنتدى دافوس، وهو بالتأكيد ليس بالجمعية الخيرية. فهؤلاء هم صفوة المصرفيين وغيرهم من العاملين في القطاع المالي الذين اعتقدوا أنهم يديرون العالم، وهم أنفسهم الذين يجتمعون كل سنة في منتجعات سويسرا الثلجية الراقية لإسقاط سياسية يفرضونها من ثم على الحكومات. هذا هو مجتمع أمثال جورج سوروس وروبرت مردوخ وستيف فوربس الذين ينصبّ همّهم الأول في حيّز المكاسب السريعة من خلال المغامرات في المضاربات وليس في الإقتصاديات التقليدية ذات المنطق السليم التي تُوجّه لتوليد نمو منتج.

وهكذا تدفق المشاركون من المنطقة على الاجتماع يحدوهم الاقتناع الساذج بأن في وسعهم تضمين اهتماماتهم في الروزنامة العالمية وتحقيق شيء ما منها. ووضع الفلسطينيون آمالهم في أول برامج التنمية الرسمية وهي كناية عن مسودات حسنة التنظيم للبنى التحتية الأساسية، بما في ذلك مرفأ غزة ومطارها، والطرق المناطقية الرئيسة، ومحطة غزة لتوليد الطاقة والتحلية، ومصفاة غزة، وخطوط أنابيب الغاز والنفط من مصر إلى غزة إضافة إلى مشاريع القناة الرئيسية(114).

جاء الإسرائيليون ببرنامجهم إلى الدار البيضاء يعرض لمشاريع القناة ومحطات الطاقة والضخ المتعلقة بها. غير أن محور تقريرهم الذي يقع في 250 صفحة كان «بنك التنمية الشرق الأوسطي» الذي رأوا فيه شرطًا مسبقًا لتمويل المشاريع(115). وتوقّع المشروع استثمارات على مدى خمسة أعوام وعشرة، تُراوح بين 18 مليار دولار و27 مليارًا، ليس في فلسطين بل في المنطقة ككل.

وصل الأردنيون يحملون أيضًا وثيقة وضعت مسودتها وزارة التخطيط(116). وقد ركّزت على حاجات الأردن، وعلى المياه أولًا وقبل أي شيء، واقترحت إجراءات لزيادة الإمداد بما في ذلك التحلية وجمع مياه المطر ومعالجة مياه الصرف وما شابه. وعُرض أيضًا مشروع قناة البحرين الأحمر والمتوسط، الذي يستفيد منه الأردن في شكل مباشر، إلى جانب خط أنابيب السلام لنقل المياه من تركيا ونظام لتزويد الأردن مياه الفرات.

افتتح مؤتمر الدار البيضاء واختتم بالطبل والزمر، وسار العارضون على المنصة وتلقوا التصفيق المناسب. نوقشت أفكار مهمة، ولكن لم ينتج الكثير بعبارات التقدم الملموس، وشاع الانتقاد. اتُهم الإسرائيليون، الذين يُدعون للمرة الأولى إلى منتدى مع العرب، بـ «المبالغة الشديدة» لأنهم حشدوا بعثتهم بدزينة من وزراء الحكومة ورجال أعمال أعدادهم بالمئات. تم تبادل الكثير من بطاقات الزيارة، وحصلت الصحافة على تخمة من الفرص لالتقاط الصور، ولكن، وعلى حد تعبير الإيطاليين، وُجد الكثير من النكهة والقليل من الشواء.

كاد اجتماع الدار البيضاء يصادف الذكرى الأولى لاتفاقات أوسلو، وعلى المرء، في تقويمه التقدم الذي أُحرز، أن يستخلص بأنه كان أقل من مذهل. وسبق لعرفات أن قام في تموز/يوليو بعودة دراماتيكية إلى غزة وأريحا بعد 27 سنة في المنفى، واستقبله عشرات الألوف من أبناء وطنه الفلسطينيين المتحمّسين. تعهّد عرفات المضي عبر مدن رئيسة كبرى أخرى في الضفة الغربية مثل نابلس وجنين وطولكرم وبيت لحم ورام الله إلى أن يصل أخيرًا إلى القدس «للصلاة هناك»، لكنه اعترف بنفسه بنقائص الاتفاق المبرم مع إسرائيل. وقال للغزاويين، وهو يشير إلى التخريب على التقدمات الإقتصادية: «أرفض كلّيًا أي سيطرة من أي كان على الحكم الذاتي الفلسطيني إلا من الفلسطينيين أنفسهم. فنحن لم نتخلص من الاحتلال العسكري لنقع تحت الإحتلال الاقتصادي». واشتكى من «تبخُّر كل وعود المانحين» على رغم كل المليارات التي تم تعهدها. وردد كبير المفاوضين الفلسطينيين نبيل شعث صداه قائلًا إن الأمر كله كان كناية عن «وعود، وعود، وعود».

ولم يُخصّص، في حقيقة الأمر، سوى 30 مليون دولار من الـ 2,8 مليار دولار الموعودة للبنى التحتية الأساسية في غزة، وخصصت 20 مليون دولار أخرى للضفة الغربية لكنها لن تُدفع إلا بعد تولي الفلسطينيين السلطة. وكانت الانعكاسات السياسية واضحة. وكما سبق لعرفات أن حذّر، سينمو التطرف في غياب التقدم السريع الواضح. وبعد سنة على أوسلو أظهر أول استطلاعات الرأي استمرار الدعم لعرفات غير أن 11 في المئة من المُستَطلعين أيدوا حماس.

كنت حينذاك في عمان وسنحت لي الفرصة لإجراء مقابلة مع محمد النزال عضو المكتب السياسي لحماس وممثلها الرسمي في الأردن منذ 1992. جلس الشاب الملتحي، ببطنه الأكرش الآخذ في النمو، مرتاحًا في مكتبه الفخم نسبيًّا متحدثًا عن دافع حركته في رفض أوسلو. وقال: «نحن، كما تعلمين، ضد اتفاق غزة - أريحا لأننا اعتقدنا (ولا نزال نعتقد) أنه مخالف للتطلعات الفلسطينية... ولا نعتقد أنه يحل مشاكلنا. ويمكننا القول، بعد مرور سنة، إن موقف حماس محق وموقف الآخرين خاطئ». وسألته: لماذا؟ أشار إلى الوضع الاقتصادي «السيئ جدًّا» في غزة، مضيفًا أن «الأمر الوحيد الذي فعلته السلطة الفلسطينية هو تنظيف المدينة. وما من شيء آخر. ما من مشاريع». وقال إن القوات الإسرائيلية لم تفعل سوى إعادة الانتشار ولم تنسحب وبقي المستوطنون. وكان توقّعه رهيبًا: المقاومة ستكبر وسيواصل الفلسطينون الكفاح من أجل «الحرية والاستقلال» لا «من أجل المال». وتكهّن «في حال حصول انتخابات عامة حرّة تشارك فيها حماس، أن حماس ستفوز، على ما أعتقد». كان ذلك في خريف 1994...

لم تكن تلك دعاية من حماس بل تقويم عادل للوضع. ولما عدت إلى غزة في آذار/مارس 1995 اعترف لي مسؤولو السلطة الفلسطينية بأنها منطقة منكوبة. وقال عضو في اللجنة المركزية إن «غزة كانت زمن اتفاقات أوسلو أكثر بقليل من كومة هائلة من النفايات. وأصبحت بعد ذلك مدينة وسخة جدًّا، جدًّا، جدًّا، جدًّا، جدًّا. وهي الآن مدينة وسخة جدًّا، جدًّا». وكان مشروع وحيد فقط يعمل وهو معمل إدارة النفايات الصلبة ومعالجتها بناه الألمان وموّلوه من خارج قنوات البنك الدولي. وقُدّر عدد سكان غزة ما بين 850 ألفًا ومليون، يعيش 35 في المئة منهم في مخيمات للاجئين تابعة للأونروا. لم تُبن مساكن جديدة، إذ إن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي رفضا الاقتراح بإنشاء بنك فلسطيني للاسكان. وقال لي وزير العدل الفلسطيني فريج أبو مدين إن البطالة في غزة وصلت إلى 60 في المئة وبالتالي «يسهل تجنيد شخص ما في مقابل خمسين دولارًا لالقاء قنابل يدوية». وأطلق توقّعًا متشائمًا بعدما وضع اللوم على البنك الدولي وغيره من «المؤسسات الدولية» في استمرار البؤس: «أوسلو إلى الانهيار وستسقط عملية السلام كلها إلى الجحيم خلال ثلاثة أشهر أو أربعة إذا لم تتبدّل الأمور».

وما شاهدته في تلك الرحلة في غزة أكّد لي أنهم لا يبالغون. تم تنظيف الطرق المعبّدة القليلة، وانكب العمال على وضع بعض حجارة الرصيف، وبدا المكان أقل قذارة بعض الشيء. وبغض النظر عن بعض رجال الشرطة الفلسطينيين الذين يمتطون دراجاتهم النارية الجديدة البراقة - المثال المحتذى للأولاد الذين لا يزالون يرفعون إشارة النصر أمام الأجانب - استمرت العربة التي يجرها الحمار وسيلة النقل الأساسية، والناس يقيمون

في مساكن موقتة حيث يحتشد ثمانية أشخاص أو عشرة في غرفة واحدة من دون مياه جارية أو كهرباء. إنها كناية عن مدينة أكواخ شاسعة. أما بالنسبة إلى بعض المشاريع الإسكانية الجديدة فهي في الغالب من تمويل فلسطينيي الشتات، وارتفع الفندق المعاصر على الوقت لاستقبال الرئيس عرفات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأردن تحت وابل من الانتقاد

سافرت إلى عمّان صيف 1995، بسبب مؤتمر المتابعة الذي يتم التحضير له في العاصمة الأردنية بعد سنة على الدار البيضاء، وأردت الحصول على فكرة عن التقدّم الذي تحقق، في حال وجود تقدّم. شكّلت زيارتي في تموز/يوليو تجربة موقظة. والصورة التي كوّنتها من عشرات من أعضاء الحكومة ورجال القطاع الخاص هي في إعادة تحديد التوقعات وخفضها. فأوّلًا، لم يأتِ السلام، الذي تم الترويج له كثيرًا بين الأردن وإسرائيل والموقّع في تشرين الأول/ أكتوبر 1994، بأي «حصة من أرباح السلام» للشعب في المملكة الهاشمية، وبقي دخل الفرد السنوي 1،500 دولار. وكل ما أنجزه كان في قطاع الخدمات كما أمكنتني مشاهدة ذلك بأم العين: أخذت الأبنية الجديدة تنبت في المدينة كالفطر، لكنها مصارف وفنادق وما شابه. وحده مشروع البنى التحتية يتم العمل فيه، وهو مشروع خطة «ديزي» لتنويع مصادر المياه الذي تُموّله ألمانيا لسحب المياه الجوفية على مقربة من الحدود السعودية للاستخدام المنزلي في عمّان. وبقيت خرائط السدود على نهري اليرموك والأردن، على غرار مشاريع القناة، على لوحات الرسم ولكن لم تخصص لها أي أموال.

خفض الأردنيون، تحضيرًا لمؤتمر دافوس المقبل، عدد المشاريع التي قدّموها في المغرب إلى 27، وخفضوا الاستثمار المرغوب فيه إلى 3,7 مليارات دولار والقوا بكل شيء على عاتق القطاع الخاص. وسيكون عدد القطاع الخاص كبيرًا بين المدعويين أملًا في أن يأتوا معهم بدفاتر شيكاتهم المملوءة بالمال. بل أنه أصبح على القطاع الخاص، بين المشاريع المطروحة على البحث، تمويل خطوط السكة الحديد. واستحوذ القطاع السياحي على حصة الأسد في لائحة المشاريع المرغوب فيها حيث سيتم السعي إلى استثمارات بقيمة مليار دولار. وسيتضمن ذلك مشاريع على البحرين الأحمر والميت - ليست القنوات المخصصة لإدارة المياه، بل مشاريع سياحية فخمة تتضمن بناء فنادق باهظة. إلا أن الخبر الأكثر مدعاة للقلق أن بنك التنمية الشرق الأوسطي الذي عوّمه الإسرائيليون في الدار البيضاء سيبصر النور في اجتماع عمّان.

توافق هذا الانتقاد مع الاستياء الواسع من السلام مع إسرائيل. إذ شرع صندوق النقد الدولي في شد الخناق على الأردن الغارق في الديون واشترط عليه، لمساعدته ماليًّا، إجراء تغييرات تشريعية. وواجهت الخصخصة وتحرير أسعار البضائع الإستهلاكية المنزلية وفتح باب العقارات في البلاد أمام تملّك الأجانب كلها معارضة شعبية. غير أن الذين رفعوا أصواتهم في العلن تلقّوا ضربة على الرأس. فقد أجبر الملك حسين أحد الأعيان الذين انتقدوا معاهدة السلام على الاستقالة. ووُجدت شخصية قيادية أخرى أرسلت فاكسات إلى

الملك (وغيره) ضد معاهدة السلام مقتولة. وتعرّض ليث شبيلات، الشخصية السياسية البارزة - وهو في الواقع العضو الإسلامي القيادي في مجلس النواب والمنتقد الشديد لاتفاقات السلام - لهجوم علني من الملك لأنه شكك في محاضرة عامة في طريقة تعاطي القصر مع عملية السلام. وأصدر وزير الثقافة أمرًا بشن الهجمات اللاذعة عليه وهو ما تولت صحف البلاد عرضه في صفحاتها الأولى. وبما أنه واجه مشاكل سابقة مع القصر الملكي، من جراء انتقادات مماثلة، دين وسجن ثم أعفي عنه. وقد شكل هذا الهجوم الجديد نذيرًا سيئًا(117).

وكانت إحدى الخطوات التي أثارت الانتقاد الشديد سابقًا معارضة شبيلات الصاخبة لعاصفة الصحراء وتضامنه مع العراقيين. وقد ساند كلّيًّا لجنة انقاذ اطفال العراق، وتدبّر لي أن اتحدّث عن هذه المبادرة في عمان. وأصبحنا، في سياق هذا التعاون زميلين ثم صديقين طيبين. ولما التقيته خلال زيارتي في تموز/يوليو 1995، وجدته قلقًا جدًّا في شأن الوضع في بلاده، وأصرّ على حقه في حريّة التعبير. فقد سجلت شعبيته في الأردن ارتفاعًا جديدًا. إذ إن كل الذين تحدّثت إليهم، وبينهم حتى مسؤولون حكوميون، فتحوا موضوع القضية من دون سؤال وأعربوا عن رأيهم في وجوب السماح له بالكلام لأنه الوحيد الذي يمتلك الشجاعة لقول ما يفكر فيه معظم الآخرين. (118)

تأكد أسوأ مخاوفي - وتوقعات ليث - مع انعقاد القمة في تشرين الأول/أكتوبر في عمّان. شكّلت مسألة فاخرة كما يليق بالبلد ذي النظام الملكي المضيف. فقد عُقد مؤتمر الشرق الأوسط وشمال افريقيا، الذي نظمته دافوس أيضًا، تحت رعاية جلالة الملك الحسين بن طلال وترأسه شقيقه ولي العد الأمير الحسن بن طلال. لكن ليس هذا مكمن المشكلة. فنحو نصف الضيوف الألف ومئتين الذين دعتهم دافوس يمثلون القطاع الخاص مع فائض غير صحّي من المصرفيين. وسبق أن شوهد الكثير من الوجوه في الدار البيضاء، ولكن أنه وجد هذه المرة ممثلون سياسيون أرفع مرتبة نظرًا إلى ان الرئيسين بيل كلينتون وبوريس يلتسين تشاركا في الرعاية، كما يليق بالأمر، مشاريع التنمية الطموحة في الدار البيضاء مشاريع سياحية متألقة. ومن قبيل ذلك أعلنت عن صفقة كبرى بقيمة 5,4 مليار دولار بين إسرائيل وقطر تسلم بموجبها قطر الغاز الطبيعي لإسرائيل، وقد احتلت العناوين. وهي ستزوّد إسرائيل الغاز ليس إلا. غير أن شركة الطاقة الإيطالية «إيني»، وهي الشركة التي أسسها إنريكو ماتيي والتي كانت السباقة في التعاون مع المنتجين الإيرانيين والعرب في سنوات 1950، طرحت اقتراحًا أكثر مدعاة للاهتمام وأكثر انتاجية على الصعيد الإقتصادي. فستقوم من خلال «مشروع غاز الشرق» بمد البنية التحتية لخطوط الأنابيب التي ستزود ليس إسرائيل وحسب بل أيضًا تركيا ولبنان والفلسطينيين والأردن وسوريا الغاز من مصر ومن منتجي الجوار،

وتوفّر القاعدة لتوليد التنمية الصناعية على امتداد طرقها. ولم أفاجأ لرؤية رئيس إنرون كنيث لاي، صديق جورج بوش الابن، يشير بإبهامه نزولًا ضد مشروع «إيني»، متمتمًا أنه «ليس مقدّسًا».

في غضون ذلك، شن المحافظون الجدد، زمرة السوق الحرة، المعركة من وراء الكواليس وربحوها. وكان بين المتحدثين الأساسيين أشخاص من أمثال ستانلي فيشر من صندوق النقد الدولي، ورئيس الاحتياطي الفديرالي السابق بول فولكر، ورئيس المنتدى الاقتصادي العالمي كلاوس شواب.

وحضر من الولايات المتحدة دنيس روس، مبعوث إدارة كلينتون الخاص إلى الشرق الأوسط في ذلك الحين والذي سيعود إلى الإدارة في 2009 بصفة مستشار. وحاضر روس في الموجودين، وإلى جانبه امرأة بغيضة جدًّا، في محاسن بنك التنمية الشرق الأوسطي الإسرائيلي الذي، وبخلاف اسمه، سيدير تمويل مشاريع لا فائدة منها قط. ولما طرحتُ الأسئلة عن تكنولوجيات الطاقة المتقدّمة، بما فيها التكنولوجيا الذرية، بدا كما لو انني تلفظّت بكلمة بشعة. امتقع لون روس وصديقته، ورفض أي مفهوم من هذا النوع بحجة أنه مناف للمعقول.

حضَّرت، بعد انتهاء المؤتمر في 31 تشرين الأول/أكتوبر، عددًا من المقابلات المتابعة للحدث للأيام التالية. ودُعيت في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر إلى العشاء مع ليث وزوجته ريما وأخبرتهما عن الحدث. وتناولنا، على رغم خيبة أملي من الاجتماعات، طعامًا عربيًّا شهيًّا مع لمسة احتفالية إضافية. فقد صودف أنهما يحتفلان بذكرى لقائهما الأول منذ سنوات كثيرة سابقة. وقد أصبحت لديهما الآن عائلة كبيرة. وكان من غير الوارد تناول الشامبانيا، ولكن ليس نفسًا أو نفسين من النارجيلة. عادا بي إلى الفندق بعد تلك الأمسية الرائعة حيث تبادلنا الوداع الحار بما أنني سأسافر إلى فرانكفورت في الصباح التالي.

دُهشت بدخولي الفندق للتعبير الظاهر على وجه موظف الاستقبال وهو يسلمني مفتاحي ورسالة هاتفية. بدا كما لو انه رأى شبحًا. لم أفكر كثيرًا بالأمر وصعدت إلى غرفتي وأنا أخطط لتوضيب أغراضي استعدادًا للمغادرة. ما إن فتحت الباب حتى رن جرس الهاتف. كان فؤاد حسين، الصحافي الفلسطيني صديق ليث، وهو الذي سبق أن اتصل وترك الرسالة. طلب مني بصوت خفيض جدًّا ونبرة كئيبة أن أدير جهاز التلفزيون إذ أطلقت النار على إسحق رابين. أدرت التلفزيون، وأنا غير مصدّقة، لأجد تأكيدًا للنبأ. قُتل رابين، زعيم عملية السلام في أوسلو، برصاص إيغال أمير(119). وإذا كانت فداحة السياسة الاقتصادية التي ظهرت في مؤتمر الشرق الأوسط وشمال افريقيا تخنق عملية السلام، فإن اغتيال رابين كان بمثابة الضربة القاضية لها.

طرت في اليوم التالي إلى فرانكفورت، وكانت ذكرى زواجنا، إلا أنني ومايكل لم نكن في مزاج للاحتفال.

ولم تكن عمّان نهاية القصة. فقد حضرت اجتماعًا دوليًّا آخر ليس على ارتباط مباشر بالشرق الأوسط ولكن يُفترض أن يوفّر معلومات على المستوى الإقتصادي. كانت تلك بداية المجموعة اليورو - متوسطية، التي تضم الإتحاد الأوروبي ودول الشرق الأوسط وشمال افريقيا. وإذا كانت عمان أدَّت دور القابلة القانونية لولادة بنك التنمية الشرق الأوسطي، فبرشلونة ستؤذن بمنطقة تجارة حرة في المتوسط بحلول 2010. أما الأمور المعروضة للبحث بالنسبة إلى البنى التحتية فأقل بكثير. وتم بعض الإشارة إلى تحسينات في المطارات والمرافئ البحرية بين الدول المشاركة، لكن ما من إشارة، على سبيل المثال، إلى خطوط السكة الحديد التي ستربط شمال أفريقيا بالشرق الأوسط وهو ما درسه بعض الوكالات البعيدة النظر. وعندما طرحت هذا السؤال في مؤتمر صحافي، رفعت وزيرة الخارجية الإيطالية سوزانا أنييلي يديها في حركة مسرحية من عدم التصديق. وصاحت «خطوط السكة الحديد؟ نحن في المتوسط، ونتحدث عن منطقة محيطة بالبحر. هذه مياه. لا يمكنك استخدام القطارات لعبور البحر!»

أدى هذا الفشل في دعم تعهدات السلام برنامجًا اقتصاديًّا سليمًا، في ثلاثة اجتماعات دولية، حتمًا إلى احتكاكات سياسية بسبب الغياب التام لحصة الأرباح من السلام. والمؤكد هو أن إسرائيل اختبرت ارتفاعًا في الاستثمار الخارجي من كانون الثاني/يناير إلى تشرين الثاني/نوفمبر 1995، ولكن لم يحدث أي شيء مشابه في الأردن أو في الأراضي الفلسطينية. إرتفعت مداخيل الأردن من السياحة، غير أن ما اختبره المواطن العادي هو ارتفاع في أسعار الاستهلاك وتدهور في مستويات المعيشة ناتجان عن الإجراءات التي فرضها صندوق النقد الدولي.

ثم أن ليث أُوقف من جديد في 9 كانون الأول/ديسمبر إيذانًا بتصعيد في التوترات الاجتماعية. واتُهم هذه المرة بتشويه سمعة الملك في ملاحظات أدلى بها في محاضرة عامة زُعم أنه قام خلالها «بتقويض الوضع الاقتصادي للبلاد» و«بهزّ الثقة بالدينار الأردني». ونبعت التهمة الأخيرة من الانتقاد، الذي تم مرة أخرى التعبير عنه في تصريحات معلنة، للتأثير في البلاد الذي تحدثه سياسات صندوق النقد الدولي التي تم العمل بها حديثًا. وارتبط ذلك مباشرة بقمة عمّان. فقد كان شبيلات رئيسًا لنقابة المهندسين الأردنيين التي تضم آلاف الأعضاء والتي، مع غيرها من النقابات القوية، قاطعت مؤتمر تشرين الأول/أكتوبر على أساس أن سياسته تتناقض مع التنمية. وأبلغ شبيلات الصحافة، قبل أن يسلّم نفسه، أن مؤتمر عمّان استضاف مستثمرين أجانب

«احتفلوا بهذه الوليمة الإقتصادية وبانتصار شعار المكسب هو الفضيلة المطلقة». وحوكم شبيلات، على غرار ما حدث في المناسبتين السابقتين، ودين ثم أطلق، بعد عملية طويلة، بعفو من الملك. وهدفت تحركات الحكومة ضده إلى ردع أي احتجاج شعبي واسع.

وفي غضون ذلك، أشّر اغتيال رابين في إسرائيل إلى نقطة تحول في السياسة الداخلية. وقد هدف اغتياله الوحشي إلى تخويف ليس بيريز الذي وقف إلى جانبه في تلك الليلة في التجمّع المؤيد لأوسلو في تل أبيب وحسب، بل أيضًا طيف واسع من الشرائح المؤيدة للسلام. وأدى انتخاب بنيامين نتنياهو في حزيران/يونيو 1996 إلى تراجع في المسار السياسي لكل ما وعدت به أوسلو، إذ إنه أدى في الواقع إلى «البداية الجديدة»(120).

وما إن تولّى نتنياهو السلطة حتى تحرّك لخنق كل ما يُشتمّ منه رائحة السلام. واستبعد، وهو يقدّم حكومته الحربية الجديدة، أي محادثات في شأن دولة فلسطينية وتقسيم القدس أو إعادة مرتفعات الجولان إلى سوريا. وسيُعطى وزير البنى التحتية في حكومته أرييل شارون، مطلق الحرية في توسيع عدد المستوطنات في الضفة الغربية ومضاعفة الطرق التي تربط في ما بينها وبالتالي عزل المناطق الفلسطينية. وأمر بعد ذلك بأشهر بإنجاز نفق لـ«السياحة» تحت الجامع الأقصى في القدس مثيرًا أعمال عنف أدت إلى مقتل 40 فلسطينيًّا.

وذُكر أن كلينتون لا يحمل إلا الازدراء لنتنياهو. ومع ذلك دعاه إلى محادثات في 1996، ومن جديد بعد ذلك بسنتين، ولكن من دون جدوى. وما إن خرج نتنياهو، وأصبح إيهود باراك رئيسًا للحكومة في تموز/يوليو 1999، حتى دفعت التوقعات الدولية بواشنطن إلى التحرك سريعًا ودعوة باراك والرئيس عرفات إلى الولايات المتحدة. لكن محادثات كامب ديفيد سنة 2000 شكّلت كارثة لأن الصيغة المقترحة فيها لم تكن مقبولة. لم يستطع عرفات ابتلاع المطالب بالتخلي عن القدس الشرقية (التي ستبقى تحت السيادة الإسرائيلية)، وبأن يرضى ببعض المناطق «العربية» المجاورة؛ وخشي باراك من أنه إذا وافق على التخلي عن السيادة على القدس الشرقية، التي ضمتها إسرائيل بطريقة غير مشروعة، قد يلقى بعودته مصير رابين. جاء كامب ديفيد بعد سبع سنوات على أوسلو، بعد انقضاء الوقت الذي افترض أن تحتل فيه مسألتا القدس ولاجئي 1948 المعقدتان مكانهما على الروزنامة، وعلى أن يتم السعي إلى «تسوية دائمة تستند إلى قراري مجلس الأمن 242 و338».

وأخذ شارون، في غضون ذلك، في تصعيد مسألة القدس. وتنفيذًا لتعهده في آذار/مارس 1999 أن «تبقى القدس إلى الأبد عاصمة الشعب اليهودي ودولة إسرائيل»، قام صيف 2000 بعملية استفزاز مدروسة عندما قاد مسيرة إلى

المسجد الأقصى، وهو أكثر الأماكن الإسلامية قداسة في القدس الشرقية. وأشعل ذلك، كما هو متوقّع، انتفاضة فلسطينية (هي الانتفاضة الثانية)، وحدد العنف مرة أخرى العلاقات الفلسطينية - الإسرائيلية. وافتتح بلوغ جورج دبليو بوش وديك تشيني السلطة في واشنطن حقبة استمرت ثماني سنوات من «عدم الاهتمام» الأميركي الرسمي الذي موّه الدعم السياسي والعسكري الفاعل لأي تحرّك إسرائيلي ضد الفلسطينيين. وشكّلت مبادرة أنابوليس التي أطلقها بوش قبل سنة على مغادرته السلطة محاولة خرقاء لإلباس إدارته المكروهة وجهًا مؤيدًا للسلام.

قضت السياسة الإسرائيلية، طوال المدة الممتدة من أوسلو إلى نشوب حرب غزة في 2008، بإنشاء وقائع على الأرض تلوذ من وجه أي اتفاقات سلام. انتشرت المستوطنات في أنحاء الضفة الغربية والقدس الشرقية، وألحقت بها شبكات الطرق الواسعة، ولكن لم تُربط غزة والضفة الغربية بممر عامل. بل أن إسرائيل ذهبت بعيدًا إلى حد إنشاء جدار برلين بينها وبين الفلسطينيين. والمشاريع الوحيدة التي استُكلمت هي تلك التي أطلقها الإتحاد الأوروبي مثل مطار غزة ومرفإها ومركز الراديو والتلفزيون، ومحطات معالجة المياه. غير أنها تعرّضت كلها للتدمير المنهجي في الحملات العسكرية الإسرائيلية في 2002.

وأخذ الفلسطينيون المحبطون، وبخاصة في غزة التي يضرب فيها الفقر، يفقدون، في اطراد، الأمل في إمكان أن يصبح ما تم الاتفاق عليه على الورق واقعًا، وانحرف رقّاص ساعة الدعم الشعبي صوب حماس، تمامًا كما توقع ذلك نزّال. وعقب فوز حماس في انتخابات 2006 الحرة والنزيهة اندلع النزاع بين الفصيلين الفلسطينيين وأدى، في السنة التالية، إلى طرد التيار الفلسطيني الأساس فتح من غزة وإلى انقسام الأمر الواقع للزعامة الفلسطينية إلى قوتين متعارضتين. واستغل «المجتمع الدولي» فوز حماس كذريعة لحجب المساعدة الحيوية والتغاضي عن الهجمات الإسرائيلية ودعم العقوبات، ولإعطاء الضوء الأخضر، في مآل الأمر، لمجزرة 2008 في غزة.

أجريت الانتخابات الإسرائيلية في 2009 وأدت إلى تشكيل حكومة سيناريو أسوأ الحالات برئاسة «السيد البداية الجديدة» بنيامين نتنياهو، وقد تولى فيها اليميني المتطرف أفيغدور ليبرمان وزارة الخارجية، وكانت بمثابة تحد مباشر لكل من يسعى إلى السلام. وردّ نتنياهو على الضغط من الإدارة الأميركية الجديدة بتأييد كلامي لحل الدولتين ولكن بشرط أن تكون منزوعة السلاح. وطالب، كشرط مسبق للمحادثات، بأن يقبل الفلسطينيون بإسرائيل دولة يهودية. وعوّم ليبرمان اقتراحات جديدة لـ«حل الدولتين»: طرد الفلسطينيين إلى الأردن وتسميته فلسطين. ويشير مجرّد الواقع بإمكان انتخاب مثل هذه

الحكومة الممسوخة إلى المشكلة الإيديولوجية والأخلاقية التي يعانيها المجتمع الإسرائيلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

معركة غزّة

تنفس العالم كلّه الصعداء (باستثناء قلة نادرة) لإخراج إدارة بوش - تشيني من الحكم، بعد ثماني سنوات من تسببها بالأذى، على يد رجل وعد بإعادة العقلانية وشرارة من الإنسانية إلى السياسة الخارجية. وفي زمن الميلاد المسيحي تشارك أناس من كل الأديان في الشعور بوجوب استعادة فضائل احترام الكائن الإنساني، وكرامة الشخص وحريته. وأقيم في بيت لحم قداس احتفالي في 24 كانون الأول/ديسمبر في كنيسة القديسة كاثرين الكاثوليكية في مجمع كنيسة المهد التي شُيّدت في المكان الذي يُقال إن المسيح وُلد فيه. تدفّق الحجّاج المسيحيون من كل أنحاء العالم إلى مدينة الضفة الغربية الجميلة هذه للمشاركة في القداس.وبين حضور الشرف في القداس، الذي أحياه بطريرك اللاتين ورئيس الكنيسة الكاثوليكية في الأراضي المقدسة فؤاد طوال، رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس الذي قدَر الفلسطينيون المسيحيون حضوره أشد التقدير. وقال البطريرك: «نسعى إلى السلام الذي نفتقد إليه، السلام الذي يعيد إلى الإنسانية كرامتها، والذي كان غائبًا على امتداد السنوات الماضية ومضمّخًا بالدم». وأصدر البابا بنديكتوس السادس عشر في اليوم التالي رسالة الميلاد إلى مؤمني العالم مجددًا دعوته إلى السلام ومخصّصًا الأراضي المقدسة كمنطقة على السلام فيها أن يحل محل النزاع. وأضاف البابا: «فليشعّ نور بيت لحم الإلهي في كل الأراضي المقدسة حيث يبدو الأفق كالحًا من جديد بالنسبة إلى الإسرائيليين والفلسطينيين. وليعمّ لبنان والعراق وكل الشرق الأوسط. وليأتِ بثمار كثيرة من جهود أولئك الذين لا يستسلمون لمنطق النزاع والعنف الملتوي بل الذين يختارون، بدلًا من ذلك، طريق الحوار والمفاوضات وسيلة لإيجاد حل للتوترات في داخل كل بلد ويجدون حلًّا عادلًا ودائمًا للنزاعات التي تعكّر صفو المنطقة». وأمل الكثيرون، مع اقتراب تسلّم الإدارة الأميركية الجديدة السلطة في غضون أسابيع، أن تكون رسالة الأب الأقدس هي التي تسود.

عدت إلى منزلي من زيارة عائلية، في نهاية عطلة الميلاد في ألمانيا التي استغرقت ثلاثة أيام، وقد عقدت العزم على وضع الفصل الأخير من كتابي. إلا أن الوضع السياسي المتقلّب تبدّل من جديد في 27 كانون الأول/ديسمبر. فما إن انتهى العمل بيوم السبت اليهودي حتى قامت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية بأولى طلعاتها في ما سينتهي إلى 22 يومًا من الحرب القاتلة على الفلسطينيين في غزّة. وإذا كان عيد الميلاد شهد الشروع في الحرب الجوية، فإن إسرائيل أشّرت إلى رأس السنة باجتياح برّي. وأفادت التقارير الفلسطينية، في نهاية العملية، بسقوط أكثر من 400،1 قتيل وستة آلاف جريح. وكان نحو 48 من القتلى من قادة حماس، والباقون من المدنيين، رجالًا

ونساء وأطفالاً. وأعرب رئيس الوزراء الإسرائيلي المغادر إيهود باراك عن «حزنه» لمقتل المدنيين. وأعلنت إسرائيل في 18 كانون الثاني/يناير وقفًا لإطلاق النار من جانب واحد متفادية بالتالي أي تعهّد مُلزم لحماس يتعلق بانسحاب القوات المهاجمة أو فتح المعابر الحدودية. وردّت حماس بإعلان وقف النار الخاص بها مضيفة إليه طلبها انسحاب إسرائيل وفتح المعابر الحدودية.

وقّت استراتيجيّو تل أبيب حرب غزّة في دقّة متناهية، آخذين في الذهن الاعتبارات التالية: يمكن الاعتماد على الرئيس الأميركي الأخرق الذي أوشكت ولايته الانتهاء في التأكيد علنًا أن لإسرائيل «كل الحق في الدفاع عن نفسها» من هجمات حماس الصاروخية القاتلة. ولن يغامر الرئيس المنتخب أوباما بانتقاد سياسة إدارة بوش خلال المرحلة الانتقالية. وسترفض إسرائيل أي مبادرة يطلقها الاتحاد الأوروبي، وسيتم، في وقاحة، تجاهل أي مناشدة أو قرار من الأمم المتحدة. وسيتدخّل الجيش الإسرائيلي بقوة قاتلة ثم ينسحب سريعًا بالتوقيت الدقيق مع تسلّم أوباما السلطة.

وشكّلت الطريقة التي اختيرت لمعاقبة الغزّاويين نسخة طبق الأصل عن تلك التي طبقها الأنكلو - أميركيون في حروبهم على العراق، ولكن في إطار زمني مكثف جدًّا: البدء بمحاصرة المنطقة المستهدفة وإضعاف سكانها من خلال عمليات الحظر والتحرّك، ومن ثمّ التحرّك بقوة ساحقة للقضاء عليها. ووضعت إسرائيل، بإغلاقها المعابر، الشعب الفلسطيني في ما يشبه «معسكر الاعتقال»، على حد تعبير الكاردينال ريناتو رافاييللي مارتينو من «العدالة والسلام» التابعة للفاتيكان. وعلى رغم أن اتفاقًا لوقف النار في 19 حزيران/يونيو 2008 لحظ رفعًا تدريجيًّا للحصار، أبقت إسرائيل غزة معزولة. فالمعبر إلى غزّة، الذي أقفلته إسرائيل في 12 حزيران/يونيو 2007، بقي مغلقًا في إحكام وأبقى العزلة على سكان غزة 18 شهرًا. وحُرم السكان الاستيراد الطبيعي للغذاء والدواء والطاقة وتعرّضوا من ثم للقصف الجوي والهجمات المدفعية من قوة متفوّقة جدًّا. ولا يمكن للنتيجة إلا أن تكون إبادة(121).

منعت إسرائيل الصحافة من بلوغ غزة خلال عمليات العداء، غير أن بعض التقارير أخذ في التسرّب عن حجم الحرب ووحشيتها. وأدى القصف الإسرائيلي الجوي، إضافة إلى الأهداف العسكرية المُعلنة - مطلقو الصواريخ من حماس- إلى تحويل كل المؤسسات الفلسطينية الكبرى رمادًا وهي 16 مبنى حكوميًّا، و25 مدرسة (بما في ذلك معهد الموسيقى) ومؤسسة طبية، و20 جامعًا، 1500 معمل ومتجر، و4100 منزل. وبحسب المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان قتل 1،417 غزاويًّا، 926 منهم من المدنيين و236 مقاتلاً و255

من عناصر قوات الأمن الفلسطينية. وأفادت مصادر أخرى إلى وجود 416 طفلًا و106 نساء بين المدنيين القتلى؛ وجُرح ما يصل إلى ستة آلاف بمن فيهم 1, 855 طفلًا و795 امرأة. وتيتّم ما يُقدّر عدده بـ 1,346 طفلًا فقدوا واحدًا من أهلهم أو كليهما معا. وقُصفت مبان تابعة للأمم المتحدة بما فيها مدارس خصصت كملاجئ. وكانت الأونروا تدير ثلاثًا من المدارس التي أصيبت في 6 كانون الثاني/يناير في جباليا وخان يونس ومدينة غزة، على رغم أنها أشير إليها، في وضوح، بأعلام الأمم المتحدة الزرق والبيض. وقد قُتل 48 شخصًا فيها. وسبق لوكالة الأمم المتحدة أن زوّدت إسرائيل إحداثيات كل مبانيها لتفادي الهجمات. وبعد ذلك بعشرة أيام قُصف مقرّ الأمم المتحدة نفسه وأحرق مما أدى إلى إتلاف آلاف الأطنان من الغذاء. وتمامًا قبل أن تعلن إسرائيل وقفها للنار، أصابت قذائف أطلقت من إحدى الدبابات الإسرائيلية مدرسة تديرها الأمم المتحدة قدّمت الملجأ إلى 800،1 من سكان بيت لهيا شمال غزة. وقتل صبيان في الخامسة والسابعة من العمر فيما فقدت والدتهما ساقيها. ونقلت وكالات الأنباء العالمية تعليقات جون جينغ مدير الأونروا: «هذان الصبيان الصغيران هما بالتأكيد بريئان بقدر ما هما ميتان». ورفع الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون احتجاجات رسمية إلى وزارتي الدفاع والخارجية الإسرائيليتين. وفي الثامن من كانون الثاني/يناير، وهو اليوم الذي ناقش فيه مجلس الأمن الدولي إصدار قرار بانسحاب إسرائيلي كامل، عثر عمّال الصليب الأحمر على أربعة أولاد يكادون يموتون من الجوع إلى جانب جثث أمهاتهم المقتولات في زيتون. (وهو ما ذكّرني بوالدتي التي وجدها الراعي التركي في أحد الحقول بين الجثث بما فيها جثة والدتها.) ونقلت النيويورك تايمز في اليوم التالي أن الصليب الأحمر أوقف كل عملياته بعدما أطلقت النار على آلياته.

وفي جنوب غزة، فُرض الحصار على بلدة خزعة، وذُبح مدنيُّوها من دون تمييز. شاهد الناس الذين يرفعون الأعلام البيض على أسطح منازلهم الجرافات وقد شرعت في هدمها؛ وأطلقت النيران على غيرهم الواقفين على الأرض وهم يلوّحون بالأعلام؛ وأطلقت النار على آخرين أمرهم الجنود بالسير إلى إحدى المدارس(122).

وبعد الانقشاع الحَرفي للدخان، وانسحاب الجنود الإسرائيليين، والسماح للصحافيين بالدخول ظهر المزيد من الفظائع إلى النور. ففي زيتون أزال السكان الركام بأيديهم العارية لاستعادة الأقارب الذين سُحقوا تحت ثقل المنازل المنهارة. وتم سحب 95 شخصًا، أكثر من عشرين بينهم من عائلة واحدة. وندب رجل خسارة زوجته وكنّته وحفيده وابن شقيقه. ولاحظ صهره: «لقد قتلوا كبار السن والأولاد والنساء والحيوانات والدجاج. إنه لكابوس. لم اعتقد قط أنني سأخسرهم جميعهم». وأعيد فتح مقبرةٍ قديمة لاستقبال

الموتى إذ لم تعد المدافن تتسع. وعلّق أحد الأقارب قائلًا: «حتى موتانا لا أرض لهم». وشبّهت الوكالات الفلسطينية الحدث بمجازر دير ياسين في 1948. (123)

غصّت المستشفيات في مدينة غزة وفي مدينة رفح المصرية بالذين نجوا من الموت. وذُهل الأطباء في مستشفى العريش في سيناء بالعدد الكبير من عمليات المسح بالسكانر التي اضطروا إلى إجرائها للأولاد الصغار. فقد أُحضر، في يوم واحد، أربعة أطفال تراوح أعمارهم بين التاسعة والرابعة عشرة وقد أصيبت أدمغتهم بالرصاص. وشرح الأطباء أن الرصاصات غيّرت مسارها في داخل الدماغ مما يعني أنها اطلقت من مسافة قريبة. وأصيب طفل بجرحي رصاصة في الرأس. وقال أحد الأطباء: «نعتقد أن هذا يدّل إلى شيء». ونُشرت الصور والأفلام على الإنترنت وعبر البريد الإلكتروني موثّقة حالات أطفال مصابين بثقوب الرصاص في صدروهم أو طارت أطرافهم من جراء انفجار القنابل. وأفاد الأطباء في مستشفى الشفاء، وهو الأكبر في غزة، بدليل إلى حروق خطيرة تمتد من الجلد إلى العضل إلى العظم تسبب بها الفوسفور الأبيض. فقد تم، على غرار حرب العراق في 1991، اختبار أسلحة جديدة. فهناك كان اليورانيوم النابض، وهنا قذائف الفوسفور الأبيض.

وشكّل الضرر النفسي تحدّيًا أمام اجراء التقويمات المناسبة، لكن الدراسات الأولية أظهرت حاجة نصف أولاد غزّة إلى علاجات الصحة النفسية التي لا يمكن المنشآت الموجودة توفيرها لا من قريب ولا من بعيد. وقال المقرر الخاص لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة ريتشارد فوك إن اطفال غزة تحطموا نفسيًّا، إضافة إلى انتشار فقر الدم والصمم من جراء تحليق الطيران على علو منخفض فوق رؤوسهم؛ وقال: «تبيّن ان أكثر من 50 في المئة من أطفال غزة ممن هم تحت الثانية عشرة فقدوا الإرادة على الحياة»(124).

وأثار مثل هذه التقارير دعوات إلى إجراء التحقيقات في شأن احتمال ارتكاب جرائم حرب. وكانت منظمة «بتسيلم» الإسرائيلية لحقوق الإنسان أول من كشف عن الفظاعات في خزعة وطالب بالتحقيق. كذلك طالبت الأمم المتحدة، التي عوملت كأنها قوة معادية، بالتوضيح. وقال المتحدث باسم الأونروا كريستوفر غانس إن قتل المدنيين في مدرسة بيت لهيا يمكن أن يشكل «جرائم حرب»، وهي تهمة ردّدها جون جينغ وشاركه فيها المندوب السامي لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة نافي بيلاي. وقال رئيس منظمة الصحة العالمية في غزة، توني لورنس، إن الهجمات على المستشفيات والعيادات شكّلت «انتهاكًا خطيرًا للقانون الإنساني الدولي»، فيما صوّر مسؤولو الصليب الأحمر والهلال الأحمر الوضع على أنه «غير مقبول قط وعلى الإطلاق بأي معيار معروف من معايير القانون الدولي الإنساني

والمبادئ العالمية والقيم». وقال بان كي مون وهو يزور مقر الأمم المتحدة إنه شخصيًّا «مرتاع وحسب. ولا يزال يمكن لأيّ كان أن يشتمَّ رائحة القصف. إنه لا يزال يحترق. هذا هجوم على الأمم المتحدة مُستفظع وغير مقبول على الإطلاق». وطالب رئيس السياسة الخارجية الأوروبية خافيير سولانا علنًا بالتحقيق. وأطلق البروفسور هانز كوشلر رئيس منظمة التقدم العالمية، نداءً عاجلًا لإنشاء لجنة جرائم حرب تابعة للأمم المتحدة لتحقق في جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي ارتُكبت في غزّة. ودعت الجامعة العربية أيضًا الجمعية العمومية للأمم المتحدة إلى تشكيل لجنة تحقيق، فيما أصدر المقرر الخاص فوك تقريرًا مدمّرًا ادعى فيه أن إسرائيل ارتكبت جرائم حرب. وفي حزيران/يونيو 2009، وعلى أثر إنجاز تحقيق الأمم المتحدة الذي رفضت إسرائيل التعاون معه، أعطى بان كي مون تعليماته لمكاتب الأمم المتحدة القانونية بالتحضير لطلبات بالتعويض من إسرائيل.

وقضى موقف إسرائيل منذ البداية بنفي ارتكاب أي جرائم، وبتبرير قصف مواقع المدنيين بحجة أن حماس «استخدمتهم كدروع بشرية». واستهانت وزيرة الخارجية تزيبي ليفني بالمقارنات بين 1،400 قتيل فلسطيني و13 قتيلًا إسرائيليًّا على أنها خارجة عن الصدد، بما أن حماس «تعمّدت» استهداف المدنيين بصواريخها. واعترف الرئيس شمعون بيريز، وهو الرجل نفسه الذي ألقى خطابات تتميز بالشاعرية الكبرى عن الواجب الأخلاقي في تنمية غزّة، بالعدد الكبير للقتلى بين الأطفال الفلسطينيين، وبرر أن عدم وجود إصابات في صفوف الإسرائيليين الصغار مردّه إلى «أننا»، وعلى عكس العرب، «نعتني بأولادنا». أما بالنسبة إلى التهم باستخدام الفوسفور الأبيض، فقد ذكرت صحيفة لندن تايمز في 21 كانون الثاني/يناير أن الجيش الإسرائيلي اعترف باستخدامه. وهذا انتهاك لمواثيق جنيف، كما هو الاستخدام غير المتكافئ للقوة ومهاجمة المدنيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بداية جديدة، أيضًا

ليس من شأن الحرب على غزّة أن تفاجئ كل من له عهد بأهداف إسرائيل الاستراتيجية البعيدة المدى. فقد ادعت تل أبيب أن الهجوم جاء ردًّا على ثماني سنوات من هجمات حماس التي لا هوادة فيها بالصواريخ على إسرائيل. ولكن إذا كان الأمر على هذا النحو، فلماذا الانتظار كل ذلك الوقت؟ فليس للعدوان الذي وقع أواخر 2008 شأن بالرد الدفاعي على صواريخ محلّية الصنع تُطلق على المدن الإسرائيلية بقدر ما يتعلّق بتطبيق جزء حاسم من «البداية الجديدة» التي هي مبدأ طبخه الفريق المنتدب لديك تشيني في 1996 وقُدّم على طبق من فضة إلى بنيامين نتنياهو الذي كان يطمح حينذاك إلى أن يصبح رئيسًا للحكومة. وهو يدعو إلى «بداية جديدة» بالنسبة إلى اتفاقات 1993 في أوسلو والعودة إلى «عملية سلام واستراتيجية تستندان إلى أساس فكري جديد بالكامل من شأنه تأمين استعادة المبادرة الإستراتيجية وإعطاء البلاد مجالًا في اعتماد كل طاقة ممكنة في إعادة بناء الصهيونية. ..». وتحدّثت الورقة عن مقاربة جديدة للفلسطينيين: «قد تتطلب جهود إسرائيل لتأمين سلامة شوارعها، أولًا وقبل أي شيء، القيام بمطاردات حامية في داخل مناطق السيطرة الفلسطينية، وهي ممارسة لها ما يبررها ويمكن للأميركيين التعاطف معها. ..». وشكّلت الحرب التي شُنّت آخر أيام 2008 تلك «المطاردة الحامية»، وقد صح الإفتراض أن نظام جورج بوش الأميركي الذاهب سيتعاطف معها.

وينص أحد أهداف «البداية الجديدة» المعلنة، كما سبق أن شرحت في ما يتعلّق بالعراق، على توطيد هيمنة إسرائيل صاحبة القوة النووية على المنطقة، وتغيير أي نظام يُعدُّ غير متعاون من العراق، إلى سوريا ولبنان، فإيران. وقد تم، بحلول 2008، إحداث مثل هذه التغييرات في لبنان والعراق. ولجّ الإسرائيليون على مدى سنين بطلب الضوء الأخضر من نظام بوش - تشيني لشن غارة «وقائية» على منشآت إيران النووية، لكنهم أصيبوا بانتكاسة أواخر 2007 من جراء تقرير تقويم الإستخبارات القومية الذي قال إن إيران لا تمتلك برنامجًا للأسلحة الذرية. وخلال 2008، طرحت واشنطن وتل ابيب جانبًا خلافاتهما السياسية المتعلقة بمثل هذه الضربة العسكرية، وكرّرت فئة المحافظين الجدد التأكيد لإسرائيل أن «كل الخيارات موضوعة على الطاولة». ومن حسن الحظ أن الغلبة كانت للرزينين وبخاصة في أوساط المحترفين العسكريين الأكفياء الذين عرفوا، في حال تعرّض إيران للهجوم (من الولايات المتحدة و/أو إسرائيل)، أن الرد غير المتوازي من جانب إيران والعوامل المؤيدة لإيران في المنطقة سيُطلق نزاعًا اقليميًّا مع احتمال

فوري أن يصبح عالميًّا. وهذا هو التفكير الذي دفع بالمسؤولين الأميركيين إلى إبلاغ إسرائيل صراحة أنهم لن يحتملوا هجومًا عسكريًّا على إيران(125).

إلا أن المخططين العسكريين الإسرائيليين لم يتخلّوا عن ضربة مستقبلية لإيران. وأخذوا في الاعتبار أن عليهم، تحضيرًا لذلك، سحب هذه العوامل التي قد يمكن تفعيلها تعاطفًا مع الجمهورية الإسلامية. فقد بقي حزب اللّه يشكل الخطر الأساس في لبنان. حاولوا شلّه في 2006 وفشلوا. ثم جاءت حركة حماس الفلسطينية. وعلى رغم أن حماس ليست شيعية ولا يمكن مقارنتها بقدرة حزب اللّه العسكرية، فإن في وسعها أن تعبّئ على الفور كلًّا من الوسائل السياسية والعسكرية في حال أي تحرّك إسرائيلي وتستهدف أيًا من مواطن الضعف الإسرائيلية. وعلى هذا جاء التحرّك ضد حماس: وهو في الأساس تكرار للهجوم على حزب اللّه وسينتهي إلى هزيمة مشابهة(126).

بعد الحرب على حزب اللّه، أبلغ كبير مؤرخي الجيش الإسرائيلي الدكتور مارتن فان كريفلد حلقة دراسية حضرتُها في ألمانيا، أن الرد الإسرائيلي، في هذه الحال، كان أشبه بردّ «كلب مسعور!» ووصف القوة النارية الإسرائيلية غير المتناسبة بأنها رغبة في إبراز صورة «الكلاب المسعورة»(127)، وينطبق الأمر نفسه على حرب غزة. غير أن هذا النوع من العنف الوحشي، وبدلًا من أن يثير الترويع، أثار وحسب استفظاعًا مُبرّرًا وأطلق تحوّلًا في المواقف، حتى في داخل إسرائيل. وفي آذار/مارس، وبعدما كشف جنود إسرائيليون أنهم تلقوا أوامر بإطلاق النار على المدنيين، وحضّهم حاخامات الجيش على القيام بذلك، أمر الجيش الإسرائيلي بإجراء تحقيق.

كانت السيطرة النفسية التي مورست على شعوب أوروبا والولايات المتحدة، نتيجة الجرائم البغيضة التي ارتكبها النازيون في الحرب العالمية الثانية، هائلة. إلا أن هذه السيطرة انكسرت فجأة في ضوء الفظائع التي ارتُكبت في حق المدنيين الفلسطينيين في غزة. نزل عشرات الآلاف من الألمان إلى الشوارع احتجاجًا على حرب غزة، وجهرت شخصيات سياسية بالكلام، وأعار مفكّرون يهود نافذون أصواتهم لصيحات الاستنكار.

إلا أن النقيض الأكثر بلاغة وقوة للحرب البربرية جاء في حفلة موسيقية في 12 كانون الثاني/يناير في برلين أدتها أوركسترا الديوان الغربي - الشرقي، وهي كناية عن تجربة موسيقية فريدة من نوعها أسسها في الأرجنتين الموسيقي وقائد الأوركسترا دانيال بارنبويم والمفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد. اجتمع مئات الموسيقيين الشبان من إسرائيل وفلسطين ومصر وسوريا وغيرها من بلدان العرب لتأدية أعمال كلاسيكية أوروبية في دار الأوبرا الرسمية في برلين. وكان يفترض بالأوركسترا القيام بجولة احتفالًا بالذكرى العاشرة لتأسيسها وإقامة حفلة في الدوحة في قطر، لكنها نُقلت،

في إشعار قصير، إلى برلين بسبب الحرب في غزة. وقد نفدت البطاقات في غضون 24 ساعة على الإعلان، مما دفع إلى إقامة حفلة ثانية في المساء نفسه تلبية للطلب الساحق. وتضمن البرنامج افتتاحية «ليونور» والسمفونية الخامسة لبيتهوفن أعقبتها السمفونية الرابعة لبرامس. وما غلب عليّ، وأنا واحدة بين مئات من الضيوف النهمين في تلك الأمسية، ليس الدقة التقنية للأوركسترا وموسيقيتها الاستثنائية وعرضها المفعم بالحيوية بقيادة بارنبويم، فحسب، بل أيضًا الرسالة السياسية التي أوصلتها.

فقد أصدرت الأوركسترا بيانًا مطبوعًا دسّته في داخل البرنامج يرفض صراحة أي حل عسكري للنزاع. غير أن أهم من البيان كان الحفلة الموسيقية نفسها. فهي طرحت السؤال: أليس هذا هو المستوى الذي على الإسرائيليين والفلسطينيين (وغيرهم من العرب) التواصل فيه بعضهم مع بعض؟ فإذا تمكّن موسيقيون شبان من الجماعتين الالتقاء معًا لإيصال الأفكار العالمية من خلال الموسيقى إلى حضور من كل الأمم، أفليس هناك إذًا من أمل في أن ينتهز الزعماء السياسيون هذه الفرصة لتحديد لغة جديدة بالكامل يناقشون من خلالها المسائل السياسية التي تفرّق شعوبهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضياع فلسطين

علّق دانيال بارنبويم، في سياق مناقشة عملية أوسلو الفاشلة، أنها «فقدت كل حظ في النجاح عندما أصبحت سرعة إيقاعها، أي السرعة التي تسير بها، بطيئة جدًّا». غير أن زميله الفلسطيني إدوارد سعيد أشار إلى مشكلة أكثر عمقًا ووضع إصبعه على الجرح المؤلم. صحيح تم النكث بالوعود الإقتصادية (وكنتُ شاهداً على ذلك)، لكن هذه ليست المسألة الأساسية من وجهة نظره. بل أن الخلل في اتفاق اوسلو مردّه إلى أنه كان «لا تاريخيًّا». وفي مناقشاته مع بارنبويم اتهم سعيد أوسلو بأنه «لم يقم بما يكفي للاعتراف بالحكاية الفلسطينية وبما مرّ به الفلسطينيون، وهو مصاب بنوع من فقدان الذاكرة في شأن الحاجة إلى فهم التاريخ في تعقيده وتفصيله ليتمكن الشعب من العيش مع ذلك التاريخ. وأعتقد، من جهتي، أن الادعاء أن التاريخ ليس مهمًّا، وأن علينا أن ننطلق، بطريقة من الطرق، من الوقائع على الأرض، يشكّل مفهومًا سياسيًّا براغماتيًّا لا يمكنني وحسب أن أتفق معه كشخص يُعنى بدراسة الإنسان وكشخص يعتقد أن تواريخ الشعوب أمور معقّدة تحتوي أفكار العدالة والضيم والقهر». وخلص إلى أن «علينا احترام وجهات نظر بعضنا لبعض ونحتمل تواريخ بعضنا لبعض... إن فكرة التواريخ المختلفة ولكن المتداخلة حاسمة للنقاش - من دون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى تحلّلهما بعضهما في بعض»(128).

القول إن للفلسطينيين والإسرائيليين «تاريخين مختلفين ولكن متشابكين»، هو قول مجانب للحقيقة. وما من شيء كان يمكنه أن يُبرز هذا أكثر من الذكرى التي احتُفل بها في كل أنحاء العالم في أيار/مايو 2008: ففيما أحيا الإسرائيليون وأصدقاؤهم الذكرى الستين لإعلان دولة إسرائيل، تفجّع الفلسطينيون وأشقاؤهم وشقيقاتهم العرب على ستة عقود من المنفى الأليم الذي بدأ بطردهم من أراضيهم التي سكنوها قرونًا من الزمن. وهم يتذكرونها على أنها النكبة.

يروي التأريخ الإسرائيلي الرسمي حكاية الحركة الصهيونية منذ تأسيسها على يد ثيودور هرتزل اليهودي، وقد شهد على المذابح المنظّمة في بلده الأم روسيا، ففصّل فكرة الدولة اليهودية في كتابه Der Judenstaat (في الدولة اليهودية) الصادر في 1896. ونظم هرتزل، في السنة التالية، المؤتمر الصهيوني الأول في بازل حيث كاد يُعبد بصفة كونه المسيح المُنتظر على الوعد الذي أطلقه بأن ينشئ «للشعب اليهودي موطنًا مضمونًا علنًا وشرعيًّا في فلسطين». وعَدَّ الصهاينة، بأثر رجعي، هذا الاعلان ولادة للدولة اليهودية(129). رؤيا هرتزل هذه شاركه فيها حاييم ويزمان، الكيميائي الشاب الواعد الذي أقام مكانًا للعمل في بريطانيا. وسعى وايزمان، المحب للإنكليز

منذ صغره، إلى إيجاد الدعم في أروقة السلطة في لندن وحصل عليه. وركّز على تنظيم المستوطنات اليهودية في فلسطين وتمويلها. وبخاصة ليهود روسيا الذين أدت المذابح المنظّمة فيها إلى طرد 25 ألفًا منهم ما بين 1882 و1903. ومنذ ذلك الوقت وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى هاجر ما بين 35 وألفًا و40 ألفًا إلى ما سماه هرتزل أرض الميعاد. وبحلول 1914 أصبح اليهود في فلسطين يشكلون 12 في المئة من مجموع السكان الذين كانوا في غالبيتهم من الفلسطينيين. وتجنّس وايزمان في 1910 ليصبح واحدًا من الرعايا البريطانيين ويضع في تصرّف وزارة الحرب البريطانية اكتشافاته العلمية المتعلقة بوسائل إنتاج الأسيتون لبارود المدافع. وأكسبته جهوده دعم البريطانيين المؤيدين للصهيونية، ونستون تشرتشل وديفيد للويد جورج واللورد بلفور، الذين مهرت تواقيعهم الإعلان الصادر في 1917 والذي يعد اليهود بوطنهم القومي. سار الاحتلال البريطاني للقدس في 1917 بالمشروع خطوة إلى الأمام، بعدما أدى إلى الانتداب البريطاني على فلسطين في 1920.

وكان بين المستوطنين الأوائل، أو الروّاد كما سموا أنفسهم، ديفيد غرين (بن غوريون)، وهو يهودي بولندي توجه أوّلًا إلى فلسطين في 1906 وعمل في مخيم للروّاد. وأقام، مع رفاق له، وحدة لـ«الدفاع الذاتي» أطلق عليها اسم «هاشومير» (الحارس) وأسس في 1920 الهستدروت، الاتحاد العمالي العام لليهود في فلسطين، وأتبع ذلك في 1929 بحزب ماباي السياسي المرتبط بالاتحاد. وفي 1920، عندما اندلع النزاع مع العرب الذين قاوموا احتلال أرضهم أو شرائها، أسس بن غوريون الهاغاناه كقوة دفاع سرّية. أصدر تشرتشل في حزيران/يونيو 1922 الكتاب الأبيض الذي يؤكّد حق اليهود في الهجرة إلى فلسطين، لكنه أضاف أن على هذا أن يأخذ في الاعتبار «قدرة البلاد على الاستيعاب الاقتصادي». وأصدر وايزمان، من جهته، بيانات وخطابات إلى المؤتمر الصهيوني مطمئنًا العرب إلى حماية أراضيهم وثقافتهم(130)، ومع ذلك اندلع في 1928 - 1929 المزيد من أعمال الشغب في عدد من المدن الفلسطينية. واستمر المهاجرون أيضًا في التدفّق - نحو 30 ألفًا في 1933 - وتبع ذلك المزيد من أعمال الشغب. واندلعت الثورة الفلسطينية الكبرى في 1936 ولم تنته إلا بعدما سحقها البريطانيون في 1939. طرحت لجنة بيل في 1937 في بريطانيا مشروعًا للتقسيم رُفض. وبحلول 1939 كانت الحرب العالمية الثانية بدأت، وسرعان ما ستنتظم القوات الصهيونية بقيادة بن غوريون في الفيلق اليهودي بصفة كونهم حلفاء للبريطانيين ضد ألمانيا النازية. وفي نهاية الحرب، زاد الناجون اليهود من معسكرات الاعتقال من جموع المهاجرين إلى فلسطين. وأعلنت سلطة الانتداب البريطاني في شباط/فبراير 1947 نيتها الانسحاب وتسليم الملف

بكامله إلى الأمم المتحدة المنشأة حديثًا والتي توصلت إلى قرار التقسيم في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1947.

كان مخطط التقسيم مثيرًا للجدل، ليس فحسب بسبب التساؤلات التي أثيرت في شأن امتلاك الأمم المتحدة سلطة اتخاذ مثل هذا القرار على الاطلاق، بل أيضًا لأن توزيع الأرض بين الدولة اليهودية والدولة الفلسطينية لم يعكس الواقع الديمغرافي(131). فثلث السكان الفلسطينيين الـ 1,9 مليون فحسب كانوا من اليهود؛ ومع ذلك خصص لليهود 56,47 في المئة من الأرض و42,88 بالمئة للفلسطينيين. وافترض بأن تُعلن القدس منطقة منفصلة (corpus separatum) توضع تحت الإدارة الدولية وتشكّل 0,65 في المئة من الأرض. وعلاوة على ذلك كان عدد الفلسطينيين الموجودين في القطاع اليهودي وفي القدس يوازي عدد اليهود، بينما بلغت نسبة العرب إلى اليهود في القطاع العربي 8 إلى واحد. ومع ذلك تم التصويت على المشروع.

سحبت قوة الانتداب البريطانية جنودها بحلول 14 أيار/مايو 1948. وفي اليوم نفسه أُعلنت دولة إسرائيل - من دون تحديد حدودها - وفي غضون ساعات اعترف الرئيس الأميركي هاري ترومان بالدولة الجديدة. وتبعت ذلك حرب عربية - إسرائيلية زعم خلالها بن غوريون أن «محرقة ثانية» تهدّد وجود اليهود الذين عليهم المقاومة. وقد امتنع عن تحديد حدود الدولة بنيّة التوسع في حال نشوب حرب.

ويروي بن غوريون في مذكّراته أنه لم تكن لديه ولدى أعوانه نية لطرد الفلسطينيين:

«قبلنا في 1947 بالحصول على بقايا فلسطين طبقًا لتسوية الأمم المتحدة. لم نعتقد أن التسوية عادلة جدًّا بما أننا نعرف أن عملنا يستحق أن تخصص لنا قطعة أرض أكبر. غير أننا لم نمارس الضغط واستعددنا للانصياع في دقة للقرار الدولي عندما يحين يوم استقلالنا. وكنا على استعداد أيضًا لرؤية القدس مدينة دولية بشرط أن تحترم الضمانات المقدمة من الأمم المتحدة إلى الشعب اليهودي عن حقه الدائم في الإقامة هناك والمشاركة في الإدارة الديمقراطية للمدينة. ولم نملك بالتالي أي مخطط حيال المناطق المخصصة للعرب.

«لكن ما الذي حدث؟ هوجم سكاننا في القدس حتى قبل الاستقلال. أعلن جيراننا عن أنفسهم أنهم أعداؤنا وطالبونا بأن نرمي أنفسنا في البحر، وبالتخلي حتى عن ذلك الجزء الصغير من الأرض الذي اعترف العالم كله بأنه لنا. وانطلقوا لغزونا»(132).

وكرّر بن غوريون أن «في الامكان مرة أخرى القول في شكل قاطع إن إسرائيل والشعب اليهودي في القرن العشرين لم يطلقا رصاصة واحدة أو يقوما بعمل عدواني لفرض مطالبهما بهذه الأرض. لم يؤكدا الحق في الوجود هنا بالسلاح، بل بمجرد حقهما في البقاء. فنحن لم نلجأ إلى القوة إلا من أجل الدفاع»(133).

وقال: إذا غادر الفلسطينيون بعد الاعلان عن دولة إسرائيل فإنهم فعلوا ذلك بملء إرادتهم. وأكّد ان العرب لم يفعلوا على أي حال شيئًا، على مدى قرون، لتطويرالأرض، بينما التزم اليهود جعل الصحارى تزهر بإبداعهم اليهودي. وشرح أن العرب خلال كل قرون وجودهم على هذه الأرض بقوا عند أكثر مستويات الوجود بدائية»، مضيفًا أنهم «فشلوا في زراعة الأرض بحسب أي مخطط إجمالي أو في تطوير فعلي لأي احساس بالوحدة الوطنية»(134). والأكثر أن التاريخ كان ضد وجهة النظر العربية. وسأل «ماذا عن ارتفاع أصوات العرب استنكارًا لأن هذه الأرض لا تعود إلينا بل إليهم؟» وأجاب «أولًا، إن حقنا الشرعي يسبق حقهم بنحو أربعة آلاف سنة. فالقومية العربية ليست سوى ظاهرة من ظواهر هذا القرن...»(135).

قضى اقتناع بن غوريون القوي بأن الدولة اليهودية لا يمكن أن تزدهر إلا إذا كان 80 في المئة من سكانها من اليهود. وبما أن الوقائع الديمغرافية على الأرض تحاجج ضد هذه العملية الحسابية، اتخذت إجراءات لتصحيح الوضع إما من خلال هجرة كثيفة لليهود وإما بوسائل أخرى. واستمر بن غوريون في ادعاء البراءة حتى بعد حرب 1948 وتحويل نصف السكان الفلسطينيين لاجئين. وكتب: «أن تُتهم بأننا مارسنا إبادة شعب لأَمْرٌ يبعث على الضحك، وبخاصة في ضوء كل الجهود التي بذلناها من أجل سكاننا العرب»، بل «أن السياسة الإسرائيلية تجاه العرب كانت على طرفي نقيض مع الإبادة أو الاضطهاد. فلطالما لعبنا ورقة التعليم والتنوير والديمقراطية... ويمكنني، بصفة كوني رئيسًا للحكومة في تلك الحقبة، أن أعلن في شكل مطلق أن هذه البلاد لم تعمد قط من خلال أي عمل رسمي إلى طرد عربي بريء من التآمر ضد أمنها»(136).

بدا أن بن غوريون اعتقد أن كبير السن بين الفلسطينيين سيموت والفتية لن يتذكّروا ما قد حدث. لكن تفكيره كان خاطئًا كتفكير ابن تركيا الفتاة - طلعت باشا الذي اعتقد في البداية أن أيتام إبادة الأرمن في 1915 سينسون كل شيء.

فأولئك الفلسطينيون، الذين عاشوا النكبة وهم أطفال، أصبحوا الآن في السبعين والثمانين ولم ينسوا شيئًا؛ وهم يتذكّرون كل لحظة بالتفاصيل التصويرية. وقد التقينا أنا وزوجي طويلًا اثنين من هذا الجيل أواخر 2008 في

عمان، الأردن. جاءت المرأة من يافا، مدينة البرتقال الرائع، وتحدّر زوجها الراحل من الرملة؛ ويأتي الثاني من محلة لا تبعد كثيرًا. وهم جميعهم ضحايا العملية المأساوية التاريخية التي عصفت بهم في صدمة طردهم العنيف من منازلهم مع عائلاتهم أو من دونها. ووجد كل منهم في النهاية طريقته أو طريقتها في التعامل مع الصدمة إن من خلال الفن وإن من خلال النشاط السياسي. ويوجد في مقابل كل منهم العشرات، لا بل المئات والآلاف من الفلسطينيين الآخرين، ولكل منهم قصته الخاصة وجميعها، بطريقة ما، متشابهة. ومع ذلك فكل واحدة منها فريدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفنانان

يعود الفضل إلى مارغيت وكمال فاخوري، صديقينا العزيزين وزميلينا الموثوق بهما في لجنة «أنقذوا اطفال العراق»، في تعريفنا إلى تمام الأكحل الفنانة الفلسطينية المقيمة في عمّان والتي رحبّت بنا بالكثير من اللطف، ومن دون تصنّع، ضيفين في منزلها الرحب. وهي صغيرة القامة ولكن كبيرة المقام، امرأة جميلة ذات ابتسامة أخاذة عانقتنا - نحن شبه الغريبين - بحرارة تلقائية جعلتنا نشعر فورًا أننا في منزلنا. وبيتها ليس منزلًا وحسب، بل صالة عرض فنية ومشغل يضم مشغلها الخاص إضافة إلى مشغل زوجها الراحل اسماعيل شمّوط. زيّنت الجدران لوحات رائعة للفنانَيْن تؤرّخ آلام الشعب الفلسطيني على مر العقود الستة الماضية. ولفتتنا لوحات عدة خصوصًا: واحدة تظهر عجوزًا يقود أولادًا إلى المنفى وأحد الأطفال جاثم على كتفيه؛ وأخرى يجهد فيها شاب لحمل عجوز على كتفيه ونقله إلى بر الأمان؛ وأخرى تظهر ميناء يافا، «ميناء الوفرة»، يزخر بالحياة فيما صيادو السمك يعودون إلى منازلهم. من الواضح أن لوحاتها ولوحات زوجها تنتمي إلى أسلوبين مختلفين، غير أنها تتشارك بعضًا من النوعية الشبيهة بالكتاب المقدس لجهة تصوير عظمة العذاب الإنساني وفي الوقت نفسه التضامن الإنساني والكرامة المرتبطين بالمأساة الفلسطينية. وتشكّل إحدى اللوحات، التي تظهر أحد الشبان الفلسطينيين في مظهر جانبي مع سلاحه وزوجته إلى جانبه، قطعة نموذجية يجدها المرء في كل منزل فلسطيني تقريبًا. وأرتنا عددًا من اللوحات الأحدث المرتبطة بكفاحها للتعامل مع فقدان توأم روحها. تعدو الأحصنة العربية على أقمشة لوحاتها الزيتية إعرابًا عن روح الاستقلال الفلسطينية التي لا تموت، مع وجود دائم لمفتاح المنزل: التذكار الأخير للمنزل الذي أجبر الفلسطينيون على مغادرته والذي لن يتم التنازل أبدًا عن ملكيته.

طلبت منها، ونحن نجلس إلى طاولة عملاقة مزدانة بالحلوى الأردنية والشاي، أن تروي لنا حكايتها.

«28 نيسان/أبريل 1948: كنت فتاة في الثانية عشرة وأعيش مع عائلتي في يافا. مضى علينا جميعنا في المنزل عشرة أيام لا نغادره وليس لدينا طعام أو ماء. وكان هناك أيضًا كلبان يستخدمهما عمّي للصيد. وقد اعتاد الروسي جورج رادينغكوف، صديق والدي المفضل، الذهاب معه ومع عمي إلى الصيد. وبما أن ثمة ساقية قريبة، تركنا الكلبين يخرجان، وكانا يلهثان وراء الماء. وأخذت شقيقتي تبكي طلبًا للماء. والشيء الوحيد الذي امتلكناه هو ماء الورد، وهو شديد المرورة، لكنها شربته. وأفلتنا الدجاج كذلك.

الثالثة أو الرابعة فجرًا، والأولاد في السرير، لكنهم بقوا في ثيابهم. فعلنا ذلك لنبقى على أهبة الاستعداد للمغادرة إذا تطلب الأمر ذلك. أبقينا جواربنا وأحذيتنا على مقربة من السرير. سمعنا طرقات السلاح على الأبواب، «برّا، برّا!» أي «اخرجوا!» وسبق لوالدتي أن وضّبت ثيابًا نظيفة، وغادرنا. سرنا على طول حجارة أرصفة يافا، وأمكن سماع وقع الخطوات، إلى أن بلغنا الميناء حيث البواخر متوقفة في الحوض. كنا عشرة أولاد مع صبيين يعملان معنا، وبيننا طفل عمره سنة. ثم شاهدنا بعض الجنود الأردنيين بقبعاتهم - أو على الأقل اعتقدنا أنهم جنود أردنيون. غير أنهم يهود أخذوا بزات الجنود وارتدوها. فتحوا النار - دوم - دوم - دوم - قُتل الكثيرون أو جرحوا، وقفز آخرون إلى الماء. تمكنّا، أنا وعائلتي، من بلوغ القارب. كان واحدًا من تلك القوارب الصغيرة - يسمّونه جُرُمْ في فلسطين - التي تُستخدم لنقل البرتقال خارجًا إلى السفينة الكبيرة. ففي 1947 كانت أطنان وأطنان من برتقال يافا تذهب إلى أوروبا، وبخاصة إلى بريطانيا. اعتادوا قطف عشرين صندوقًا أو عشرين كلغ من كل شجرة. وينتقون دومًا أفضل البرتقال وأكبره للتصدير. كانت يومذاك برتقالات تستحق الجوائز.

حصل والدي على تذاكر ركوب لم نعرف وجهتها. ستتوجه قوارب الجرم الصغيرة إلى السفن الأكبر التي، بحسب ما يتم الصعود إليها، ستذهب إلى غزة أو بور سعيد أو إلى مكان آخر. توجّب علينا تسلّق القوارب الصغيرة أوّلًا. وأذكر جيدًا سيدة، ظهرها إلى جدار أحد المباني، وهي تسلّم الولد تلو الآخر إلى رجل آخر، والدهم، الذي كان يضعهم في القارب. وسقط ولد من يدها في الماء. كانت الأمواج مرتفعة جدًّا وقد سحبت بعض الجالسين في القارب إلى الماء. شاهدت شابًا يحمل امرأة مسنّة غائبة عن الوعي. وتساءلت، لماذا لم يتركها وراءه؟ لكنه لم يستطع.

بلغنا السفينة بالقارب الصغير، وقد تدلّى منها سلّم من حبال درجاته من خشب. حمل والدي أمي التي غابت عن الوعي، فأفلت وشاح رأسها في العملية وأمكننا أن نرى للمرة الأولى شعرها الأشقر الجميل. وتبعناهما نحن الأولاد العشرة. كنا مرهقين وجائعين ونحن مستيقظون منذ الثالثة فجرًا. وشاهدت على متن السفينة بعض أكياس البطاطا المحزّمة. تلمست أحدها بإصبعي وأدركت أن ما في داخلها ليس خشبًا. كنت أحمل قلمًا معدنيًّا صغيرًا فاستخدمته لفتح الكيس. وماذا يوجد فيه؟ البلح! وفرغ الكيس من محتواه في غضون دقائق قليلة.

أذكر أنني تسلّقت إلى جانب السفينة في محاولة مني لقراءة اسمها. وكانت ترفع علمًا يونانيًّا. وأمكننا أن نلتفت من السطح إلى الوراء، إلى يافا، ونشاهد ألسنة اللهب المتصاعدة من المدينة كلها. عند هذه اللحظة انقلبت حياتي

كفتاة رأسًا على عقب، وتغيّرت كلّيًّا. لم يتمكن الآخرون من إدراك ما يجول في داخلي. ثم أنني دوّنت ما رأيت.

حطت سفينتنا رحالها في بيروت في الثانية بعد ظهر اليوم التالي. كان لنا أصدقاء هناك. وما إن غادرنا السفينة حتى سمعنا صيحات تهتف: «الأكحل!» وهو اسم عائلتي. استقبلنا ثلاثة رجال من أقارب والدي في حرارة. واضطر معظم ركاب السفينة إلى الدخول إلى الكرنتينا للتلقيح. ثم توجهنا إلى منازل أقاربنا وأقمنا هناك ثلاثة أشهر. وقضت الفكرة في ذلك الوقت: إنكم ستعودون إلى دياركم بعد 15 يومًا، ولم تكن هي الحال.

بقينا في بيروت ثلاثة أشهر أو أربعة. وكانت أمي تبكي معظم الوقت، وعانى والدي مشاكل في ذراعه التي عالجها بالعلق مصاص الدم وقد جاءت به أمي من عند مصففة الشعر. وتحوّلتُ في بيروت، بعد تجربة الطرد، من فتاة شموس إلى ابنة رصينة. عانى والدي الألم، ولم يستطع العمل، وفقد كل ماله. لم تكن هناك مدرسة فبقيت وحسب في المنزل الذي لم يحتوِ من الأثاث إلا الوسادات.

قال نائب لبناني، تمتلك عائلته مدفنًا يضم بعض القبور، إن في وسع الفلسطينيين العيش هناك إذا اقتضى الأمر. فذهبتُ أبحث في المنطقة عن صديقتي حكمت، وبلغت مكانًا فيه رجال مع مستوعبات هائلة من الحليب. كانت تلك منظمة «الكويكر» الإنسانية (التي نشطت لاحقًا في مخيم صبرا للاجئين). ولجت إلى الداخل بحثًا عن صديقتي حكمت ووجدتها مع كأس تحمله طلبًا للماء. صُدمت. وعدت وصعدت إلى غرفتي ومعي ورقة وألوان، وأردت رسم صورة.

امتلكت أمي صبغات تلوين لجعل الثياب تبدو أكثر لطفًا. طلبت منها بعض الصباغ، ثم جمعتُ سدادات زجاجات الكوكاكولا؛ وحوّلتها، بعدما انتزعت منها الفلينة، أوعية صغيرة لاحتواء الصباغ. وبما أنني احتجت إلى فرشاة قصصت بعضًا من شعري وجمعته معًا وصنعت منه ريشة للرسم. رسمت يومذاك صورتين: واحدة لأناس يحملون الحليب، وأخرى لأناس يحملون الماء».

سألتها عن الحياة في يافا قبل الطرد.

«أذكر الحياة في يافا قبل أن نُجبر على الرحيل. اجتذبني الفن منذ نعومة أظفاري. اعتدت، وأنا طفلة، أن أسرق الورق من أقفاص برتقال يافا وأصنع منه طائرة ورقية ألونها بيدي. كنت أقطعها بالمقص ووالدتي دائمة الخوف من أن أجرح نفسي. ثم أصنع الصمغ من الطحين والماء. قمت بهذا بدلًا من الدرس، وخلقت مشكلة لأهلي. واشتكت إحدى الجارات أيضًا من أن طائرتي حطت في حديقتها، وتلقّيت التوبيخ على ذلك.

وزادت علاقتي بالطائفة المسيحية من محبّتي للرسم. ففي ذلك الوقت عاش المسيحيون واليهود والمسلمون معًا في سلام. تعوّدت الذهاب إلى كنيسة مار جرجس وتقبيل يد الكاهن والحصول من ثم على صورة جميلة لمريم. في تلك الأيام كان المسلمون يذهبون إلى الكنيسة والمسيحيون إلى الجامع. وفي حال وفاة أحد المسلمين يأتي الكاهن بالبخور. كانت عائلتي مسلمة. شاهدت صورة مريم وصورة المسيح وتأثّرت. وكان أمرًا عاديًّا بالنسبة إلينا أن نشارك في أحد الشعانين - وكنت أرتدي ثوبًا جديدًا - وفي أحد الفصح وعيد الميلاد. لطالما احتفلنا معًا. كنا عشرة أولاد، واحتاج والدي إلى عشر هدايا يبقيها في المتجر إلى أن يجول بابا نويل في المكان في عيد الميلاد لتقديم الهدايا إلى جميع الأولاد. واستمررنا على هذه العادة إلى أن تزوجت. وقد تعودنا أن نأخذ أولادنا إلى بيت لحم في عيد الميلاد ونصلّي معًا في كنيسة المهد. وكذلك كانوا في القدس يصلّون معًا في كنيسة القيامة. وأيضًا مع اليهود. فقد صلينا في القدس معًا لموسى ويسوع ومحمد. واحتفل الفلسطينيون من مختلف الديانات معًا، وتقاسموا الحلويات.

تبدّل ذلك كلّه بعدما طُردنا في 1948. وانتهى التعايش في لبنان أيضًا، حيث تم، وللمرة الأولى، تفريق المسيحيين والمسلمين. خُصص مخيما اللاجئين في صبرا وشاتيلا للمسلمين، ومخيم مار الياس للمسيحيين. ثلاثة للمسلمين وثلاثة للمسيحيين. وزوّد اللبنانيون الفلسطينيين المسيحيين جوازات سفر في غضون 24 ساعة.

أوّل ما دمرته إسرائيل في 1948 كان المطابع والكتب. دمّروا في يافا، حيث أقمت، الكتب الدراسية التي كانت بالعربية ونُشرت هناك. وتحرّكوا هناك أيضًا ضد ثلاث من أفضل الصحف. لم يريدوا للأولاد الذهاب إلى المدرسة وتعلّم العربية، أرادوا اللغة العبرية فحسب. غير أن البعض بقي يعرف العربية. تلقينا تمويلًا من الخارج استخدمناه لشراء مطبعة بأحرف عربية، وتعودنا أيضًا دعم المدرسة. لم تعطنا إسرائيل أي مساعدة للأساتذة أو للمدرسة. وجدنا سبلًا لجمع الأموال، وبخاصة للأساتذة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل عادت من ثم إلى منزلها في يافا؟

«زرت يافا منذ أربع سنوات، وبكيت طول الوقت. كان اسمنا لا يزال مقروءًا على الجدار محفورًا في الحجر. أذكر كل تفصيل، ولون الرخام، وغرف المنزل. كان منزلنا في المدينة القديمة التي حُوّلت الآن للسياحة. والمرأة التي تقيم فيه هي سوزانا فنكلشتين. كان مؤلفًا من ثلاث طبقات ليتسع لعائلة كبيرة مع أطفال كثيرين. توجهت إلى هناك وقرعت الباب. نظرت المرأة إلى الخارج ثم أقفلت الباب. سمعتني أتحدث العربية. وقد غيّرت الباب إلى واحد حديدي على رغم أنه كان خشبيًّا. وهنا على هذه اللوحة»، قالت وهي تشير إلى أحد الاقمشة، «توجد حجارة القوس الذي حمل اسمنا وقد أزيلت الآن. وقد حصلت على أوراق من أقارب فلسطينيين (تظهر الملكية) وتحمل التاريخ على رأسها. وهي تفيد أننا دفعنا 75 ألف شاقل للضرائب، وأنني ولدت هناك. وكانت سوزانا فنكلشتين مع رجل بدا أشبه بالحارس الشخصي. وقالت شيئًا أشبه بـ «عرب أغبياء، حمير، ارحلوا». شاهدتني أبكي ومن الواضح أنها أدركت الأمر.

ذهبنا، أنا وزوجي، إلى الناصرة حيث استُقبلنا كملك وملكة. عقدنا اجتماعًا في منزل رئيس البلدية وجاء الكثيرون من الفلسطينيين لرؤيتنا. بكيت عند ذاك أيضًا، لكنها هذه المرة دموع ذرفتها بسبب الترحيب الحار. ثم جاء طواقم التلفزة، من التلفزيون الإسرائيلي، وأن.بي.سي.، وتلفزيون الجولان، الخ. ورحّب بنا أحدهم بقوله أهلًا بكما في وطنكما. وقلتُ إنني أردت المجيء ولم أتمكن لأنهم احتلوا أرضي.

وهكذا، عندما عدت إلى عمّان، رسمت لوحة لسوزانا فنكلشتين أظهرتها فيها بوجه موبر. وأصيبت بالهستيريا عندما شاهدت لوحتي على صفحة الإنترنت.

منذ شهر، ذهب ابني، الذي يحمل جواز سفر أميركيًّا، إلى يافا لتصوير فيلم عن كتاب عن زوجي. وأمكنه، مستعينًا بوصفي، إيجاد المنزل. وبذهابه إلى المنزل التقاه رجل بثوب أسود طويل عند الباب، وقال لابني اعطني تاريخ ميلادك وسأقرأ طالعك في مقابل خمسين شاقلًا. أبلغه ابني أن والدته وُلدت هناك وأنه يريد رؤية الغرفة وحسب. وسأله عن سوزانا فنكلشتين، وأبلغه الرجل، وهو زوجها، أنها توفّت. وبحث ابني عن قاعدة عمود حفرتُ على رخامها اسمي وتاريخ ميلادي. وقد قاصصتني أمي على ذلك. لكنه لم يكن موجودًا؛ فقد أزالوا الرخام واستبدلوا به الباطون، وبالتالي لم يعد الاسم ظاهرًا.

وجاء التلفزيون البريطاني لاحقًا لإجراء مقابلة معنا. وقلت لهم إن كل شيء بدأ مع حكومتهم، مع الإنكليز، وإنني لن أغفر لهم أبدًا. وقلت: ‹إذا شاهدتم

صور الحرب العالمية الأولى تصدّقون ما ترونه، ولكن إذا شاهدتم صور 1948 فلن تفعلوا. كل شيء بدأ مع الانتداب البريطاني على فلسطين. فوضع رجل من فريق التلفزيون رأسه بين يديه، وقال الآخر إنه خجل لأنه إنكليزي».

وعلمنا لاحقًا في شأن قصة زوجها اسماعيل شمّوط الذي أُخرج مع عائلته من الرملة في 12 تموز/يوليو 1948. وهاكم روايته للأمر(137):

«تموز/يوليو 1948: نُقلنا في اليوم التالي بالشاحنة من قرية نعلين إلى رام اللّه. تركونا في مدرسة للبنات في الجزء الجنوبي من المدينة. ازدحمت بنا غرف المدرسة بحيث لم يتوافر لنا أي مجال للحركة، وقُدّم إلينا الخبز وشربنا إلى أن روينا عطشنا.

ساءت حال شقيقي توفيق نتيجة العطش والحر والشمس وضربة الشمس التي عاناها يوم طردنا (وكان عمره سنتين). ومات بعد ذلك ببضعة أيام. وقرر والدي وشقيقاه وغيرهم من الأقارب التوجه إلى خان يونس في غزة. اعتقدنا أننا سيسهل وصولنا إلى هناك ولن يستغرق سوى بضع ساعات. غير أنها كانت رحلة خطرة ومضنية إذ وجب علينا المرور على طرق يسيطر عليها الصهاينة.

وصلنا إلى خان يونس بعد نحو من أسبوعين. أقيم المخيم على رمل أبيض ذهبي تتغيّر ألوانه مع ضوء الشمس وضوء القمر. لكن جمال هذه التلال الرملية لم يدم طويلًا. فقد سواها الرجال والآلات لتوفير المكان لألوف اللاجئين».

توجه اسماعيل شمّوط إلى القاهرة لدراسة الفن والتقى هناك تمام التي ستصبح زوجته. واشتهر كلاهما بصفة كونهما الفنانين اللذين وثّقا تاريخ طرد الشعب الفلسطيني وهربه. عاشا في لبنان والكويت وألمانيا وفي الأردن حيث تقيم تمام الأكحل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الناشط السياسي

فؤاد حسين صحافي فلسطيني يعمل من عمّان عرفناه أنا وزوجي، منذ سنين. وكان فؤاد هو الذي اتصل بي في فندقي ليلة الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1995 المصيرية تلك قبل قليل على سفري إلى فرانكفورت وطلب مني أن أشعل التلفاز لأن رئيس وزراء إسرائيل اسحق رابين اغتيل. واتفقنا أيضًا على أن نجتمع معه في العاصمة الأردنية ولكن هذه المرة في منزل والده ابراهيم صالح حسين، الذي يقارب الخامسة والثمانين، في إطار مقابلاتنا مع الناجين من النكبة. وُلد فؤاد خلال ترحالات أهله بعد هربهم من فلسطين. جلسنا في غرفة جلوس كبرى في منزله وقد تجمعت زوجته وأولاده من حولنا، فيما أخذ والده، وهو رجل ضخم الجثة جدًّا متمدّد على الأريكة بقفطانه الأبيض، يروي حكايته بالعربية. وكان حفيده، ابن فؤاد، يتحدث الإنكليزية في طلاقة، وعمل الاثنان كفريق في الترجمة لنا.

«أتحدّر من التينة، القرية التي تبعد 30 كيلومترًا عن الرملة. كانت جنّة ملأى بالعشب الأخضر الريان وشجر البرتقال. امتلكنا منزلًا كبيرًا جدًّا بغرف كثيرة تأوي 15 شخصًا من عائلتنا. وعمل معظم الناس هناك في الزراعة، وكان هناك معلمون وموظفون حكوميون. وعمل آخرون مع الجنود البريطانيين في وظائف مدنية. كانت العلاقات مع البريطانيين رهيبة لأنهم المحتلّون. وتوليت رئاسة البلدية كما تولاها والدي من قبلي. وكانت أمي ثرية وتمتلك الكثير من الأراضي الزراعية والخراف.

بدأت المشاكل قبل وقت طويل على 1948. فمنذ العشرينات، على أثر معاهدة سايكس - بيكو التي قسّمت الأراضي العربية بين البريطانيين والفرنسيين، شرع البريطانيون في جلب اليهود إلى مستوطنة يهودية مجاورة. وشكّل هذا تطبيقًا للسياسة الواردة في وعد بلفور. وازداد التوتّر مع ازدياد عدد المستوطنين، واندلعت الإشتباكات في 1926 و1936. وحصلت ثورة حقيقية في 1936، رافقتها إضرابات ثورية على مدى ستة أشهر. واستمر البريطانيون في جلب المستوطنين وتسليحهم. وأصبح الفلسطينيون، الذين أدركوا خطر المستوطنات، في مزاج ثوري ضد البريطانيين الذين يعمدون إلى تنظيم المستوطنين. وما إن قررت الأمم المتحدة في 1947 إنهاء الانتداب البريطاني حتى اندلع النزاع بين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود. وقد وعد الغرب اليهود، خلال الحرب العالمية الثانية، بأنهم إذا حاربوا إلى جانبه فسيُكافأون بمنحهم دولة. وسبق للحكومة البريطانية، عبر إعلان بلفور، أن وعدتهم بوطن قومي، وأبلغتهم أنهم سيساعدون اليهود إذا حارب الفيلق اليهودي إلى جانب الحلفاء، في مقاتلة الفلسطينيين. ولما غادر البريطانيون فلسطين تركوا الأسلحة في يد اليهود.

لم تمتلك فلسطين جيشًا ولا أسلحة لقتال اليهود الذين كانوا مدرّبين ومسلّحين. احتاج الفلسطينيون إلى المساعدة وتلقّوها من الأردن ومصر وسوريا؛ غير أن الجيوش العربية كانت كاذبة ولم تحارب في فاعلية أو تساعد الفلسطينيين كما كان يمكنها أن تفعل. وُجدت هوّة كبيرة بين القوات الفلسطينية واليهودية. وأخذ اليهود يدخلون القرية تلو الأخرى، ويقتلون بعض سكانها فيما يهرب الآخرون. وهناك جبل هو جبل الصافي وفيه 14 قرية بينها قريتي التينة. احتلوا الجبل في إحدى الليالي وشرعوا يطلقون النار على القرى. وكل من اعتقل قُتل، وهرب الآخرون. وسبق، قبل الحرب، أن دعاني أحد القادة اليهود إلى التحادث. وقال إن في وسعه حمايتنا إذا بقينا، لكنني قلت له إن علي، بصفة كوني رئيسًا للبلدية، أن أتشاور مع الآخرين. وقضت الفكرة بأننا، في حال بقائنا، سنُعدّ من المتعاونين. وأخذ، في الوقت نفسه، راديو العرب يذيع من القاهرة أوامر تطلب منا الرحيل وأننا سنتمكن من العودة بعد 15 يومًا.

قمنا بمشاورات عائلية في شأن ما سنفعله. التزم الرجال الدفاع عن زوجاتهم وبناتهم اللواتي عدّوهن أكثر أهمية من الأرض. وكنت يومذاك متزوجًا ولي صبي عمره سنتان وفتاة عمرها سنة. وقررت، حماية لعائلتي، أن أرحل. وسافرنا من قرية إلى قرية إلى أن بلغنا أريحا واستقررنا هناك. لم نملك شيئًا، ولا أرضًا، واضطررت إلى العمل. علّمت في مدارس أقامها الصليب الأحمر وحصلت على دعم من الأمم المتحدة. بقيت ثلاث سنوات في أريحا. عشنا جميعنا في مخيمات للاجئين، وكان الحر شديدًا. انتقلنا بعد ذلك إلى الخليل. وهناك، شرعت مجموعة من الفلسطينيين المثقفين في النقاش السياسي في سبل العودة إلى فلسطين. فها نحن، وقد مرت ثلاث سنوات على طردنا، ولم يحدث شيء على رغم أننا قيل لنا إننا سنتمكن من العودة بعد بضعة أسابيع.

درّست من 1951 إلى 1957 في مدارس الخليل في مخيم العروب للاجئين؛ وفي غضون ذلك أبصر ابني فؤاد وشقيقته أمل النور. وطُردت من فلسطين، بعد انخراطي في نشاطات ثورية، وذهبت إلى سوريا. وقد وُلد الأطفال الآخرون في دمشق. كنت في الحزب الشيوعي أعمل ضد الحكومة وضد الصهيونية والإمبريالية. كان اسمي مدرجًا على إحدى اللوائح وعلي أن أختار بين الذهاب إلى السجن أو الذهاب إلى سوريا. سرنا جميعنا مع أنسبائي مشيًا عبر الجبال على مدى 15 يومًا من الخليل إلى سوريا. تركت الأولاد في الخليل مدة. ولم أواجه أي مشكلة عندما بلغت سوريا وعرّفت عن نفسي. وكان لديهم على الحدود الأردنية السورية اسمي واسم زوجتي؛ وقد عرفوا أن لدي صبيين وفتاة واحدة. فألبست زوجتي فؤاد لباس فتاة، وبدا بالتالي كأن لدينا فتاتين وصبيًّا واحدًا. فعلت ذلك لتشويش السلطات ونجحت.

وعبرت الحدود في إحدى السيارات وعرّف عنهم السائق على أنها، زوجته وأولاده. كان ذلك في 1958.

حاولنا، كلاجئين سياسيين، إنشاء حركة تعارض النظام الأردني. حاولنا إرسال بعض الناس من سوريا إلى الأردن للعمل سرًّا ضد النظام. وعدت في 1966 إلى الأردن بعدما أعلن الملك حسين العفو عن كل النشاطات. ولما اندلعت حرب 1967، كنّا في عمّان. وشعرت بعد الحرب كما لو أنني فقدت كل شيء. قبل 1967، راودني بعض الأمل في إمكان عودتنا إلى منزلنا في التينة، لكنني فقدت كل أمل بعدما احتل الإسرائيليون الضفة الغربية. وهذا هو السبب الذي أدى إلى بدء الثورة حينذاك في الأردن.

كان الأمر، خلال تلك المحنة، معقّدًا جدًّا وصعبًا وحزينًا للأولاد الذين أخذوا في البكاء طوال الوقت. أنهى شقيق فؤاد دراسة الهندسة وانتقل إلى القاهرة. وواصل جميع الأولاد تعليمهم في مدرسة تدعمها الأمم المتحدة. ثم بنيتُ هذا المنزل.

لم تسمح لي الحكومة بالعمل إلا في 1968. حين أصبح ابراهيم حباشوة وزيرًا للداخلية وهو صديق لي وعضو سابق في الحزب الشيوعي. قال إن في وسعي العمل تحت سلطته. فهو وزير لأنه أردني وليس فلسطينيًّا. عملت محاسبًا في خط سكة الحجاز. وبعد وفاة حباشوة جاءت المخابرات وأبلغتني أنني لم يعد في مقدوري العمل. وبعد مجيء منظمة التحرير الفلسطينية إلى عمان، أخذوا يبحثون عن فلسطينيين ذوي تاريخ يمكنهم العمل معهم. ويعني هذا تجنيد عناصر في منظمة التحرير الفلسطينية وتثقيفهم. وعملت بهذه الطريقة حتى 1970. ولما أصبح عرفات رئيسًا لمنظمة التحرير لم أستطع العمل معه لأنني لم أعتقد أننا يمكننا العودة إلى فلسطين. بقيت نشطًا اجتماعيًّا ولكن من دون أن أكون عضوًا في منظمة التحرير.

وها أنا، وقد بلغت الرابعة والثمانين، أعيش هنا مع أولادي وأحفادي. فهل تخلّيت عن الأمل؟ لا، الأمل لا يموت أبدًا. فالصليبيون احتلوا فلسطين مئات السنين ثم رحلوا. ومضى على فلسطين ستون عامًا تحت الاحتلال، وفي النهاية سيرحلون. جاء بعض الرعاع واحتلّونا، لكنهم لن يبقوا إلى الأبد. سنفعل كل شيء للعودة إلى أرضنا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

النكبة

تقارير شهود العيان هذه للفلسطينيين الذين عايشوا المأساة تكذّب الرواية الإسرائيلية والصهيونية للأحداث التي دُسّت للرأي العام العالمي وسُطّرت في كتب التاريخ. فالفلسطينيون لم يغادروا طوعًا، بل أجبروا على الرحيل بالقوة العسكرية، وقتل الكثيرون منهم أو جرحوا، وصودرت أرض أجدادهم ودُمّرت، وخُرّبت أماكن عبادتهم بكنائسها وجوامعها، وحُرموا حقهم في العودة.

في 1961، جهر المؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي بالكلام في توثيقه حقيقة نكبة 1948، مشكّكًا في خرافات الرواية الإسرائيلية الرسمية. وأظهر أن الزعامة الصهيونية اعتنت في التخطيط لها، وسُمح لها بالتكشّف من دون تدخّل من بريطانيا، السلطة الإسمية المنتدبة. وأثبتت أبحاثه أن هدف الصهاينة قضى بتثبيت السيطرة ليس على الأرض التي خصصتها لهم الأمم المتحدة وحسب، بل أيضًا على المناطق التي استولوا عليها خارجها. ويعدد جدولٌ طويل من العمليات، عملية الاستيلاء على مدينة تلو المدينة بهدف «تطهيرها» من العرب. وكان الخالدي أول من نشر باللغة الإنكليزية تقارير إسرائيلية تحضّر للنكبة بما فيها الخطة «دالِتْ» (دال) التي تتضمن الخطوط العريضة لعمليات الطرد(138). واستغرق الأمر سنوات قبل أن يتبع المؤرخون الإسرائيليون خطاه. فبعد حرب 1967، وفي سنوات 1970، استجاب بعض المؤرخين الإسرائيليين وأصبحوا يُعرفون بـ «المؤرخين الجدد». والأكثر بروزًا بينهم هو إيلان بابه الذي فكك رواية التغطية الصهيونية جزءًا فجزءًا. وأماط بابه، في كتابه الصادر في 2006 «التطهير العرقي لفلسطين»، الستار بالتفصيل الموثّق في عناية - مستشهدًا دومًا بالمصادر الثقة - عن طرح الصهاينة، في ظل ديفيد بن غوريون، النكبة كخطة رئيسة لترهيب السكان الفلسطينيين الأصليين وطردهم ثم احتلال قراهم وأراضيهم الزراعية ومدنهم وتدميرها(139).

وأكدت أبحاث بابه تقرير الخالدي أن عمليات الطرد المُخططة بدأت أواخر 1947، عقب إعلان الأمم المتحدة خطة التقسيم، واستمرت خلال 1948، وفي الواقع حتى 1949. قيدت الحملة بطريقة عسكرية بحسب مفهوم إستراتيجي عام تم تبيانه في سلسلة من العمليات المفصلة. فقد اجتمعت مجموعة اختيرت في عناية مؤلفة من 11 معاونًا وعرفت باسم المستشارية - وهي نوع من الأركان العامة - مرة في الأسبوع على الأقل مع ديفيد بن غوريون لوضع الخطط، بدءًا من 18 حزيران/يونيو 1947 (140). ووُضع تنفيذ الحملة على كاهل الميليشيات الرئيسة الثلاث، الهاغاناه التي أسسها بن غوريون إلى جانب الإرغون وليحي(141).

منذ سنوات 1930، وفي إطار التحضير لعملية التطهير، أجرى قسم الاستيطان في الوكالة الوطنية اليهودية بقيادة الصهيوني يوسف فايتز مسحًا للقرى العربية. واحتوى الأرشيف الناتج عن ذلك لمحات مختصرة عن القرى من وجهات النظر الاقتصادية والاجتماعية والدينية والديمغرافية: «تم تسجيل تفاصيل دقيقة عن الموقع الطوبوغرافي لكل قرية والطرق المؤدية إليها ونوعية أرضها وينابيع مياهها والمصادر الرئيسة للدخل فيها وتركيبتها الإجتماعية - السياسية وانتماءاتها الدينية وأسماء مخاتيرها وعلاقاتها بالقرى الأخرى وأعمار كل رجل من رجالها (من 16 إلى 50) والكثير غير ذلك»(142). وتم نشر أفضل المصورين الفوتوغرافيين وعلماء الآثار المحترفين من أجل هذا المجهود الذي هدف أيضًا إلى إظهار الأصول «العبرية» لهذه البلدات. وتم في الوقت نفسه جمع المعلومات الإستخبارية البشرية بقيادة عضو المستشارية عزرا دانين، وأنشئت شبكة من المتعاونين والجواسيس.

وقضى جزء مهم من العمل الإستطلاعي بوضع كل قرية تحت العدسة المكبّرة من وجهة النظر العسكرية. وعلى ما استذكره أحد عناصر الهاغاناه لاحقًا فإنه اضطر ورفاقه، وهم من المطلعين على المدن الأوروبية، إلى التعرّف إلى بنية القرية العربية النموذجية من أجل التحضير لطريقة هجومهم. وعملوا عن كثب مع «المستعربين» الذين يديرون شبكات من المتعاونين(143).

ثم هناك أسلوب الهجوم. فقد افاد دانين، في اجتماع للمستشارية في 10 كانونالأول/ديسمبر 1947، أن مخبريه أبلغوه أن الفلسطينيين إذا تعرضوا للعمل العنفي فسيمكن إجبارهم على القيام بأي شيء. وبات إحلال الخوف أمرًا جوهريًّا(144).

وتضمن منهج العمل الاقتراب من القرية وتطويقها ثم مهاجمتها بالقنابل أو بإطلاق النار لإرهاب الاهالي. وشُرع في جمع القادة المحليين واعتقالهم مع غيرهم من الأشخاص المشبوهين، الذين جمع الجواسيس أسماءهم، وأخذهم لإعدامهم. وما إن يهرب سكان البلدة حتى يتم حرق منازلهم وأراضيهم الزراعية والمباني العامة أو تدميرها. وهذا ما تعرّضت له الخيصاص التي قصفت منازلها في عزّ الليل، وليفتا التي اطلق عناصر الهاغاناه النار من أسلحتهم الرشاشة على أحد مقاهيها فيما أطلق عناصر عصابة شتيرن النار على أحد الباصات. وفي شباط/فبراير نُسفت منازل في يافا بالديناميت والسكان في داخلها، وتبعتها هجمات مماثلة في القيصيرية وسعسع(145). وطُلب من المهاجمين في سعسع قصف المنازل والقتل بأعداد كبيرة(146). وكان الأمر الساري المفعول في استمرار هو الاجتياح والاحتلال والتدمير

وإجبار السكان على الرحيل. وبدا أن بن غوريون كان راضيًا عن النتائج. فقد راعه، لدى زيارته ليفتا بعد تطهيرها، أن سكانها بكلّيتهم من اليهود(147).

ونقّحت المستشارية، في شباط/فبراير - آذار/مارس، خطط المرحلة الحاسمة التالية، المعروفة بالخطة «دالِتْ»، التي تم تبنّيها في 10 آذار/مارس 1948. كانت بمثابة مخطّط لإخراج الفلسطينيين على نطاق واسع من الدولة المخصصة لليهود وما هو أبعد منها. ونشر الخالدي النص الإنكليزي في 1988. وقد دعت الخطة «دالت»، تحت بند تدعيم الأنظمة الدفاعية والمتاريس، إلى شن عمليات على مراكز السكان المعادية الموجودة داخل نظامنا الدفاعي أو على مقربة منه، من أجل منع قيام قوة مسلحة نشطة من تحويلها قواعد لها. ويمكن تقسيم هذه العلميات إلى الفئات التالية:

- تدمير القرى (إحراقها، نسفها، وزرع الألغام في الركام)، وبخاصة تلك المراكز السكنية التي تصعب السيطرة عليها في شكل مستمر.

- شن عمليات تمشيط وسيطرة بحسب المبادئ التوجيهية التالية: تطويق القرية والقيام بعمليات تفتيش في داخلها. ويجب، في حال المقاومة، محو القوة المسلحة وطرد السكان إلى خارج حدود الدولة»(148).

وتم، بحسب ذلك، تجزئة ألوية الهاغاناه الأربعة لجعلها 12، وأعطيت تعليمات محدّدة لكل قائد في شأن القرى التي عليه احتلالها وتفريغها وتدميرها، ومتى(149). ونُفّذت الخطة «دالت» ونجحت أكثر من المتوقع؛ فلم تتم وحسب مهاجمة القرى وإفراغها وتدميرها، بل أيضًا المراكز المدينية الكبرى. والأولى التي تعرّضت للضرب في الأول من نيسان/أبريل 1948 هي المناطق الريفية المحيطة بالقدس. وشكّلت «عملية ناخشون» هذه العملية الأولى من نوعها التي تعمل فيها الميليشيات كلّها كقوّة موحّدة. وبعد ذلك بأسبوع سقطت القسطل وقُتل قائدها العسكري عبد القادر الحسيني. ثم جاءت دير ياسين التي ستصبح رمز الفظاعات التي ارتكبت خلال النكبة. ويفيد بابه، بما أن الهاغاناه توصلت إلى اتفاق عدم اعتداء مع دير ياسين، أنيطت مهمة ارتكاب المجزرة بعصابة شتيرن (ليحي) والإرغون (إتزل). غير أن هاتين العصابتين، وقد ووجهتا بالمقاومة، استدعتا قوات البالماخ التابعة للهاغاناه لاحتلال القرية بكاملها. ثم تعقبتا المدنيين مطلقتين النار عشوائيًّا على الرجال والنساء والأطفال(150).

وحلّت طبريا ومدينة حيفا ذات الميناء تاليًا في روزنامة المستشارية. وينقل بار زوهار، واضع سيرة بن غوريون، ملاحظات أبداها هذا الأخير في يومياته بعدما رأى حيفا وقد تحوّلت مدينة أشباح. وذكر أن بن غوريون تساءل، في شكل تقريري، كيف أمكن عشرات الألوف من السكان أن يتركوا كل شيء،

منازلهم ومقتنياتهم، في مثل هذا الهرب المذعور؟ وتساءل: هل جاء ذلك نتيجة أمر أعطي لهم أم بسبب الخوف فحسب؟ والجواب الذي أعطاه بار زوهار هو أن ذلك قد يشكّل رد فعل على دير ياسين. وزعم أن المجزرة لم يتم التخطيط لها، بل أن الغضب الذي شعره الميليشيويون حيال المقاومة التي واجهوها وحقدهم على الفلسطينيين هما بالأحرى ما أثارها في شكل تلقائي(151).

أخذ الفلسطينيون في مختلف أنحاء البلاد علمًا، كما يجب، بالرسالة التي وجهتها مجزرة دير ياسين. وفي حيفا تلقّى الصهاينة المهاجمون الأوامر بالقتل والتفجير وإضرام النار. وهرب السكان المذعورون إلى الميناء طلبًا للهرب، لكنهم استقبلوا بنيران مدافع الهاون من فوق(152). وتبعتها صفد وعكّا وسقطت الأخيرة ضحية الحرب البيولوجية إذ تم تسميم قناة المياه بجراثيم التيفوئيد مما أدى إلى انتشار الوباء.

وسقطت يافا، موطن تمام الأكحل، أواسط أيار/مايو بعد مقاومة بطولية استمرت ثلاثة أسابيع. وطلب سكانها الخمسون ألفًا الملجأ في قوارب صغيرة ستأخذهم إلى السفن الراسية في الميناء التي ستأخذهم بدورها إلى مكان ما، إلى أي مكان، بعيدًا من القتل والدمار.

غير أن حملة بن غوريون للانتهاء من العرب لم تتوقف عند هذا الحد. فقد قررت المستشارية، في السابع من نيسان/أبريل، القيام بعملية رئيسة لإزالة كل القرى الفلسطينية القائمة على طول الطريق من تل أبيب إلى حيفا، ومن حيفا إلى جنين، ومن القدس إلى يافا(153). وقد نُفّذت العلمية في نجاح.

وفي وقت انسحب البريطانيون رسميًّا في 14 أيار/مايو، وأصدر بن غوريون إعلان قيام دولة إسرائيل، كانت أوصال فلسطين تقطّعت. فقد تم الاستيلاء على أكثر من 200 قرية، إضافة إلى المدن الرئيسة ذات الغالبية العربية وأجبر سكانها على الفرار. وقد أُخرج ما بين 300 ألف فلسطيني و400 ألف من منازلهم. وسيتبعهم مئات الآلاف الآخرين في سياق الحرب.

وثّقت مصادر إسرائيلية رسمية، لم تُنشر حينذاك أسباب هربهم؛ وهي لم تكن أنهم «هربوا»، بل أُجبروا على الخروج. وبحسب تقديرات أجهزة استخبارات الجيش الإسرائيلي فإن أسباب خروج 370 ألف فلسطيني، حتى الأول من حزيران/يونيو 1948، كانت كالتالي: 55 في المئة هربوا بنتيجة الهجمات اليهودية على الأماكن المسكونة (القرى، والمدن الصغيرة والكبيرة(؛ 15 في المئة كردّ فعل على أعمال إتزل وليحي؛ إثنان في المئة نتيجة للحرب النفسية؛ إثنان في المئة أخرجهم الجنود الإسرائيليون؛ عشرة في المئة هربوا

بسبب المشاعر العامة بالخوف؛ خمسة في المئة غادروا استجابة لدعوات السلطات العربية؛ و11 في المئة امتلكوا دوافع غير محدّدة(154).

قررت الجامعة العربية، في وقت لاحق من نيسان/أبريل، إرسال جيوشها، بعد فوات الأوان. وليس ذلك وحسب: فبحسب توثيق مؤرخي الجانبين، تم التوصل إلى اتفاق سري بين البريطانيين والملك الأردني يقضي في شكل أساس بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية (بحسب تقسيم الأمم المتحدة إضافة إلى المناطق التي احتلتها إسرائيل عسكريًّا) وإلى عبر الأردن - الضفة الغربية - تحت السيطرة الأردنية. وهكذا، وعلى رغم القتال الملتزم للقوى المسلحة العراقية والسورية وغيرها من القوى العربية التي افتقرت إلى التسليح وتفوَّقت عددًا، لم يراود أحدًا الكثير من الشك حيال النتيجة. انفجرت الحرب العربية - الإسرائيلية مدة وجيزة ووفرت لبن غوريون المادة للتحجج بأن الدولة اليهودية الحديثة العهد عرضة للتهديد بمحرقة ثانية، وعليها أن تدافع عن نفسها بكل الوسائل. وكان أحد الأرستقراطيين السويديين، الكونت فولك برنادوت الذي أنقذ، بصفة كونه نائبًا لرئيس الصليب الأحمر السويدي، يهودًا في الحرب العالمية الثانية، فاوض على وقف لإطلاق النار من 8 حزيران/يونيو إلى 8 تموز/يوليو، ووقفًا آخر في 18 تموز/يوليو. وقد اغتال عناصر من ليحي الكونت برنادوت لأنه اقترح خطة جديدة لتقسيم عادل لفلسطين وللسماح للاجئين بالعودة(155).

إحتلت إسرائيل، في سياق الحرب العربية - الإسرائيلية، المزيد من المواقع الفلسطينية بما فيها اللد والرملة الموجودتان في المنطقة المخصصة للدولة العربية. تعرّضتا في البداية للقصف الجوي، ثم للهجوم البري الذي أدى إلى طرد ما بين 50 ألفًا و70 ألفًا آخرين من السكان. ومع نهاية الحرب في 1949 كانت إسرائيل استولت على 78 في المئة من منطقة الانتداب البريطاني السابق، فيما أخذت مصر غزة تحت إدارتها. وقد طرد 750 ألف فلسطيني، أو 80 في المئة من السكان، وبقي 150 ألفًا في إسرائيل(156).

وتبعت ذلك عملية تطهير عسكرية وثقافية. أُجبر بدو النقب على البحث عن المراعي الخضر في مكان آخر، فيما طُرد ما تبقى من الجيوب الفلسطينية، وتلوّت خطوط طويلة من المرحّلين كالأفعى في المنظر الطبيعي بحثًا عن ملجأ، أي ملجأ. واستمرت عمليات الترحيل الجماعية خلال صيف 1949.

وما تبقى خضع لإدارة دقيقة من الدولة الإسرائيلية الجديدة. وصودرت الموجودات المالية في الحسابات المصرفية وممتلكات الفلسطينيين المُرحّلين وسُلمت إلى جهاز «قيّم» عليها. واستوعب هذا القيّم الأرض لاحقًا بصفة كونها أرضًا حكومية لا يمكن، بحسب القانون، بيعها من غير اليهود.

ويعني هذا أن ليس في إمكان المالكين الأصليين حتى الأمل في أن يعيدوا شراء منازلهم المسروقة(157).

ما إن خُربت القرى الفلسطينية وتم تسليم ما تبقى منها لدولة إسرائيل، حتى اقتضت المرحلة الثانية تدمير الدليل. فقد تم، بالحرف الواحد، دفن الكثير من القرى الفلسطينية السابقة التي دُمّرت تحت مبانٍ جديدة. أنشئت المتنزَّهات، وزُرعت الحدائق، وكل ذلك تحت اسم الإنماء. وغُيّرت أسماء الأماكن لتأكيد الوجود السابق للمواقع اليهودية القديمة(158).

وقضت الضرورة، أخيرًا، بإعادة كتابة كل تاريخ الاستعمار الصهيوني وعملية الاستيلاء، وحُذفت الإشارة إلى النكبة من الرواية. ومن هنا الثُّغر غير المعقولة في المؤلفات الرسمية التي وضعها مؤسس دولة إسرائيل ديفيد بن غوريون، أو وُضعت عنه. وقد أخذني العجب، في مراجعتي سير الحياة الرسمية، من الغياب التام لذكر بعض المدن. وذكّرني ذلك بالصور الفوتوغرافية في الحقبة السوفياتية التي حُذفت منها شخصيات معروف عنها وجودها (أو كانت موجودة) مما يترك مساحات كبرى فارغة في الصور الجماعية. وهكذا فإن الأمر الوحيد الذي ذُكر عن يافا، في إحدى سير الحياة الرسمية لبن غوريون، هي أن في الأسبوع الثاني من أيار/مايو 1948، أجريت «مفاوضات لتسليمها»(159). ولم تتم الإشارة إلى اللد والرملة وصفد وغيرها من المدن التي خضعت للتطهير العرقي إلا في سياق خطة لجنة بيل للتقسيم. أما الأسماء، مثل الخيصاص وليفتا وسعسع وقيصرية وغيرها من مواقع الترحيل والمجازر مثل طنطورا ووادي آرا وايلابون، فلم يؤت على ذكرها. وقد سبق أن تمت ملاحظة إعلانات بن غوريون الشخصية بالبراءة في ما يتعلق بوجود أي نية لترحيل الفلسطينيين.

وهكذا، لم توجد، بحسب المؤرخين الصهاينة، لا عمليات ترحيل ولا هجمات مسلّحة ولا مجازر (في ما عدا دير ياسين التي شكلت حادثًا مؤسفًا) ولا اغتصابات ولا تدمير للقرى والمباني والجوامع والأرض الزراعية. ولكن يمكن المرء عند ذاك الاعتراض على ذلك بالإشارة إلى وجود أولئك اللاجئين الفلسطينيين. فقد أنشئت الأونروا في كانون الأول/ديسمبر 1949 وقدّمت بعد ذلك بستة أشهر العناية لما يزيد على 900 ألف لاجئ. وفي نهاية 2006 بات هناك 4.4 ملايين لاجئ مسجّل يقيمون في مخيمات في غزة والضفة الغربية وفي الأردن وسوريا ولبنان(160).

وذكر تقرير للجزيرة في 16 شباط/فبراير 2009، أن عدد اللاجئين الفلسطينيين في مختلف أنحاء العالم ارتفع إلى نحو ستة ملايين. فمن أين جاء هؤلاء جميعهم؟ ولماذا هم لاجئون؟ والجواب الرسمي الإسرائيلي هو

أنهم غادروا أرضهم بإرادة محض في 1948 وفي 1967 خلال حرب الأيام الستة التي غزت فيها إسرائيل الضفة الغربية وغزة واحتلتهما.

واجه اللاجئون الفلسطينيون ظروفًا متنوّعة في المخيمات، حيث لم يتمكنوا في لبنان من الحصول على الجنسية أو على الحقوق السياسية والمدنية الطبيعية، بينما يمكنهم في سوريا العمل والدراسة وشراء الأرض. ووضعهم الأفضل هو في الأردن، وسبعون في المئة من سكانه من الفلسطينيين أقل من نصفهم بقليل من لاجئي 1948. فإلى سيل اللاجئين من النكبة، جاءت موجات أخرى على أثر حرب 1967؛ وكذلك عقب حربي 1991 و2003 على العراق؛ وخلال الحرب الأولى طُرد الفلسطينيون أيضًا من بلدان الخليج العربي، مثل السعودية والكويت، كإجراء عقابي لأن منظمة التحرير الفلسطينية عارضت الحرب. غير أن السكان الفلسطينيين واجهوا أسوأ الظروف في غزة، وبخاصة بسبب القبضة الإسرائيلية المتزايدة على خناق الاقتصاد والخدمات الاجتماعية وطرق المواصلات. وشكّلت حرب 2008 على غزة إعادة تمثيل ساخرة للنكبة بالنسبة إلى البالغين الفلسطينيين، وليس مصادفة أن ينبثق شبح دير ياسين من الإدراك الجماعي للشعب الفلسطيني.

وفي ضوء الوقائع التي تؤكد أن إسرائيل أنشئت على أعمال الظلم المعروفة بالنكبة، والتي أكّدها الآن المؤرخون الإسرائيليون، لم يعد هناك من عذر يبرّر الاستمرار في نشر الأساطير الرسمية. تجب مواجهة الحقيقة واستخلاص النتائج. وعلى هذا الأساس، ينبغي للضوء الذي ألقاه هؤلاء «المؤرخون الجدد» على تلك التطورات المأساوية أن يسهم في فهم لماذا تشكّل مسألة عودة اللاجئين مثل تلك القضية الحارقة. فقد وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في 11 كانون الأول/ديسمبر 1948 (في جزء كبير من ذلك بفضل مساعي الكونت برنادوت) على قرار يطالب بحق اللاجئين في العودة أو تعويضهم ما خسروه، إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث. ومن أوسلو وحتى الوقت الراهن، رقص المتفاوضون حول المسألة كما لو انها أفعى سامة انسلّت بطريقة ما إلى ساحة قاعة الرقص. فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، ولا يجرؤ أحد على قتلها. وتأجيل المسألة من مؤتمر «للسلام» إلى آخر هو في حد ذاته انتهاك صارخ للحقيقة. وإدوارد سعيد على حق بقوله بوجوب مواجهة هذه الحقيقة التاريخية.

ولا يتعلّق الأمر وحسب بإمكان تمام الأكحل وابراهيم صالح حسين ومئات الألوف الآخرين على غرارهم العودة في يوم من الأيام حاملين مفاتيحهم القديمة الصدئة فيفتحون من جديد البوابات ويرجعون إلى مساكن عائلاتهم. بل يتعلّق أيضًا بالسؤال الأعمق: أمن الممكن إحلال العدالة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

وماذا عن البريطانيين؟

أفضل وصف يُعطى للدور البريطاني في النكبة هو في استخدام العبارات القديمة التي تختص بها المافيا الإيطالية: فعندما تستجوب السلطات المختصة واحدًا من الـ «اونيراتا سوسييتا» (المافيا) عن مكان وجوده في زمن محدد، فإن جوابه النموذجي هو: «أنا؟ لم أكن هناك، وإذا كنت هناك فإنني لم أر شيئًا».

غير أن واقع الأمر هو أن البريطانيين، سلطة الانتداب، كانوا هناك ورأوا كل شيء، لكنهم اختاروا عدم أخذ العلم لدى تكشف بعض الأحداث البغيضة ليتمكنوا من الخروج بادعاء البراءة نفسه. ويستذكر إيلان بابه بالفعل أن الضابط البريطاني أورد تشارلز وينغايت «هو الذي جعل القادة الصهاينة يدركون في شكل أكبر أن على الدولة اليهودية أن ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالسيطرة العسكرية وبالجيش، بادئ ذي بدء لحماية العدد المتزايد من المحوطات اليهودية والمستوطنات داخل فلسطين، ولكن أيضًا - وهذا هو العامل الأكثر حسمًا - لأن أعمال العدوان المسلحة تشكّل رادعًا فاعلًا ضد أي مقاومة ممكنة من السكان الفلسطينيين المحليين»(161).

وأمكن للبريطانيين، وهم لا يزالون سلطة الانتداب الرسمية، أن يتدخلوا في سياق النكبة، لكنهم لم يفعلوا. فقد أشاحوا بنظرهم مثلًا عن الهجوم الصهيوني على بلد الشيخ في كانون الأول/ديسمبر 1947 والذي أدى إلى مقتل ستين فلسطينيًّا(162). وفي حال حيفا، اطلع اللواء هيوز ستوكويل على المخططات الصهيونية فاقترح على الفلسطينيين أن من الأفضل لهم ربما أن يرحلوا(163).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرضية جريئة

شكلت دراسة التطورات المؤدية إلى 1948 وما بعدها أمرًا شعرتُ أنني سبقت لي معايشته. أطلقتْ بلوى الفلسطينيين أصداء تردّدت في ذهني عمّا سبق لأهلي ولجيلهما الكامل من الأرمن أن اختبروه في 1915. والتشابه في أسلوب عمل الحدثين مدهش: مهاجمة المناطق المستهدفة، في المناطق الريفية أولًا ومن ثم في المدن؛ إرهاب المقيمين بأعمال عنف وحشية؛ إستفراد القادة المحليين وتصفيتهم؛ استهداف الذكور ممن هم في عمر القتال، وفي الغالب عزلهم وسجنهم أو قتلهم؛ وإجبار من تبقى من الضحايا على الهرب في عمليات ترحيل. وما إن تفرغ القرى والبلدات من سكانها حتى يتم احتلالها و/أو تدميرها، وسرقة ما فيها من أمور ثمينة، وإزالة مواقعها الرمزية (تحويل الكنائس اسطبلات، والجوامع مطاعم، إلخ.). ثم تُعاد تسمية تلك المواقع المخصصة لإعادة الاستيطان، ويتم التلاعب بتاريخها. وينخرط مرتكبو هذه الأعمال في عملية إنكار تام، على قول المافيا: «لم أكد موجودًا، ولو كنت هناك فإنني لم أرَ شيئًا».

وكان السؤال الذي أثاره هذا في ذهني هو: هل التشابه سطحي وحسب؟ أهناك طريقة واحدة جليّة لطرد السكان يتصوّرها كل من يواجه مهمة من هذا النوع؟ أم ثمة رابط تاريخي بين الاثنين؟ هل أجريت اتصالات بين تركيا الفتاة وأي من الزعماء الصهاينة اللاحقين؟

أقام بن غوريون نفسه، استنادًا إلى سير حياته الرسمية، منذ البداية علاقة قوية بالأتراك. فقد شارك في 1911 في المؤتمر العالمي الثالث للعمال الصهاينة (بوعيل صهيون) الذي عُقد في فيينا وسافر بعد ذلك إلى سالونيكي فوصل إليها في تشرين الثاني/نوفمبر برفقة اسحق بن زفي وإسرائيل شوشاط. وشرح لاحقًا أنه اختار سالونيكي لأنها «مدينة يهودية محض ... المدينة اليهودية الوحيدة في العالم»(164). غير أن سالونيكي اشتهرت أيضًا بأنها مقر تركيا الفتاة الذي نظّموا انطلاقًا منه اطاحتهم النظام الأمبراطوري في 1908. والتقى بن غوريون في إقامته في سالونكي عضو تركيا الفتاة كاراسو والتقى أيضًا فلاديمير جابوتنسكي، الذي عمل في تحرير منشورات تركيا الفتاة. وسينضم بن غوريون، في 1918، إلى الفيلق اليهودي التابع لجابوتنسكي في كندا، ولاحقًا ليحارب في فلسطين. إنصرف جابوتنسكي إلى تأسيس الإرغون، الوحدة التي أدت دورًا حاسمًا في العملية ضد الفلسطينيين، لكنه مات في 1940 قبل بدء النكبة.

تعلّم بن غوريون التركية سريعًا في سالونيكي وانتقل إلى القسطنطينية بعد ذلك بثمانية أشهر فدرس الحقوق في جامعتها. وفي تلك الحقبة، التي تعرف

بمرحلته «العثمانية»، اعتنق بن غوريون فكرة أن يصبح واحدًا من رعايا الأمبراطورية العثمانية دارسًا قوانينها، وشاقًّا طريقه صعودًا في بُناها السياسية بما في ذلك المناصب الحكومية - وذلك كله من أجل متابعة هدفه الصهيوني. أصبح ورفاقه الطلبة «متتركين» كليًّا، بل أنهم ارتدوا ثياب تركيا بحسب تقليد البلاد بما في ذلك الطربوش(165). وسرعان ما انتُخب الصهيوني الشاب الآتي من بولندا في المكتب التنفيذي الدولي لعمّال صهيون. بقي بن غوريون في القسطنطينية لإكمال دراساته مع بعض الزيارات القصيرة لفلسطين كما، على سبيل المثال، عندما أقفلت الجامعة بسبب حروب البلقان. لكنه أُجبر لاحقًا على الرحيل بسبب ما ذُكر عن أن ارتباطاته بالصهيونية العالمية أصبحت موضع شبهة. فقد خشي جماعة تركيا الفتاة أنه يهدف إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين التي كان لا تزال جزءًا من الأمبراطورية العثمانية(166). وهناك تقارير متناقضة عن الموعد الدقيق لمغادرته الأمبراطورية العثمانية، وآخرها صيف 1915 (167).

هل كان بن غوريون وشركاؤه على علم باضطهاد الأرمن؟ هل عرفوا بما حدث في القسطنطينية في 24-25 نيسان/أبريل 1915 عندما تمت أول عملية اعتقال للمثقفين الأرمن؟ هل أدركوا مغزى تحول تركيا الفتاة من «العثمانية» و«الأسلمة» إلى «التركية» و«التتريك»؟ هل اطّلع بن غوريون ورفاقه على ما حدث في الأناضول خلال 1915 تشير السجلات التاريخية الجوهرية إلى أنهم فعلوا.

أشار بن غوريون إلى المسألة الأرمنية في اجتماع للهيئة التنفيذية للوكالة اليهودية ربيع 1936. وشدد خلاله على أن هيئة الأمم «خدعت» الأرمن الذين وعدتهم بوطن قومي. وقال إن «الأرمن مسيحيون، ومع ذلك ذبح مليون منهم خلال الحرب، وتم الإخلال بالوعد الذي قُطع لهم بوطن قومي». وخلص إلى أن «من الصعب الإخلال بوعد أعطي لليهود على رغم ضعفهم وفقرهم»(168). وعلى رغم أن بعض المعلقين الصهاينة رأوا في الحال الأرمنية تحذيرًا لما قد يحلّ باليهود، فإن أوساط بن غوريون قابلت مصير الأرمن بالكثير من اللامبالاة(169).

وأيًّا تكن تقويمات بن غوريون وشركائه المعلنة فإنهم عرفوا ما حل بالأرمن. والسؤال هو: هل أثّرت هذه المعرفة بأي طريقة من الطرق في مقاربتهم للمعضلة الفلسطينية؟ وهل الخطة «دالت»، كما وثّقها الخالدي وبابه، هي بأي طريقة من الطرق صدى لخطة تركيا الفتاة الإستراتيجية؟ لم يشر السجل التاريخي بعد إلى هذا القدر، ولكن من الجدير طرح بعض الاعتبارات الفرضية.

امتلك أركان تركيا الفتاة، عندما تحرّكوا بطريقة عسكرية منسّقة ضد الأرمن في 1915، مخططًا رئيسًا، «الخطة دالت قبل وضعها»، بمعنى استراتيجية كبرى صيغت في عناية لطرد الأرمن. فقد نفّذوا تقدّمهم الجغرافي من مقاطعة إلى أخرى بحسب خطة رئيسة موضوعة، كما وثّق ذلك لبسيوس(170). وكانت هذه الخطة الكبرى من نتاج «اللجنة التنفيذية الثلاثية»، التي وضعها ثلاثي تركيا الفتاة، على غرار المستشارية التي سيجمعها بن غوريون. فـ «اللجنة التنفيذية الثلاثية» وضعت المخططات بتفاصيلها الدقيقة. وهناك نقطة أخرى ذات صلة تتعلّق بالتوقيت. إذ أمكن جماعة تركيا الفتاة، على ما يُفترض، أن يشن أفرادها حملاتهم التطهيرية ضد الأرمن في وقت أبكر، لكن من شأن مثل هذا التحرك العدائي أن يشكفهم أمام الرأي العام العالمي. فلم يقرروا التحرّك ضد الأرمن إلا بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى؛ وقد وفّر لهم ذلك السياق الذي يمكن من خلاله تبرير مثل هذه «التهجيرات» الجماعية، وخصوصًا عندما اتهموا الأرمن بأنهم «الطابور الخامس» للروس. ومن المهم ملاحظة أن بن غوريون أدرك أهمية وجود وضع حربي يشكّل إطارًا يتم من ضمنه التحرك ضد العدو الداخلي(171). فالفلسطينيون، بالنسبة إلى بن غوريون، يشكّلون أيضًا «طابورًا خامسًا» مُحتَملًا.

والعامل الآخر الواضح المشترك بين الحالين هو المحتوى الإيديولوجي. فبنية المعتقد متشابهة جدًّا مع الصهيونية الراديكالية، كما يشير إلى ذلك الباحثون الكبار في الشؤون التركية والتتريكية(172). ففكرة أن على أي مجموعة إثنية - دينية (أكانت تركية/مسلمة أو يهودية) أن تطالب باحتلال بعض الأراضي المعطاة لها بحسب دراستها التاريخية/الأركيولوجية - أو استنادًا إلى مفهوم «الأرض والدم» - هي فكرة أساسية لكليهما. فكرة القومية التركية تطالب بتوحيد جميع الشعوب التي تتحدث التركية، وفكرة القومية الطورانية إنما تطالب أيضًا بما هو أكثر. ويقضي منظور الصهيونية بأن كل الأرض التي جاء في العهد القديم أنها جزء من مملكة إسرائيل تخص دولة إسرائيل المعاصرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الذهن الجغراسي

شكلت الرواية الصهيونية الرسمية للأحداث التي أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل غطاء من الطراز الأول أخذ يُنشر مع تكشّف الأحداث ويُكرّس بمفعول رجعي في الروايات التاريخة، غير أن المسألة لا تنتهي عند هذا الحد. فاليهود الصهاينة ليسوا أوّل من حلم بفكرة الدولة اليهودية، الدولة التي ستحرم السكان الفلسطينيين المقيمين أرضهم وحقوقهم. فأصول المشروع تمتد إلى قرون بعيدة، إلى الحقبة الأمبراطورية البريطانية الأولى. فهو مخطط إمبريالي بارع لا يمكن فهمه إلا من وجهة النظر هذه.

الافتراض الأساسي الذي ترتكز عليه فكرة الإمبريالية هي أن الناس جميعهم لم يُخلقوا متساوين. بل أنهم ينقسمون إلى الحُكام، الذين يُفترض أنهم يتمتعون بمزايا متفوّقة، والمحكومين المُقدّر لهم أن يكونوا كذلك بسبب دونيّتهم. (وغني عن القول إن الطبقة الأمبريالية الحاكمة هي التي تقرر من ينتمي إلى أي نوع.) وتتقلّد هذه الطبقة الحاكمة، كما في حال الأمبراطورية البريطانية، زخارف تفوّقها على شاكلة القاب أرستقراطية تنتقل من جيل إلى جيل على غرار جواهر العائلة. وفي لغة مشابهة في شكل مدهش للغة المستخدمة في ممكلة الحيوان، فإن اللغة الإصطلاحية التي تستخدمها الأرستقراطية لوصف نفسها تبرز عبارات مثل «السلالات» و«الأنسال» و«الأنساب» الخ. وتديم العائلة الحاكمة، أو الملكية، من ثمّ سيطرتها كسلالة حاكمة، مستحضرة في معظم الحالات الحق الملوكي الإلهي. وتأتي الموارد الاقتصادية، التي تضمن للأسر المالكة وللأرستقراطية استمرار وجودها، من الملكيات العقارية والصناديق المالية. ويوفّر كل من الأمبراطورية الرومانية والنظام الأوليغارشي في البندقية، اللذين درسهما المؤرخون الإنكليز في العمق، سابقة تاريخية لهذا التدبير.

ويشكل «العرق» امتدادًا لمفهوم «العائلة» إلى شعب بأكمله. ويحتاج نظام الإخضاع الإمبريالي ليؤدي دوره إلى تحديد الشعوب الخاضعة على أنها تنتمي إلى عرق مختلف ودونيّ، وإلى التأكّد من أن «أصحاب البشرة الداكنة» يدركون ذلك تمام الإدراك، رجاءً(173). وأحد الأمثلة الصارخة هو معاملة القوة المُستعمِرة للعلم والثقافة الهنديين. وقد أظهر إدوارد سعيد في دراسته الرائدة، الاستشراق Orientalism كيف أن الإستعماريين البريطانيين (والفرنسيين) درسوا الشعوب التي ينوون إخضاعها، بلغاتها وثقافتها وتقاليدها وخصوصياتها بنية استخدام مثل هذه المعرفة في سيطرة أفضل عليها. وشدد تشارلز إ. تريفيليان على أن تعليم الشعوب المخضَعة التقاليد الإنكليزية شكل الوسيلة لتحويل نظرتها إلى القوة المستعمرة من صفة كونها سيّدة إلى صفة كونها صديقة سيسعون جاهدين إلى استنساخ نظامها(174).

عرض إدوارد سعيد في «الثقافة والإمبريالية» Culture and Imperialism مفهومه للإمبريالية على أنه «ممارسة ونظرية ووضعيات مركز الحضارة المُسيطِرة التي تحكم إقليمًا بعيدًا؛ ويعني الاستعمار، الذي يكاد يكون دومًا نتيجة للإمبريالية، إقامة مستوطنات على أرض بعيدة»(175). واستشهد بجون ستيورات ميل الذي شرح أن مثل هذا الاستعمار ليس إلا مجرّد وسيلة عملية لإنتاج بعض السلع في مناخات مؤاتية(176). وقد بلغت الوقاحة بسيسيل جون رودس حد تسمية إحدى المستعمرات (روديسيا) على اسمه، وقد كان فظًّا في شأن حاجة الإمبريالية إلى العثور على مناطق جديدة يمكنها توفير المواد الخام والعبيد للعمل، فيما تُستخدم «مكبًّا» لبضائع الوطن الأم(177).

ميّز الإمبرياليون البريطانيون أنفسهم أيضًا من خلال اعترافهم القليل الحياء بالأبعاد الطبقية والعرقية للدور الإجتماعي الذي آلوه على أنفسهم. فاللورد ألفرد ميلنر، من مجموعة الجغراسيين البريطانيين البارزين مطلع القرن العشرين، كان صريحًا(178). وقد عدَّ نفسه «قوميًّا، وليس مواطنًا عالميًا»، مضيفًا «أنا قومي بريطاني (وبالفعل إنكليزي في المقام الأول). وإذا كنت أيضًا إمبرياليًّا فمردّ ذلك إلى أن قدر العرق الإنكليزي... هو في العثور على جذور جديدة في أماكن بعيدة. ... فوطنيتي لا تعرف حدودًا جغرافية وإنما حدود عرقية وحسب. وأنا إمبريالي ولست ممن يهتمون فحسب بمصالح إنكلترا الداخلية، لأنني محب لعرقي الوطني الإنكليزي»(179). وأعتقد رودس أن النعمة الأكبر التي يمكن أن تُمنح لشخص أو لشعب هي في السماح له بأن يصبح جزءًا من الأمبراطورية الإنكليزية: «أؤكّد أننا العرق الأول في العالم، وكلما زادت عدد أماكن العالم التي نسكنها، كان ذلك أفضل للجنس البشري أضف إلى ذلك أن امتصاص الجزء الأكبر من العالم إلى تحت حكمنا يعني في بساطة وضع حد لكل الحروب»(180).

الأمبراطورية

زُرعت بذور الأمبراطورية البريطانية خلال حكم إليزابيث الأولى، ونبتت خلال الثورة البيوريتانية بقيادة أوليفر كرومويل الذي لم يكتف فحسب بتطوير الإندفاعة الإيديولوجية بل أيضًا الأسطول البحري العظيم الذي سيسمح لبريطانيا بالسيطرة على البحار(181). وبعدما أنزل البريطانيون الهزيمة بالأرمادا (الاسطول الحربي) الإسبانية، وكسروا، بموجب قانون كرومويل للإبحار، الهيمنة الهولندية على التجارة، تحوّلوا نحو الفرنسيين وطردوهم، في 1763، من الأميركتين ومن شبه القارة الهندية. واستمرت الأمبراطورية في التوسع، وشرعت في ممارسة بأسها العسكري في القرن التاسع عشر. وقد ضمت بحلول 1871 محميتي مالطا وجبل طارق في البحر المتوسط؛ وعدن وسيلان وبورما السفلى وهونغ كونغ في آسيا؛ وكايب كولوني ناتال

وسيراليون، وغامبيا في أفريقيا؛ وفي نصف الكرة الغربي، كندا وغينيا البريطانية جزر الهند الغربية البريطانية هندوراس البريطانية برمودا وجزر الفوكلاند. وتمكن البريطانيون، من خلال ديزرايللي، من أن يشتروا في 1875 حصة في قناة السويس، وهي الطريق التي يعوّلون عليها في الوصول إلى الهند «الجوهرة الأكثر إشراقًا في التاج البريطاني»، وإلى بسط سيطرتهم على مصر بعدما حولوها محمية الأمر الواقع في 1882 ومحمية رسمية في 1914. وفي 1896 - 1898 شنت بريطانيا، بقيادة اللورد كيتشنر، هجومًا ساحقًا على السودانيين واستعبدت البلاد. ووسعت بريطانيا ممتلكاتها الأفريقية باحتلال أرض الصومال في 1884. وأضيفت إليها أوغندا في 1894، وشرق أفريقيا البريطانية. وفي 1909، تحوّلت الأقاليم الجنوبية، بما فيها «دولة البرتقال الحرّة» وترانسفال، إلى اتحاد جنوب أفريقيا. واستمر التوسع الإمبريالي في آسيا مع امتداد النفوذ البريطاني من بالوشيستان إلى أفغانستان والتيبت. وسقطت بورما بكاملها، في 1886، في أيدي البريطانيين وكذلك دولتا مالاي وبورنيو الشمالية.

وعكست مطامع البريطانيين الجغرافية حرصهم، كقوة بحرية، على تعزيز حكم البحار من خلال السيطرة على النقاط الخانقة الأساسية مثل جبل طارق وعدن ورأس الرجاء الصالح وقناة السويس التي عليها المعوّل، وقلّة من الجزر ذات المواقع الاستراتيجية(182). غير أن الجغراسيين البريطانيين اضطروا، مع تطوير السكة الحديد، إلى إعادة النظر في الأسس الجغرافية لسياسة القوة، وخرجوا عند ذاك بمفهوم «المعقل» heartland وصاغ هالفورد ماكيندر، العضو في مجموعة «كو-إفيشنتس» Co-efficients والاستراتيجي البارز في عملية العد العكسي للحرب العالمية الأولى، عبارة «المحور الجغرافي للتاريخ»، ومفهومه في خطاب أصيل ألقاه في الجمعية الجغرافية الملكية في 25 كانون الثاني/يناير 1904. واعترف ماكيندر بالتحوّل الذي أحدثه النقل بالسكة الحديد حيال القوة البحرية، وتحدّث عن مستقبل مركز القوة، «المحور»، بصفة كونه «المعقل المغلق اليورو - آسيوي، وهو كتلة شاسعة جدًّا من الأرض تحتوي أربع ديانات هي البوذية والبراهمانية والمحمّدية والمسيحية». وطرح ماكيندر السؤال البلاغي: «أوليست المنطقة المحورية لسياسات العالم هي تلك المنطقة الشاسعة من أوروبا الآسيوية التي يتعذّر وصول السفن إليها، لكنها كانت في الأزمنة القديمة مفتوحة أمام البدو راكبي الأحصنة، وهي اليوم على وشك أن تُغطّى بشبكة من السكك الحديد؟» ومضى يقول: «كانت تلك، وهي اليوم، شروط تحرّك القوة العسكرية والإقتصادية ذات الطابع البعيد المدى ولكن المحدود. فروسيا حلّت محل الأمبراطورية المغولية. وحلّ ضغطها على فنلندا واسكاندينافيا وبولندا وتركيا وبلاد فارس والهند والصين محلّ الغارات المتباعدة عن المركز لرجال

السهوب. وهي تحتل، في العالم بأسره، الموقع الاستراتيجي المركزي الذي تحتله ألمانيا في أوروبا وما التطوير الكامل لحركة سككها الحديد إلا مسألة وقت». وفي الخاتمة: «أن الاخلال بميزان القوة لمصلحة الدولة المحور، والذي ينتج عنه توسعها في مناطق هامشية في أوروبا الآسيوية، سيسمح باستخدام مصادر إقليمية واسعة لبناء الأساطيل، وستمكن عند ذاك مشاهدة أمبراطورية العالم». وحذّر من «أن هذا قد يحدث إذا تحالفت ألمانيا مع روسيا»(183).

ويصبح بالتالي على السياسة الإمبريالية البريطانية أن تتحرّك لمنع هذه الدول غير الهامشية الموجودة على تلك الخريطة من الدخول في تحالفات، وبخاصة من خلال عمليات إنماء مشتركة مثل بناء السكك الحديد التي أثارت القشعريرة لدى ماكيندر. وقضى هدف بريطانيا الإمبريالية بأن تجهض، أيًّا يكن الثمن، أي تعاون مثمر بين روسيا وألمانيا، وبين ألمانيا وفرنسا. ففكرة التعاون بين الثلاثة كانت بمثابة لعنة إلهية. (على رغم أن البريطانيين هزموا فرنسا في 1763، وصدّوا مطامعها في سوريا في 1840-1841 وأعادوا تحديد موقعها في أفريقيا بصفة كونها الشريك الصغير في التفاهم الودّي أواخر القرن التاسع عشر، فإن بعض الفئات في فرنسا بقي، على نحو دوري، يشدد على الاندفاع في اتجاه التعاون الأوروبي - الآسيوي، وتوجّب ضربه لإخضاعه.) وكُرّست الاجتماعات الشهرية لكو-إفيشنتس لرسم خارطة وسائل قطع الطريق على مثل هذه التحالفات. وانكبوا في أحد الاجتماعات في 27 نيسان/ أبريل 1903 على مسألة: «كيف يجب أن تكون علاقة بريطانيا مع القوى الأوروبية العظمى؟» وعدُّوا أن فرنسا لا تزال، موقتًا، تحت السيطرة، لكن ألمانيا وروسيا مسألة أخرى. «وفي المجمل، اتفق الجميع على الاعتراف بأن التقدّم الروسي الدؤوب وربما المحتوم ضد دول آسيا الضعيفة يشكل في الواقع المشكلة السياسية الدولية الأكثر صعوبة. غير أن الكثيرين ألحّوا على أنها ليست بمشكلة تستدعي عداوات مبكرة، ويمكن، من خلال صياغة صداقاتنا الدولية وتحالفاتنا، تأجيلها للانصراف إلى المعارضة الأكثر إلحاحًا للمطامع الألمانية»(184).

وُجدت اختلافات ذات شأن في وجهات النظر بين أعضاء الكو - إفيشنتس حيال التلاعب بالنزاعات لخدمة أهداف لندن، وطريقة تحاشي جرّ الأمبراطورية إلى حرب غير محسومة النتائج. وحذّر ماكيندر من أن تأليب ألمانيا على روسيا يحمل بعض المخاطر. وقال «إذا سمحنا بوقوع حرب بين ألمانيا وروسيا، ولم نتدخّل، فستسحق ألمانيا روسيا»، وهو في حد ذاته تطوّر مرغوب. لكن النتيجة هي أن «ألمانيا ستخرج من الحرب وقد سيطرت على المعقل ونكون نحن قد خسرنا أمبراطوريتنا»(185). اتهم برتراند راسل ماكيندر بالغثيان وردّ بأن «عندما تمضي ألمانيا وروسيا إلى الحرب

فستحطّمهما الثورة. وستدمّر واحدتهما الأخرى». وإذا لم تجر الأمور على هذه الحال فسيتوجب على بريطانيا التحرّك. وقال: «إذا أُجبرنا على التدخّل فسيمكننا دومًا الاعتماد على بحريتنا». وبالنسبة إلى راسل هناك واقع واحد واضح: «إذا نزفت ألمانيا وروسيا فذلك انتصار. وكل شيء آخر باطل»(186).

يجمل هذا الجدال في إيجاز كلًّا من هدف الجغراسيا البريطانية ومنهجها: منع التعاون الروسي - الألماني والقيام بذلك من خلال تأليبهما بعضهما على بعض على غرار الكلاب الشرسة. وستتحوّل هذه الرغبة في تدبير أن يدمّر هذان البلدان أحدهما الآخر، هاجسًا دائمًا ولّد الزخم الذي أدى إلى حربين عالميتين.

نقّح ماكيندر مفهومه لـ «المحور» ووسّعه، أواخر 1918، في بحث تحت عنوان «المثُل الديمقراطية والواقع». وتبصّر في الحرب التي انتهت للتو ليعلن أن النزاعات تنشأ من «النمو غير المتكافئ» بين الدول وهو بدوره نمو تحدده العوامل الجغرافية. وكتب: «وبعبارات أخرى، لا يوجد في الطبيعة أمر اسمه تكافؤ الفرص بالنسبة إلى الأمم. وما لم أسىء قراءة وقائع الجغرافيا، فسأذهب إلى ما هو أبعد وأقول إن مجموعات الأراضي والبحار والخصوبة والممرات الطبيعية، هي في حال تتلاءم مع نمو الأمبراطوريات، وفي النهاية مع أمبراطورية عالمية وحيدة»(187).

عند ذلك الحد كانت فكرة «المعقل» توسّعت جدًّا في ذهنه: «إذا أخذنا مناطق القطب الشمالي مع Continental drainage فإن حجمها معًا يبلغ نحو نصف آسيا وربع أوروبا ويشكل بقعة متواصلة كبرى شمال القارة وفي قلبها. وكان يتعذّر بلوغ البقعة بكاملها، الممتدة تمامًا على جانب الساحل المنبسط لسيبيريا إلى الشواطئ الشديدة الحر والانحدار لبالوشيستان وبلاد الفرس، بالملاحة في المحيطات. ويشكّل فتح الطريق إليها من خلال السكك الحديد - لأنها كانت قبل ذلك خالية عمليًّا من الطرق - وعبر خطوط الطيران في المستقبل القريب، ثورة في علاقات الناس بالوقائع الجغرافية الأكبر في العالم. ولنسمّ هذه المنطقة الكبرى معقل القارة»(188). بل إنه توسّع في مفهوم «المعقل» إلى جزيرة العالم التي هي أكثر اتساعًا وتضم «القارات الأوروبية والآسيوية والأفريقية معًا»(189). واستخلص النتائج الجغراسية:

«من يحكم أوروبا الشرقية يسيطر على المعقل

من يحكم المعقل يسيطر على جزيرة العالم

من يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم»(190).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الأراضي المقدسة

لم يختلف جماعة الـ «كو-إفيشنتس» على هوية ذلك الحاكم، كذلك لم يشك أي من الأعضاء في أن قدر بريطنيا يصل إلى ما هو أبعد من مجرّد السيطرة على «المعقل». وحدّد الإمبريالي الآخر في المجموعة، سيسيل رودس، في النسخة الأولى من وصيته أهداف الأمبراطورية التي اقترح أن تنفّذها جمعيات سرية تعمل كطابور خامس في الأمم المستهدفة (روسيا، ألمانيا، أميركا):

«على الهدف الحقيقي للجمعية السرّية، من أجل إنشائها وتعزيزها وتطويرها، وفي سبيلها، أن يكون بسط الحكم البريطاني في كل أنحاء العالم، واستكمال منظومة الهجرة من المملكة المتحدة وقيام الرعايا البريطانيين باستعمار كل الأراضي التي يمكن أن تُكتسب منها أسباب العيش بالطاقة والعمل والمبادرة، وبخاصة من خلال احتلال المستوطنين البريطانيين كل قارة أفريقيا والأراضي المقدسة ووادي نهر الفرات وجزيرتي قبرص وكانديا وكل أميركا الجنوبية والجزر الواقعة في المحيط الهادئ والتي لم تمتلكها بريطانيا العظمى بعد وكل أرخبيل مالاي وساحل الصين واليابان، والاستعادة النهائية للولايات المتحدة الأميركية بصفة كونها جزءًا لا يتجزّأ من الأمبراطورية البريطانية، وتدشين نظام من التمثيل في البرلمان الإمبريالي الذي قد يتّجه إلى أن يلحم معًا أطراف الأمبراطورية المفككة، وأخيرًا تأسيس قوة على درجة من العظمة بحيث تجعل الحروب مستحيلة وتعزّز مصالح الإنسانية الفضلى»(191).

حدد البريطانيون الآلية الأكثر فاعلية لتطبيق رؤية رودس الطموحة بأمبراطورية عالمية على أنها النزاع العالمي الذي يسبق الوصول إلى هذا «السلام الأبدي». فالحرب العالمية الأولى التي اشتعلت بفعل الدسائس البريطانية مهّدت الطريق لإقامة وجود دائم في «الأراضي المقدسة» و«وادي نهر الفرات»، وتضم المصادر الغنية بالنفط التي تحتويها تلك العقارات الضخمة. وقضت إستراتيجية زمن الحرب البريطانية بتعبئة القوى العربية للمساعدة في سحق الأمبراطورية العثمانية (المتحالفة مع ألمانيا)، وتقسيم المنطقة دائرتي نفوذ أو ملكيات الأمر الواقع الإستعمارية بين البريطانيين والفرنسيين، وهذا أفضل فلم تشكّل معاهدة سايكس - بيكو السرّية بينهما خيانة للعرب وحسب، بل رسمت أيضًا حدودًا مصطنعة ودولًا صنيعة جديدة ومهّدت الساحة بعد ذلك بسنة لوعد بلفور الذي تعهّد لليهود دولتهم الصنيعة، أو «الوطن القومي» في فلسطين. وباتت بريطانيا، من خلال النزاع المدمّر، في الطريق تمامًا لإنجاز مخططها الإمبريالي: فقد ضمنت طرقها إلى الهند، وقضت على الأمبراطورية العثمانية، وتقاسمت الدول العربية الجديدة مع فرنسا؛ وأقامت بريطانيا أيضًا موطئ قدم لها في بلاد فارس ونصّبت واحدًا

ممن يخصّونها على العرش هناك ووقّعت عقودًا طويلة الأمد لسرقة النفط(192).

شكّلت الاندفاعة الاستراتيجية الأوسع السياق الذي وُضع فيه الحجر الأساس للدولة اليهودية. أما وقد ذكرنا ذلك، فإن الرعاية البريطانية لدولة يهودية في فلسطين تعود حتى إلى مرحلة أسبق في الزمن، قبل وقت طويل على توقيع اللورد بلفور وعده في 1917. وشكّل الأمر التزامًا شديدًا حيال السياسة البريطانية منذ سنوات 1840 عندما كان اللورد بالمرستون وزيرًا للخارجية. نوى بالمرستون كبح المطامح الفرنسية في الشرق الأوسط، فكتب رسالة إلى سفيره في القسطنطينية يعلن فيها وجود شعور لدى يهود أوروبا أن الوقت حان للعودة إلى فلسطين. وأضاف أن مثل هذه العودة إذا تمتعت بحماية السلطان فسيحبط خطط محمد علي الذي يشكّل ركيزة للفرنسيين في مصر(193).

ثم أن المكتب الإستعماري أصدر، في 1845، وقبل خمسين عامًا بالتمام على ظهور Der Judenstaat «الدولة اليهودية» لهرتزل، تقريرًا يقترح فيه دولة يهودية في فلسطين تحت الحماية البريطانية ستضع الأمبراطورية في موقع مشرف لمنع وصول الغزاة، بالقوة إذا لزم الأمر. ووجد مثل هذا التحرك البريطاني الدعم في «حزب ديني» أشار إليه بالمرستون بصفة كونه تجمع المسيحيين الذين يؤمنون في حرارة أن الوقت حان لعودة الشعب المختار إلى الأراضي المقدسة وأن اللّه اختار بريطانيا لقيادة العودة(194). وكان اللورد أشلي (الإيرل السابع لشفتسبري)، المتزوج من ربيبة بالمرستون، أحد الأشخاص البارزين في هذا المجهود. نشط أشلي بين اليهود الذين لهم وجود في القدس من خلال «الجمعية اللندنية لتعزيز المسيحية». وشارك أشلي، في 1865، في تأسيس «صندوق استكشاف فلسطين»، وهو واحد من الكثير من المؤسسات التي انشأتها بريطانيا تحت الستار الأركيولوجي لمسح فلسطين وتحديد «المواقع القديمة الخاصة بالكتاب المقدس» التي يمكن استخدامها أساسًا للمزاعم الإستيطانية الصهيونية ولاستثارة النزاع مع السكان الفلسطينيين(195).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بريطانيا هي إسرائيل

يصل المرء، بتقفيه آثار المشروع البريطاني الصهيوني في الزمن، إلى المظهر الديني، أو بالأحرى التديّني، لأصل المسعى البريطاني الذي عُرف بإسرائيل البريطانية. وإحدى المزايا المشتركة بين الأمبراطوريات هي أن النخب الحاكمة تخلق وتسوّق لانتشار عبادات دينية زائفة كوسيلة للسيطرة الإجتماعية. فبنية الإيمان في العبادة يهدف، أوّلًا، إلى تبرير وجود الطبقة الحاكمة من خلال التأكيد بطريقة من الطرق أن الإله، أو الآلهة التي يُعتقد أنها سائدة، قد اختار هذه الطبقة لتسود على الجمهور العريض. ثم أن بنية الإيمان هذه ستؤدي، ثانيًا، إلى انصياع الجماهير التي يشغلونها دوريًّا في شعائر تعيد تأكيد الترتيب الاجتماعي. فإذا اعتقد الفرس أن ملك الملوك عندهم يمثّل أهورا مازدا، فإن البابليين امتلكوا البعل، وشيّد الرومان معبد جميع الآلهة (البانثيون) وتولّوا عبادة الميترا، ثم كان للبريطانيين ربّ الإسرائيليين.

ينشأ التعصّب الذي حرّك قبضة لندن الإمبريالية على فلسطين من الأصول البريطانية الإسرائيلية للحركة التي تقف وراء الصهيونية البريطانية. وقد نشأت حركة البريطانيين الإسرائيليين في حقبة إليزابيث الأولى وازدهرت خلال حكم بيوريتانية كروميل الثورية، ولفّقت قصة قبائل إسرائيل العشر «الضائعة» التي انفصلت عن قبيلتي الجنوب («يهوذا») وهامت على وجه الأرض وانتهى بها الأمر في النهاية في الجزر البريطانية. وتقول روايات مختلفة إن القبائل انقسمت ومضت في اتجاهات مختلفة: بعضها إلى روما، وأخرى إلى مختلف مناطق روسيا، وأخرى إلى بريطانيا وأميركا. ويُعتقد أن الإسرائيليين الذين بلغوا بريطانيا اندمجوا مع الكلتيين ليشكلوا الشعب الإنكليزي (أو العرق الأنكلو - ساكسوني).

ويعني هذا أن البريطانيين يتحدّرون من الملك داود وورثوا التفويض بإنشاء ممكلة عالمية تدوم إلى الأبد. وهكذا يمكن اتحاد بريطانيا - إسرائيل العالمي أن يعلن: «نعتقد أن الميثاق أقام عرش داود وذرّيته إلى الأبد وهما موجودان الآن في البيت الملكي البريطاني. ونعتقد أيضًا أن المسيح العائد سيحتل هذا العرش ويحكم إسرائيل في البداية ومن ثم، من خلال الخدمة المخلصة لإسرائيل، يحكم العالم بأسره»(196). أو بحسب رواية مغايرة فإن «الكلتيك - الأنكلو - ساكسون هم إسرائيل، شعب اللّه المختار»، و«ملك إنكلترا الحالي، إدوارد ألبرت كريستشان جورج أندرو باتريك ديفيد هو الأمير المتحدّر من سلالة الملك داود...»(197). وشرح المصدر البريطاني - الإسرائيلي نفسه: «عندما دحر الجنرال أللنبي، الجندي البريطاني، الأتراك من فلسطين واستولى على تلك الأرض، شكل الإنكليز أولاد إسرائيل، من الشمال ومن كل

بقاع، العائدين إلى الأرض التي أعطاها اللّه لآبائهم تحقيقًا لما ورد في سفر إشعيا 23:7 و8»(198).

أما كيف سينجز البريطانيون بالتحديد هذه المهمة وقد تجسّدوا بصفة كونهم مملكة إسرائيل فقد شُرح في النبوءة التي تقول إن يومًا سيأتي تعود القبائل الضائعة إلى الأراضي المقدسة فتخاض المعركة النهائية، أو أرمجدّون، ضد الكفار. وهذه نهاية الأزمنة التي تُستَهل بإعادة بناء هيكل سليمان وتعجّل بعودة المسيح المنتظر. وما له مغزى في هذه «النظرية» المزعومة هو التمييز بين الإسرائيليين (البريطانيين) واليهود (المتحدرين من «يهوذا»). وعلى رغم أن الإسرائيليين البريطانيين كانوا «الإسرائيليين الأصليين»، فإن اليهود المعاصرين الذين يتلاعبون بهم هم الذين سيُرسلون «للعودة» لتتم التضحية بهم في المعركة. وقد أصبحت هذه النظرية الجنونية فعل إيمان فئة داخلية صميم تُعرف باسم البريطانيين الإسرائيليين. وكان كروميل أكثر مؤيديهم المكافحين وقد آمن بأن اللّه اختار إنكلترا والشعب الإنكليزي لإقامة مملكته على الأرض. أما الأداة التي اختارها اللّه فليست إلا كروميل ورجاله في السلالة الملكية الخامسة؛ وقد جمع جيش النموذج الجديد التابع له ألويته لتنفيذ المهمة الإلهية. وقال كروميل لأعضاء البرلمان في 1654 إنهم لا يمثلون مصالح بريطانيا وحسب، بل و«ألقيت على كواهلكم مصلحة جميع مسيحيي الأرض»(199).

ومضى توماس كارلايل قدمًا في رؤية كروميل لإنكلترا وقد قيّض لها اللّه أن تحكم العالم، ونشر طبعات لخطابات كروميل مع تعليقات عليها. وآمن كارلايل في قوة بأن اللّه منح إنكلترا حق الاستعمار في مختلف أنحاء العالم، وفي أن تحكم «الزنوج» الذين لولا ذلك لما أمكنهم، باعتقاده، إنتاج أمر له قيمة. وبين أعضاء الطبقة الحاكمة في إنكلترا الذين احتضنوا وجهة النظر البريطانية الإسرائيلية، ديزرايللي والملكة فيكتوريا، وبالطبع ديفيد للويد جورج الذي تولى رئاسة الحكومة خلال الحرب العالمية الأولى. وعندما يقرأ المرء عن «البريطانيين الصهاينة» في سنوات القرن العشرين الأولى، كما بالنسبة إلى جماعة الـ«كو-إفيشنتس» (والطاولة المستديرة)، فإن الإشارة هي إلى البريطانيين الإسرائيليين القريبي العهد، الحاملين المعاصرين للتقليد التاريخي الطويل.

ومن إنكلترا، انتشرت بنية الاعتقاد هذه في الولايات المتحدة من خلال مختلف الكنائس المنشقة، مما أدى إلى نشوء ظاهرة الأصوليين المسيحيين، الذين يُعرفون أكثر باسم المسيحيين الصهاينة(200). وهذه هي الطبقة الاجتماعية التي شكّلت القاعدة الإنتخابية لآل بوش، وقد تمت تعبئتها لدعم حربين ضد العراق، وتعهّدت الدعم الأبدي للقضية الصهيونية. وقد أكّد

كروميل الأميركي، جورج و. بوش، علنًا أنه أنجز وحسب مهمة أوكلها إليه اللّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حرب عالمية ثانية

حسمت الحرب العالمية الأولى عددًا كبيرًا من الأهداف الإمبريالية البريطانية كما وضعها رودس، ولكن بقي الكثير منها ينتظر الإنجاز. وعوقبت ألمانيا في قساوة في مؤتمر فرساي بعدما هُزمت في الحرب وأُلقيت عليها الملامة، خطأ، بالتسبب في نشوبها. وقد أُثقلت بتعويضات عن الحرب ليس في وسعها أن تأمل أبدًا في تسديدها. ومهّد ما نتج عن ذلك من أزمة اقتصادية الأرضية لأدولف هتلر وحركته النازية لتولّي السلطة. والميزة الأكثر أهمية في صعود هتلر إلى السلطة، في ما يعنينا، هي المساندة الحاسمة التي حصل عليها من البريطانيين (ومن البعض من الأميركيين الذين يشاركونهم التفكير). دعمت المصالح البريطانية هتلر ماليًّا وسياسيًّا وإيديولوجيًّا. وجاء الدعم المالي من بعض الدوائر المرتبطة بحاكم بنك إنكلترا مونتاغو كوليت نورمان وشركائه الأميركيين جورج هربرت ووكر، والسيناتور بريسكوت بوش، ودبليو أفريل هاريمان وسواهم(201).

أما الغطاء السياسي فوفّره خلفاء دوائر الـ«كو-إفيشنتس» والطاولة المستديرة إضافة إلى الحكومة. وقد دوّن للويد جورج، الرجل نفسه بالضبط الذي فاض تعاطفًا مع الدولة اليهودية، انطباعاته عن هتلر بعد اجتماعه معه عام 1935. ويمكن المرء أن يقرأ في يومياته: «هتلر رجل عظيم جدًّا». ولاحظ للويد جورج، وقد تلقى صورة موقعة من الفوهرر، «كم أنني أتشرّف بحصولي على الهدية من أعظم ألماني على قيد الحياة». ونقلت عنه الديلي إكسبرس في 9 أيلول/سبتمبر 1936 قوله إن هتلر «قائد للرجال بالفطرة. شخصية مغناطيسية ديناميكية. ... الكبار يثقون به والصغار يؤلهونه»(202). وفُهمت مهمة اللورد نفيل تشامبرلاين إلى ميونيخ في 1938، عن حق، على أنها عملية تهدئة. بل أن الملك نفسه، إدوارد الثامن لا غير، كان معجبًا صراحة بالزعيم النازي الألماني بحيث أنه أجبر على التنازل عن العرش في 1936 عندما أصبح الأمر مُحرجًا سياسيًّا.

وفي اختصار، فإن النخب البريطانية كانت، بدرجات متفاوتة، تساند مشروع هتلر، - أقلّه ما دام الديكتاتور الألماني الجديد يعمل بحسب خطة لعبتهم، أي ما دام يتحرّك عسكريًّا في اتجاه الشرق. فالمصلحة الاستراتيجية البريطانية، كما ناقشها ماكيندر وراسل قبل ذلك بعقد، قضت بوضع ألمانيا في مواجهة روسيا، واتخذت هذه المرة شكل النازيين في مواجهة الاتحاد السوفياتي، مع الأمل في أن يدمّرا بعضهما بعضًا. غير أن هتلر لم يتحرّك شرقًا، بل وقّع ميثاق عدم اعتداء مع موسكو، وتحرّك غربًا. عند هذا الحد، وبعدما غزا هتلر فرنسا واحتل باريس، تمزّقت سيناريوهات الجغراسيين قطعًا كثيرة من الورق. واضطر البريطانيون إلى التخبّط في الاندفاع وبذل جهد كبير للدفاع

عن بريطانيا، والصراخ «يا عم» لإقناع إدارة روزفلت الأميركية بإلقاء وزنها الاقتصادي والعسكري الهائل في المجهود.

وهناك مسألتان يمكن الوصول إليهما في سهولة في الكتب هما: أولًا، أن الحلفاء بذلوا كل ما في وسعهم لإطالة أمد الحرب أملًا في استنزاف ألمانيا حتى آخر نقطة. وثانيًا، وبالتلازم مع ذلك، أنهم أغمضوا أعينهم على معاناة يهود أوروبا في معسكرات الإعتقال النازية، رافضين قصف مواقع محددة لوقف الإبادة. وفي الوقت نفسه كادت بريطانيا لا تفعل شيئًا لتقديم الملجأ إلى أولئك الذين هربوا؛ ومُنعت سفن ملأى باللاجئين اليهود من الدخول على أساس أن الحصة المخصصة للهجرة استُهلكت. وأخيرًا، امتنعت بريطانيا في استمرار عن تقديم أي دعم للدعوات الكثيرة إلى المساعدة التي بعثت بها مجموعات المقاومة الألمانية التي كانت تخاطر بحياتها لوضع حد لنظام البغضاء(203).

لكن ما السبب؟ لماذا يفوتون على أنفسهم فرصة إطاحة هتلر؟ لماذا لم تفتح بريطانيا أبوابها للاجئين اليهود اليائسين؟ صممت القوة الإمبريالية البريطانية، باستخفاف، على متابعة ما تصوّرته من أهداف استراتيجية وحسب: أولًا، لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين دعمًا للعملية الآيلة إلى إعلان الدولة اليهودية التي يمكن عند ذاك استخدامها كوزن مقابل للعرب (والفرنسيين) في معالجة الأمور في المنطقة الإستراتيجية الغنية بالنفط. وربما يوجد، ثانيًا، دافع أكثر شرًّا وراء إهمال حسن رفاه اليهود. فالبريطانيين يعملون ربما «للحل النهائي» لمشكلة الثقافة «الألمانية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحرب الثقافية البريطانية

يعرف كل من هو ملمّ بالنقاشات الثقافية بين المفكرين البريطانيين والعلماء الطليعيين من جهة وأندادهم في القارة الأوروبية، والألمان منهم خصوصًا، في الجهة الأخرى أن روحًا من العداء سادت على مدى قرون بين الطرفين. فقد امتلكت الثقافتان نقاط انطلاق لنظرية المعرفة والأخلاق مختلفة جذريًّا، وتوصلتا بالتالي إلى آراء تقع على طرفي نقيض. فالتجريبية البريطانية على طريقة لوك وهيوم وبركلي الخ... شكّلت أمرًا مُستَكرهًا بالنسبة إلى الفلاسفة النقديين الألمان.

فمنذ زمن ويلهلم غوتفريد ليبنيتز، مؤسس العلوم المعاصرة وأعظم مفكّري العصر الحديث الألمان، والفئة الإمبريالية البريطانية تشن حربًا ثقافية عليه وعلى التقليد الذي وضعه. فالادعاء أن اسحق نيوتن، وليس ليبنيتز، هو الذي اخترع حساب التفاضل والتكامل ليس إلا مؤشّرًا واحدًا إلى ذلك. بل أن طموح البريطانيين كان، منذ تأسيس الجمعية الملكية، السيطرة على النشاط العلمي إضافة إلى النشاط الأدبي. وشكّلت الجمعية الملكية، بتركيزها على المنهج التجريبي وقواعد التفكير العقلاني الاصطلاحية، القطب النقيض تمامًا للجمعية التي أسسها ليبنيتز وهي مؤسسة تبعتها جامعة غوتينغن التي ستصبح التربة الخصبة لأكثر مفكّري ألمانيا القرن التاسع عشر إبداعًا في كل فروع المعرفة.

يتفشّى اشمئزاز ماكيندر من «الكولتور» (الثقافة) الألمانية، أو «الذهنية الاستراتيجية»، في كل صفحة من صفحات مقالته الصادرة في 1918؛ وعلى رغم تشديد ماكيندر على الأساس الجغرافي لعلاقات القوى، اعترف بأن للاقتصاد، أو ما سمّاه «القوى العاملة» أو «طاقة الرجال»، دورًا حاسمًا. وذلك يعتمد على التنظيم، أو «المسعى التجاري الناجح، أو الجهاز الإجتماعي». وهنا تصبح «الكولتور» (الثقافة) الألمانية، أو «المادية»، «خطيرة» في نوع خاص «على العالم الخارجي لأنها تعترف معًا بالواقعين الجغراسي والاقتصادي، وتفكّر فحسب بعباراتهما». وكان بعبع ماكيندر في الثقافة الألمانية هو أوتو فون بسمارك الذي وحّد ألمانيا وبناها لتصبح غريمًا اقتصاديًّا قويًّا لبريطانيا. واغتاظ ماكيندر، وقد تآكلته مرارة الحسد، من واقع أن ألمانيا تمتلك شعبًا مثقفًا، بفضل تدريسه الجغرافيا، منذ أيام الإصلاحات البروسية في عهد فيلهلم فون هامبولت(204).

كان برتراند راسل هو الذي شن هجمات مباشرة على العقول العلمية الرئيسة الطليعية في ألمانيا القرن التاسع عشر من أمثال برنهارد ريمان وكارل فريدريتش غاوس، وخليفتيهما جورج كانتور وفيليكس كلاين(205).

وتكشّف كذلك في حقول علم فقه اللغة والآثار ذات الصلة نزاع لا يمكن تفسيره بعبارات التنافس الأكاديمي. فقد كان فك رموز اللغات القديمة مثل الهيروغليفية المصرية أو الفارسية القديمة مهمًّا، ليس فحسب لكسب معرفة اللغة في حد ذاتها، بل لتكوين فهم للمجتمعات والثقافات التي تعبّر عنها. وانصبّ الاهتمام الإمبريالي البريطاني على دراسة المجتمعات القديمة من أجل «إثبات» صدارة الأوليغارشية على أنها الشكل الأصلي للمجتمع الإنساني. وهكذا، وفي حال مصر، وصف البريطانيون الثقافة الفرعونية بأنها أوليغارشية ترتكز على العبيد. وتوجّب إخماد أي وجهات نظر مخالفة. وهو ما يساعد على تفسير النزاع «الأكاديمي» الذميم بين الدكتور توماس يونغ البريطاني وفرانسوا شامبوليون العالم الفرنسي اللامع في فقه اللغة تدعمه مدرسة هامبولت الألمانية وسواها. وساعد تفكيك شامبوليون الناجح للخطوط الهيروغليفية في إمكان تحطيم الصورة الإنكليزية النمطية لمجتمع مصري افترضت فيه أن النخبة الحاكمة وحدها كانت متعلّمة ومن تبقوا فمن العبيد. وظهر جدال مشابه على تفكيك رموز الفارسية القديمة الذي حققه العالم الألماني جورج فريدريتش غروتفند.

وها إن الثقافة الألمانية النابضة بالحياة والتي سعت المؤسسة البريطانية إلى تشويه سمعتها أضحت في شكل كبير ثقافة ألمانية - يهودية. وفي الواقع، وعقب تحرير اليهود أو استيعابهم، كما تختصر ذلك حال موزس ماندلسون، أصبح اليهود جزءًا لا يتجزّأ من الثقافة الوطنية. ولا يُميّز اسما ماندلسون وهنريتش هاين وحسب، بل أسماء أخرى لا تحصى أيضًا، هذا الانصهار الموفّق لهذه السلالات الدينية والثقافية في ما سمَّاه مارتن بوبر «التكافل الثقافي symbiosis الألماني - اليهودي». وكان هذا الاندماج بالغ الأثر(206). وهذه هي التقاليد الثقافية التي هدف البريطانيون إلى تدميرها.

فهل يكون أن البريطانيين شجعوا عن إدراك النازيين و«علومهم» المتعلّقة بالعرقية على أمل استئصال العامل اليهودي من الثقافة والمجتمع الألمانيين؟ فمن المؤكد أن هتلر لم يخترع معاداة السامية في أوروبا إذ إن جذورها تعود إلى القرون الوسطى. غير أن سياسة معاداة السامية النازية، التي أعقبت تحرير اليهود ودمجهم في ألمانيا، امتلكت طابعًا نوعيًّا جديدًا: لم تعد المسألة هنا تتعلق بعزل الطائفة أو تهميشها أو قمعها، بل بالسعي إلى إبادتها. فإذا شكّلت الغيتوهات انتهاكًا صارخًا لحقوق الإنسان، فإن معسكرات الاعتقال شكّلت أدوات مقصودة للإبادة. فهتلر، أو أي ألماني آخر، لم يخترع علم تحسين النسل المزعوم الذي مورس لتبرير سياسة الإبادة، بل أن هذا العلم أظهر رأسه البشع للمرة الأولى في بريطانيا وفي الولايات المتحدة(207). وأثبت النازيون أنهم دارسون نهمون لنظريات التفوق العرقي، واستنبطوا وسائل صناعية للقضاء على من يعدونهم من الدونيين.

كان الأثر الصافي للقتل الجماعي لليهود في ظل نظام هتلر هو وضع حد لحياة ستة ملايين إنسان. واجتُثَّ أيضًا، جراحيًّا، العنصر اليهودي الحيوي من الثقافة الألمانية. ويعرض المؤلف برنت انغلمان في كتابه «ألمانيا من دون اليهود» أرقامًا مذهلة تظهر تفوّق اليهود الألمان في العلوم والأدب والفنون. فقبل الحرب سيطر الأطباء اليهود على الطب في ألمانيا، وعدد الأطباء الألمان الذين حازوا جوائز نوبل في هذا الحقل مثير. وكتب أنغلمان: «إذا لم تعد ألمانيا اليوم إلى ما كانته في السابق، وبالتحديد المركز الأهم للبحث الطبي والتعليم في العالم، فلأن هذه هي النتيجة المباشرة للحقد العرقي». والدولة التي استفادت من ذلك هي الولايات المتحدة من خلال ترحيبها بالمهاجرين اليهود(208). وقد ارتقى المسرح الألماني، الذي تأسسس على عبقرية الشعراء الوطنيين غوتهولد أفراييم لسّينغ وفريدريتش شيللر ويوهان فولفغانغ فون غوته، إلى مستويات عالية ليصبح موضع حسد أوروبا كلّها. وضم الممثلون والممثلات والمخرجون ومديرو المسرح وغير ذلك من مكونات المسرح عددًا كبيرًا من اليهود الألمان. وقد تدخّل الممثل والمخرج غوستاف غروندجنز، بين آخرين، لضمان سلامة الكثيرين منهم(209). وتقضي الفكرة هنا وحسب بالتوضيح، عن طريق المثال، أن الثقافة الألمانية كانت ثقافة ألمانية - يهودية، شكّلت تكاملًا ثقافيًّا، أقله حتى استيلاء النازيين على السلطة.

أصبح للجغراسيين الإنكليز سبب للاحتفال مع نهاية الحرب العالمية الثانية. فقد استنزفت ألمانيا وروسيا بعضهما بعضًا حتى آخر قطرة دم، وأصبح اقتصادهما دمارًا، ووصل عدد القتلى إلى الملايين. وقسم اتفاق يالطا أوروبا جزءين معاديين أحدهما الآخر بما يضمن تأجيل كابوس التعاون الأوروبي -الآسيوي، الذي راود ماكنيدر، إلى أجل غير مسمّى. ووُجهت ضربة قاتلة إلى الثقافة الألمانية - اليهودية. أخذ المشروع الصهيوني الذي احتضنه الإسرائيليون البريطانيون في التقدم في ما أطلق عليه رودس اسم الأراضي المقدسة، وأدت صدمة الحرب إلى جر الكثيرين من اليهود الأوروبيين المندمجين، الذين سبق لهم أن تجنبوا الصهيونية، إلى البحث عن ملجأ في فلسطين، الأرض التي أخذ في تطهيرها في شكل منهجي من سكانها الفلسطينيين.

بيد أن ذلك، في حال شكّل جزءًا من المبادرة الإجرامية للزمرة الجغراسية، لم يكن بالجريمة الكاملة. فألمانيا، المقسّمة والمقعدة، لم تمح عن الخريطة. فقد شهدت ألمانيا الغربية انتعاشًا مذهلًا، ثم أن ألمانيا الشرقية الشيوعية وإن خضعت للديكتاتورية الشيوعية الوحشية تمكنت من إبقاء التراث الثقافي الكلاسيكي الألماني حيًّا. وأمكن في 1989-1990 القطاعين الخاضعين سابقًا للاحتلال، أن يتوحَّدا. وكان أحد التأثيرات الطافحة لانهيار الشيوعية هو الحرّية

المعطاة ليهود الاتحاد السوفياتي في الهجرة؛ وقد توجه عدد منهم إلى إسرائيل، غير أن اعدادًا هائلة تدفقت إلى ألمانيا وأعادت إحياء الحياة اليهودية في ذلك البلد.

فقوة الثقافة هي التي سمحت في مآل الأمر للشعوب المستهدَفة بالنجاة، وهي الإحساس بهوية شعب ما، سواء حُرم دولة له أم لم يحرم. فيمكن اضطهاد اليهود، وطرد الفلسطينيين من أراضيهم على ما حدث للأرمن من قبلهم؛ ويمكن إخضاع الألمان والروس لطاحونة لحم الحرب الشاملة، ولكن سيمكن لكل منهم أن يستجمع القوة للمثابرة بفضل المفهوم الذي يحملونه لهويتهم كشعب - من خلال استمرار ثقافة الدين واللغة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تآليف ألحان السلام

لن يتم تحقيق السلام في الشرق الأوسط، مسرح قرون عدة من الجغراسيا، بالقوة؛ لا بالبأس العسكري ولا بالضغط الديبلوماسي، أيًّا تكن القوة العظمى التي تسعى إلى فرضه. وحتى لو مارست الإدارة الأميركية الجديدة نفوذها الذي لا نزاع فيه لإجبار إسرائيل على القبول بخارطة طريق اللجنة الرباعية مع خطة السلام العربية للعام 2002، وحتى لو خضعت الحكومة الإسرائيلية للضغط، فإن النتيجة لن تكون سلامًا(210). وعلى ما أظهرته المعاهدات الإسرائيلية مع مصر والأردن - ناهيك باتفاق أوسلو- فإن ميثاق عدم الاعتداء ليس بالأمر نفسه كالسلام. فالسلام الحقيقي يستلزم التغلّب على علاقة العداء، وإنشاء علاقة أخلاقية تستند، على غرار مبادئ السلام في وستفاليا، إلى مبادئ جديدة تعيد تحديد الأعداء السابقين ليصبحوا حلفاء في مسعى مشترك يعود بالفائدة على الطرفين.

ولكن كيف يمكن إدخال مثل هذه المقاربة إلى النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي؟ فسلام وستفاليا استند إلى فرضيتين استثنائيتين: أولًا، مسامحة مهما ارتكبه أي من طرفي النزاع من فظاعات ونسيانه. وثانيًا، صياغة السلام على أساس التزام كل طرف العمل لمصلحة الطرف الآخر وفائدته.

ولكن، وكما سيخبر كل من يقيم اتصالًا شخصيًّا مع ممثلي الطرفين، فإن معظم الإسرائيليين يكرهون العرب، والشعور متبادل. تلك كانت طبيعة العلاقات بين الكاثوليك والبروتستانت خلال الحرب في أوروبا. وتطلّب مفهوم سلام وستفاليا تحوّلًا في مواقف الأفرقاء المتحاربين السابقين. وهكذا الأمر بالنسبة إلى النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني إذ إنه يتطلب ثورة أخلاقية في طريقة نظر كل طرف إلى الطرف الآخر. وعلى الطرفين عبور جدار نار دانتي. وما من سبيل غير ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن كيف؟

قد توفّر الموسيقي دليلًا قيّمًا. إذ أثبت دانيال بارنبويم وإداورد سعيد، من حيث المبدأ، كيف يمكن الوضعيات الأخلاقية للأفراد الإسرائيليين والفلسطينيين أن تتغيّر جذريًّا من خلال قوة الموسيقى العظيمة. أسّسا أوركسترا ديوان الشرق والغرب المؤلفة من موسيقيين شبان إسرائيليين وعرب لأنهما أدركا أن الاتصال بين الطرفين شرط مسبق للتفاهم: «الثقافة تعزّز الاتصال بين الناس؛ ويمكنها تقريبنا بعضنا من بعض وبالتالي زيادة التفاهم إضافة إلى التسامح المتبادل»(211). ويرويان في أحاديثهما المسجّلة وكتاباتهما عن المشروع الموسيقي الفريد من نوعه، الذي أسس سنة 1999، أن العقبة في وجه التعاون بين الموسيقيين الشبان الإسرائيليين والعرب تقع في الجهل والأحكام المسبقة التي أظهرها كل طرف منهم حيال الطرف الآخر. وعلى ما عبّر عنه بارنبويم فإن الإسرائيليين «لم يستطيعوا تخيّل وجود أناس في دمشق وعمّان والقاهرة يمكنهم فعلًا العزف على الكمان والكمان المتوسط»(212). وإذا عرف العرب بوجود نشاط موسيقي في إسرائيل فإن معرفتهم تقف عند هذا الحد.

وبدأت طريق التغلب على الأفكار المسبقة المتجذّرة ببذل الجهد لإنتاج شيء مشترك يقضي بأن يتم، في المرحلة الأولى، عزف نوطة موسيقية واحدة. وكانت هناك حال الفتى السوري، الذي لم يلتق قط إسرائيليًّا وجهًا لوجه، واعتقد أن مثل هذا الكائن «لا يمكن إلا أن يكون شخصًا يشكّل مثالًا سلبيًّا لما يمكن أن يحدث في بلاده وما يمكن أن يحصل للعالم العربي». وقد تغيّر هذا. وأخبر بارنبويم أن «هذا الفتى وجد نفسه يتشارك المقعد الموسيقي مع عازف تشيللو إسرائيلي. حاولا أن يعزفا النوطة نفسها، وأن يلعبا بالدينامية نفسها وضربة القوس نفسها والتعبير نفسه. حاولا القيام بشيء ما معًا. الأمر بهذه البساطة. حاولا القيام بأمر ما معًا، أمر يهتمان به معًا، ويعشقانه معًا. والآن وقد أنجزا تلك النوطة الوحيدة، لم يعودا ينظران أحدهما إلى الآخر بالطريقة نفسها لأنهما خاضا تجربة مشتركة. وهذا ما شكل حقيقة، بالنسبة إلي، الشيء المهم في شأن هذا اللقاء»(213).

كانت تلك مجرّد خطوة أولى، حرجة باعتراف الجميع؛ وهي بمثابة وضع قدم واحدة داخل جدار دانتي الناري. ولكن لا يزال هناك المزيد في الانتظار. فعلى كل واحد أن يتعلّم الإتصال بالآخر بطريقة جديدة. «كلما صنع المرء الموسيقى، سواء كعضو في مجموعة موسيقى الغرفة أو في أوركسترا كبرى، بات عليه أن يمارس نشاطين مهمين في وقت واحد: على المرء أن يعبّر عن نفسه - وإلا فإنه لا يسهم في شيء في التجربة الموسيقية - ولكن عليه أيضًا أن يسمع الآخر»(214). وشرح بارنبويم أن «هذا الطابع الإيديولوجي

الملازم للموسيقى هو، في الواقع، السبب الرئيس لتأسيسنا الأوركسترا»(215).

وكان بارنبويم، في ورش العمل الأولى، يتدرّب مع الموسيقيين في - الصباحات وساعات بعد الظهر، فيما سعيد يجتمع معهم مرات عدة في الأسبوع في المساء لإجراء النقاشات، «في الموسيقى والثقافة والسياسة وكل الأمور...». «الشيء الوحيد الذي لم يحدث هو شجار سياسي فوري؛ فقد وُجدت قاعدة غير مكتوبة بذلك»(216). واستذكر سعيد النقاش الأول الذي اشتكى فيه ألباني - إسرائيلي شاب أنه عرضة للتمييز لأنه لم يُسمح له بالانضمام إلى مجموعة من العرب يجتمعون في الأمسيات لارتجال الموسيقى العربية. قالوا: «أنت لا تجيد عزف الموسيقى العربية. وحدهم العرب يستطيعون عزف الموسيقى العربية». وأثار ذلك السؤال التالي: «حسنًا، ما الذي يعطيكم الحق في عزف موسيقى بيتهوفن؟ فأنتم لستم ألمانًا». وروى سعيد: «بعد ذلك بعشرة أيام كان الفتى نفسه الذي زعم أن وحدهم العرب يستطيعون عزف الموسيقى العربية يعلّم يو - يو ما [الذي انضم إلى المشروع] كيف يدوزن آلته التشيللو على السلم الموسيقي العربي. وهكذا اتضح أنه يعتقد أن في وسع الصينيين عزف الموسيقى العربية. وأخذت الحلقة تتسع بالتدريج وباتوا جميعهم يعزفون سمفونية بيتهوفن السابعة. شكل ذلك حدثًا استثنائيًّا جدًّا»(217).

وما أخذ في التكشّف في عملية التدريب المكثفة وعملية النقاش هو تحوّل في الهوية الشخصية. أدرك سعيد أن لا مشاكل فحسب بين الإسرائيليين والعرب، بل أيضًا نزاعات بين العرب والإسرائيليين؛ وتبلورت «مجموعات» عدة كل منها مؤلفة من سوريين أو إسرائيليين أو لبنانيين، وإلى ما هنالك. ولكن، ومن خلال التركيز على تأدية الموسيقى الكلاسيكية معًا، «أصبحوا جميعهم فجأة عازفين للتشيللو والكمان يؤدون المقطوعة نفسها في الأوركسترا نفسها في ظل القائد الواحد»(218).

أدت أوركسترا ديوان الشرق والغرب، في السنوات العشر الأولى على تأسيسها، حفلات موسيقية في مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك واحدة في رام الله في 2005 شكّلت خرقًا سياسيًّا(219). وشكّلت تأديتهم أمام جمهورين اكتظت بهما القاعة في برلين في 12 كانون الثاني/يناير 2009، في عز حرب غزّة، طباقًا قويًّا لجنون تلك المذبحة. غير أن الأوركسترا ليست منتدى للتفاوض. وكتب بارنبويم «من الواضح أن أوركسترا ديوان الشرق والغرب لا تستطيع خلق السلام. غير أن في وسعها خلق ظروف فهمنا بعضنا بعضًا وهو فهم لا يمكن من دونه مفاوضات السلام أن تبدأ»(220).

ويشكّل الحوار الموسيقي المبدأ الأساس الذي يرتكز عليه نجاح الأوركسترا. وقد أوجزه بارنبويم على الشكل التالي: «الحوار بين النغمين المتصاحبين يعرض لحكايتين في الوقت نفسه، ويسمح لكل صوت ببلوغ الساحة من دون حدود، ولكن لا يسمح له قط بذلك من دون نظير يكون ما يعلنه مساندًا له أو متمّمًا له أو مناقضًا. فلحكايات الإسرائيليين والفلسطينيين، وقيامهم بإعادة التقويم الدائمة وبالعرض الجديد، العلاقة نفسها بعضهم تجاه بعض التي لعلاقة الموضوع والموضوع المضاد في الـ«الفوغا» fugue الموسيقية، بمعنى أنهما مرتبطان واحدهما بالآخر ويعتمدان بعضهما على بعض. فلا «فوغا» من دون موضوع مضاد. وبالتالي لا يملك الموضوع معنى أكبر من معنى الموضوع المضاد، إذ لا معنى لوجود الواحد من دون الآخر. وعندما يعترف الإسرائيليون والفلسطينيون بالتناظر بين حوارهم وبنية الفوغا، سيدركون أيضًا كم أن التعايش ضروري في شكل طارئ»(221).

ويعني تطبيق مفهوم هذا الحوار على التحدي السياسي الذي يشكله السلام الفلسطيني - الإسرائيلي أن ينبري المرء للأسئلة الأكثر أساسية التي تُطرح في اللقاء الأول بين شخصين: - «ما اسمك» «من أين أنت؟»- والتوسع في مضامين الجواب التاريخية. ويتبيّن أن مثل هذه الأسئلة البسيطة في الظاهر مثقلة بالأحمال بالنسبة إلى فريقي النزاع: فأن تسأل فلسطينيًّا «من أين» أنت يعني فتح الفصل الشخصي من حياة هذا الشخص التي محورها النكبة. ومن قبيل ذلك، فإن الإسرائيلي، عندما يجيب، سيعود إلى تلك المرحلة في حياة عائلته قبل الهجرة إلى فلسطين. وكما يروي بارنبويم، مشيرًا إلى أعضاء أوركستراه، «الكثيرون من مواطني جمهوريتنا يعرفون للمرة الأولى بقصة الآخر المؤلمة خلال ورش عملنا ويصابون عند ذاك بالصدمة لا محالة. وتدفعهم هذه الصدمة إلى إعادة التفكير في الماضي وفي المعاناة المستمرة منذ سنوات كثيرة جدًّا»(222).

اعتُني بإجراء الأبحاث عن قصة اضطهاد اليهود التي بلغت ذروتها في معسكرات الموت الهتلرية، وتم توثيقها ونشرها. لكن الأمر نفسه ليس صحيحًا جدًّا بالنسبة إلى الجانب الآخر من القصة. وليبدأ أي حوار ذي مغزى بين القوى السياسية الفلسطينية والإسرائيلية، يجب توافر نشر عام لحقيقة ما حدث في 1948. فلا يزال مقفلًا على هذه الأرشيفات في تل أبيب، ويجب توفير المفتاح للمؤرخين المؤهلين ممن يمكنهم أن يضيفوا الجوهر والتفصيل إلى الصورة التي رسمها باحثون من أمثال الخالدي وبابه. ولا يمكن الإسرائيليين إلا من خلال مثل هذا النقاش المفتوح أن يتوصلوا إلى «معرفة» الفلسطينيين، ليس كأفراد فحسب (كما مع أعضاء أوركسترا الشباب خلال ورش العمل التي أدارها سعيد)، ولكن كثقافة، وكشعب ذي سيادة وهوية وطنية وتاريخ.

وإذا توجّبت، كما في سلام وستفاليا، المسامحة على أعمال العنف والظلم والفظائع الصريحة، فيجب في البداية الاعتراف بوقوعها. إذ يجب تذكّر الحدث أولًا قبل نسيانه؛ ويجب الاعتراف صراحة بوجوده. ولا يمكن تحقيق تقدّم ما دامت السياسة الرسمية الإسرائيلية تواصل إنكار طرد الفلسطينيين، أو تعرّضهم للتطهير العرقي، في 1948 - النكبة -، ويستمر ذلك محط اتفاق غير معلن في أوساط أقسام كبيرة من المجتمع الإسرائيلي الدولي. (الاقتراحات التشريعية التي طُرحت في إسرائيل في أيار/مايو 2009، والتي تهدف إلى جعل إحياء ذكرى النكبة جريمة، تبعث على الأسى وتعطي نتائج عكسية تمامًا كالقوانين التي تفرض عقوبات على الكتب التركية التي تشير إلى المجزرة الأرمنية.) كذلك لن توجد دولة إسرائيلية قابلة للحياة تتمتع بأي صدقية في المجتمع الدولي؛ إذ لا يمكن أي دولة أسست على عمل ظالم ضد شعب بأكمله أن تنجو أخلاقيًّا. وكما في حال الشخص الفرد الذي انخرط في نشاطات جرمية ويهيم في الحياة وعبء الذنب يلقي بثقله على ضميره، كذلك لا يمكن أي دولة أن تكون سيّدة وحرّة إذا أدامت استمرار الكذبة مبرّرًا لوجودها. وقد أصرّ بارنبويم، بين أمور أخرى، على الإشارة إلى نص إعلان استقلال إسرائيل الذي يعد جميع مواطنيها «بالحرية والعدالة والسلام» بغض النظر عن دينهم أو عرقهم أو جنسهم، إضافة إلى السلام وعلاقة حسن الجوار مع كل دول المنطقة(223). إذ لا يمكن أخلاقيًّا تحمّل التناقض بين مثل هذه الأفكار السامية والواقع الوحشي لاستمرار الاحتلال والقمع.

هناك الكثير من الإشارات المشجّعة التي تشير في اتجاه إجراء مراجعة، بالمعنى الإيجابي للكلمة، لتاريخ فلسطين. فمدرسة «المؤرخين الجدد» موجودة في إسرائيل، وقد أخذ الاهتمام العام بأعمالهم، مثل مؤلفات بابه وغيره(224)، يتزايد على قدم وساق مع تدهور حال الفلسطينيين، وبخاصة منذ حرب غزة. فقد ظهرت منظمات إلى الوجود في إسرائيل مثل «ذُخروت» (نتذكّر)، التي كرّست نفسها للإجبار على إظهار حقيقة النكبة، وإيجاد السبل الآيلة إلى تعامل الإسرائيليين معها(225).

يشكّل وضع الأمور في نصابها شرطًا أساسيًّا للمفاوضات السياسية، لكنه ليس شرطًا كافيًا. فما يبقى - وهو ما لم يتم التعامل معه في وستفاليا - هو تحديد المسؤولين النهائيين عن المأساة التي أحدقت بفلسطين منذ مطلع القرن العشرين وإحالتهم على العدالة. وعلى الطرفين أن يواجها واقع أنهما تم التلاعب بهما باستخفاف عليهما أن يريا الدسائس الجغراسية من جانب الفئة الأنكلو - أميركية الإمبريالية التي وقفت وراء كل من نشوء الصهيونية ونموها والتجربة النازية. وبقدر ما يدرك الفلسطينيون (والعرب في شكل أوسع) الطريقة التي تم التلاعب بها بالعملية السياسية وبشعوب بأكملها،

ينجحون في كسر السلاسل الذهنية للإيديولوجية التي قيدهم بها التفكير الجغراسي مدة طويلة جدًّا.

وإذا تمت تنقية الأجواء من الأساطير التي لا تعد ولا تحصى ومن الأكاذيب وما ترافق معها من إجحافات تتعلق بتاريخ فلسطين، فقد تكون أمام مهمة صياغة السلام فرصة. ولكن ما هي، حينذاك. مجموعة الموسيقى التي على مختلف المشاركين في البحث عن السلام دراستها؟ فإذا كان الموسيقيون الشباب بدأوا بالمكافحة لعزف نوطة موسيقية واحدة معًا، فعلى المتحاورين السياسيين توحيد القوى، ليس من أجل التقاط صورة مصافحة على عشب البيت الأبيض.

ولكن ليفتحوا بابًا جديدًا للإنماء الاقتصادي. فالتعايش، سواء على شاكلة دولتين سيدتين، أو دولة واحدة متعددة الإثنيات والأديان - يعود إلى الطرفين تحديد ذلك - يفترض ضمنًا وجود الأسباب الإقتصادية لبقاء الشعبين وتقدمهما. والموضوع الأساس، كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقًا، هو حل أزمة المياه. فمسودات مشاريع التطوير المائي، بما في ذلك بناء القناة وإزالة الملوحة وغير ذلك، موجودة في الملفات ولا تحتاج إلا إلى سحبها ووضعها على طاولة الرسم.

والقدرات على تنفيذ مثل هذه المشاريع موجودة. فمعظم الفلسطينيين الذين كانوا أولادًا زمن النكبة تلقوا نصائح من آبائهم بالدراسة والتعلّم وتطوير أذهانهم. ومن توافرت لهم الفرصة للقيام بذلك في الشتات انكبوا على تثقيف أنفسهم. درست تمام الأكحل واسماعيل شموط الفنون في القاهرة وروما وأصبحا الصوت الفني لشعبهما. ودخل فؤاد حسين ميدان الصحافة ويشرف، فخورًا، على تثقيف أولاده. وأصبح غيرهم أطباء ومهندسين وأساتذة ومفكّرين ورجالات دولة ودبلوماسيين ورجال أعمال وشعراء وموسيقيين وإلى ما هنالك. ونتيجة لالتزام تطوير الذات هذا، يشكل الشعب الفلسطيني اليوم نخبة العالم العربي من حيث الكفاية ومستوى المهارة والخبرة - وهذه ركيزة ثمينة لمهمة بناء الدولة.

وهناك بعد إضافي: فكما أن أوركسترا الشباب لم تضم إسرائيليين وفلسطينيين وحسب بل جمعت أيضًا عربًا آخرين وبعض الإسبان، على صيغة السلام العملية أن تحتضن الواقع الإقليمي. فلن يمكن إسرائيل وفلسطين والأردن إدارة نمو ذي مغزى وحدها ما لم يتم إدماج اقتصاديات المنطقة الكبرى. فمن دون المشاركة الفاعلة للدول العربية الأخرى - وبخاصة العراق - إضافة إلى تركيا وإيران، سيبقى النمو الاقتصادي الجدي مجرّد وهم باطل.

ويمكن لمثل هذه الاندفاعة المنسّقة لكل دول المنطقة أن تفي بوعد وستفاليا، بمعنى أن تعمل كل جهة مخاصِمة سابقة لمصلحة الطرف الآخر وإفادته كما لو انها تعمل لفائدتها الشخصية. وهذا تطبيق للمبدأ الموسيقي؛ فعلى كل طرف أن يعزف مقطوعته بتأكيد واثق على قدراته، فيما يستمع إلى الآخر في اهتمام. وعلى الشركاء الإقليميين الآخرين أن يتخلوا، لتحقيق هذا سياسيًّا، عن أوهامهم الجغراسية، وهي الأحلام التي ورثوها، مثل المرض المنتقل وراثيًا، من أسيادهم الاستعماريين السابقين. فمفهوم أن في وسع إيران، أو أنها يجب عليها - كما يعتقد البعض - أن تصبح قوة هيمنة إقليمية، بغيضٌ بغضَ نزعة بعض الدول العربية السنية، أو السعودية، إلى السعي إلى «وحدة عربية» جديدة تأخذ شكل ائتلاف معاد لطهران. وسيعادل هذا سيطرة إحدى قطع الأوركسترا، لنَقُل البوق، الأمر الذي سيدفع بالآلات الأخرى إلى الردّ بالرفع من صوتها. وينتج عن ذلك تنافر في النغمات.

بلغت الأزمة في الشرق الأوسط نقطة حرجة جدًّا ليتم إما تبني مقاربة ثورية لعكس الدينامية المتجهة صوب النزاع المستمر، وإما انفجار المنطقة في تأدية من أسوأ نوع يمكن تخيله لمعركة أرمجدّون. وفي هذه الحال، وعلى عكس نبوءة الأصوليين، لن يذهب حتى المُخَلّصون إلى النعيم؛ بل سينزل الجميع إلى الجحيم.

التحدي استثنائي، وكذلك يجب أن تكون المقاربة. فلا الصيغ السياسية، ولا الاتفاقات البراغماتية على الجامع المشترك الأدنى ستُنتج أي شيء سوى الإحباط والاستخفاف والحنق والمزيد من العنف. لقد حان الوقت لمتابعة «الحل الموسيقي» متفكّرين ومستخدمين مجازيًّا الأمثولات من تجربة ديوان الشرق والغرب: فمن خلال التعاون لتأدية الأفكار العالمية للموسيقى الكلاسيكية وبثّها، أثبت الشبان الوافدون من دول عالقة في قبضة النزاع أن في إمكانهم تحرير أنفسهم من الإيديولوجيا والجهل والأفكار المسبقة، والارتقاء إلى ممارسة هويتهم كفنّانين. فتجربتهم فريدة من نوعها، وهي تجربة تثبت صحّة المبدأ بحجمه الصغير، إذا جاز التعبير، ولكن الذي يجب أن يكون قابلًا للتطبيق بالحجم الكبير. فإذا أمكن للإسرائيليين والفلسطينيين تأدية بيتهوفن معًا فلماذا ليس ممكنًا لحكومات المنطقة وشعوبها بأسرها الانضمام إلى أوركسترا التقدّم الاقتصادي والاجتماعي المذهل؟

وعليهم، للقيام بذلك، أن يخطوا تلك الخطوة الأولى عبر جدار دانتي الناري، ويلقوا بالغمامات الأخلاقية والنفسية والإيديولوجية التي سيطرت، على مدى عقود، على تفكيرهم وأعمالهم.

فما إن تحرّك الحاج دانتي عبر ألسنة اللهب الحارقة وبلغ الجانب الآخر، حتى أدرك أن الجنّة لا تعني نهاية رحلته بل بالأحرى بدايتها. فهناك أخذ يكتشف

القوانين التي تحكم الكون والمجتمع. وبين الأرواح المباركة التي تسكن الجنة والتي التقاها رجال ونساء من كل الثقافات والأمم، علماء، رجال دولة، زعماء دينيون، فنانون، وفلاسفة. وهم ليسوا أشخاصًا مجهولين، بل أفرادٌ تاريخيون محددون، لكل منهم تاريخه الخاص ودولته ولغته وثقافته. غير أن ما من أحد منهم مسجون في أجواء قومية، إثنية، دينية أو ثقافية. فقد ارتقوا إلى ما هو أرفع من الذاتية ليبلغوا مرتبة مواطني مدينة اللّه النموذج الذي على المجتمع الإنساني أن يحتذيه.

هذا هو التحدي الذي يفرضه دانتي على أطراف النزاع في الشرق الأوسط وما هو أبعد من الشرق الأوسط؛ فهل هم قادرون على التحرر من الغضب والمرارة والعداء والانتقام التي احتجزتهم لردح طويل من الزمن، وعلى التواصل مع أخصامهم السابقين بصفة كونهم كائنات إنسانية تتمتع بالمساواة في الحقوق؟ هل يمكنهم الاحتفاظ، في فخر بإحساسهم بالانتماء القومي، وأن يتجاوزوا في الوقت نفسه تصوّرهم الذاتي الضيق لنفسهم كعرب، إسرائيليين، فرس، سنة، شيعة، أكراد، - أو ربما على المرء أن يضيف الأرمن، والأذريين أو الأتراك، - ليصبحوا كائنات إنسانية أخلاقية عالمية؟ وإذا حدث ذلك فسيشير إلى الهزيمة النهائية لذلك الشذوذ اللاإنساني الذي يُعرف بالتفكير الجغراسي الذي يحدد الكائنات الإنسانية ويتلاعب بها بصفة كونها حجارة شطرنج كثيرة تُسمّى بعبارات إثنية، دينية، أو قومية، وينفي عنهم بالتالي أساسهم الإنساني. فإذا أطيح الجغراسيون من خلال البناء البارع لسلام حقيقي بين العرب والإسرائيليين، الأتراك والأرمن، الشعية والسنة والأكراد، وهلمّ جرًّا، فسيمكننا أخيرًا الاحتفاء بتطبيق فعل إيمان الشاعر الوطني الألماني فريدريتش شيللر في سمفونية بيتهوفن التاسعة بأن «جميع البشر سيصبحون أخوة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة

لم يقف العالم جامدًا منذ الظهور الأول لهذا الكتاب باللغة الإنكليزية عام 2009، وبالتأكيد ليس في مناطق الأزمة المعنيّة تلك. وتمثّل التطوّر الأهم في اندلاع الثورة عبر العالم العربي، من أنحاء شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط. وأعاد هذا «الربيع العربي» تمامًا تحديد السياق الذي يجب من خلاله معالجة كل المسائل التي نوقشت في هذا الكتاب، من الحوار الأرمني - التركي إلى إعادة تكوين السيادة العراقية والاستقلال، إلى النزاع العربي - الإسرائيلي المستمر. لم تؤد ثورتا تونس ومصر، وما أعقبهما من انتفاضات في اليمن وليبيا وسوريا، إلى إطاحة الأنظمة المتقادمة والفاسدة والمتسلّطة، ووضع أسس الحكم التمثيلي وحسب، بل أذنتا أيضًا بفجر الشعوب «العربية الجديدة» التي أعادت اكتشاف ما فقدته، منذ زمن بعيد، من شعور بالتضامن الاجتماعي والشخصي، إضافة إلى الكرامة الوطنية. وواقعُ أن الشعوب التي احتملت الحرمان والمهانة على أيدي أنظمة الدول البوليسية، عقودًا، قد تغلَّبت على مخاوفها وحاربت في سبيل حقوقها التي يجب ألّا تُحرمَها، ككائنات إنسانية ولو كلفها ذلك الآلاف من الضحايا البريئة، قد أدخل مبدأ جديدًا إلى السياسة في المنطقة وفي العالم. وشكّل الأمر، في الحالين الناجحتين، مقاومة غير عنفية هزمت ديكتاتوريتين قويتي التسليح. وعبّر الانتصاران في تونس والقاهرة عن التفوق الأخلاقي لمواطنةٍ ملتزمة مبادئ أرفع من المبادئ التي التزمها من في السلطة، ومن الجشع والفساد اللذين ميّزا الخصوم.

لا عودة إلى الوراء، وهي لن تحدث بغض النظر عن النتيجة النهائية للنزاعات التي لا تزال مستعرة في العالم العربي. وستُلمس انعكاسات هذه الانتفاضات الصاخبة، في شكل فوري جدًّا، في بلدان المنطقة المجاورة، وفي العراق وفلسطين. وإذا تم انسحاب القوات المقاتلة الأميركية من العراق، كما هو مخطط له (على رغم بقاء قوّة كبيرة من 50 ألف جندي لتدريب القوات العراقية)، فسيتوقّف اتخاذ القرار على القوى السياسية العراقية. فبعد أشهر عدة من المفاوضات المعقَّدة، توصلت الفئات السياسية المتعارضة والملتفة من حول نوري المالكي وأياد علاوي ومقتدى الصدر، في كانون الأول/ديسمبر 2010، إلى اتفاق عملي لتقاسم السلطة. وتطلَّب هذا جهدًا هائلًا تدخَّلت فيه السلطة الدينية العليا ممثلةً بآية اللّه العظمى علي حسين السيستاني ورجال الدين المستقرّين في النجف. وقضت وجهة نظرهم المبدئية بأن في وسع العراق، بل وعليه أن يجد سبيله مع انتهاء الاحتلال. وعلى الزعماء السياسيين العاملين بالانسجام مع مثل هذه التوجيهات السعي إلى ترتيبات سياسية. ولن تتردّد قوى الصدر السياسية

(والعسكرية) في فرض هذا الأمر إذا تعرّض التزام إنهاء الاحتلال، للخطر. والشعب العراقي، وقد تنشّط بالربيع العربي، بمقدوره على نطاق أوسع أن يتحدّى زعامته السياسية للتحرّك في اتجاه نظام أكثر تمثيلًا. ولن تظل إيران المجاورة حصينة وهي التي قمعت، قبل سنة من تحرك العرب، أكثر من تمرد يرتكز على قاعدة شعبية.

أصابت انعكاسات الصحوة العربية بالفعل العلاقات الفلسطينية - الإسرائيلية، فقد اهتزّت المؤسسة السياسية الإسرائيلية لسقوط الأنظمة التسلّطية التي وفّرت الحماية لها ولاحتلالها. ولم يكن بنيامين نتنياهو الإسرائيلي الوحيد الذي تفجّع على خروج حسني مبارك، وخشي، عن حق، إمكان إسقاط أصدقاء عرب آخرين سواء في المغرب أو بين أنظمة الخليج الملكية ومشيخاته. وتؤكد الخطوات الأولى التي قامت بها الحكومة الانتقالية في مصر، إنْ من خلال السماح للسفن الإيرانية بعبور قناة السويس وإن بفتح الحدود إلى غزّة، أن تغيير النظام في مصر هو أكثر من جراحة تجميلية.

عندما استقال مبارك، الذي عُدَّ طويلًا بمثابة مظهر ثابت في المشهد السياسي العربي، ثبات أي فرعون في الأزمنة القديمة، اعتقد الكثيرون من العرب أن الزعامة الفلسطينية ستلحق به، في كل من الضفة الغربية وغزة. فالأوراق الفلسطينية التي سرّبتها قناة الجزيرة أوائل العام 2011 فضحت ارتهان زعامة عبّاس لإسرائيل في المسائل الكبرى، إضافة إلى استخدامها تكتيكات شديدة الوطأة في حق شعبها الفلسطيني. ثم إن سكان غزة، وبخاصة الشبان منهم، عانوا، وفي جزء كبير من ذلك بفعل الحجز الاستثنائي الذي فرضه عليهم الحصار، الحرمانَ الذي لا يُطاق.

وهكذا لم يكن من المفاجئ أن يلتف فلسطينيو كل من غزة والضفة الغربية بعضهم على بعض عقب الانتفاضتين التونسية والمصرية. ولم يطالبوا، ولذلك مغزاه، بإطاحة حكومة كل منهم، بل دعوا إلى أن يتجاوز زعماؤهم نزاعاتهم الداخلية التي وقفت في وجه أي تقدّم، نحو بلوغ الدولة. وترجم الاتفاق، الذي أدت فيه مصر دور الوسيط، هذه المطالب واقعًا سياسيًّا له أهميته البعيدة المدى. وتبعت ذلك التظاهرات والمسيرات عبر مرتفعات الجولان و الحدود اللبنانية الإسرائيلية في ذكرى النكبة، وأشارت إلى ما قد تؤول إليه المرحلة التالية من الثورة العربية، وهذه المرة في فلسطين.

واجهت المؤسسة الإسرائيلية تحدّيًا لا سابق له، حتى قبل الصحوة العربية. فمنذ نشر تقرير غولدستون في أيلول/سبتمبر 2009، وهو يتهم الإسرائيليين بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية في حرب غزة التي دارت رحاها نهاية العام 2008، دخل المجتمع الدولي بطريقة حاسمة إلى جانب من يتهمون إسرائيل بارتكاب مثل هذه الجرائم وبوجوب أن تُحاسب عليها.

ويشهد نشر التقرير بترجمته الألمانية، بفضل جهود مجموعة من المثقفين اليهود الألمان، على مناخ جديد من الرأي حيال سياسة إسرائيل الخارجية، حتى في ألمانيا التي كواها التاريخ. وفي النهاية، وعلى أثر اقتحام إسرائيل، نهاية أيار/مايو، سفينة «مافي مرمرة» المحملة بالمساعدة الإنسانية لغزة، قال المجتمع الدولي «كفى». ولم تعد إسرائيل تُعدُّ مُحصّنة.

باتت المؤسسة الإسرائيلية معزولة دوليًّا كما لم يسبق لها أن عُزلت. ورفع مفكّرون إسرائيليون ويهود بارزون في الداخل وفي الخارج (هنري سيغمان، إيلان پاپه، دانيال بارنبويم، من بين آخرين) أصواتهم لإدانة السياسات الإسرائيلية. ووجدت البلاد نفسها في وضع أشبه بوضع نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، ولسبب وجيه.

قد تدخل «مافي مرمرة» التاريخ كشبيه لأعمال الشغب عام 1076 في سويتو في جنوب افريقيا، أو مجزرة الأحد الدموية عام 1965 التي استهدفت ناشطي الحقوق المدنية السود، وهي أحداث مؤشّرة دقّت ناقوس الخطر عالميًّا وصدمت العالم ودفعته إلى إدراك الإفلاس الأخلاقي للفصل العنصري والتمييز - وللأنظمة التي تمارسهما. ويؤمل في أن تحفِّز تركيبة الاستنكار الدولي (بما في ذلك حركة المقاطعة النشطة) والمعارضة الداخلية المتزايدة للسياسة الخارجية الإسرائيلية، على أزمة هويّة في داخل إسرائيل نفسها: أزمة أخلاقية وسياسية ونفسية قادرة على تغيير الوضع السياسي المتقلّب، والإتيان بقوة تعمل للسلام. وعلّق دانيال بارنبويم على عواقب الثورات العربية، مؤكدًا أن على الشعب الآن، أكثر من أي وقت مضى، أن يغيّر نمط تفكيره. وإذا لم يتكشّف مثل عملية إعادة التفكير هذه في داخل إسرائيل، فستصبح الدينامية الاجتماعية الجديدة التي يتردّد صداها عبر المجتمع الفلسطيني وغيره من المجتمعات العربية هي العامل المحدد.

وليست أرمينيا وتركيا ببعيدتين جدًّا عن الأحداث العربية كما قد توحي ذلك الاعتبارات الجغرافية. فقد شهدت يريفان في الواقع تظاهرات عقب ثورتي شمال أفريقيا، نظمها مواطنون في مواجهة الحكومة الفاسدة والمتسلّطة. غير أن الصلة الكبرى بمنظور المصالحة التركية - الأرمنية هي تطوّر حركة قوية في المجتمع المدني التركي تسعى إلى الاعتراف بمذبحة العام 1915. وقد أضحى هرانت دينك منذ اغتياله اسمًا للحركة في تركيا وألمانيا والولايات المتحدة الساعية إلى تحقيق رؤيته للتفاهم والمصالحة. وفي ألمانيا، حيث تقيم أكبر جالية تركية خارج تركيا، أثارت التغطية التلفزيونية للمجزرة في ذكراها الخامسة والتسعين نقاشًا وطنيًّا.

من شأن العامل الحاسم بين اللاعبين الإقليميين في مواقف الأزمة الثلاثة كلها أن يكون ذاتيًّا، كما حاججت بذلك في سياق هذا الكتاب: فجدار دانتي

الناري ليس اختراعًا شاعريًّا، بل يجسِّد مبدأ نفسيًّا عميقًا. وقد وفّر الربيع العربي مثالًا يُحتذى لهذا المبدأ. وبات على من دفع بهم التاريخ إلى مواقع المسؤولية أن يعبروا ألسنة اللهب لبلوغ الطرف الآخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هوامش الكتاب..

(1) Heinrich Vierbücher, What the German Imperial government Concealed from Its Subjects: Armenia 1915: The Slaughter of Civilized People at the Hands of the Turks.

مترجم عن نسخة 1930 الألمانية الأصلية

Armenian Cultural Foundation, Arlington, Massachusetts, 2006, Appendix, pp. 72-73.

وقد تم التشكيك في صحّة الوثائق التي يشير إليها المؤرخون على أنها «تلغرامات طلعت». وكتب كريستوفر ج. ووكر: «الوثائق نفسها اختفت. وكان نشرها في 1920 غير علمي، إلا أن تحليلها الذي وفّره البروفسور ف. ن. دادريان في

The International Journal of Middle East Studies

في 1986 قطع شوطًا بعيدًا في البرهان على صحتها إضافة إلى تقديم الكثير من الأدلة الظرفية.

Walker, «orld War I and the Armenian Genocide», in The Armenian People from the Ancient to Modern Times, Volume II, Foreign Dominion to Statehood: The Fifteenth Century to the Twentieth Century, Edited by Richard G. Hovannisian, Macmillan, New York, 2004, p. 247.

(2) لطالما زعمت والدتي أن هذا هو تاريخ مولدها، وإذا كان الأمر كذلك لا يمكن أن تكون لها علاقة بالمجازر في أرابكير التي بدأت، بحسب تقرير ليبسيوس، في ربيع 1915. والأكثر ترجيحًا هو أنها كانت ووالدتها ضحيتي المجزرة الثالثة التي يقول والدي إنها وقعت في أواسط 1916. وسيكون لهذا التاريخ معنى لأنها تصف نفسها حينذاك وهي طفلة ترتدي فستانًا، فيكون عمرها ستة أشهر على الأقل. وقد حرّرت مذكّراتها في وقت لاحق وطبعتها في كتيّب تحت عنوان «قصة حياتي»

Story of My Life, Artemis Yeramian Mirak, Dinges & Frick, Wiesbaden, 2000.

(3) جاستن مكارثي في طليعة الرجعيين الأميركيين في ما يتعلّق بمسألة المذبحة الأرمنية. وقد نشط أواخر سنوات 1960 في تركيا كعضو في فيلق

السلام وكأستاذ في جامعة أنقرة. حاز في 1978 الدكتوراه من جامعة «يو.سي.أل.إي». (المعهد الجامعي في لوس أنجلس). وقد نشر أعمالاً كثيرة عن الأمبراطورية العثمانية والمسألة الأرمنية، ومن غير الواضح ما هو الكتاب الذي كان لوالدي ردّ فعل عليه.

(4) تدلّ إشارة والدي إلى واقع أن الناس لم يعودوا قادرين على السير إلى أنه يتحدّث عن مبعدين أرمنيين بدا أنهم وصلوا من موقع آخر. فأبناء بلدته سبق أن كانوا عرضة للمذابح الثلاث الأولى.

(5) وقعت مجازر في حق الأرمن في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. ويستذكر الناس في صفة خاصة «المذبحتين المزدوجتين» في أورفا في 28 و29 كانون الأول/ديسمبر 1895. وقد لجأ ما يُقدَّر بثلاثة آلاف أرمني إلى كاتدرائية أورفا. وألقي بثلاثين صفيحة من الكاز في داخل المبنى وأشعلت فيها النار. واحترق جميع من كانوا في الداخل. وقُتل في مجمل المذبحة التي وقعت في أورفا في هذين اليومين نحو ستة آلاف شخص. أنظر

Hans-Lukas Kieser, «This edition of In the Land of Blood and Tears», in Jakob Kuenzler, In the Land of Blood and Tears: Experiences in Mesopotamia During the World War (1914-1918), Armenian Cultural Foundation, Arlington, Massachusetts, 2007. Translated from the 1999 German edition, p. xxxi.

(6) Kieser, p. xxxi.

المرجع السابق.

(7) Kuenzler, op. cit., p. 18

يبدو الأمر أشبه بوادي كيماخ الضيّق

Walker, op. cit., pp. 255-256

. ويفيد ووكر أن أرمن مقاطعة أرزروم هوجموا في أيار/مايو 1915، وقُتل منهم 19 ألفًا على الفور ورُحّل الباقون. «مات معظمهم من الجفاف والجوع والانهاك وعناصر الطبيعة. وأضحت هذه العوامل حليفًا للسلطات في التخلص من الأرمن. وسيق من نجوا غربًا، قاطعين إرزينجان، إلى وادي كيماخ الضيّق حيث تم القاؤهم من جرف عميق إلى النهر السريع التدفّق من تحت. وكانت كيماخ مقرّ قيادة الشيت الذين نُظموا من أجل سلب الأرمن وتعذيبهم وقتلهم». أنظر أيضًا

Vierbücher, op. cit., pp. 47 ff.

.Kuenzler, op. cit., p. 51 (8)

(9) المرجع السابق، ص 7. من المؤكد «أن نافذ لم يكن بالضابط العادي. بل كان في الواقع واحدًا من أولئك الضباط العسكريين الملتزمين سياسيًّا، أي المسيسين، والذين، بصفة كونهم من محددي مهام حزب تركيا الفتاة الحاكم... أذنوا بنظام لجنة الاتحاد والترقي الجديد

Vahakn N. Dadrian,Jakob Kuenzler: Witness of the Armenian .Genocide and Resistance in Urfa», in Kuenzler, op. cit., p. xlviii

وفي المختصر أن القرار بهذه السياسة قد اتخذ مسبقًا. وكتب هنري مورغنثو، السفير الأميركي في تركيا حينذاك، في الصفحة 309 من كتابه «قصة السفير مورغنثو»

Ambassador Morgenthaus Story, Doubleday, Page & Company, New York, 1918, p. 309

لم تفعل السلطات التركية لدى إصدارها الأوامر بهذه الترحيلات سوى إصدار حكم بالموت على عرق بأكمله؛ أدركوا هذا جيّدًا ولم يحاولوا، في أحاديثهم معي، إخفاء هذا الواقع.

Copyright Doubleday, Page & Company, Bantam Dell, Random .House

(10) أفاد: «كنت على اطلاع دائم على آخر الأحداث من المخيتاريين الأرمن الكاثوليك، وأعضاء الرهبانيات الكاثوليكية، والبطريركية الأرمنية، والمبشرين الأميركيين الذي بلغوا العاصمة

D. Dr. Johannes Lepsius, Der Todesgang des Armenischen Volks: ber das Schicksal des Aremnischen Volks in der Tد Bericht rekeiwaehrend des Weltkrieges, fourth edition, 1930,د Missionshandlung und Verlag, Postdam, first published in 1916, pp. .X-XI

(11) نشر أكثر من عشرين ألف نسخة من تقرير لبسيوس أرسل معظمها إلى أصدقاء إرساليته وغير ذلك من الرعايا البروتستانتية؛ وأرسلت 500 نسخة إلى رجال السياسية بمن فيهم أعضاء في الرايخستاغ، وبرلمان ولاية فورتمبرغ، والصحف الألمانية اليومية الكبرى. تعرض معظم النسخ للرقابة والمصادرة، فنشرت طبعة ثانية في 1919.

.Walker, op. cit., p.252 (12)

كان ذلك هو قانون التطهير الذي كثيرًا ما يؤرَّخ في الأول من حزيران/يونيو 1915 وقد طُبق حتى 8 شباط/فبراير 1916 بالنسبة إلى عمليات الترحيل. ويلاحظ ووكر: «بما أن عمليات الترحيل والمجازر كانت بدأت بالفعل، فإن تمرير القانون كان، على ما يبدو، لإضفاء واجهة من الشرعية على الإجراءات»

(13) Kuenzler, op. cit., p. 13.

توسّع كوانزلر في الشرح وقال: «سُجن جميع زعماء الشعب السياسيين والفكريين وأرسلوا إلى الداخل أو قتلوا. وتم تجنيد القادرين على الخدمة العسكرية، وأُخذ جميع الرجال الآخرين القادرين على العمل، وتراوح أعمارهم بين 16 عامًا 50 (وتصل أحيانًا إلى السبعين)، بعيدًا من منازلهم لنقل الأحمال الثقيلة أو القيام بأعمال البناء، وأرسلوا إلى صحارى الداخل الصخرية». وتبين لبسيوس السبب وراء التحركات ضد زعماء الجماعة: «أرادوا قطع رأس الشعب الأرمني قبل تحطيم أطرافه»، ص 22.

(14) المرجع نفسه، ص21

(15) المرجع السابق، ص137-138.

(16) المرجع السابق، ص142.

(17) Dadrian, in Kuenzler, op. cit., p. liii.

(18) هربت هريبسيم وأمها الرئيسة غاياني من روما خلال اضطهادات الأمبراطور ديوكليسيانوس. أراد الأمبراطور اتخاذ هربسيم زوجة له، ولما علم بهربها إلى أرمينيا بعث بكلمة إلى الملك الأرمني تردات يطلب منه إما إعادتها إلى روما وإما الزواج منها بنفسه. حاول تردات استخدام غاياني لنقل طلبه إلى هريبسيم، لكنها رفضت. وتعرضت الراهبتان، مع أخريات، للتعذيب والشهادة. وتوجد كنائس في أرمينيا، على مقربة من إتشميادزين، مُكرّسة لكلتيهما.

(19) يروي لبسيوس: في آب/أغسطس 1914 دعي جميع الأرمن الأصحّاء جسديًّا إلى الخدمة العسكرية، ولبّوا النداء من دون اعتراض. وفصّل أيضًا تعليقات السلطات التركية، ومن بينهم حتى وزير الحرب أنور باشا، أن الأرمن قاتلوا في شجاعة وفاعلية دفاعًا عن أرض الأجداد خلال حروب البلقان واستمروا في ذلك في الحرب العالمية الأولى. وحث زعماء الكنيسة الأرمنية، من البطريرك زافين نزولًا حتى الكهنة المحليين، وأعضاء الطائفة على الانضمام إلى الجيش والصلاة من أجل انتصار العثمانيين.

(20) تختلف رواية ووكرز لأحداث زيتون بعض الشيء. ففي روايته، دفع الكثيرون من الأرمن «ضريبة إعفاء» للتخلص من التجنيد، الأمر الذي أدى إلى

إثارة العبوس على رغم كونه قانونيًّا. وفي آذار/مارس، طالب الجنرال التركي فخري باشا الذي جاء على رأس ثلاثة آلاف جندي بالتحاق الرجال، لكنهم رفضوا والتجأوا إلى الدير الحسن الموقع. وقتلوا في مقاومتهم 300 جندي قبل أن يُسحقوا ويتم احتلال الدير وحرقه. وجاء بعد ذلك الترحيل، وهو الترحيل المنهجي الأول الذي يتم تسجيله. ومما له دلالته أن أعمال العداء في زيتون وقعت قبل أحداث فان التي استخدمتها السلطات التركية لتبرير عملياتها في زيتون. أنظر

.Walker, op. cit., pp. 249-250

(21) أثار مورغنثو نقطة مهمة في شأن فان وهي أن الأتراك، بدلًا من مطاردة الروس بعد انسحابهم أوائل الربيع، دخلوا فان وتحرّكوا ضد المدنيين. وتقول روايته بالقضاء على 24 ألف أرمني في 18 قرية في غضون ثلاثة أيام. وقد قاوم 1500 أرمني جيشًا من خمسة آلاف خلال حصار فان، وربحوا بعد خمسة أسابيع. وتقول الإشاعات أن جودت بك اشتهر باسم «بيطري بأشكال» لأنه كان يقوم، على غرار البيطري، بدق نعال الأحصنة في أرجل الرجال الأرمن كشكل من أشكال التعذيب.

.Morgenthau, op. cit., pp. 297-299, 307

(22) Franz Werfel, die Vierzig Tags des Musa Dagh, fisher .Taschenbuch Verlag, Frankfurt am Main, 2006

.Lepsius, op. cit., pp. XII-XIX (23)

تضمّنت رواية فرانز فرفل كامل وقيعة لبسيوس-أنور. فلو ان نية تركيا الفتاة، في ما يتعلّق «بإعادة موضعة» الأرمن، كانت للأسباب العسكرية المزعومة لتم تنظيم الحركة الجماعية لمثل هذه الأعداد الكبيرة بطريقة تخفف من الإصابات. فلبسيوس، الذي عرض خدماته خصيصًا للقيام بهذا، يصف ما الذي كان ليتطلبه الأمر: «من شأن إعادة توطين منهجية للسكان أن تضع إدارة حسنة التنظيم في مواجهة المشاكل الأكثر صعوبة. وعلى المرء أن يأخذ، بالتأكيد، إجراءات احتياطية مسبقة لمراحل المسيرة، وتدبير وسائل نقل وعناية على طول الطريق، وتحضير كل شيء في مناطق الاستيطان الجديدة من أجل استيعاب مثل هذه الأعداد الضخمة من الناس والعناية بهم ولو على أساس موقت». وتناول لبسيوس المشاكل القانونية لتوطين المُرحّلين في مناطق يسكنها آخرون بالفعل. ولكن في هذه الحال «لم يوجع أحد رأسه في هذه المسألة». ص 133-135. تلك كانت الوسائل التي اعتمدها جماعة تركيا الفتاة للتخلص من الأرمن.

(24) Morgenthau, op. cit., pp. 337-338

.Kuenzler, op. cit., pp. 74-75 (25)

Richard Hovannisian, “Intervention and Shades of Altruism (26) During the Armenian Genocide», The Armenian Genocide, History, Politics, Ethics, edited by R. G. Hovannisian, St. Martins Press, New .York, 1992, p. 18

.Kuenzler, op. cit., p. 124 (27)

(28) أصدر شقيقي الدراسة النهائية الأولى عن الأرمن في أميركا في كتاب يستقي في شكل واسع من روايات بضمير المتكلم لمهاجرين مثل أهلي.

Robert Mirak, Torn Between Two Lands: Armenians in Armenia 1890 to world War I, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, .1983

(29) أجرى الاستاذان أللبورت وليري في الستينيات، في مقرر عنوانه «العلاقات الإجتماعية» في جامعة هارفرد، تجارب على المخدرات مع طلاب المراحل الجامعية الأولى. وقد أعطوا مخدرات مثل «أل. أس. دي». وافتُرض بهم تدوين ملاحظات عن ردود فعلهم. وأنا أعرف حالات كثيرة أصيب فيها الطلاب بالذهان، وأقدم بعضهم على الانتحار. وفي الوقت نفسه، تضمنت عملية استخبارية أخرى، في الشاطئ الغربي، عُرفت بـ «أم. كي. ألترا« -MK Ultra توزيع مخدرات على الطلاب وكذلك على شرائح اجتماعية أخرى.

(30) أبرز كوانزلر «مزاج الاحسان» الذي أظهره الكثيرون من الأتراك، وإنشاء ميتم تركي للأيتام الأرمن. المرجع السابق، ص 55. وأفاد لبسيوس عن محاولات قام بها مسؤولون أتراك من مستوى غير رفيع ومواطنون عاديون لوقف عمليات الترحيل. المصدر السابق، ص 151. وقام ريتشارد ج. هوفانيسيان أيضًا بتوثيق هذا. المصدر السابق.

Nikolay Hovhannisian, The Armenian Genocide, National (31) Academy of Sciences of Armenia Institute of Oriental Studies, .Yerevan, 2005, p. 40

.Walker, op. cit., p. 254 (32)

كان مراسل «لندن تايمز» فيليب غريفز هو الذي أطلق عليه اسم «المتعصب المكفهر». وكان هناك، إضافة إلى «اللجنة التنفيذية الثلاثية»، شركس أحمد الذي أعدّ لاغتيال البرلمانيين الأرمنيين فراتكيس وزهراب؛ واسماعيل جانبولاد، كبير مساعدي طلعت؛ والدكتور رشيد، حاكم إقليم ديار بكر؛ والجنرال محمود كميل باشا الذي قاد الجيش العثماني الثالث. المصدر السابق، ص 255.

(33) كان زعيم المجموعة، ابراهيم تيمو، تلميذًا ألبانيًّا تعلّم، لدى زيارته براندیزي ونابولي، طريقة تنظيم جمعية سرّية بعدما التقى البنائين الأحرار (الماسونيين) والكاربوناري. استنسخ تيمو طريقتهم في التنظيم، وأنشأ خلايا مرقّمة؛ وأعطى لكل عنصر في الخلية رقمًا أيضًا يشكّل كسرًا مع رقم الخلية. وهكذا يصبح رمز الرقم الثاني من الخلية السادسة

Ernest Edmondson Ramsaur, Jr., The 2/6 Young Turks: Prelude to the Revolution of 1908, Princeton University Press, Princeton, New .Jersey, 1957, pp. 15-16

(34) غير أنه قاد في 1909 الحملة على العاصمة لسحق محاولة للقيام بثورة مضادة. رامسور، المصدر السابق ص 98-99. وتتعدد طريقة كتابة سالونيك، وكثيرًا ما تُكتب ساولنيكا.

Feroz Ahmad, The Young Turks: The Committee of Union and (35) Progress in Turkish Politics 1908-1914, Oxford at the Clarendon .Press, 1969, pp. 141-143

كُتبت أسماء زعماء جمعية الإتحاد والترقي بطرق مختلفة مع لقب باشا أو من دونه؛ وهكذا عُرف محمد طلعت (1874-1921) أيضًا بطلعت باشا، وعُرّف أيضًا عن جمال بك (1872-1922) بأحمد جمال ومن ثم بجمال باشا؛ وأصبح أنور (1881-1922) أنور بك وأنور باشا؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى كاراسو (1862-1934) الذي هجئ اسمه بالأحرف اللاتينية بطرق مختلفة، الخ. وقدّم أحمد سير حياة موجزة لعدد من شخصيات جمعيات الاتحاد والترقي.

(36) أفاد تشارلز رودن باكستون، العضو في لجنة البلقان التي تعاطت مع مشاكل الأقليات المسيحية في الأمبراطورية العثمانية، في كتابه

Charles Roden Buxton, Turkey in Revolution, London, T. Fisher Unwin, 19090, pp. 44-46

بما يلي عن طقوس الدخول في جمعية الإتحاد والترقي: يعرض واحد من الأعضاء «على المتحزّب الجديد أن يطلعه على سرّ مقدّس بشرط أن يقسم قبل ذلك على ألا يكشفه أبدًا لأحد من دون إذن. وإذا أراد القيام بهذا وبدا أنه أهل للثقة، يُقام له قسم يمين رسمي وتُشرح له فكرة الجمعية.

سوى أن المرحلة الثانية هي الأكثر أهمية، وقد أضفيت إليها كل حالات الروعة والشعائرية. وقد تبلور شكل احتفال القبول بشعائر محددة. تُعصب عينا الرجل ويقاد إلى موضع سرّي أخفي عنه مكانه كليًّا. ثم تُرفع العصبة عن عينيه ليجد نفسه في غرفة معتمة، وربما في جوف جميل في التلال، في حضور ثلاثة

غرباء يرتدون اقنعة سودًا. ويجعله هؤلاء يقسم اليمين الذي سيصبح مبدأ حياته. وهو بقسمه على السيف والكتاب المقدّس يتعهّد تكريس طاقاته كلّها فداء لبلاده، وإطاعة كل أمر يصل إليه عبر قنوات الجمعية، وعدم كشف أسرارها أبدًا، وقتل أي إنسان، مهما كان قريبًا إليه وعزيزًا، إذا ما صدر أمر من الجمعية في حقه بالموت. ثم تغطّى عيناه من جديد ويقاد عائدًا إلى المكان الذي بدأ منه رحلته الغامضة.

(37) ويتم بعد ذلك اختبار وفائه من خلال تمديد حداثة عهده بالجمعية حيث يراقب الأعضاء سلوكه، ولا يُسمح له بالتعرّف إلى أي منهم في ما عدا الشخص الذي عرّفه في الأساس إلى الجمعية. ويُلحق في النهاية بواحد من الفروع المحلية الذي قد يضم ما بين مئة عضو ومئتين. غير أنه لا يُسمح له بالتعرف، من بين هؤلاء، إلى أكثر من أربعة. إذ إن خمسة يشكل العدد الأكبر الذي يجتمع أبدًا معًا في مجموعة واحدة. واحتوت كل مجموعة، لغرض الاتصالات، على دليل يتلقى أوامر الجمعية من ممثل مجموعة أخرى، ومهمته في تمريرها من دون أي لحظة تأخير».

بحسب رامسور، في المصدر السابق ص 108، لم يكن أحمد رضا والدكتور «سيلانكيلي» ناظم من الماسونيين.

Vincenzo Pinto, Imparare a Sparare: Vita di Vladimir Zeev (38) .Jabotinsky, Padre del Zionismo di Destra, UTET, 2007, p.79

وصل بن غوريون في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 1911 إلى سالونيك «التي كانت مدينة يهودية محضة. وكانت، حينذاك، المدينة اليهودية الوحيدة في العالم».

Michael Bar-Zohar, David Ben Gurion: 40 Jahre Irael, Die Biographie bbe Verlag, Bergisch Gladbach, 1988,دnders, Gustav Lدdes Staatsgr .(translated for the English Ben-Gurion: A Biography, 1978), p. 51

(39) بحسب أحمد، المصدر السابق ص 108، فقد اغتيل عدد من الشخصيات: حقي بك، العضو في لجنة ماهر باشا للتحقيق، صادق باشا ياور السلطان، وأوسدام هدايت قائد حامية مناستير، وإلى ما هنالك.

Der Islam im neunzehundert: Eine cultutgeschichtliche Studie (40) ry, F.A. Brochkaus, Leipzig, 1875, p. 18إvom Herman Vàmb

توجد رواية هذه الرحلة في

Arminius (Herman) Vambéry, Travels in Central Asia, 1863, London, .Murray, 1864

يتضمن مؤلّف فامبيري دراسات جغراسية عن التنافس بين بريطانيا وروسيا على آسيا الوسطى، وينحاز فيها المؤلف دومًا إلى لندن. وأصدر فامبيري (1832-1913)أيضًا مجلّدًا صغيرًا يستهجن فيه خطر أن تطغى جحافل اليابانيين على «أوروبا الفقيرة»، وقد أعطاه عنوانًا مناسبًا هو «الخطر الأصفر».

.Le Péril Jaune, Gustave Ranschburg; Budapest; 1904

.Vàmbéry, Travels, op. cit., map (41)

Jacob B. Landau, Pan-Turkism: From Irredentism to (42) Cooperation, Indiana University Press, Bloomington and Indianapolis, .1995, p. 30

Jacob B. Landau, Pan-Turkism: From Irredentism to (43) Cooperation, Indiana University Press, Bloomington and Indianapolis, .1995, p. 37

.Walker, op. cit., p. 242 (44)

.Landau, op. cit., p. 38 (45)

(46) المرجع نفسه، ص42.

.Walker, op. cit., p. 243 (47)

.Landau, op. cit., pp. 48-49 (48)

(49) Walker, op. cit., p. 243. شكّلت الإشارة إلى «غير المسلمين» تعبيرًا مُتداوَلًا في الأمبراطورية العثمانية، لكنها لم تمثّل أي نزعة إسلامية من جانب أعضاء تركيا الفتاة الذين كانوا من الملحدين. وقال مورغنثو أيضًا أن «جميع أعضاء» تركيا الفتاة «كانوا جميعهم عمليًّا من الملحدين». المصدر السابق ص 323.

.Ahmad, op. cit., p. 150 (50)

سبق لصهر السلطان، دهمت محمود باشا، أن خان البلاط وانضم إلى رضا، العضو الليبرالي في تركيا الفتاة. راجع

.Ramsaur, op. cit., p. 55

وشهد مورغانثو أيضًا على السلطة الكاملة التي تمتعت بها تركيا الفتاة. فعندما أوحى لأنور أن قيادة جمعية الاتحاد والترقي قد لا تكون مسؤولة مباشرة عن المجازر لأن آخرين قد يكونون قاموا بها، أجاب أنور: «تخضع البلاد لسيطرتنا

المطلقة... ونحن نقبل بالمسؤولية. فالحكومة نفسها هي التي أمرت بالترحيل».Op. cit., p. 351.

Walker, op. cit., p. 224. Landau, op. cit., pp. 52-53 (51)

ويفيد المصدران أن الوزير الأكبر تسلّم، بعد أيام قليلة وحسب على 6 آب/ أغسطس، رسالة من السفير الألماني فون فاغنهايم توضح شروط المعاهدة السرّية: «تأخذ ألمانيا على نفسها السعي إلى تصحيح حدود تركيا الشرقية بما يسمح لها بالحصول على اتصال مباشر بالعناصر المسلمين في روسيا».

The First Genocide of the Twentieth Century, Armenian (52) .Genocide Museum-Institue, Yerevan, 2005, p. 38

.Morgenthau, op. cit., p. 342 (53)

(54) للمزيد عن الإجراءات وجلسات الاستماع:

Vahakn N. Dadrian, «Genocide as a Problem of National and International Law: The World War I Armenian Case and Its Contemporary Legal Ramifications,» The Yale Journal of International Law, Volume 14, Number 2, Summer 1989, pp. 292, 293, 299, 300-302

كل الاستشهادات مأخوذة من الوثائق الرسمية المنشورة في «تقويمي وقايع»، وهي «الجريدة الرسمية للحكومة العثمانية»، التي كتب دادريان أن «ملحقاتها التي غطّت المحاكمة كانت بمثابة صحيفة قضائية. وعلى حد علم هذا المؤلف فما من أرشيف أو مكتبة خارج تركيا يملك هذه الملحقات. فقد أخرجت السلطات التركية هذه الأعداد من التوزيع ما إن تم اخراجها من المطبعة»، ص 221. وكان مورغانثو هو المفوض بطلب من الحكومات الإنكليزية والفرنسية والروسية لإبلاغ قادة تركيا الفتاة أنهم، في حال كسب الحلفاء الحرب، سيعامَلون هم والوزير الأكبر وطلعت وأنور وجمال كقتلة.

.Op. cit., p. 359

Rainer Hermann, Frankfurter Allgemeine Zeitung, October 20, (55) .2008

.Dadrian, op. cit., p. 310, note 358 (56)

(57) كان الدكتور ناظم صريحًا في شأن نية ارتكاب الإبادة الجماعية: «يجب توجيه عملياتنا في اتجاه القضاء على الأرمن بحيث لا ينجو أحد منهم».

.The First Genocide of the Twentieth Century, op. cit., p. 22

.Ramsaur, op. cit., pp. 76-77 (58)

Lepsius, op. cit., p. 158 (59)

كثيرًا ما كان التدخل البريطاني مع تركيا الفتاة مباشرًا. فقد تطوع السير ويندهام ديدز للخدمة في الجندرمة العثمانية التي كانت بقيادة ضباط أوروبيين. وأصبح في 1910 شخصية طليعية في حكومة تركيا الفتاة، عاملًا في وزارة الداخلية التي أصبحت لاحقاً تحت سيطرة طلعت الذي نظّم المجازر.

Ahmad, op. cit., p. 75 (60)

(61) المرجع نفسه.

.Walker, op. cit., p. 240 (62)

(63) شكل خط برلين - بغداد بالنسبة إلى البريطانيين سببًا يبرر شن الحرب لأسباب اقتصادية ذات أهمية استراتيجية. وقد سمح الامتياز الذي منحه السلطان في 1903 لألمانيا ببناء خط السكة الحديد الطموح وبأن توفّر له جميع المهندسين والمعدات فيما تستخدم العمّال المحليين. وكان على الخط أن ينطلق من القسطنطينية إلى كونيا، ومن هناك إلى أضنة وحلب والموصل وبغداد وصولًا إلى البصرة على الخليج الفارسي. وقضى مشروع السكة الحديد الكبير الثاني، الذي أطلقه الألمان وموّلته مساهمات المسلمين، ببناء سكة حديد الحج من دمشق إلى المدينة ومكة. ويفترض بالمشروعين أن يلتقيا في حلب.

وشكّلا من الناحية الإقتصادية نعمة على الصناعة الألمانية إذ توجب تصنيع كل المواد الخام وقطع السكة في ألمانيا ونقلها إلى مواقع التركيب. وكان على ألمانيا، لضمان خطوط إمداد القطع، أن تنشئ بنى تحتية رئيسة في تركيا بما فيها المرافئ. وفرض وضع الخطوط على طول الطريق أن يتغلّب الألمان على العوائق الجغرافية مثل سلاسل الجبال والممرات المائية العريضة، وقد فعلوا ذلك ببراعة هندسية عظيمة. وانتهى العمل بحلول 1910 في خط أضنة - حلب، وهذا مهم لأنه سيمكن عندذاك ربط خط الحجاج به.

وشكّل النفط سببًا آخر لتوجّس البريطانيين. فقد أدرك الألمان، على غرار البريطانيين، أن النفط هو وقود المستقبل، وحرصوا على تأمين الوصول إليه. وحصلت ألمانيا، بموجب الاتفاقات الموقعة مع العثمانيين، على الحق في قطاع من عشرة كيلومترات عند كل جانب من جانبي مشروع خط السكة الحديد، وعلى الموارد الموجودة فيها. وعرفت بريطانيا بالثروات الدفينة تحت أرض الموصل وأرادت السيطرة على المرفأ الذي بنت إليه خطوط الأنابيب لشحن النفط منها.

وبحلول خريف 1914 بلغ التوجّس بالبريطانيين في شأن التقدم الألماني حدًّا عرضوا فيه المشاركة في المشروع بشرط أن يتوقف خطة السكة الحديد في بغداد. وأوفدوا في غضون ذلك قوة حملة بقيادة ت.إ. لورنس («العرب») إلى سيناء للشروع في الاتصال بالقبائل البدوية التي قد يمكن تجنيدها كقوة حرب عصابات ضد العثمانيين.

وما إن اندلعت الحرب حتى استهدف الإنكليز نقاط عقدة مشروع السكة لمعرفتهم أن خطوط النقل حيوية لإمداد القوات الألمانية - التركية. ومن هنا قرارهم مهاجمة البصرة والإسكندرون، وكلاهما مرفأ يستخدم لاستلام الإمدادات ليس للجنود وحسب بل أيضًا لاستمرار العمل في خط السكة الحديد. ونشرت بريطانيا البدو الذين ترتكز عليهم لتخريب خط السكة الحديد من خلال نسف الخطوط والقطارات. وعنى تدميرهم في 1917 خط الإمدادات إلى مكة والمدينة أن القوات العثمانية المتمركزة في المدينتين المقدستين ستتعرض للجوع أو للموت في الصحراء.

سقطت دمشق، وسقطت فلسطين، وشاهدت بغداد القوات البريطانية تعبر بواباتها. نجحت لندن في وقف الاندفاعة الإقتصادية - السياسية الألمانية كما تجسّدها رؤية برلين - بغداد.

(64) «Die Bagdad-Bahn», German/French television Arte, April 15, 2009.

(65) Michael Yardley, T.E. Lawrence: A Biography, Cooper Square Press, New York, 2000.

أُرسل لورنس وزميلته في الاستخبارات البريطانية جيرترود بل للتجسس على مشروع سكة حديد بغداد، ولينظّما، في الحرب، العمليات الإرهابية لتخريب خطوط السكة بالقنابل. تمكنت بل، بعدما زعمت أنها عالمة آثار بريطانية، من المراوغة والاتصال بهنريتش أوغوست ميسنر، كبير المهندسين الألمان الذي يسير بالمشروع قدمًا. نجحت في كسب ثقته واستحصلت منه على معلومات ثمينة عن مزيد من الخطط للمشروع، وهي معلومات دونتها وأرسلتها كل مساء في رسائل إلى والدها الذي كان يمررها من ثم إلى الاستخبارات البريطانية.

Arte, ibid

(66) Stephen Kinzer, All the Shahs Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror, John Wiley & Sons, Inc., Hoboken, New Jersey, 2003, pp. 47-49

أدت روسيا القيصرية دورًا في مخطط سايكس - بيكو الأولي، وهو دور انتهى مع الثورة. غير أن السوفيات وضعوا حدًّا، بعد الحرب العالمية الأولى، لاستقلال أرمينيا الوجيز وألحقوها بالاتحاد السوفياتي.

(67) يروي مورغانثو أحاديث مع زعماء تركيا الفتاة يخرفون فيها ويهذون في شأن الأرمن بصفة كونهم حلفاء لروسيا.

(68) Ulrich Trumpener, Germany and the Ottoman Empire 1914-1918, Princeton, Princeton University Press, 1968, pp. 212-213.

(69) A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East, Avon Books, New York, 1989, pp. 214-215.

(70) إرغينيكون منظمة سرّية خططت، عبر السنين، لانقلابات على الحكومة التركية. وقد تم توقيف قياديين، بمن فيهم عسكريون وشخصيات سياسية. وبحسب رينر هيرمان، في عدد 20 تشرين الأول/أكتوبر من صحيفة فرانكفورتر ألغيماينيي زيتونغ، فقد فُككت فرق العمليات الخاصة التي حُركت ضد الأرمن في 1915، ثم أعيد بعد 1923 دمجها في أجهزة الاستخبارات السرية. وقد استمر وجودها واتخذ شكل إرغينيكون.

(71) يوجد، بين الشخصيات ذات الخلفية التركية في الخارج التي وقعت على العريضة، الزعيم الجديد لحزب الخضر الألماني، سيم أوزديمير. كذلك ساند المنتدى الثقافي التركي - الألماني في كولونيا العريضة وحث جميع الألمان المتحدرين من أصل تركي على أن يحذوا حذوه.

(72) قتل لص البروفسور بوندارفسكي بطريقة وحشية في شقته في 8 آب/أغسطس 2003. وقد ظهر الكثير من المادة التي يغطيها هذا القسم والذي يليه بأشكال أخرى في مقالات ومقابلات نشرتُها ما بين 1991 و2003 في وكالة أنباء «إي.آي.آر»، في واشنطن العاصمة، وقد بدّلت أسماء موظفي شركة إيرفلوت الجوية الروسية.

(73) اسم الاتحاد الثقافي هو «مؤسسة شيللر».

(74) ولد البطريرك بيداويد في 1923 في الموصل واحدًا من 13 ولدًا. درس خلال الحرب العالمية الثانية في روما وعاد إلى الديار بعد الحرب. وأصبح، بعد تسع سنوات من التعليم في إكليريكية الموصل، مدبِّرًا رسوليًّا في أسقفية كركوك، ثم سيم في 1957 مطرانًا على العمادية في المنطقة الكردية. شارك في المجمع الفاتيكاني الثاني ثم عمل في بيروت وانتخب في 1989 بطريركًا على الكلدان.

(75) جاءت التبرعات من مؤسسة «رسالة القديس يعقوب» السويدية، ومن الجميعة الألمانية - العربية، ومن شركة الأدوية شيرينغ، ومن «أكشن ميديو»، ومن «مبادرة أطباء إسّن».

(76) انظر الفصل الرابع، «طيروا على الخطوط الجوية العراقية».

(77) كنت طرت إلى عمان حيث أمضيت الليلة ثم استأجرت سيّارة لاجتياز الألف كيلومتر إلى بغداد. واجه الراكب الآخر في السيارة مشاكل سياسية لم أستطع فهم طبيعتها بسبب جهلي العربية، وخضع لتفتيش دقيق عند الحدود. وبوصولنا إلى الرمادي وجدنا أن الجسر اختفى، وقرر السائق القيادة على جسر خشب مُرتجل ذكّرني بفيلم الجسر فوق نهار كواي. وخلافًا لتوقعاتي لم ينته بنا الأمر تحت الماء بل بلغنا بغداد بعد منتصف الليل بكثير.

(78) على أثر سقوط بغداد في 2003، استسلم الدكتور عزيز لسلطات الاحتلال معتقدًا، على الأرجح، أنهم سيعاملونه في عدل، وقد يبحثون معه في الوسائل التي يمكن من خلالها تحقيق المصالحة الوطنية العراقية. وهو بلا شك في أفضل مركز لتقديم المشورة لسلطات الاحتلال عن طريقة الشروع في مثل هذه العملية. وعومل، بدلًا من ذلك، كالمجرم، ورمي به في السجن وحُرم الحصول على العلاج الطبي على رغم صحته المتدهورة، ناهيك بحرمانه الاستشارة القانونية والزيارات العائلية. واتهم رسميًّا بارتكاب جرائم وخضع للمحاكمة في آذار/مارس 2009. ووُجد غير مذنب في قمع الشيعة في 1999. وتتضمن التهم الأخرى التي ألصقت به تورّطه في المجازر ضد الأكراد في 1983. وسبق للدكتور عزيز أن فجّر فضيحة في 1998 عندما كشف في خطاب في البرلمان أن عملاء للاستخبارات الإسرائيلية يعملون تحت غطاء «مفتشي» اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة (أونسكوم) للتجسس على المعرفة التقنية والعسكرية العراقية. وذهب الدكتور عزيز، بعد ذلك بسنة، إلى حد أن ندّد بريتشارد وليام باتلر، الذي ترأس الأونسكوم منذ أواسط 1999، بصفة كونه «جنكيزخان جديدًا» يمتلك «سلطة على 23 مليون شخص». وجاء في الاتهام الذي شنه في مؤتمر في بغداد كنت أحضره أن باتلر، الذي ينسق عملية التجسس، في شكل منتظم ومن دون تصريح، سيعلن للعالم أن العراق يمتلك هذا النوع أو ذاك من أنظمة الاسلحة القاتلة. وهو من خلال هذه المزاعم واتهاماته الاعتباطية للعراق بعدم التعاون مع عمليات التفتيش، قام بما توجب عليه لإبقاء منظومة العقوبات قائمة.

(79) صيغ اسم «علي الكوميدي» على مثال «علي الكيميائي» الذي استخدم للدلالة إلى علي حسن المجيد التكريتي عضو حكومة صدام الذي عُدَّ مسؤولًا عن عمليات القتل بالسم.

(80) غادر ناجي العراق بعد حرب 2003، ويقال إنه في الإمارات، وربما في قطر. وهو، على غرار الصحاف، ليس مدرجًا على لائحة المطلوبين أكثر ما يكون من الأنكلو - أميركيين والذين ظهروا على مجموعة ورق اللعب الشهيرة.

(81) مات منير بشير فجأة في 1997 إثر أزمة قلبية.

(82) Draft of Inter-Agency Mission Report», July 12, 1991, final report published in the Baghdad Observer on July 27, 1991.

(83) ذهبت تفاصيل تقرير الفرقة المنتدبة التابعة لصدر الدين إلى ما هو أبعد من الصورة الكالحة التي رسمها في تقرير لفريق الأبحاث في هارفرد: «الصحة العامة في العراق ما بعد حرب الخليج»، الصادر في أيار/مايو 1991، والذي احتل العناوين لتوقّعه أن 170 ألف طفل عراقي عرضة للخطر. راجع الفصل التالي: الإبادة؟

(84) ألّف تيمرمان عددًا من الكتب والمقالات. وشنَّ، بدءًا من 1990، حملة على العراق مسوّقًا للإبقاء على العقوبات، وهو وضع منذ مدة قريبة عينه على إيران.

(85) أبلغت السفارة العراقية في ستوكهولم اللجنة بعدم وجود طائرات تابعة للخطوط الجوية العراقية في البلاد في ذلك الوقت. وذُكر في 28 كانون الثاني/يناير أن مئة طائرة مقاتلة عراقية هبطت في إيران، واحتجت إيران في اليوم التالي عبر سفير الأمم المتحدة معلنة أنها ستحتفظ بالطائرات والطيارين حتى انتهاء أعمال العداء. وتختلف الأرقام التي يقدمها مختلف المصادر في شكل كبير؛ أنزلت إيران في الخامس من شباط/فبراير الرقم إلى 18، فيما قال الائتلاف المعادي للعراق إنها تفوق المئة. وهناك، إضافة إلى هذه، كل الطائرات المدنية التي كانت تقوم برحلاتها قبل بدء الحرب وهي رابضة في المطارات في مختلف أنحاء العالم.

Jürgen Hübschen, Der Irak-Kuwait-Krieg: Chronoligie einer programmierten Katastrophe, Ed. Ergon, 1992, pp. 174-175, 188.

(86) كان تحت عنوان: «مشروع اقتراح: تقوية القدرة على النقل الجوي للبرنامج الإنساني للبعثة المشتركة بين وكالات الأمم المتحدة في العراق».

(87) تبرعت بالمواد مجموعات مساعدة سويدية طليعية هي «رسالة القديس يعقوب»، و«إريكشيالبن» و«ليركارميسيونن» و«سلّم يعقوب». وأسهمت وكالة التنمية الدولية السويدية «سيدا» في الجهد في سخاء. كذلك تبرع اتحاد الأطباء العرب في ألمانيا بخمسة آلاف مارك.

(88) نقلت طائرات سلاح الجو الألماني، من خلال ترتيب موقت، الغذاء والدواء الذي وفّرته اللجنة للعراق، كما فعلت الأمم المتحدة، بالتنسيق مع المكتب في جنيف.

(89) وتضمنت التقارير الأخرى واحدًا رفعه نائب الأمين العام للأمم المتحدة مارتيي أهتيساري في آذار/مارس 1991؛ وآخر وضعته منظمة «أنقذوا الأولاد» في الشهر نفسه.

(90) Harvard Study Team Report, op. cit.

(91) كانت إحدى النساء، على سبيل المثال مصابة بتورّم وبتكييس في المبيض وتتطلب دواءً خاصًّا؛ ولأخرى ثلاثة أولاد يعانون مرض التلاسيميا. وجاء في رسالتها المرسلة بالفاكس إلى «الأمير صدر الدين المحترم»: «يحتاج كل ولد إلى حقنة من الداسفيرال 1,5 غرام تحت الجلد في اليوم لبقائهم اليومي وإذا لم يحصلوا على هذا الدواء فسيموتون. ويحتاجون أيضًا إلى مضخات تحت الجلد تعمل بالبطارية. وأنا حالتي فقيرة وهذا الدواء غير متوافر في العراق بسبب الحصار الاقتصادي. وإذا لم أحصل على المساعدة فسيدمّر ذلك عائلتي».

(92) لنظرة شاملة إلى مناطق حظر الطيران راجع www.historyguy.com/no-fly_zone_war.html وفي مواكبة لصدور تقرير باتلر الذي زعم امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل وانتهاك العراق لشروط الأمم المتحدة، أطلق كلينتون «عملية ثعلب الصحراء» أواسط كانون الأول/ ديسمبر 1998. وهوجمت أهداف بينها مراكز القيادة والسيطرة ومنشآت الأسلحة المضادة للطائرات والمطارات والحرس الجمهوري. ونشرت الديلي تلغراف أوائل شباط/فبراير أن 20 في المئة من الدفاعات الجوية العراقية قضي عليها. وسمحت هذه «الحرب غير المعلنة» للولايات المتحدة والمملكة المتحدة بشل الدفاعات الجوية العراقية مما عبّد الطريق أمام النزاع الكبير التالي.

(93) اعترف الرئيس جورج دبليو بوش في مقابلة أجرتها معه أخبار المساء في محطة إي.بي.سي. في الأول من كانون الأول/ديسمبر 2008، بأن المعلومات الاستخبارية كانت خاطئة. «الأسف الوحيد الذي على الرئاسة كلها الشعور به هو الفشل الاستخباري في العراق. أتمنى لو ان الاستخبارات كانت مختلفة».

(94) للحصول على خلفية عن الجغراسيا أنظر الجزء الثالث الفصل الرابع: الذهن الجغراسي. وقد ضم الفريق الأول بول ولفوفيتز وكان يومذاك وكيل وزير الدفاع للشؤون السياسية (المركز الثالث من حيث الأهمية في

البنتاغون)، آي. لويس ليبي، والذي يُعرف أكثر بلقب «سكوتر» وكان رئيس أركان موظفي تشيني، وإريك إدلمان أحد كبار المستشارين السياسيين لتشيني. تلقت المجموعة معلومات هائلة من زلماي خليل زاده الذي سيصبح الموفد الخاص والسفير في أفغانستان قبل أن يُرقّى إلى أرفع منصب دبلوماسي للولايات المتحدة في الأمم المتحدة. وقد قدّم ولفوفيتز أولى ثمار نقاشات الفريق إلى تشيني في 21 أيار/مايو 1990.

A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm», (95) www.iasps.org/start1.htm

هذه التحفة من تأليف مساعد ديك تشيني، ديفيد ورمسر وزوجته ميراف وريتشارد بيرل وجيمس كولبرت وتشارلز فيربانكز جونيور ودوغلاس فيث وروبرت لوونبرغ وجوناثان توروب وغيرهم.

(96) استمرت في الألفية الجديدة عملية صقل استراتيجية جديدة للهيمنة العالمية. فمشروع القرن الأميركي الجديد، وهو جهاز إمبريالي أنشأه في 1997 تشيني ودونالد رامسفلد وغيرهما وحاول عبثًا دفع الرئيس بيل كلينتون إلى إطاحة صدام حسين، أصدر تقريرًا في أيلول/سبتمبر 2000 كرر فيه رؤيته لاقامة هيمنة أميركية عالمية من دون منازع من خلال الحروب وتغيير الأنظمة؛ وأوصى بأن يتم تغيير نظام بغداد على الفور. «

Rebuilding Americas Defenses: Strategy, Forces and Resources for a New Century», A Report of the New American Century, September 2000.

(97) أدلى فلاديمير بوتين، وكان يومذاك رئيسًا، بملاحظات في مؤتمر «ميونيخ فهركوندي» عدّتها وسائل الإعلام بمثابة إحياء للحرب الباردة. وقد اعترف بوتين وحسب، بصفة كونه رئيسًا لروسيا، القوة العظمى الرئيسة الأخرى، أنه يعرف ما يتم العمل له على قدم وساق. وقد أصاب المستمعين إليه بالصدمة، وبينهم طلائعيو المحافظين الجدد ولفوفيتز وجون ماكين وجو ليبرمان وغيرهم، بقوله إن الولايات المتحدة تستهدف روسيا.

(98) نشر جون تيرمان، في 31 كانون الثاني/يناير 2009، تقديرًا لعدد إصابات الحرب في العراق على موقع

www.middle-east-online.com

وأفاد عن «مليون قتيل، و4.5 ملايين مهجّر، ومليون أرمل وأرملة إلى مليونين، وخمسة ملايين يتيم».

(99) استهدف عملاء الموساد علماء كبارًا بالاغتيال في العقد السابق. وقد استخدم الإسرائيليون لاحقًا «الاستهداف بالاغتيال» للقضاء على الزعماء الفلسطينيين، وبخاصة زعماء مجموعة حماس. وفرض الأنكلو - أميركيون المولعون بالحرب، في تشرين الأول/أكتوبر 1991، حظرًا على الأبحاث العلمية، وصوّت مجلس الأمن الدولي على القرار 715 الذي يسمح بعمليات تفتيش فجائية اقتحامية لأي موقع عسكري أو مدني. ونددت صحيفة الإكسبرس الباريسية بهذا الإجراء لأنه يفرض على البلاد «نظام التمييز التكنولوجي».

(100) أدلى دوني جورج يوخنّا، وكان مديرًا للآثار الوطنية في بغداد، بمقابلات صحافية عدة في 2003 في ألمانيا للتنديد بسرقة المصوغات الثمينة والسعي إلى التعاون من أجل تحديد مكانها واستعادتها. وأخبر الرواية المؤثرة كيف أن الكثيرين من المواطنين العراقيين تقدموا إلى المتحف، بعدما هدأ النزاع نوعًا ما، معلنين أنهم دخلوه خلال عمليات السطو وأخذوا أغراضًا من أجل الإبقاء عليها سليمة. وهؤلاء المواطنون الكثر مسؤولون عن استعادة تماثيل مهمة وغيرها من الأشياء.

(101) نقلت الأسوشيتدبرس في 16 تشرين الأول/أكتوبر قصة جرو اسمه راتشت أنقذه الجنود الأميركيون وقد واجه صعوبة في الحصول على الإذن لدخول الولايات المتحدة. وأعلنت منظمة «جراء بغداد»، التي أنقذت الكثير من الحيوانات وجمعت شملها مع الأميركيين الذين تبنوها، أن 45 ألف شخص وقعوا عريضة تحث الجيش على السماح للجراء بالهجرة إلى الولايات المتحدة.

(102) أستحوذت بلوى اللاجئين المسيحيين على اهتمام الاتحاد الأوروبي في 2008 فيما أخذ الضغط يتصاعد على الحكومات الأوروبية لتدبير اللجوء لهم. ووافق وزراء الداخلية الأوروبيون في تشرين الثاني/نوفمبر 2008 على استقبال عشرة آلاف لاجئ. وبدأ المئات يتوافدون في 2009 لإيجاد ملجأ في أوروبا.

(103) Lessons To Be Learned: Iraqi Resistance To British Occupation 80 Years Ago», Hussein Askary, November 14, 2003

(104) Declaration of Principles On Interim Self-Government Arrangements». September 13, 1993, www.news.bbc.uk/go/pr/fr/-/middle_east/1682727.stm

دعا قرار مجلس الأمن الدولي الرقم 242 إلى «انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها في النزاع الأخير [1967]» وأعلنت

«ضرورة تحقيق تسوية عادلة لقضية اللاجئين». وأمر القرار الرقم 338 بوقف فوري لإطلاق النار في حرب 1973، وتطبيق القرار الرقم 242. وظهر معظم مواد هذا القسم في وكالة أخبار EIR في مقابلات قمت بإجرائها.

(105) احتوى الملحق الثالث بروتوكولًا للتعاون الإسرائيلي - الفلسطيني في المشاريع الاقتصادية والتنموية، وقد توقّع إنشاء لجان مشتركة للتعاون في مجالات المياه والكهرباء والطاقة والمال. وعلى برنامج النقل والاتصالات أن يحدد الخطوط العامة للروابط بين الضفة الغربية وقطاع غزة وإسرائيل وبلدان أخرى. وشكّل الملحق الرابع بروتوكولًا للتعاون الإسرائيلي - الفلسطيني المتعلق ببرامج التنمية الإقليمية، بما في ذلك الضفة الغربية وغزة، وقناة البحرين المتوسط والميت، والزراعة والكهرباء إلخ.

(106) حصلت إسرائيل بعد حرب 1948 على بعض الأرض بما فيها أراض تقع على الضفة الغربية لبحيرة طبريا وعلى أجزاء من غزة والضفة الغربية. واحتج العرب لما شرعت إسرائيل في استجرار المياه من بحيرة طبريا إلى شبكتها الوطنية للمياه. وشرعت سوريا في 1964 في مشروع لبناء قناة لتحويل مياه نهري الحاصباني وبانياس إلى نهر اليرموك الذي ستبني عليه سدًّا بالاشتراك مع الأردن. إندلعت في 1965 اشتباكات على الحدود الإسرائيلية - السورية، وقصفت إسرائيل في السنتين اللتين تلتا، وقبل حرب موقع البناء وتجهيزاته. وبعدما ضمنت إسرائيل «احتياطيها الاستراتيجي» في حرب 1967 باحتلالها غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان، أمكنها أن تضم منابع بانياس وتسيطر على منسوب اليرموك. وسيطرت أيضًا على الضفة الشمالية لليرموك حيث تنساب المياه إلى نهر الأردن. ودمّرت بعد الحرب السد تدميرًا كاملًا. أنظر:

Arnold Hottinger: «Wasser als Konfliktstoff: Eine Existenzfrage für Staaten des Nahen Ostens», Europa-Archiv, 6/1992, pp. 153-163.

ولم تعط حرب 1973 إسرائيل شيئًا سوى صحراء قاحلة وهذا هو السبب الذي تم فيه وفي سهولة الوصول إلى اتفاق سلام في 1978 في كامب ديفيد.

(107) ألقى أيزنهاور خطابه «الذرة من أجل السلام» في الثامن من كانون الأول/ديسمبر 1953 أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة. وقد طرح فكرة إطلاق جهد أميركي - سوفياتي مشترك لتوفير الوقود للمصانع التي تعمل بالوقود النووي في مختلف أنحاء العالم. واقترح في إعادة صياغته «اقتراح لعصرنا» في حزيران/يونيو 1967، بناء منشآت تحلية نووية في الأردن ومصر وإسرائيل لانتاج 400،1 مليون متر مكعب من الماء في السنة. وبعد ذلك بسنة، شرح أيزنهاور في مقالة في «ريدر دايجست» أن الفكرة لم تهدف فحسب إلى انتاج ما يكفي من الطاقة لإنتاج المياه بل أيضًا لتسويق السلام بين الأطراف المشاركين.

(108) استذكر الأمير حسن أن وكالة الطاقة النووية الدولية سبق أن «أوحت فعلًا» في السبعينيات «أننا قد نحتاج إقليميًّا إلى الطاقة الذرية بحلول العام الألفين»، ومضى يقول لي أنه يعتقد أن «فكرة القدرة النووية المزدوجة الغرض في خليج العقبة جذابة جدًّا بشرط أن تقاربها الدول الساحلية الأربع - الأردن وإسرائيل ومصر والسعودية - طبعًا في سياق السلام». ورأى الأمير حسن أيضًا أن إيران والعراق مكوّنان اقتصاديان ضروريان في التنمية الإقليمية.

(109) وضع وزير الاقتصاد والتخطيط الإسرائيلي جاد يعقوبي وكذلك المدير السابق لسلطة وادي الأردن الدكتور منذر حدادين مسودة مشروع قناة البحرين المتوسط والميت. وقد أصدر مركز الهندسة والتخطيط في رام الله دراسة تحت عنوان «وضع المخطط الرئيس لدولة فلسطين».

(110) حدد برنامج البنك الدولي هدفه المباشر «بترقية المنشآت الموجودة وتصليحها وصيانتها. إلا أن البناء الجديد، وبخاصة في المراحل التالية من البرنامج، ستكون له أهميته أيضًا». أما بالنسبة إلى الإسكان فتم التشديد على مساعدة الأونروا على تحسين الإسكان في مخيمات اللاجئين. وبالنسبة إلى التمويل، رفض تقرير البنك الدولي الذي نشر في 20 أيلول/سبتمبر 1993 تحت عنوان «تنمية الأراضي المحتلة: استثمار في السلام» أي ائتمان تديره الدول لمصلحة تمويل القطاع الخاص. فالمجالات المستهدفة بالإنماء كانت مناطق التجارة الحرة والسياحة.

(111) نقلت الصحيفة اليومية الإقتصادية الألمانية «هاندلسبلات» عن أوري ميناشيه، عضو مجلس إدارة غرفة الصناعة في تل أبيب، قوله إن «إسرائيل والأردن ينتجان 35 في المئة من الإسمنت أكثر مما يستخدمانه. وبالتالي من الاستهتار إصدار 400 مليون دولار لبناء معمل للإسمنت في منطقة الاستقلال الذاتي». وقضت سياسة الإسرائيليين بمنع نشوء قطاع بناء فلسطيني مستقل وهو ما حفّزهم على تدمير منشآت إنتاج الإسمنت في حربهم في 2008 على غزة.

(112) تأكد انطباعي في إحصاءات أولى عن «البنى التحتية الموجودة»: هناك سرير مستشفى واحد لكل 686 شخصًا في غزة. ونسبة الأساتذة إلى الطلاب في الضفة الغربية هو 40:1، وفي غزة 60:1. وحال الطرق الكارثية ليست حكرًا على غزة؛ إذ يبلغ مجموع طول الطرق ذات الخط الواحد في الأراضي الفلسطينية نحو 686 كلم، و650 كلم من الطرق الضيقة جدًّا. وكانت طرق القرى، التي يصل طولها إلى ألف كلم، ترابية. وغابت الخدمات الأساسية الضرورية لأي إنماء صناعي مثل الهاتف والكهرباء. وقد وفّر الدكتور محمد

صرصور، الذي يعمل على مشروع «وضع المخطط الرئيس لدولة فلسطين»، هذه الإحصاءات.

(113) في 25 تموز/يوليو، ومرة أخرى في البيت الأبيض في عهد كلينتون، تم التوقيع على اعلان بين الملك الأردني حسين ورئيس الوزراء الإسرائيلي رابين والرئيس كلينتون. أعلنت الوثيقة أن الطرفين «اشتركا في إعادة تأكيد المبادئ الخمسة الأساسية لتفاهمهما على روزنامة مشتركة وُضعت لبلوغ هدف السلام العادل والدائم والشامل بين الدول العربية والفلسطينيين وإسرائيل». ويقضي الهدف «بالوصول إلى حال سلام ترتكز على قراري مجلس الأمن الدولي الرقمين 242 و338...». وأعلنت إسرائيل احترامها الدور الخاص الذي أداه الهاشميون في المواقع المقدسة في القدس، وهي فقرة أثارت استغراب الكثيرين من الفلسطينيين. وأكد الطرفان احترامهما «للسيادة وسلامة الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة». ولم يتم تحديد هذه الدول. ولم تتم الإشارة إلى «فلسطين».

(114) برنامج تطوير الاقتصاد الوطني الفلسطيني لسنوات 1994-2000»، و«استثمر في فلسطين»، الذي وضع مسودتهما المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والمصالحة.

(115) جاء في الورقة الإسرائيلية ،وهي تحت عنوان «خيارات التنمية للتعاون الإقليمي»، أن «من المفضل» على رغم أن بنك الاستثمار الأوروبي والبنك الدولي قد يقدّمان المساعدة، تركيز كل الأموال المستثمرة للتنمية الشرق الأوسطية في بنك يُنشأ حصريًّا لهذه الغاية». وأبلغني الدكتور نبيل عماري، وهو المكلف من وزارة التخطيط الأردنية التفاوض في شأن بنك التنمية الشرق الأوسطي، أن المؤسسة الجديدة ستعمل على غرار المصرف التجاري، فتُقرض رأس المال الذي تحصل عليه من السعوديين واليابانيين والأوروبيين بفوائد السوق العالمية. وليست هناك حاجة بعد إلى مصرف تجاري آخر بما أن الائتمان متوافر في الأسواق العالمية. أراد الإسرائيليون بنك التنمية الشرق الأوسطي لأن لا وصول لهم إلى قروض البنك الدولي نظرًا إلى مدخول الفرد السنوي المرتفع لديهم (15 ألف دولار).

(116) الأردن: الغد قد وصل - الاستثمار البشري».

(117) اتُهم شبيلات بدعم مجموعة متمرّدة. وقضت التهمة بأنه أعار سيارته لعناصر ما يُسمّى «تنظيم النفير الإسلامي» الذين استخدموها لنقل الأسلحة. افتقر الادعاء إلى أي دليل حسي، فاستدعى في تشرين الأول/أكتوبر شاهدًا «سرِّيًا» للادلاء بشهادته؛ وقد أخفيت شخصية الرجل في المحكمة بلحية اصطناعية وشاربين وبكوفية وضعت على رأسه، وزعم أنه رجل أعمال سوري

وقد نقل شخصيًّا ما يعادل 200 ألف دولار من الماركات الألمانية من القصر الرئاسي في طهران إلى الأردن لتسليمها لشبيلات.

(118) والهدف كان توريط إيران بأنها وراء المؤامرة لإطاحة الهاشميين. انسحب محامو الدفاع احتجاجًا على هذه المسرحية الرخيصة، وشرع شبيلات في إضراب عن الطعام. وأتيحت لي الفرصة لمتابعة إجراءات المحاكمة كصحافية. وأعاد الشاهد «السري» لاحقًا، في بيان خطي مشفوع باليمين في ألمانيا، رواية تفصيلية كيف أن السلطات الأردنية أوقعت به وأجبرته على الإدلاء بشهادة زور. وحكمت المحكمة، من دون أي إشارة أخرى إلى الشاهد السري، على شبيلات بالإعدام وخفضت الحكم إلى عشرين سنة سجنًا مع الأشغال الشاقة. وبعدما أثارت المحاكمة برمتها فضيحة عالمية، تم أخيرًا العفو عن شبيلات بأمر من الملك حسين.

(119) إيغال أمير متطرف يهودي، على ارتباط بالصهاينة المسيحانيين، يعارض في قوة أوسلو أو أي اتفاق مع الفلسطينيين. وقد سجن ولا يزال في السجن.

(120) دُفع نتنياهو إلى السلطة من خلال الجهد الدولي المنظّم للرجل القوي أرييل شارون، القوة الدافعة وراء توسيع المستوطنات الإسرائيلية وتسليح المستوطنين. وتمتد حياة شارون السياسية إلى الوراء إلى سنوات 1970 عندما سمح، بصفة كونه وزيرًا للزراعة في حكومة مناحم بيغن، بمستوطنات جديدة في الضفة الغربية أدت إلى ارتفاع عدد المستوطنين من ثلاثة آلاف إلى 150 ألفًا على امتداد عشرين سنة. وقاد في 1982، وزيرًا للدفاع، الحملة لذبح الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا في لبنان. ورأى شارون ونتنياهو في اتفاقات أوسلو خيانة مطلقة وسلّحا المستوطنين لإنشاء «محيط دفاعي». وكان واحد من مثل هؤلاء المتطرفين، بنيامين (باروخ) غولدشتاين، من أطلق النار وقتل 50 فلسطينيًّا مسلمًا يصلّون في الحرم الإبراهيمي. وهو مكان صلاة مقدس لدى المسلمين واليهود في الخليل، وقد حصلت المجزرة في 25 شباط/فبراير 1994 خلال شهر رمضان المقدس. ولا يمكن تصوّر استفزاز صارخ أكثر من هذا. وكان أن رابين اغتيل بيد هذا المحيط الذي يضم مستوطنين متطرفين مسلحين في مناخ الحقد هذا الذي غذّاه نتنياهو وشارون ضده.

(121) فُرضت العقوبات على العراق في آب/أغسطس 1990 واستمرت خلال حرب 1991 وما بعدها إلى أن أعلن بوش النصر بعد حرب 2003. وهكذا يكون العراق تعرّض لثلاث عشرة سنة من العقوبات وحربين، في حين خُنقت غزّة في 18 شهرًا إلى أن بدأت الحرب. وكتب جيمي كارتر انتقادًا لاذعًا لحرب غزّة وروى كيف تمت عرقلة جهوده للتفاوض على وقف للنار. أنظر:

«.An Unnecessary War», Washington Post, January 8, 2009

(122) أفاد أحد الجرحى أن الجنود الإسرائيليين اقتحموا منزله ولم يجدوا شيئًا وأخضعوا عائلته للاستجواب. بعد ذلك بأيام عاد الجنود وأمروهم جميعهم بالمغادرة. «حملت والدتي وزوجتي وبناتي الثلاث أعلامًا بيضًا وهن يحاولن مغادرة المنزل.

(123) شاهدنا جنديين يخرجان من دبابتهما وسألناهما كيف يجب أن نغادر. وانتظرنا جوابهما وانتظرنا، لكننا لم نحصل على أي جواب. ثم، ولدهشتنا، خرج جندي ثالث وشرع في إطلاق النار في جنون على البنات الصغيرات». وكانت بناته في السابعة والثالثة والثانية. ولما حاولت إحدى سيارات الإسعاف المساعدة تعرّضت للقصف. هذه الرواية أذاعتها الجزيرة في 7 شباط/فبراير 2009.

(124) قال علماء النفس الذين درسوا تأثيرات العنف في أولاد غزة على مدى العقدين الماضيين، إن الصدمة قد ترافقهم مدى الحياة. ولا يمكن الأولاد الذين شاهدوا رفاق دراستهم يُقتلون بالرصاص والمنازل تُدمّر وبيوتهم تُقصف بالطيران أن يحرروا أنفسهم من التأثيرات. وقال الدكتور عبد العزيز موسى ثابت، وهو من روّاد طب نفس الأطفال في غزة، إنه يُقدّر أن 65 في المئة من صغار غزّة عانوا اضطراب ما بعد الصدمة. وقال إنهم قلقون، خائفون، ومتشوقون إلى الهرب. «يشعرون أن لا أمل لهم وأن العالم لا يستطيع شيئًا من أجلهم وأنهم لا يستطيعون شيئًا من أجل أنفسهم». وقد بلغ الأولاد الذين راقبهم في سنوات 1990 سن الرشد وأصبحوا «مقاتلين من أجل الحرية. وهو أمر حذّرتُ منه منذ 15 عامًا». وقال: «حذّرت من أن هؤلاء الأولاد المصدومين سيصبحون في غضون 15 عامًا أكثر عدائية، وسيريدون القتال، وسيصبحون أكثر عنفًا في داخل مجتمعهم». وأضاف: «وبالتالي سيكون لدينا الآن جيل آخر ذو سلوك أكثر عدائية... يرى الأولاد أهاليهم يُقتلون أمامهم، فما الذي تتوقعونه؟» (ذي إنترناشيونال نيوز، 8 كانون الثاني/يناير 2008). وأظهر تقويم شامل للصليب الاحمر أن الماء وأنظمة الصرف الصحي والوقاية الصحية لا تزال غير كافية، والاقتصاد يختنق والسكان في حال من اليأس.

International committee of the Red Cross, Gaza: 1.5 million people trapped in despair, 29.06.2009 Report.

(125) نشرت النيويورك تايمز في 11 كانون الثاني/يناير، والحرب لا تزال دائرة، مقالة تفصّل فيها طلب إسرائيل ورفض واشنطن السماح بقصف المعمل الإيراني في ناتانز. وذكر ديفيد إي. سانغر في المقالة أنه في أعقاب تقدير الاستخبارات الوطنية أواخر 2007 والذي جاء فيه أن إيران لا تملك برنامجًا للأسلحة النووية وأن إسرائيل طلبت من الولايات المتحدة قنابل لدكّ التحصينات والإذن بالتحليق فوق المجال العراقي ومعدات لإعادة تزوّد الوقود.

وبحسب المقالة «أقنع كبار مسؤولي الإدارة، بقيادة وزير الدفاع روبرت م. غايتس»، الرئيس بوش «بأن أي هجوم معلن على إيران ستثبت على الأرجح عدم فاعليته، ويؤدي إلى طرد المفتشين الدوليين ويدفع بجهود إيران النووية خارج مجال المراقبة». وذكر أن بوش وأعوانه «ناقشوا إمكان أن يؤدي هجوم جوي إلى اشعال حرب شرق أوسطية أوسع» ستنجر إليها القوات الأميركية في العراق. ونقلت المقالة عن متحدث باسم غايتس قوله إن وزير الدفاع أعلن قبل ذلك بأسبوع عن اعتقاده «أن ليس علينا أو على أي أحد آخر أن يسعى في الوقت الراهن إلى غارة محتملة على المنشآت الإيرانية». أنظر

A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm» .«,www.iasps.org/start1.htm

(126) نقل تلفزيون «برس تي في» ملاحظات الأمين العام لحزب اللَّه حسن نصراللَّه في 30 كانون الأول/ديسمبر: «ما يحدث في غزة اليوم ليس مشابهًا بل مطابق لما حدث في تموز/يوليو 2006». وحدد الهجمات على أنها جزء من سياسة أميركية - إسرائيلية لفرض إرادتهما على المنطقة. ودعا نصراللَّه الحكومات العربية إلى مساندة الغزاويين، وطالب خصوصًا بإعادة فتح المعبر الحدودي في رفح. وشدد في الوقت نفسه على أنه لا يدعو إلى تمرّد على الحكومة المصرية التي، كما هو معروف، أبقت المعبر مقفلاً. ودعا إلى استمرار المقاومة بدعم عربي، وسأل: «هل نريد تكرار مذابح شبيهة بدير ياسين؟» مشيرًا إلى الفظائع التي ارتكبها الصهاينة ضد المدنيين الفلسطينيين في 1948.

(127) ألّف فان كريفلد كتبًا كثيرة بينها. «التجهيز للحرب»، «القيادة في الحرب»، التكنولوجيا والحرب»، «تحويل الحرب»، و«فن الحرب». وحاجج في «ثقافة الحرب» بأن الحرب غاية في حد ذاتها. وفي تقرير أصدره الاتحاد الإسلامي في فلسطين في 29 كانون الثاني/يناير 2009، زعم فان كريفلد أن إسرائيل تمتلك رؤوسًا حربية تسمح لها باستهداف معظم العواصم الأوروبية. ودعا، في ما يتعلّق بالوضع الداخلي، إلى ترحيل الفلسطينيين. وعندما سئل هل لمثل هذا الأمر أن يُنزل العار بإسرائيل، أجاب فان كريفلد مستشهدا بموشي دايان: «على إسرائيل أن تكون كالكلب المسعور، أخطر من أن يتم إزعاجه».

Daniel Barenboim, Edward Said, Parallels and Paradoxes: (128) Explorations in Music and Society, Bloomsbury Publishing Plc, Great .Britain, 2004, pp. 113, 26

شرح بارنبويم أن مشكلة التوقيت هي في أن «العملية لم تسر على قدم المساواة مع المحتوى.... غير أن ذلك يتوازى بالنسبة إلي، في

(129) شكل مطلق، مع عزف الموسيقى حيث يحتاج المحتوى إلى سرعة معيّنة، وإذا عزفته بالسرعة الخاطئة - بعبارات أخرى بطيئًا جدًّا أو سريعًا جدًّا - فسيتهاوى العمل كلّه. وهذا ما حدث لاتفاق أوسلو»، ص59.

وكتب هرتزل لاحقًا، «أسست الدولة اليهودية في بازل».

Shabtai Teveth, Ben-Gurion: The Burning Ground 1886-1948, .Houghton Mifflin Company, Boston, 1987, p. 831

Howard Greenfeld, A Promise Fulfilled: Theodore Herzl, Chaim (130) Weizmann, David Ben-Gurion and the Creation of the State of Israel, .Harper Collins, New York, 2005, p. 110

Die Nakba, Begleitheft zur gleichnamigen Ausstellung, Flucht (131) chtlingskinderدund Vertreibung der Pal?stinenser 1948, Fl

.im Libanon, e. V., Pfullingen, 2008, p. 8

David Ben-Gurion, Recollections, MacDonald Unit 75 London, (132) 1970, pp. 71-72

لهذا المجلّد تاريخ فيه عناء. ففي سياق بحثي عن الناشر الذي يملك حقوق النشر وجدت أن دار النشر الأساسية في لندن لم تعد موجودة؛ وكذلك «كوفننت كومونيكيشنز كوربوريشن» في جنيف التي أصدرت طبعة 1970؛ وتوقفت كذلك دار الطابعة في بريطانيا «هازل واتسن أند فيني ليميتد» التي طبعت الكتاب عن العمل وكذلك الحال مع المؤسسة الأميركية «ذي وورلد بابليشينغ كومباني». ظهرت طبعة ألمانية في 1971 عن دار «س. فيشر- فيرلاغ»، لكنها أعادت في 1978 الحقوق إلى «ماكسويل كومونيكيشون كوربوريشن»، التي توقفت عن العمل مع وفاة ماكسويل. واستحال تحديد موقع المحرر واسمه توماس ر. برانستن. ويظهر اسمه على قائمة المتوقفين عن العمل في نقابة الكتّاب في أميركا. وقد نفدت كل الطبعات. وفي النهاية وفّر أرشيف بن غوريون في جامعة بن غوريون دليلًا حاسمًا، وأعني به رسالتين كتبهما بن غوريون في 1970 في شأن الكتاب. الأولى، مؤرخة في 9 كانون الأول/ديسمبر 1970، وموجهة إلى ناشر التايمز في لندن وقد كتب فيها)في إشارة إلى نشرتي ماكدونالد يونيت 75 وكوفننت كومونيكيشنز): هذا الكتاب ليس من وضعي، ولم يتم إعلامي بأنه سيوضع». وشرح بأن رجلًا من جنيف هو ميلفيل مارك زاره مرات عدة في منزله قائلًا إنه «يريد أن يضع قصة عن حياتي». تحدّثا ست ساعات وفي مناسبات مختلفة. ومضى بن غوريون يقول إنه «لم يتفوّه بأي كلمة عن نشر كتاب باسمي. وعندما شاهدت في الصحف أن كتابًا نُشر في إنكلترا لم أصدّق الأمر إلى أن تلقّيت نسخة منه».

وأعترف بن غوريون بأن «ذاك الكتاب يتضمن الكثير من الأمور التي قلتها للسيد ملفيل مارك، لكنه يتضمن الكثير من الاختراعات». وكتب في اليوم نفسه رسالة مماثلة، ولكن أكثر إيجازًا، إلى الكولونيل م. ديفيد سامبلز في نيويورك يقول فيها إن القصة نفسها تنطبق على طبعة أخرى تحت عنوان «مذكّرات».

وكتب برانستن في مقدمته أن الكتاب يستند إلى «مقابلات مع بن غوريون خلال تصوير انتاج كوفننت كومونيكشنز كوربوريشن» «42:6»، وهو ولا بد الفيلم الذي أشار إليه بن غوريون. وأخذ الفريق اللقطات في جلسات من ساعتين على مدى ثلاثة أيام. وبحسب موقع قاعدة بيانات الأفلام على الإنترنت، ظهر فيلم تحت عنوان 42:6 في 1970 بالعبرية من إنتاج ملفين مارك وإخراج ديفيد برلوف. وبحسب معرفتي فإن بن غوريون لم يقم بأي إجراءات قضائية ضد أي من الناشرين. وعلى رغم محاولاتي على مدى أشهر لم أعثر على مالك حقوق النشر الراهن.

(133) المصدر السابق، ص 70. لهذه الاعتبارات في شأن حدود الدولة أنظر

Michael Bar-Zohar, David Ben Gurion: 40 Jahre Israel. Die bbeدnders. Gustav LدBiographie des Staatsgr

Verlag, Bergische Gladbach 1988 (translation of English Ben-Gurion: .A Biography, Orion Publishing Group, 1991), p. 233

(134) المصدر السابق، ص 117. وكتب بن غوريون أيضًا أن «الممارسة أظهرت أن ما لا يمكن زراعته أو يعد العرب أنه لا تمكن زراعته قابل للزراعة وقام اليهود بزراعته». وأن «الهجرة واستيطان اليهود في فلسطين لم يكونا على حساب العرب. هذا واضح في ذاته، ولا توجد عمليًّا أي صناعة عربية والبحر شاغر برمّته».

David Ben-Gurion, The Test of Fulfillment: Can Zionism be Achieved? American Palestine Committee, 1942, (now in Ben-Gurion Archives, .Ben-Gurion University), pp. 5,9

.Ben-Gurion, Recollections, op. cit., p. 116 (135)

«لا تحتاج الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلى موافقة. فنحن نعود لأن ذلك حق لنا. فالتاريخ والقانون الدولي والحاجة الحيوية التي لا تُقاوم لشعب لا يُدمّر - هذه ثلاثتها كرّست فلسطين الموطن الحق للشعب اليهودي».

.Ben-Gurion, Test of Fulfillment, op. cit., p. 11 (136)

.Ben-Gurion, Recollections, pp. 166-167

.Die Nakba, op. cit., p. 28 (137)

Walid Khalidi, “Plan Dalet: Master Plan for the Conquest of (138) Palestine», reprinted with consent, Journal of Palestine Studies, Vol. XVIII, No. 1, Autumn 1988, pp. 3-70, Institute for Palestine Studies, Washington, D.C. See also Khalidi, Pal?stina Monographien 6: Das Pal?stinaproblem, Ursachen und entwicklung, 1897-1948, Verlag für .Zeitgeschichtliche Dokumentation, 1972

ونشر الخالدي كتابًا غاية في الأهمية هو

Before Their Diaspora, A Photographic History of the Pal estinians 1876-1948, Institute for Palestine Studies, Washington D.C., 1984

وهـو يـقـدّم مــادة ترفض مزاعم بن غوريون بأن فلسطين كانت أرضًا قفرًا. ويظهر تأريخ الخالدي، المزدان بالصور، أن فلسطين كانت، قبل الهجرة اليهودية، مجتمعًا زراعيًا واقتصاديًّا وصناعيًّا مزدهرًا.

Ilan Pappe, The Ethnic Cleansing of Palestine, OneWorld, (139) .Oxford, 2006

(140) إستنادًا إلى إعادة تركيب بابه للأحداث، ضمت المستشارية الأعضاء التالية أسماؤهم: «ديفيد بن غوريون، إيغال يادين (رئيس العمليات)، يوحنان راتنر (مستشار بن غوريون للشؤون الاستراتيجية)، إيغال آلون (رئيس البالماخ والجبهة الجنوبية)، إسحق ساده (رئيس الوحدات المدرعة)، إسرائيل غاليلي (رئيس القيادة العليا)، زفي أيالون (نائب غاليلي وقائد الجبهة الوسطى). والآخرون الذين ليسوا أعضاء في الـماكتال، القيادة العليا، هم يوسف فايتز (رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية)، إيسار هاريل (رئيس الإستخبارات) وجماعته: عزرا دانين، غاد ماكنيس، ويهوشع بالمون... وكانت تتم أيضًا، في شكل متقطع، دعوة بعض ضباط الميدان: دان إيفان (قائد الجبهة الساحلية)، موشي دايان، شمعون أفيدان، موشي كارمل (قائد الجبهة الشمالية)، شلومو شامير، وإسحق رابين». المصدر السابق ص267.

(141) كانت الإرغون (أو إتزل بالعبرية) بقيادة مناحم بيغن تركت الهاغاناه في 1931. وغادرت عصابة شتيرن (ليحي) الإرغون في 1940. وكانت هاتان المجموعتان، مع الهاغاناه، هي الوحدات التي ارتكبت المجازر إبّان النكبة. المصدر السابق، ص 45.

(142) كانت الإرغون (أو إتزل بالعبرية) بقيادة مناحم بيغن تركت الهاغاناه في 1931. وغادرت عصابة شتيرن (ليحي) الإرغون في 1940. وكانت هاتان المجموعتان، مع الهاغاناه، هي الوحدات التي ارتكبت المجازر إبّان النكبة. المصدر السابق، ص 19.

(143) المصدر نفسه.

(144) المصدر نفسه، ص 54.

(145) المصدر السابق، ص 57، 67، 75-77.

(146) المصدر السابق، ص 77.

(147) المصدر السابق، ص 68.

(148) Walid Khalidi, “Plan Dalet», op. cit., pp. 28-29.

(149) Pappe, op. cit., p. 82. نشر الخالدي أيضًا «أوامر العمليات للألوية»، والتي تعدد المهمات الموكلة إلى ستة من ألوية الـ»كيش» (القوة الميدانية) ولكن ليس إلى البالماخ أو الهاغاناه. المصدر السابق، ص 34-37.

(150) Ibid., p. 90. Bar-Zohar, op. cit., p. 221.

وكتب بار زوهار أن عملية ناخشون كانت مهمة جدًّا لبن غوريون بما أنها «المرة الأولى» يتدخّل في سياق النزاع ويتخذ قرارًا استراتيجيًّا سيثبت أنه ممتاز عسكريًّا وسياسيًّا. وسيجعل منه هذا قائدًا عسكريًّا.

(151) Bar-Zohar, ibid., pp. 222-223.

(152) Pappe, op. cit., pp. 95-96

(153) Pappe, op. cit., pp. 95-96.

(154) أسباب هرب 370 ألف فلسطيني، حتى 1 حزيران/يونيو 1948،

بحسب تقديرات أجهزة استخبارات الجيش الإسرائيلي،

Simha Flapan, Die Geburt Israels, Melzer Verlag GmbH, 2005, p. 130-131,

وقد أعيد تجميعها في جدول في

Die Nakba, op. cit., p. 12.

(155) على أثر الاغتيال، استدعى بن غوريون رئيس جهاز الأمن القومي وقائد الشرطة العسكرية وأمرهم بتوقيف جميع عناصر ليحي. كذلك اتُخذت

«إجراءات فاعلة» في حق الإرغون، وتم خلال ثلاثة أيام حل كل المجموعات السرّية. ولكن تم دمج كليهما لاحقًا بالكامل في الجيش.

.Bar-Zohar, op. cit., p. 261, 264

.Flapan, op. cit., pp. 291, 264 (156)

.Pappe, op. cit., pp. 212, 215 (157)

.Ibid., pp.221, 225-225 (158)

.Bar-Zohar, op. cit., p. 233 (159)

.Die Nakba, op. cit., p. 20 (160)

.Pappe, op. cit., p. 15 (161)

.(162) المرجع السابق، ص59-60

.(163) المرجع السابق، ص94

.Bar-Zohar, op. cit., p. 51 (164)

.Ibid., p. 53, Teveth, op. cit., pp. 70,87 (165)

ckkehr, Lebenserinnerungen aus derدRichard Lichtheim, R (166) hziet des deutschen Zionismus, Deutsche Verlags-Anstalt,دFr .Stuttgart, 1970, p. 300

ذُكر أن جمال باشا أبلغ بن زفي وبن غوريون بالبقاء خارج فلسطين لأنهما يريدان أقامة مملكة فيها.

The Armed Prophet: A في سيرة الحياة السابقة لبن غوريون (167) .Biography of Ben-Gurion, Arthur Baker Limited, London, p. 166-167

كتب بار زوهار أن بن غوريون غادر تركيا أواخر صيف 1915. وفي جزئه اللاحق، المصدر السابق ص 143، قال إن الرحيل حدث في وقت أبكر.

Yair Auron, The Banality of Indifference: Zionism & the (168) Armenian Genocide, Transaction Publishers, New Brunswick (U.S.A.) .and London (U.K.), 2000, p. 26

.(169) المرجع السابق، ص26

.Nikolay Hovhannisyan, op. cit., p. 40 (170)

(171) قدم بن غوريون في 8 أيلول/سبتمبر 1939 إيجازًا لأركان منظمته الهاغاناه عرض فيه الخطوط العريضة عن كيف أن الحرب ستوفّر السياق لإقامة الدولة اليهودية.

«جاءتنا الحرب العالمية الأولى بوعد بلفور. وعلينا في هذه أن نقيم الدولة اليهودية.... وعلى هدفنا... أن يقود كل تحركاتنا من الآن وصاعدًا ويوجهها... وعليه أن يحرك أحيانًا وجودنا بالذات، وسلوكنا، وجهودنا، ومواقفنا من الحكومة... والشرط الأول للدولة اليهودية هو في انشاء جيش يهودي، ويكون فوق كل شيء في فلسطين ومن أجل فلسطين. علينا إقامة وحدات عسكرية يهودية، وفيالق يهودية حيث أمكننا في كل بلد... إن فلسطين تشكّل جوهر قوتنا ومن شأن نوع الجيش اليهودي المناسب في فلسطين أن يقرر مصير فلسطين، مصير الدولة اليهودية... الإمكانات متوافرة لإقامة دولة يهودية في المستقبل القريب، قبل نهاية الحرب. ومن الواضح أننا لن نفعل ما من شأنه الآن أن يسيء أكثر إلى علاقاتنا مع الحكومة... لكن هذا لا يعني أن نقف مكتوفين إلى أن نحصل على الإذن الرسمي بإنشاء جيش».

.Teveth, op. cit., pp. 182-186

.Landau, op. cit., pp. 182-186 (172)

Culture and Imperialiswm, 1993 by Edward W. Said. Used by (173) permission of Alfred A. Knopf, a division of Random House Inc, New .York, pp. 31-32

إذا عرفت مسبقًا أن التجربة الأفريقية أو الإيرانية أو الصينية أو اليهودية أو الجرمانية هي في الأساس متكاملة، متماسكة، متميّزة، وهي بالتالي غير مفهومة إلا من الأفارقة والإيرانيين والصينيين واليهود أو الألمان، فإنك تطرح بادئ ذي بدء أمرًا أعتقدُ أنه في الوقت نفسه من انتاج التاريخ ونتيجة للتفسير - أي وجود الأفريقانية واليهودية أو الجرمانية، أو في هذه الحال الاستشراق والتغريب. ومن المرجّح، ثانيًا، أن تعمد، نتيجة ذلك، إلى الدفاع عن الجوهر أو التجربة نفسها بدلًا من التشجيع على الاطلاع الكامل عليها وتشابكاتها واعتمادها على المعرفة الأخرى. وستعمد، نتيجة ذلك، إلى الحط من تجربة الآخرين المختلفة إلى مرتبة أدنى».

Colonial Rule in India, (174) .India_resource.tripod.com/britishedu.htm

.Said, op. cit., p. 9 (175)

(176) رأى ميل في ممتلكات بريطانيا في ما وراء البحار «عقارات بعيدة زراعية أو صناعية» بدلًا من بلدان تمتلك قاعدتها الإنتاجية الخاصة بها. وهي ليست إلا مجرّد أماكن مناسبة للإنتاج البريطاني.

(177) Bigelow & B. Peterson, Rethinking Globalization: Teaching for justice in an Unjust world, Milwaukee, WI, 2002, p. 44.

(178) أنشأ سيدني وبياتريس ويب في 1902 مجموعة «كو-إفيشنتس» Co-efficients. وضمت المجموعة بين أعضائها البارزين ليوبولد ستينّت، آمري لورد، روبرت سيسيل، السير كلينتون إدوارد داكينز، السير إدوارد غراي، اللورد (ريتشارد بوردون) هالدين، هالفورد جون ماكيندر، ليو ماكس، اللورد (ألفرد) ميلنر، هنري نيوبولت، برتراند راسل، و هـ. ج. وللز. ودعي شكل آخر من أشكال المجموعة «كليفدون ست» Clivedon Set، وقد أسسها وليام أستور وفيليب كر (أصبح لاحقاً اللورد لوثيان).

Brian W. Blouet, Halford Mackinder: A Biography, Texas A&M University Press, 1987, pp. 117 ff. Carol White, The New Dark Ages Conspiracy, The New Benjamin Franklin House, New York, 1980, Chapter One, and pp. 138 ff.

(179) John E. Kendle, The round Table Movement and Imperial Union, Toronto, University of Toronto Press, 1975, p. 6. White, op. cit., p. 26.

(180) Neil Bates, Cecil Rhodes, Wayland Publishers Limited, 1976, p. 25.

(181) ما بين 1649 و1660، زاد البريطانيون سريعًا على أسطولهم ما يصل إلى أكثر من 200 سفينة جديدة. ففي عهد تشارلز الأول كان يتم بناء سفينة واحدة إلى اثنتين في السنة، لكن العدد أصبح 22 في ظل كرومويل، في 1654!

D. Dr. Karl Völker, Die religiöse Wurzel des englischen Imperialismus, Tübingen, J.C.B. Mohr, 1924, pp. 21-22.

(182) سيتوسع المزيد من السيطرة الأمبريالية إلى قبرص وكولومبو وسنغافورة وكيب تاون والباهاماس وجامايكا وبيليز - وكلها مواقع استراتيجية في سعي بريطانيا إلى السيطرة على المحيطات.

Dr. Felix Salomon, Der britsche Imperialismus, Leipzig und Berlin, 1916, pp. 200-201.

Reprinted in The Geographical Journal, Klaus Dodds and (183) James D, Sideaway, Editors, “Special Issue: Halford Mackinder and the Geographical Pivot of History,» Volume 170, Part 4, December 2004, pp. 431, 434, 436, reproduced with permission of the Royal .Geographical Society (with IBG)

كان ماكيندر واضحًا جدًّا في شأن التهديد الذي يمثله تطوير خطوط السكة الحديد الروسية: «للسكك الحديد الروسية مجال مفتوح على مدى ستة آلاف ميل من فيربالن في الغرب إلى فلاديفوستوك في الشرق. ويشكّل وجود الجيش الروسي في منشوريا دليلًا ذا مغزى إلى حركة القوة البرّية، على غرار ما كان الجيش البريطاني في جنوب أفريقيا قوة بحرية. صحيح أن خط السكة الحديد الترانسيبيري لا يزال خطًّا وحيدًا وغير ثابت للمواصلات ولكن لن يمر على القرن وقت طويل قبل أن تصبح آسيا كلها مغطاة بالسكك الحديد. فالمساحات بين الأمبراطورية الروسية ومنغوليا شاسعة جدًّا، وإمكاناتها الكبيرة بالنسبة إلى السكان والقمح والقطن والفيول والمعادن لا تُحصى، بحيث أن من المحتّم أن يتطوّر هناك عالم اقتصادي، منعزل إلى حد ما، وسيكون غير قادر على الوصول إلى التجارة في المحيطات»، ص 434. وراودت الإنكليز شكوك مشابهة حيال مشاريع السكك الحديد الألمانية الطموحة، وبخاصة خط برلين - بغداد.

.See above, Part One Chapter Two, not 34

.Blouet, op. cit., p. 118 (184)

دوّن آمري وماكيندر ملاحظات تم الاحتفاظ بها كمحاضر للاجتماعات، وهي المتوافرة في أوراق هـ. ج. وللز في جامعة إيلينويز.

.White, op. cit., p. 4 (185)

أعاد وايت بناء النقاشات مستقيًا من روايات متعددة من مشاركين كثر.

.White, op. cit., p. 6-7 (186)

Sir Halford J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality: A (187) Study in the Politics of Reconstruction, Henry Holt and Company, Inc., 1919k reprinted by the National Defense University Press, pp. 1-.2

أبلغني الناشر الذي يملك الحقوق في الوقت الراهن،

Constable & Robinson Ltd

أنه لم يتمكن من تقفّي أثر حامل حقوق النشر الفعلي واقترح أن أصدر تنصلًا من المسؤولية في هذا الشأن، وهو ما أقوم به طيّه.

(188) المرجع السابق، ص55.

(189) المرجع السابق، ص45. جزيرة العالم والمعقل يشكّلان آخر الحقائق الجغراسية في ما يتعلّق بالقوة البحرية والقوة البرية و... أوروبا الشرقية هي في الأساس جزء من المعقل»، ص 99. وشكّلت سيطرة ألمانيا و/أو روسيا على جزيرة العالم كابوسًا لماكيندر. «ماذا لو أصبحت القارة العظمى، وجزيرة العالم كله أو جزء كبير منها، في مستقبل قريب، قاعدة واحدة وموحّدة للقوة البحرية؟» ماذا بالتأكيد. المرجع السابق، ص49.

(190) جنرال روماني ظافر المدينة، وسط أبهة النصر التي تدير الرؤوس، كان وراءه في إحدى العربات عبد همس في أذنه أنه فان. وعندما يتحاور رجال دولتنا مع العدو المهزوم فإن على ملاك في الجو أن يهمس إليهم، من وقتٍ إلى آخر، بهذا القول» ثم الأهزوجة. ص 106. وامتلك ماكيندر أيضًا إدراكًا واضحًا كيف أن في إمكان الدول الأصغر أن تتوحد في فديرالية، أو تتحالف بحيث توفّر عوازل أمام التهديدات الكبرى للقارة. ورأى أن «من الضروري وجود دول مستقلة ثالثة بين ألمانيا وروسيا». ص 111-112.

(191) Cecil Rhodes, Last Will and Testament, (1902), en.wikiquote.org/wiki/Cecil Rhodes.

إخـتـار رودس، في نسخته السادسة والأخيرة، «المنح الدراسية الاستعمارية» بصفة كونها الوسيلة لتسويق «وحدة الشعوب المتحدثة باللغة الإنكليزية في كل أنحاء العالم». ورأى أن تعليم المستعمِرين الشبان مهم «ليغرس في أذهانهم ميّزة المستعمرات ولتحتفظ المملكة المتحدة أيضًا بوحدة الأمبراطورية». مأخوذ من

The last will and Testament of Cecil John Rhodes: with elucidatory» notes to which are added some chapters describing the political and religious ideas of the testator,» 1902 www.archive.org/details/lastwilltestamen00rhodiala.

وشدد ماكيندر أيضًا على دور القدس التاريخي بصفة كونها مركز الأرض Democratic Ideals and Reality, op. cit., p. 65. استعمر رودس اقسامًا كبيرة من افريقيا، وطور حقول كمبرلي للألماس، وامتلك صحفًا وشركة لخطوط السكة الحديد والتلغراف. وذُكر أن لدى تناوله العشاء في 1894 مع الملكة فيكتوريا في قصر ويندسور، تبادل الاثنان الحديث التالي: الملكة فيكتوريا: «ما الذي كنت تفعله منذ المرة الأخيرة التي التقيتك بها أيها السيد

رودس؟» رودس: «لقد أضفت مقاطعتين إلى الأراضي الخاضعة لصاحبة الجلالة».

.Neil Bates, op. cit., p. 65

(192) أسست شركة النفط الأنكلو-فارسية في 1908، واستوعبت الامتياز الذي حصل عليه وليام نوكس دارسي من الشاه في 1901. Stephen Kinzer, All the Shahs Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror, John Wiley & Sons, Inc., New Jersey, 2003, Chapter 4.

(193) Leonard Stein, The Balfour Declaration, London, Vallentine-Mitchell, 1961, pp. 5-6.

شكّل هذا الانشغال البريطاني في وأد الدور الفرنسي نزعة تكرر ظهورها في كل العملية المؤدية إلى إنشاء إسرائيل. وعلى ما يوثّقه ستين في دراسته المعمّقة، فإن وثائق الحكومة البريطانية شددت على الحاجة إلى منع فرنسا من السيطرة على حيفا أو الإسكندرون الأمر الذي قد يشكّل تهديدًا للنشاط البحري البريطاني (ص 53)، ولصد أي محاولات فرنسية لضم فلسطين لأنها قريبة في شكل خطر من قناة السويس (ص109)، وعلى ما قد يمكن للويد جورج قوله، ضمان السيطرة البريطانية على الأماكن المقدسة خشية أن تستولي فرنسا «للأدرية، الملحدة» عليها (ص 111). وأعلن للويد جورج، في ربيع 1917، للورد برتي أن على فرنسا «أن تقبل بوصايتنا؛ سنصل إلى هناك عبر الغزو وسنبقى هناك». (ص 145).

(194) المرجع نفسه، ص10.

(195) أسست الملكة فيكتوريا صندوق استكشاف فلسطين في 1865 وقد كُرّس لمسح الأراضي المقدسة، وتسويق الاستيطان اليهودي فيها، وفي مآل الأمر إعادة بناء هيكل سليمان.

(196) Statement on Belief, The British Israel World Federation,» adopted by the Covenant Peoples World Council, London, 1965, as reprinted by O. Michael Friedman, Origins of the British Israelites: The Lost Tribes, The Edward Mellen Press, San Francisco, 1993, Appendix A, p. 133.

(197) Statement of the Anglo-Israelite Creed,» from the “Anglo-Saxon Federation of America,» Biblical Truth for Bereans, Appendix B, Friedman, ibid., Appendix B, pp. 138-141.

(198) المرجع نفسه، ص139.

(199) Volker, op. cit., p. 16.

قال كروميل لبرلمانه إن اللَّه اختار الشعب الإنكليزي لتنفيذ مهمته. وقد ترجمت هذه الطوائف فكرة العهد القديم إلى نسخة بروتستانتية أصبح الشعب البريطاني وفقًا لها الشعب المختار. وكان التماهي مع اليهود بصفة كونهم شعب اللّه المختار مباشرًا. وكان كروميل هو الذي رفع حظر الذي فُرض في القرن الثالث عشر على اليهود في عهد الملك إدوارد الأول. فقد وصل حاخام اسمه منسّى في 1655 إلى لندن وقام في نجاح باللوبي لتغيير القانون والسماح لليهود بالعودة إلى إنكلترا. ومن المرجح جدًّا، في نظر الحاخام، أن كروميل متحدر من داود نفسه. ويُقرّ له بإعادة اليهود إلى إنكلترا؛ ويمكن أن يُتوقّع منه بعد ذلك أن يعيدهم إلى الأراضي المقدسة.

Wolfgang Michael, Cromwell, Berlin, Ernst Hofmann & Co., 1907, pp. 94-96.

(200) استقت واحدة من مثل هذه الكنائس الإلهام من جون نلسون داربي مؤسس «الفتوى الإلهية السابقة للألفية» premillennial dispensationism التي تقول إن المسيح سيعود، واليهود سيعيدون بناء الهيكل ونهايـة الأزمنة ستأتـي. هـذا هـو محتوى عمله، «آمـال كنيسة اللّه بالارتباط مع قدر اليهود والأمم كما أوحت به النبوءة».

(201) Webster Griffin Tarpley and Anton Chaitkin, George Bush: The Unauthorized Biography, Progressive Press, Joshua Tree California, 2004, Chapter Two.

(202) Diana Mosley, A Life of Contrasts, Hamish Hamilton, London, 1978, p. 127.

(203) Nicholson Baker, Human Smoke: The Beginnings of World War II and the End of Civilization, Simon & Schuster UK Ltd, 2008,

وهو يوفّر توثيقًا، يعتمد في شكل كبير على المقالات الصحافية، للمواقف البريطانية من ألمانيا النازية والحرب.

(204) Mackinder, Democratic Ideals and Reality, op. cit., pp. 15, 89, 99.

(205) White, op. cit., pp. 207-217.

Martin Buber, “Das Ende der deutch-jüdischen Symbiose, in (206) Deutschtum und Judentum: Ein Disput unter Juden aus .Deustschland, Philipp recalm jun. Stuttgart, 1993, pp. 150-153

وكتب برنت انغلمن

Bernt Engelmann, Deutschland Ohne Juden: Ein bilanz, Steidl “ Verlag, 1998, p. 51

كلا، فإن يهود بروسيا الشرقية، هامبورغ، الغابة السوداء أو بوهيميا، سكان منطقة الراين ذوي الخلفيات اليهودية مثل كارل ماركس، هنريتش هاين، جاك أوفنباخ أو أيضًا كارل زوكماير، البرلينيين من أمثال ماركس ليبرمان، كورت توشولسكي، والتر راتينو أو نيللي ساخس، ويهود فيينا أمثال ستيفن زفيغ، أرتور شنيتزلر، هوغو فون فوفمانستال أو سيغموند فرويد - ومعهم جميع يهود العالم الذي يتحدّث الألمانية، لم يشكّلوا قبيلة خاصة أو مجموعة مثل السوابيين أو الرنج أو الفريزيين؛ وحتى لو سرت في عروقهم نقطتان إضافيتان غير نموذجيتين، سفردية أو كازار، فإنهم مع ذلك مجرّد بروسيين شرقيين نموذجيين، وسيليزيين، وبوميرانيين، وهامبورغيين أو فيينيين على غرار غالبية جيرانهم المسيحيين».

.Tapley and Chaitkin, op. cit., Chapter Three (207)

.Engelmann, op. cit., p. 74 (208)

(209) وُضع حظر على 22 من أصل 86 من كبار الممثلين المسرحيين والسينمائيين اليهود في الوسط المسرحي البرليني السابق للحرب، أي ما يعادل ربع عددهم. وفي القطاع السينمائي، استُبعد 40 في المئة من الممثلين والممثلات، ونصف المنتجين والمخرجين، من العمل بسبب القوانين العرقية. Engelmann, op. cit., pp. 81-87. وكذلك الأمر في حقول أخرى سواء في الأدب أو الموسيقى أو العلوم.

(210) وافقت قمة الجامعة العربية في بيروت على خطة السلام العربية في 2002 التي اقترحها ولي العهد السعودي آنذاك سمو الأمير عبداللّه بن عبد العزيز. وقد دعت إلى انسحاب إسرائيل التام من الأراضي التي احتلتها في حزيران/يونيو 1967، وإلى تطبيق قراري مجلس الأمن 242 و338، وإنشاء دولة فلسطينية ضمن حدود 1967 تكون القدس الشرقية عاصمة لها، وفي المقابل إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع الدول العربية. وما نتج عن ذلك من خارطة طريق كناية عن وثيقة قدمتها الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وروسيا - ما يسمى باللجنة الرباعية. وهي تؤيد خطة السلام العربية، لكنها حوّلت التركيز إلى ضمان أمن إسرائيل؛ فعلى الفلسطينيين

الكف عن أي عمليات ارهابية، وإنشاء مؤسسات ديمقراطية، وإجراء انتخابات حرة ونزيهة، الخ. والاعتراف بإسرائيل. ودعيت إسرائيل إلى تفكيك المستوطنات المقامة منذ آذار/مارس 2001 وتجميد أي نشاط استيطاني آخر بما في ذلك ما يتعلّق بـ«النمو الطبيعي»، ومن ثم الانتقال إلى التفاوض على التسوية النهائية التي تتم فيها تسوية المسائل الحاسمة: الدولة الفلسطينية، الحدود، القدس، المستوطنات، اللاجئين، الخ. وتوقّعت خارطة الطريق إنجاز العملية بحلول 2005. وغني عن القول إن هذا لم يحدث. وتجب الإشارة، إضافة إلى ذلك، إلى أن كل البنود الجديرة بالثناء في الوثيقتين كلتيهما، تم التأمّل فيها في اتفاقات أوسلو في 1993. فلم تكن المشكلة، وهي ليست في الشكل بل في التطبيق، ويتوقّف ذلك على الإرادة السياسية.

(211) Daniel Barenbiom, “KlangistLeben»: Die Macht der Musik, 2008 Wolf Jobst Siedler Verlag, Mدnchen, in der Verlagsgruppe Random House GmbH, Uebersetzung Micahel Mueller, p. 70

توجد إحدى السوابق: فقد نظم الكاهن الكاثوليكي الفرنسي الأب شارل ميران. أول برنامج للتبادل قام بموجبه شبان ألمان بزيارة فرنسا في الستينات، وشكل ذلك مساهمة حاسمة في المصالحة الألمانية - الفرنسية. فقد قتل النازيون شقيقه في شكل وحشي، لكنه قرر «الرد على الشر بالخير»، وتكريس نفسه للمصالحة بين خصمي الحرب العالمية الثانية. أنظر

Elisabeth Hellenbroich, «Bundesverdienstkreuz f r AbbCharles Mإrand -einer der ersten wegbereiter des deutsch-franz?sischen Jugendaustauschs,» 11 June 2009, www.solon-line.de.

(212) Daniel Barenboim and Edward Said, Parallels and Paradoxes: Explorations in Music and Society, Bloomsbury, Great Britain, 2004, p. 10.

(213) المرجع نفسه، ص10.

(214) Barenboim, op. cit., p.72.

(215) المرجع نفسه، ص72.

(216) Barenboim and Said, op. cit., p. 8.

(217) المرجع نفسه، ص8-9.

(218) Barenboim and Said, op. cit., p. 9-10.

(219) كانت العراقيل هائلة، وسُمح فحسب للموسيقيين المصرين والأردنيين، وهما البلدان اللذان يقيمان معاهدة سلام مع إسرائيل، بدخول رام اللّه عبر إسرائيل. أصدرت الحكومة الاسبانية جوازات سفر دبلوماسية للجميع لتسهيل دخولهم. طار العرب من إسبانيا إلى عمّان وتوجهوا من هناك إلى رام اللّه. ونُقل الإسرائيليون من القدس بآليات أمن دبلوماسية ألمانية.

.Die Zeit, 25.08.2005, Nr. 35

.Barenboim, op. cit., p. 80 (220)

.Barenboim, op. cit., p. 128 (221)

(222) المرجع نفسه، ص94.

(223) المرجع السابق، ص157. وما له مغزى أن المناسبة التي استشهد فيها بارنبويم بإعلان استقلال إسرائيل كانت لدى استلامه جائزة وولف في الكنيست في القدس في أيار/مايو 2004.

Pappe, op. cit. See also tom Segev, 1948: The First Israelis, (224) .Free Press, Macmillan, Inc., 1986

وقد نُشر المؤلفان حديثًا بالألمانية.

(225) نظّمت ذُخروت، التي أسست في 2002، جولات على المناطق الفلسطينية التي دُمّرت في 1948، ونشرت وثائق عن التاريخ الحقيقي للمدن. والمجموعة مقتنعة بأن رفع المحرّمات عن النكبة شرط مسبق للسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

رس المحتويات

عن الكتاب..

إهداءٌ خاص

المؤلفة..

شُكر

المقدّمة

عبر جدار النار

القسم الأول: أرمينيا

الخسارة

شهود من بعيد

الحديث مع الشيطان

الخروج

تمزّق بين الدولة القديمة والجديدة(28)

إذا لم يكن الأتراك، فمن إذًا؟

«الأتراك جميعهم جيش واحد»

بريطانيا «حليفة» تركيا

التحدّي الذي تفرضه المصالحة

لكن كيف يمكن تجاوز ألم الماضي؟

القسم الثاني: العراق

مولودون في بلاد ما بين النهرين

إلى بغداد

كسر التعتيم

العودة على الطريقة العراقية

أبرياء ووطنيون

الجميع رجال صدّام

صوت الانتقام

طيروا على الخطوط الجوية العراقية!

الخطوط الجوية العراقية تطير عن طريق السويد

التحضير لـ «حرّية العراق»

أوهام الهيمنة العالمية

القسم الثالث: فلسطين

خيانة أوسلو

مسخرة الإنماء الشرق الأوسطي

الأردن تحت وابل من الانتقاد

معركة غزّة
بداية جديدة، أيضًا
ضياع فلسطين
الفنانان
هل عادت من ثم إلى منزلها في يافا؟
الناشط السياسي
النكبة
وماذا عن البريطانيين؟
فرضية جريئة
الذهن الجغراسي
الأراضي المقدسة
بريطانيا هي إسرائيل
حرب عالمية ثانية
الحرب الثقافية البريطانية
تأليف ألحان السلام
ولكن كيف؟
خاتمة

هوامش الكتاب..